نوبل للآداب
2015

سفيتلانا أليكسييفيتش

فتيان الزنك



ترجمة: عبدالله حبه

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

فتيان الزنك

دار ممـــدوح عدوان للنشر والتوزيع

فتيان الزنك

Цинковые мальчики

تأليف: سفيتلانا أليكسييفيتش

Светлана Алексиевич

ترجمة: عبد الله حبه

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 09 - 8

الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH   fb.com /Adwan.Publishing.House

سفيتلانا أليكسييفيتش

فتيان الزنك

ترجمة:
عبد الله حبه

المحتويات

في العشرين من يناير عام 1801 صدر الأمر إلى فاسيلي أورلوف قائد القوزاق بالزحف إلى الهند. وحدد شهراً واحداً من أجل الوصول إلى أورنبورغ، ويتم منها التحرك ثلاثة أشهر "عبر بخارى وحيوى إلى نهر الإندوس". وسرعان ما عبر ثلاثون ألف قوزاقي نهر الفولغا وتعمَّقوا في البراري الكازاخية...

(في الصراع على السلطة. صفحات من تاريخ روسيا السياسي في القرن السابع عشر. موسكو، دار الفكر للنشر، 1988، ص 475)

في ديسمبر عام 1979 اتَّخذت القيادة السوفيتية قراراً بإرسال القوَّات إلى أفغانستان. وتواصلت الحرب من 1979 وحتى 1989، أي أنها استمرَّت تسعة أعوام وشهراً واحداً وتسعة عشر يوماً. وحارب في أفغانستان أكثر من نصف مليون مقاتل من مجموعة القوَّات السوفيتية المحدودة. وبلغت الخسائر الإجمالية للقوَّات المسلَّحة السوفيتية / 15051/ رجلاً. ووقع في الأسر / 417/ عسكرياً. وبحلول عام 2000 بلغ عدد غير العائدين من الأسر والمفقودين / 287/ شخصاً.

(بوليت. رو، 19 نوفمبر 2003)

توطئة

أنا أسير وحيدة... الآن يتعيَّن عليَّ السير وحيدة لفترة طويلة...

لقد قتل ابني رجلاً.. بطبر[1] المطبخ، بينما كنت أفرم اللحم هناك من أجله.

لقد عاد من الحرب وارتكب جريمة القتل هنا... جاء وأعاد الطبر إلى مكانه في الدولاب حيث أحتفظ بالأواني. أظن أنني في ذلك اليوم أعددت له كستليتة... وبعد فترة أذاعوا من التلفزيون ونشروا في الصحيفة المسائية أن الصيَّادين انتشلوا من بحيرة المدينة جثَّة... مقطَّعة الأوصال... وهتفت لي صديقتي قائلة:

- «هل قرأت؟ جريمة قتل ارتكبها محترف... بالأسلوب الأفغاني...».

كان ابني في البيت راقداً على الديوان ويطالع كتاباً. لم أكن أعرف شيئاً عن الأمر، ولم تساورني التكهُّنات، لكنني لسببٍ ما نظرت إليه بعد تلك الكلمات... إنه قلب الأم...

هل سمعتم نباح الكلاب؟ لا؟ إنني أسمعه حالما أبدأ بالحديث عن ذلك، أنا أسمع نباح الكلاب، وكيف تهرول... هناك في السجن، حيث يُحتجز ابني الآن، كلاب بوليسية سوداء كبيرة. وجميع الأفراد هناك يرتدون البزَّات السود فقط. عندما عدت إلى مينسك، وحين كنت أمشي في الشارع بمحاذاة محل بيع الخبز وبيدي قطعة خبز والحليب كنت أسمع أيضاً نباح

1- نوع من السكاكين.

الكلاب ذاك، نباحاً يصم الآذان. سأصاب بالصمم بسببه... وكدت مرَّة أن أقع تحت عجلات سيَّارة بسبب ذلك...

أنا مستعدَّة للذهاب إلى قبر ابني، ومستعدَّة للرقاد إلى جانبه. لكنني لا أعرف... لا أعرف كيف أحيا مع هذا كله. وأحياناً أشعر بالخوف من دخول المطبخ، ورؤية ذلك الدولاب الذي يوجد فيه الطبر... هل تسمعون؟ ألا تسمعون شيئاً... لا؟

أنا الآن لا أعرف حال ابني، وكيف سألقاه بعد خمسة عشر عاماً. لقد صدر الحكم عليه بالحبس الشديد لمدة خمسة عشر عاماً. كيف ربَّيته؟ كان مولعاً بالرقص الكلاسيكي، وسافرت معه إلى لينينغراد لزيارة متحف الأرميتاج. وكنا نطالع الكتب سوية... (تبكي) لقد سلبْتني أفغانستان ولدي...

تلقَّينا من طشقند برقيَّة: استقبلوني، بالطائرة كذا... وهُرعت إلى الشرفة، وأردت أن أصرخ بأعلى صوتي: «إنه حيٌّ يُرزق! ابني عاد حيَّاً من أفغانستان! لقد انتهت الحرب الرهيبة بالنسبة إليَّ!» وأُغمي عليَّ. طبعاً تأخَّرنا في الوصول إلى المطار، كانت الطائرة قد وصلت منذ وقت بعيد، ووجدنا ابني في الساحة. كان مستلقياً على الأرض ويمسك العشب بقبضته ويعجب لكونها خضراء. لم يصدق أنه عاد... لكن لم ترتسم على وجهه علائم البهجة.

في المساء جاء إلينا الجيران ومعهم صبيَّة صغيرة، ربط رأسها بشريط أزرق زاهٍ. وأجلسها في أحضانه، ثم صار يعانقها ويبكي، والدموع تنهمر وتنهمر مدراراً من عينيه. لأنهم كانوا هناك يقتلون. وهو أيضاً... وقد أدركتُ ذلك لاحقاً.

صادر رجال الجمارك على الحدود ملابس داخلية مستوردة أميركية جاء بها. وقالوا: هذا غير جائز... ولهذا جاء إلينا بلا ملابس داخلية. كما جلب لي هديَّة هي رداء -كنت قد بلغت آنذاك سنَّ الأربعين- وصادروا الرداء، وصادروا أيضاً الوشاح الذي جلبه إلى جدتي. جاء فقط حاملاً الزهور؛ زنابق "سيف الغراب". ولم تبدُ على سحنته ملامح البهجة.

في الصباح ينهض عادة بحالة طبيعية ويقول: «مامكا! مامكا!». لكن مع حلول المساء يتجهَّم وجهه، وتصبح عيناه ثقيلتين. أنا عاجزة عن الوصف... في البداية لم يشرب قطرة خمر واحدة، وكان يجلس ويتطلَّع إلى الجدار... وفجأة ينهض من الكرسي، ويتناول المعطف...

وكنت أقف عند الباب وأسأله:

- «إلى أين، فاليوشا؟».

بيد أنه لم يكن يراني، بل يتطلَّع إلى الفراغ. ويخرج.

عندما أعود من العمل في وقت متأخِّر، فالمصنع بعيد وأنا أعمل في النوبة الثانية، أدقُّ جرس الباب، لكنه لا يفتح. لم يكن يتعرَّف على صوتي. هذا شيء غريب، حسناً، دعه لا يتعرَّف على أصوات الأصدقاء، ولكن ليس صوتي! ناهيك عن قولي له «فاليوشا»، كنت أنا فقط أدعوه بهذا الاسم. بدا وكأنه ينتظر دائماً أحداً ما؛ يخشاه، ويداه فيهما آثار جروح.

- «ما هذا؟».

* «إنه جرح خفيف، مامكا».

وفيما بعد، علمتُ بعد المحاكمة أنه قطع شرايينه في أثناء التدريبات العسكرية. كان في أثناء التدريبات يقوم بمهمَّة جندي الإرسال اللاسلكي، لم يتسنَّ له وضع جهاز اللاسلكي فوق شجرة، ولم ينفِّذ ذلك في الفترة الزمنية المطلوبة، فأرغمه الرقيب على أن يستخرج من المرحاض خمسين دلواً والمرور بها أمام صف زملائه. فبدأ بحملها وأُصيب بالإغماء. وفي المستشفى كان التشخيص أنه مصاب باضطراب نفسي خفيف. وآنذاك حاول ليلاً قطع شرايين يديه. في المرَّة الثانية في أفغانستان... جرى فحص جهاز اللاسلكي قبيل التوجُّه في غارة فتبيَّن أنه مُعطَّل، وفُقِدت بعض الأجزاء النادرة غير المتوفِّرة، وقد انتزعها أحدهم... من؟ واتهمه الآمر بالجبن، وبأنه أخفى الأجزاء بغية عدم مرافقة الجميع. هناك كانوا يسرقون حاجيات بعضهم البعض، وكانوا ينتزعون القطع الاحتياطية من السيَّارات ويحملونها إلى

الدكاكين لبيعها. وكانوا يشترون المخدِّرات، المخدِّرات والسجائر. وكانوا يعانون من الجوع دوماً.

وبثَّ التلفزيون برنامجاً حول المغنِّية إديث بياف، وقد شاهدناه سوية.

سألني: «ماما هل تعرفين ما هي المخدِّرات؟».

فأجبته كاذبة: «لا»، إذ كنت أراقبه لمعرفة ماذا إذا كان يدخِّنها.

لم توجد أية آثار. لكنهم كانوا في أفغانستان يتعاطون المخدِّرات، أنا أعرف ذلك.

وسألته مرَّة: كيف الأوضاع في أفغانستان؟

- «ماماكا، اسكتي!».

عندما كان يغادر البيت كنت أعيد قراءة رسائله من أفغانستان، وأردت استكشاف دخيلته وفهم ما يحدث له. لم أجد فيها أي شيء يستحقُّ الذكر، فقد طلب في إحداها أن تُصوِّر الجدَّة على الثلج وأن ترسل صورتها إليه. لكنني كنت أرى وأحسُّ أن أمراً ما يحدث له. لقد أعادوا إليَّ شخصاً آخر، وليس ولدي. لقد أُرسلته بنفسي إلى الجيش، بالرغم من أن موعد الخدمة قد أُجِّل بالنسبة إليه. لقد أردت أن يصبح رجلاً جريئاً وجسوراً. وكنت أقنعه وأقنع نفسي بأن الجيش سيجعله أفضل وأقوى جسداً وروحاً. أرسلته إلى أفغانستان مع الجيتار، وأقمتُ لتوديعه احتفالاً أترعت المائدة فيه بكل ما لذَّ وطاب. ودعا هو أصدقاءه والفتيات... وأذكر أنني اشتريتُ عشر كعكات.

لقد تحدَّث مرَّة واحدة فقط عن أفغانستان. في إحدى الأمسيات جاء إلى المطبخ، حيث كنت أطبخ طبق أرنب. كانت القصعة ملطَّخة بالدم. مرَّر أصابعه على الدم وتطلَّع إليه، وقال لنفسه:

- «جلبوا صديقي وبطنه ممزَّق... فرجاني أن أطلق النار عليه... وقد فعلت...».

الأصابع ملطَّخة بالدم من لحم الأرنب، إنه طري... أمسك بهذه الأصابع سيجارة وخرج إلى الشرفة. ولم ينبس بأية كلمة في ذلك المساء.

راجعتُ الأطبَّاء. أعيدوا إليَّ ولدي! أنقذوني! ورويت لهم كل شيء... اختبروه، وفحصوه، لكن لم يجدوا لديه شيئاً غير التهاب جذور الأعصاب.

حدث مرَّة أن عدتُ إلى البيت فوجدتُ أربعة شبَّان غرباء يجلسون وراء المائدة.

- «مامكا إنهم من أفغانستان. لقد وجدتهم في محطَّة القطار. لا يوجد لديهم مكان للمبيت».

* «سأعدُّ لكم فطيرة سكرية الآن. فوراً».

لسببٍ ما أحسستُ بالفرح.

بقي الشبَّان عندنا أسبوعاً كاملاً. وأعتقد، من دون أن أحسب، أنهم شربوا ثلاثة صناديق من قناني الفودكا. وفي كل مساء كنت أستقبل في البيت خمسة غرباء. والخامس هو ابني... لم أرد الإصغاء إلى أحاديثهم، وشعرت بالخوف. ولكن حدث مرَّة أن سمعت حديثهم بالصدفة؛ وجاء في حديثهم أنهم جلسوا مرَّة في كمين طيلة أسبوعين، وأُعطيت لهم منشطات بغية أن يصبحوا أكثر جرأة. لكن هذا كله بقي قيد الكتمان. بأي سلاح يتم القتل بشكل أفضل؟ ومن أية مسافة؟ وقد تذكَّرت هذا عندما وقع الحادث كله... ففيما بعد صرت أفكِّر، وأستعيد الذكريات بشكل محموم. وقبل هذا كان الخوف فقط، وكنت أقول لنفسي: «أوه، إنهم جميعاً مجرَّد مخبولين. وجميعهم شاذُّون».

في الليلة التي سبقت اليوم الذي ارتكب فيه جريمة القتل، رأيت في الحلم أنني أنتظر ابني، لكنه لم يحضر على الرغم من انتظاري طويلاً. وإذا بهم يقتادونه، اقتاده "الأفغان"[2] الأربعة. وألقوا به فوق الأرضية الإسمنتية القذرة في المطبخ عندنا، الأرضية كما في السجن.

في ذلك الوقت كان قد التحق بالكلية التحضيرية في معهد الهندسة اللاسلكية، وكتب تمرين إنشاء جيِّداً، وكان سعيداً لكون جميع العلامات

2- تسمية تطلق على المقاتلين الذين حاربوا في أفغانستان.

لديه جيدة. وحتى بدأت أفكِّر في أنه صار هادئاً، وسيدرس، ويتزَّوج. لكن حلَّ ذلك المساء... إنني كنت أخشى الأمسيات، جلس يحدِّق في الجدار بنظرات فارغة، ويغفو في المقعد. وَددت أن أنهض وأحتضنه وأمنعه من الذهاب إلى أي مكان. أما الآن فأرى ولدي في الحلم صغيراً ويطلب شيئاً يأكله. إنه يمدُّ ذراعيه. إنني أراه دوماً في الحلم طفلاً صغيراً وذليلاً. أما في الحياة؟! يمكن زيارته في السجن مرتين في الشهر. أربع ساعات من الحديث عبر اللوحة الزجاجية. ويمكن لقاؤه مرتين في العام من أجل إطعامه على الأقل. ونباح الكلاب ذاك... أسمع في الحلم نباح الكلاب ذاك. إنه يلاحقني في كل مكان.

بدأ رجلٌ ما في التودُّد إليَّ، وحمل الزهور. وعندما جاء حاملاً الزهور صرخت به: «ابتعد عني، أنا أم قاتل». كنت أخاف أن ألقى أحد المعارف، وأغلق باب الحمَّام، وأنتظر أن تنهار جدرانه فوقي. تراءى لي أن الجميع في الشارع يعرفونني، ويشيرون إلى بعضهم البعض، ويهمسون: «أتذكر ذلك الحادث الفظيع؟ ابنها قتل رجلاً. قطع أوصال الرجل إرباً إرباً، بالأسلوب الأفغاني...». كنت أخرج من البيت في الليل فقط، وعرفت جميع الطيور الليلية. كنت أعرفها من أصواتها.

بدأ التحقيق، واستمر عدَّة أشهر، وقد لزم ولدي الصمت. سافرت إلى موسكو إلى مستشفى بوردينكو، ووجدت هناك الفتيان الذين خدموا في القوَّات الخاصَّة مثله، وصارحتهم بأمري.

- «يا شباب، لماذا استطاع ابني قتل إنسان؟».

* «معنى ذلك أنه وجد سبباً لذلك».

كان يجب عليَّ أن أقتنع بنفسي بأنه كان يستطيع ارتكاب هذه الفعلة، أي القتل، ووجَّهت إليهم الأسئلة طويلاً، وأدركت أنه: كان يستطيع ارتكابها!

سألت عن الموت... كلا ليس عن الموت، بل عن القتل. لكن هذا الحديث لم يولِّد لديهم أية مشاعر، على الخصوص من تلك المشاعر التي

يولِّدها القتل عادة لدى أي إنسان عادي لم يشاهد منظر الدم. كانوا يتحدَّثون عن الحرب بصفتها عملاً يجب فيه قتل البشر. وبعد ذلك التقيتُ فتياناً كانوا في أفغانستان أيضاً، وحين وقع الزلزال في أرمينيا توجَّهوا إلى هناك مع فصائل الإنقاذ. وقد سألتهم، وهذا الأمر لازمني: هل شعروا بالخوف؟ وماذا كان شعورهم حين رأوا الموت؟ كلا لم يكن هناك أي خوف، حتى أن مشاعر الشفقة قد خمدت لديهم. الأجساد البشرية الممزَّقة، والمدهوسة، والجماجم والعظام، ومدارس وقاعات دراسة بأكملها دُفنت تحت الأرض... لقد ذهب الأطفال تحت الأرض بالهيئة التي كانوا عليها في أثناء الدرس. لكنهم تذكَّروا وتحدثوا عن شيء آخر، عن مستودعات النبيذ الغنية التي أخرجوها من تحت الأنقاض، وأي صنف من الكونياك وأي نبيذ شربوا. كانوا يمزحون: لتزلزل الأرض في مكان آخر. لكن في مكان دافئ حيث تنمو الكروم ويصنع النبيذ الجيِّد. هل هم رجال أصحَّاء؟ وهل حالتهم النفسية طبيعية؟

كتب لي ولدي منذ فترة قريبة: «أنا أكره ذلك الميت». وحدث هذا بعد خمسة أعوام... ماذا جرى هناك؟ إنه يلتزم الصمت. وقد عرفت أن اسم الشاب القتيل هو يورا، وتبجَّح بأنه كسب في أفغانستان الكثير من الصكوك. وتبيّن لاحقاً أنه خدم في إثيوبيا برتبة برابورشيك[3]. وكذب في حديثه عن أفغانستان...

قالت المحامية في المحكمة إننا نحاكم شخصاً مريضاً. من يجلس في قفص الاتهام ليس مجرماً، بل شخصاً مريضاً يجب علاجه. وحدث هذا قبل سبعة أعوام حين لم تُعرف الحقيقة بعد عن أفغانستان. وُصفوا جميعاً بالأبطال، وبالمقاتلين الأمميين. أمَّا ولدي فهو قاتل... لأنه فعل هنا ما كانوا يفعلونه هناك. لماذا منحوهم الميداليات والأوسمة هناك؟ ولماذا حاكموه وحده ولم يحاكموا من أرسله إلى هناك وعلَّمه كيفية القتل؟! أنا لم أعلِّمه ذلك.. (تثور وتصرخ).

3- رتبة عسكرية سوفيتية لمستوى ضابط أقل من رتبة نقيب.

لقد قتل رجلاً بطبر مطبخي. وفي الصباح جاء به ووضعه في الدولاب، مثل أية ملعقة أو شوكة...

أنا أحسد الأم التي عاد ابنها بدون سيقان... دعه يكرهها حين يسكر، ودعه يكره العالم بأسره، ودعه ينهال عليها بالضرب كوحش. إنها تستأجر له المومسات بغية ألا يفقد عقله. حدث مرَّة أن أصبحت عشيقة له، لأنه خرج من الشرفة، وأراد أن يلقي بنفسه من الطابق العاشر. أنا أوافق على كل شيء، إنني أحسد جميع الأمَّهات حتى اللواتي يرقد أبنائهنَّ في القبور. كنت سأجلس عندئذ عند القبر وأشعر بالسعادة، ولحملت الزهور إليه.

هل تسمعون نباح الكلاب؟ إنها تطاردني. أنا أسمعها...

أم

من دفاتر المذكرات
(في الحرب)

لا أريد أن أكتب المزيد عن الحرب. أريد أن أحيا مجدَّداً وسط "فلسفة الاختفاء" بدلاً من "فلسفة الحياة". وأن أجمع مجدَّداً خبرة اللاوجود إلى ما لا نهاية. عندما أنهيت كتابة "ليس للحرب وجه أنثوي"، بقيت فترة طويلة لا أستطيع رؤية الدم ينزف من فم طفل لدى إصابته بجرح بسيط. كنت في وقت الاستجمام أهرب بعيداً عن الصيَّادين الذين يلقون السمكة بعد انتشالها من أعماق المياه على الرمل في الضفَّة بمرح، إذ كان يصيبني بالغثيان مرأى عينيها الجاحظتين الجامدتين. يوجد لدى كل إنسان احتياطي من القدرة على تحمُّل الألم؛ الجسدي أو النفسي، لكنه نفد لديَّ منذ وقت بعيد. فكنت أكاد أجنُّ حين سماع عويل قطَّة دهستها سيَّارة، وأبعد ناظري عن دودة أرضية مسحوقة. أو ضفدعة يابسة في الطريق... وجال في خاطري مراراً أن الحيوانات والطيور والأسماك لها الحق أيضاً في كتابة تاريخ آلامها. وسيُكتب في يوم ما.

وفجأة! إذا كان من الممكن قول "فجأة"، انصرمت السنة السابعة من الحرب. لكننا لا نعرف أي شيء عنها باستثناء الريبورتاجات التلفزيونية البطولية. وبين فترة وأخرى نُرغم على أن نرتجف لمرأى النعوش الزنكية الآتية من مكان بعيد، والتي تضيق بها أرجاء البيوت البائسة المبنية من الألواح الخرسانية الجاهزة المعروفة باسم «خروشوفكا». فتطلق صليات الرصاص تحية للعزاء. ثم يسود الصمت من جديد. إن عقليَّتنا الميثولوجية

راسخة لا تتزعزع؛ فنحن أهل العدالة والعظمة، ونحن على حق دائماً. لكن آخر ومضات فكرة الثورة العالمية تحترق وتتحوَّل إلى رماد... ولا يلاحظ أحد أن لهيب الحريق يستعر في بيتنا. فقد بدأت بيريسترويكا غورباتشوف، وانطلقنا بحماس للقاء الحياة الجديدة. فماذا كان في انتظارنا في المستقبل؟ وماذا كانت قدراتنا بعد تلك السنوات من السبات الاصطناعي؟ أما فتياننا فكانوا يُقتلون في مكان بعيد ما، من أجل قضية مجهولة ما...

عمَّ يتحدَّثون حولي؟ وماذا يكتبون؟ عن الواجب الأممي والجيوسياسة، وعن مصالحنا كدولة كبرى وعن الحدود الجنوبية. والناس يصدِّقون ذلك، إنهم يصدِّقون! وتخطب الأمَّهات، اللواتي كنَّ حتى وقت قريب ينتحبن بألم دفين فوق الصناديق الحديدية الصمَّاء، ويخطبن في المدارس والمتاحف العسكرية، ويدعون الفتيان الآخرين "لأداء واجبهم حيال الوطن". وتتابع الرقابة بحرص ألا يُكتب في المقالات عن الحرب أي شيء عن مصرع جنودنا، ويؤكِّدون لنا أن "القوَّات المحدودة العدد" من القوَّات السوفيتية تساعد الشعب الشقيق في بناء الجسور والطرق والمدارس، وتنقل الأسمدة والدقيق إلى القرى، بينما يقوم الأطبَّاء السوفيت بمهمَّة مساعدة النساء الحوامل الأفغانيات إبَّان الولادة. ويحمل الجنود العائدون إلى المدارس الجيتارات لكي ينشدوا عمَّا يجب النحيب حوله.

لقد تحدَّثت طويلاً مع أحدهم، وأردت أن أسمع منه الحديث عن عذاب هذا الخيار - إطلاق أو عدم إطلاق النار على الناس؟ فتبيَّن أن الأمر بالنسبة إليه لا يمثِّل أية دراما. ما هو الجيد؟ وما هو السيِّئ؟ هل هو شيء جيِّد أن يقتل "في سبيل الاشتراكية"؟ إن حدود الأخلاق بالنسبة إلى هؤلاء الفتيان محدَّدة بالأمر العسكري. حقاً إنهم يتحدَّثون عن الموت بحذر أكثر منا، وعندئذ تنبجس فوراً المسافة الفاصلة بيننا.

كيف يمكن في آن واحد معايشة التاريخ والكتابة عنه؟ فلا يمكن أن تؤخذ أية قطعة من الحياة، وجميع "القذارة" الوجودية عنوة ووضعها في كتاب، وفي التاريخ. لا بدَّ من "تحطيم الزمن" و"اقتناص الروح".

"للحزن مئة انعكاس" - (وليام شكسبير - ريتشارد الثالث).

جلس في محطَّة الحافلات في قاعة شبه خالية ضابطٌ مع حقيبة سفر، وإلى جانبه فتى هزيل الجسم ذو تسريحة شعر قصيرة كالجنود يعبث بالشوكة في صندوق زرعت فيه نبتة استوائية ذابلة. وجلست إلى جانبه نساء قرويات، وسألن: إلى أين، ولماذا، ومن هما؟ كان الضابط يرافق الجندي إلى بيت أهله بعد أن أصابه مس من الجنون: «إنه، منذ غادرنا كابُل، يحفر كل ما يقع بين يديه، ولا يهم بأي شيء يحفر: بمجرفة وشوكة وعصا وقلم حبر». ورفع الفتى رأسه وقال: «يجب الاختفاء... أنا أحفر حفرة عميقة، وأنا أفعل ذلك بسرعة. كنا نسمِّيها قبوراً جماعية. أنا أحفر حفرة كبيرة من أجلنا جميعاً...».

شاهدت لأوَّل مرَّة مقلة بحجم العين كاملة...

أقف في مقبرة المدينة وحولي مئات الناس. في الوسط، تسعة نعوش مكسوة بقماش أحمر. يتحدَّث العسكريون، وألقى جنرال كلمة. النساء المتَّشحات بالسواد يبكين، والناس في صمت. وثمة فتاة صغيرة بضفيرتين أخذت تنتحب فوق أحد النعوش وتقول: «بابا! باتيوشكا!! أين أنت؟ لقد وعدتني بدمية، دمية جميلة! وقد رسمت لك ألبوماً كاملاً من صور البيوت والأزهار... أنا أنتظرك...». ويحمل ضابط شاب الصبية بيديه ويحملها إلى سيارة «فولغا» سوداء. لكننا نواصل خلال فترة طويلة سماع العويل: «بابا! با-ا-بوتشكا.. أبي الحبيب...».

يخطب الجنرال. والنساء المتَّشحات بالسواد يبكين. ونحن نلتزم الصمت. لماذا نصمت؟

أنا لا أريد أن أصمت. ولا أستطيع الكتابة عن الحرب أكثر.

سبتمبر عام 1988

5 سبتمبر

طشقند. الجو خانق في المطار، إنه ليس بمطار بل بقجة. ساعتان في الليل، تتقافز قطط سمينة شبه وحشية تحت التاكسي بلا خوف، يقال إنها أفغانية، بينما يمشي جنود شباب على عكّازات وسط حشد المستجمّين ذوي السحنات السمراء التي لفحتها الشمس، ووسط الصناديق وسلال الفاكهة. لا يلقي أحد إليهم بالاً، فقد اعتادوا على رؤيتهم. إنهم ينامون ويأكلون هناك على الأرض، فوق الجرائد والمجلات القديمة، ولا يستطيعون طوال عدّة أسابيع شراء تذاكر السفر إلى ساراتوف وقازان ونوفوسيبيرسك وكييف... أين أصيبوا بالعاهات؟ وعمّن كانوا يدافعون؟ لا أحد يهتم بذلك. وثمة صبي صغير لا يبعد عنهم عينيه الواسعتين، متسولة سكيرة دنت من أحد الجنود وقالت:

- «تعال إلى هنا... سأواسيك».

لكنه لوّح بعكّازتيه. أمّا هي فلم تنزعج، وأضافت كلاماً ما حزيناً ونسوياً آخر.

يجلس إلى جانبي ضبّاط. إنهم يتحدّثون عن الأطراف الاصطناعية الرديئة الصنع لدينا، وعن التيفوئيد والكوليرا والملاريا والتهاب الكبد. وكما كانت الحال في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب، لم توجد آبار ولا مطابخ ولا حمّامات، ولم يوجد حتّى ما تُغسل به الصحون. كما تحدّثوا

عمَّا جلبه كلُّ واحد منهم معه من هدايا: البعض جلب التلفزيون «فيديك» والبعض المسجل من ماركة «شارب» أو «سوني». وأذكر نظراتهم إلى النساء الجميلات المستجمَّات بفساتينهنَّ المفتوحة...

انتظرنا الطائرة المتوجِّهة إلى كابُل طويلاً. وقيل إنه سيتمُّ أوَّلاً شحن المعدَّات، ومن ثمَّ البشر. كان في الانتظار حوالي مئة شخص، وجميعهم من العسكريين. وفجأة ظهرت جمهرة من النساء.

مقاطع من الأحاديث:

– «أنا أفقد سمعي. في البداية لم أستطع سماع تغريد الطيور بصوت عال. إنها من آثار الرضوض في الرأس. وعلى سبيل المثال أنا لا أسمع البتة تغريد طير الدرسة، وقد سجَّلته على المسجل وأشغِّله بأعلى صوت».

– «في البداية تطلق النار، وبعد ذلك تستوضح فيما إذا كان الهدف امرأة أم طفلاً؟ ولكل واحد كابوسه...».

– «الحمار يستلقي على جنبه في أثناء القصف، وعندما ينتهي ينتصب على قوائمه».

– «من نحن في الاتحاد السوفيتي؟ مومسات؟ نحن نعلم ذلك. ولو من أجل كسب كلفة شراء شقَّة تعاونية. والرجال؟ ماذا عن الرجال؟ إنهم يسكرون».

– «تحدَّث الجنرال عن الواجب الأممي، وعن الحدود الجنوبية. لقد أبدى شفقته. وقال: خذوا لهم السكاكر... إنهم أطفال، والحلوى هي خير هدية».

– «كان الضابط شاباً. وعندما علم بأن ساقة بُترت بكى. إن سحنته كوجه صبية تشوبه الحمرة والبياض. في البداية كنت أخاف الأموات، لاسيما إذا كانوا بلا ساقين ويدين. وبعد ذلك اعتدت...».

– «عندما يقع أحدهم في الأسر. تُقطع أطرافه وتلفُّ بجدائل من القش كيلا يموت بسبب نزيف الدم. ويتركونهم بهذه الصورة لكي يجمع رجالنا

هذه الأوصال لاحقاً. إنهم لا يريدون البقاء على قيد الحياة لكنهم يُعالَجون قسراً. كما أنهم لا يريدون العودة إلى بيوتهم بعد المستشفى».

- «شاهدوا في نقطة الجمارك كيس السفر فارغاً وسألوني: «ماذا تحمل؟» أجبتهم: «لا شيء». «لا شيء؟» لم يصدِّقوني، وأرغموني على خلع ملابسي وحتى السراويل. الجميع يجلبون معهم عدة حقائب».

في الطائرة مُنحتُ مقعداً بالقرب من مصفحة ربطت بسلاسل. ولحسن الحظ كان النقيب الجالس إلى جانبي غير مخمور. فقد كان جميع الباقين حولي سكارى. على مقربة رقد أحدهم فوق تمثال نصفي لماركس (كانت صور وتماثيل زعماء الاشتراكية مكدَّسة هناك بلا تغليف)، وكان ينقل، ليس السلاح فقط، بل مجموعة من الحاجيات الضرورية من أجل المراسم السوفيتية. ووجدت هناك رايات حمراء، وشرائط حمراء...

يسمع صوت صفارة إنذار...

- «انهضوا. وإلا فستفوتكم "ملكوت السماء"».

- «نحن فوق كابُل».

تتوجَّه الطائرة نحو الهبوط. يُسمع هزيم المدافع. رجال الدوريات المسلحون بالرشاشات والسترات المضادة للرصاص يطلبون إبراز بطاقة المرور.

لم أرغب في الكتابة عن الحرب أكثر. لكنني في خضم حرب حقيقية. ففي كل مكان رجال الحرب، وأشياء الحرب، وزمن الحرب.

12 سبتمبر

ثمة شيء لا أخلاقي في التطلُّع إلى جرأة ومجازفة الغير. أمس ذهبت إلى المطعم لتناول طعام الفطور، وتبادلت التحية مع الحارس. وبعد نصف ساعة لقي حتفه بالصدفة بشظية هاون سقطت في الحامية. وحاولت طوال اليوم تذكُّر سحنة هذا الفتى.

تُطلق على الصحفيين هنا تسمية "كتّاب الحكايات". وتُطلق التسمية نفسها على الكتّاب والأدباء. كانت مجموعتنا من الكتّاب تتألّف من الرجال حصراً. إنهم يندفعون للذهاب إلى الحاميات الأمامية، ويريدون أن يزجُّوا بأنفسهم في المعارك. وسألت أحدهم:

- «لماذا؟».

* «هذا أمر يهمُّني. سأقول كنت عند نفق سالانغ. وأطلقت النار».

ولا يفارقني الشعور بأن الحرب تكمن في طبيعة الرجال، ويصعب عليَّ إدراك ذلك إلى حدٍّ كبير. إلا أن الحياة اليومية في الحرب هائلة. قال الشاعر أبولينير: «آه، كم الحرب جميلة!».

بيد أن الحال في الحرب مختلفة تماماً: أنت والطبيعة وأفكارك. وعندئذ أدركت أن الفكر الإنساني يمكن أن يكون قاسياً جدّاً.

إنني أسأل في كل مكان: في ثكنة الجنود، وفي المطعم، وفي ملعب كرة القدم، وفي أمسية الرقص. فأجد بغتة جميع عناصر الحياة السلمية:

- لقد أطلقت النار عن كثب ورأيت كيف تحطَّمت الجمجمة البشرية، وفكَّرت: "هذا الأوَّل". وبعد المعركة، كان هناك جرحى وقتلى... وأرى في الحلم هنا عربات الترامواي. وكيف أذهب إلى بيتي في الترامواي... إنها ذكريات محبَّبة لدي: ماما تصنع الفطائر. وتفوح في البيت رائحة العجين الحلو.

- ترتبط بعلاقات صداقة طيِّبة مع أحد الفتيان، ثم ترى كيف تعلَّقت أحشاؤه فوق الأحجار. وتريد الانتقام.

- نحن في انتظار مرور القافلة. جلسنا في الكمين فترة يومين أو ثلاثة. نرقد فوق الرمال الساخنة ونقضي حاجتنا الطبيعية في سراويلنا. وفي نهاية اليوم الثالث يصيبك مسٌّ من الشيطان. وتطلق الصلية الأولى بعد أن يستولي عليك هذا الحقد. وبعد تبادل إطلاق النار، وحين ينتهي كل شيء، نتبيَّن أن القافلة كانت تنقل الموز والمربَّى. وشبعنا من السكاكر طوال حياتنا...

– أسرنا أحد "الأشباح"... نستجوبه: «أين مستودعات السلاح؟». بقي صامتاً. رفعنا اثنين منهم إلى المروحية: «أين؟ أرنا». بقي صامتاً. فألقينا أحدهما فوق الصخور...

– إن ممارسة الحب أثناء الحرب وبعد الحرب– ليس الشيء نفسه. ففي الحرب يبدو أن الجميع يمارسونه لأوَّل مرَّة...

– "غراد" تطلق القذائف، والألغام تتطاير. وفوق هذا كله: تريد أن تعيش! أن تعيش! تعيش! وأنت لا تعرف شيئاً ولا تريد أن تعرف آلام الجانب الآخر. بل أن تعيش فحسب. أن تعيش!

إن الكتابة (أو الحديث) عن الحقيقة كلها حول الذات مستحيلة فيزيقياً، حسب قول بوشكين.

إن ما ينقذ الإنسان في الحرب هو تشتُّت وتبدُّد وعيه. لكن الموت من حوله يتَّسم بالحماقة ويحدث بالصدفة، من دون أية أفكار مسبقة.

كُتب على الدبَّابة بطلاء أحمر: "سننتقم لمصرع مالكين".

ركعت في وسط الشارع امرأةٌ أفغانية شابة فوق جثَّة طفل قتيل وهي تعول وتصرخ. كنت أعتقد أن مثل هذا الصراخ يصدر فقط عن الوحوش الجريحة.

لقد مررنا بمحاذاة القرى المدمَّرة التي تحوَّلت إلى ما يشبه الحقول المحروثة. إن الطين الميت لما كان حتى وقت قريب مسكناً للبشر، هو أفظع من الظلام الرهيب الذي يمكن أن تُطلق النار منه.

في المستشفى العسكري وضعت دمية دب من القطيفة فوق سرير طفل أفغاني. فأمسك الدمية بأسنانه. هكذا كان يلعب، مبتسماً، لأنه بدون ذراعين. ونقل المترجم إليَّ قول أمه: «لقد أطلق جماعتكم الروس النار عليه. هل لديك أطفال؟ من؟ صبي أم بنت؟». ولم أعرف ما تضمَّنه قولها بقدر أكبر؛ هل الفظاعة أم المغفرة؟

تتردَّد الأقوال حول قسوة المجاهدين في التعامل مع أسرانا. إنها شبيهة

بأفعال القرون الوسطى. إن الزمن هنا فعلاً هو زمن آخر، وتظهر التقاويم أنه القرن الرابع عشر.

في رواية "بطل من هذا الزمان" للشاعر ليرمنتوف، يقول مكسيميتش عن أفعال الرجل الجبلي الذي قتل والد بيللا: «طبعاً، إنه حسب عاداتهم يُعتبر على حق تماماً»، لكن من وجهة نظر الروسي تعتبر هذه الفعلة وحشية. وقد التقط الكاتب هذه السمة الروسية العجيبة، القدرة على تفهُّم موقف شعب آخر، والتطلُّع إلى الأشياء "وفق عقليَّتهم".

أما الآن...

17 سبتمبر

أرى من يوم إلى آخر كيف ينحدر الإنسان إلى الأسفل. ونادراً ما يرتقي إلى الأعلى.

يلاحظ إيفان كارامازوف لدى دوستويفسكي قائلاً: «الحيوان لا يمكن أبداً أن يكون قاسياً كالإنسان، الذي يتفنن ويبتكر أساليب ممارسة القسوة».

حقاً، تساورني الشكوك في أننا لا نريد سماع ذلك، ولا نريد أن نعرفه. لكن في أي حرب ولأي غرض تُشنّ – من قبل يوليوس قيصر أم جوزيف ستالين – يقتل البشر بعضهم بعضاً. هذا قتل، لكن جرت العادة عندنا عدم الحديث أو التفكير في ذلك، حتى يتمّ لسبب ما الحديث في المدارس عن الروح الوطنية، وعن التربية العسكرية -الوطنية. لكن لمَ العجب؟ فكل شيء مفهوم لدينا – الاشتراكية العسكرية، البلاد العسكرية، أسلوب التفكير العسكري.

لا يجوز إجراء التجارب على الإنسان بهذه الصورة. إن الإنسان لا يصمد أمام هذه التجارب. وفي الطب يُسمَّى ذلك بـ "التجربة الحادة". إجراء التجارب على الأحياء.

شُغِّل في مسكن الجنود المواجه للفندق جهاز التسجيل. أنا أيضاً سمعت الأغاني "الأفغانية". كانت الأصوات الطفولية التي لم تتشكَّل بعد تتردَّد بحشرجة على طريقة فيستوتسكي[4]: «الشمس سقطت على القرية (الكشلاك) وكأنها قنبلة»، «أنا لست في حاجة إلى المجد. نحن نريد الحياة، فهذه تعادل الأوسمة كلها»، «لماذا نقتل؟ ولماذا يقتلوننا؟»، «ها قد بدأت أنسى وجهك»، «أفغانستان أنت أكثر من واجبنا. أنت الكون بالنسبة إلينا»، «كالطيور الكبيرة تتقافز بأرجل واحدة عند البحر»، «الميت لا ينتمي إلى أحد. لم تعد تبدو على وجهه سمات الحقد».

في الليل راودني حلم: جنودنا يسافرون إلى الاتحاد السوفيتي، وأنا بين المودِّعين. دنوت من أحد الفتيان فوجدته بلا لسان، أخرس، بعد الأسر. وتتدلَّى تحت سترته العسكرية بيجامة المستشفى. طرحت عليه سؤالاً، فكتب فقط اسمه على ورقة: «فانيتشكا... فانيتشكا». وهكذا ميَّزت اسمه بوضوح، فانيتشكا. يشبه محياه وجه ذلك الفتى الذي تحدَّثت معه عند الظهيرة وكان يكرِّر باستمرار: «أمِّي تنتظرني في البيت».

تجوَّلنا في شوارع كابُل المهجورة، وبمحاذاة اللافتات المعروفة بوسط المدينة: "الشيوعية مستقبلنا"، و"كابُل مدينة السلام"، و"وحدة الشعب والحزب". إنها لافتاتنا المطبوعة في مطابعنا. ويقف لينين هنا رافعاً يده.

وشاهدت الريبورتاجات السينمائية من موسكو.

لقد صوَّروا شحن التوابيت "أزهار الخزامى السود" لنقل الأموات. إنهم يتحدَّثون دون أن يرفَّ لهم جفن عن كيف يُلبَس الأموات الزيَّ العسكريَّ القديم لفترة أعوام الأربعينيات، وسراويل الخيَّالة، وأحياناً يُوضَعون في النعوش بلا ملابس حين لا تكفي الكمية اللازمة من هذا الزي. الألواح قديمة، والمسامير صدئة.

4- فلاديمير فيسوتسكي، ممثل وشاعر ومنشد روسي حظي بشعبية واسعة في الاتحاد السوفيتي (المترجم)

«جُلب إلى الثلاجة قتلى جدد. تنبعث هناك رائحة خنازير برية غير طازجة».

من سيصدِّقني إذا ما كتبت عن ذلك؟

20 سبتمبر

شاهدت معركة...

قُتل ثلاثة جنود. في المساء كان الجميع يتناولون طعام العشاء ولم يتذكَّر أحد المعركة والأموات، بالرغم من أنهم يرقدون قريباً من المكان.

لا يرد في أيِّ دستور نصٌّ حول حقِّ الإنسان في عدم القتل، وعدم تعلُّم القتل.

الحرب - السلام، وليس الحدث... هنا كل شيء بشكل آخر: المشهد الطبيعي، والإنسان، والكلمات. ويحضر في الذاكرة القسم المسرحي للحرب: تستدير الدبَّابة، وتصدر الأوامر. ومسار الرصاص الخطَّاط المضيء في الظلام...

التفكير في الموت مثل التفكير في المستقبل. يحدث شيء ما للزمن حين تفكِّر في الموت وتراه. وينبثق إلى جانب الخوف من الموت، الانجذاب إلى الموت..

لا حاجة إلى ابتداع أي شيء. إن المقاطع من الكتب العظيمة منتشرة في كل مكان، وتكمن في كل واحد.

تثير العجب في الأحاديث (بصورة غير نادرة!) السذاجة العدوانية لفتياننا، ممَّن كانوا حتى وقت قريب تلامذة الصف العاشر في المدارس السوفيتية. أريد أن أحصل منهم على حوار الإنسان مع الإنسان في دخيلة ذاته.

مع هذا، بأية لغة نتحدَّث مع أنفسنا، ومع الآخرين؟ تعجبني لغة المحادثة،

إنها غير مقيَّدة بأي شيء، تنطلق بحرية. الجميع يتنزَّهون ويحتفلون: الإعراب، النبرة، اللكنة، ويُستعاد الشعور بكل دقَّة. إنني أتابع الشعور، وليس الحدث. ربَّما كان ما أقوم به يشبه عمل المؤرِّخ، لكنني مؤرِّخ لما هو بدون أثر. ماذا يجري للأحداث الكبرى؟ إنها تنتقل إلى التاريخ، أمَّا الأمور الصغيرة، لكنها الرئيسة بالنسبة إلى الإنسان الصغير، فإنها تختفي بلا أثر. وروى اليوم أحد الفتيان (إنه لا يشبه الجندي كثيراً لضعفه ومظهره العليل) كيف تكون شيئاً غير مألوف -لكنها في الوقت نفسه تكون شيئاً مثيراً - ممارسةُ القتل مع الآخرين. ومدى فظاعة إطلاق النار.

فهل سيبقى ذلك في التاريخ؟ إنني أمارس بجهد (من كتاب إلى آخر) العمل نفسه - تقليص التاريخ حتى بلوغه الإنسان.

كنت أفكر في استحالة تأليف كتاب عن الحرب في زمن الحرب. إذ يحول دون ذلك شعور الشفقة والحرقة والألم الجسدي والصداقة... والرسالة الآتية من البيت، والتي أريد بعدها أن أحيا... يقولون إن المرء حين يقتل يسعى إلى عدم النظر إلى عينَي البعير حتى. هنا لا يوجد ملحدون. الجميع يؤمنون بالخرافات.

يلومني العواذل (بالأخصِّ الضبَّاط، والجنود بقدر أقل) بقولهم إنني لم أطلق النار ولم يوجِّه أحدٌ فوَّهة سلاحه إليَّ. فكيف أستطيع الكتابة عن الحرب؟ لربَّما هذا شيء جيِّد كوني لم أطلق النار!

أين ذلك الإنسان الذي يتألَّم لمجرَّد طرح فكرة الحرب نفسها؟ إنني لا أجده. لكن أمس كان يرقد بالقرب من هيئة الأركان طائر ميت مجهول، شيء غريب... اقترب العسكريون منه، وحاولوا التكهُّن من أي فصيلة هو؟ أظهروا الشفقة عليه.

ثمة إلهام ما في وجوه الموتى، وأنا لا أستطيع اعتياد الجنون المعتاد في الحرب. الماء، والسجائر، والخبز. بالأخصِّ حين نُغادر الحامية ونتسلَّق الجبال. يقف الإنسان هناك وحيداً مع الطبيعة والصدفة. هل ستنطلق رصاصة

مارَّة به أم لا؟ ومن سيطلق النار أوّلاً،أنت أم هو؟ وهناك تبدأ برؤية إنسان من الطبيعة وليس من المجتمع.

يعرضون في التلفزيون في الاتحاد السوفيتي مشاهد حول كيف يغرسون الأشجار في ممرِّ الصداقة... الأشجار التي لم يرها أحد ولم يغرسها أحد هنا.

كتب دوستويفسكي[5] في رواية "الشياطين": «القناعة والإنسان، هما كما أعتقد أمران مختلفان كثيراً. الجميع مذنبون. إذا ما اقتنع الجميع بذلك!». كما توجد لديه فكرة أخرى مفادها أن البشرية تعرف عن نفسها أكثر، أكثر بقدر كبير، ممَّا أفلحت في تدوينه في الأدب وفي العلم. وقال إن هذه الفكرة ليست فكرته بل أوردها فلاديمير سولوفيوف[6].

لو لم أطالع دوستويفسكي لكنت أسيرة اليأس والقنوط الشديد...

21 سبتمبر

في مكان ما بعيد تقصف منظومة «غراد» الصاروخية. هذا فظيع حتى من مسافة قصيَّة.

بعد الحروب الكبرى في القرن العشرين والمجازر الجماعية يجب حين الكتابة عن الحروب المعاصرة (الصغيرة)، كالحرب الأفغانية، اتخاذ مواقف أخلاقية وميتافيزيقية أخرى. ويتطلَّب الأمر شيئاً صغيراً وشخصياً وفردياً، إنساناً واحداً. وقد يكون بالنسبة إلى البعض الإنسان الوحيد. وليس موقف الدولة منه، بل من هو بالنسبة إلى الأم والزوجة، والطفل. كيف نستعيد الرؤية الطبيعية للأشياء؟

يثير الجسد اهتمامي، جسد الإنسان، بصفته العلاقة بين الطبيعة

5- فيودور دوستويفسكي – كاتب روسي يتمتع بشهرة عالمية لرواياته «الجريمة والعقاب» و«الأخوة كارامازوف» و«الأبله». (المترجم)

6- فلاديمير سولوفيوف – مفكر وناقد وشاعر وفيلسوف روسي، أثر في قيام «النهضة الروحية» في روسيا في القرن التاسع عشر. (المترجم)

والتاريخ، بين ما هو حيواني والكلام. وجميع التفاصيل الجسدية (الفيزيقة) مهمَّة: كيف يتغيَّر الدم تحت الشمس، والإنسان قبيل الوفاة... الحياة ذات مغزى فنِّي بحدِّ ذاتها، مهما بدا الأمر قاسياً – ومعاناة الإنسان ذات سمة فنِّية على وجه الخصوص؛ الجانب القاتم من الفن. أمس شاهدت كيف جُمعتْ أوصال فتيان قُتلوا في انفجار لغم مضادٍّ للدبَّابات. وكان في وسعي ألا أشاهد ذلك، لكنني ذهبت إلى هناك من أجل أن أكتب عنه. والآن أكتب...

مع ذلك: هل وجب عليَّ أن أذهب؟ لقد سمعت ضحك الضبَّاط وراء ظهري: الآنسة ارتعبت! ولكني ذهبت وليس في الأمر أية بطولة، لأنه أُغمي عليَّ هناك. ربما بسبب القيظ، وربما لأنني أُصبت بصدمة. أريد أن أكون نزيهة.

23 سبتمبر

صعدت إلى المروحية، ورأيت من الجو توابيت الزنك الجاهزة تتألَّق ببهاء ورعب تحت الشمس...

وإذا ما رأيت شيئاً مماثلاً ترد على الفور الفكرة التالية: الأدب تضيق أنفاسه في حدوده، ويمكن التعبير بالوصف الاستنساخي وبالواقع فقط عمَّا تراه العين. ولكن ما الحاجة إلى تقديم تقرير عن الحدث؟ لا بدَّ من إيجاد وسيلة أخرى. انطباعات لحظات منتزعة من الحياة.

25 سبتمبر

سأعود من هنا إنساناً حرَّاً، ولم أكن هذا الإنسان قبل أن أرى ما نفعله هنا. لقد غمرني الخوف والتوحُّد. سأعود ولن أذهب بعد هذا إلى أي متحف حربي...

* * *

لن أذكر في الكتاب الأسماء الحقيقية. فقد رجاني البعض أن تكون اعترافاتهم سرّاً بيننا، بينما يريد البعض الآخر نسيان كل شيء، ونسيان ما كتبه تولستوي - "الإنسان العابر". إنه يتضمّن كل شيء.

لكنني احتفظت بالأسماء في يومياتي، فلربّما سيرغب أبطالي في وقت ما أن يُعرفوا:

سيرغي أميرخانيان، نقيب. فلاديمير أغابوف، ملازم أول، آمر طاقم مدفعي. تاتيانا بيلوزيرسكيخ، موظفة. فكتوريا فلاديميروفنا بارتاشيفتش، أم الجندي القتيل يوري بارتاشيفتش. دميتري بابكين، جندي، عامل تنشين. سايا يميليانوفنا بابوك، أم الممرضة القتيلة سفيتلانا بابوك. ماريا تيريتنتفنا بوبكوفا، أم الجندي القتيل ليونيد بوبكوف. أولمبيادا رومانوفنا باوكوفا، أم الجندي القتيل ألكسندر باوكوف. تايسيا نقولايفنا بوغوش، أم الجندي القتيل فكتور بوغوش. فكتوريا سيميونوفنا فالوفيتش، أم الملازم أول القتيل فاليري فالوفيتش. تاتيانا غايسينكو، ممرضة. فاديم غلوشكوف، ملازم أول، مترجم. غينادي غوبانوف، نقيب، طيار. إينا سيرغييفنا غالوفنيفا، أم الملازم أول القتيل يوري غالوفنيف. أناتولي ديفيتياروف، رائد، داعية في فوج مدفعي. دينيس ل.، جندي راجمات قنابل. تمارا دوفنار، زوجة الملازم أول القتيل بيوتر دوفنار. يكاترينا نيقولايفنا بلاتيتسين، أم الرائد القتيل ألكسندر بلاتيتسين. فلاديمير يروخوفيتس، جندي راجمة قذائف. صوفيا غريغوريفنا جورافليوفا، أم الجندي القتيل ألكسندر جورافليوف. ناتاليا جيستوفسكايا، ممرضة. ماريا أنوفرييفنا زيلفيغاروفا، أم الجندي القتيل أوليغ زيلفيغاروف. فاديم إيفانوف، ملازم أول، آمر سَرِيَّة سلاح الهندسة. غالينا فيودوروفنا إيلتشينكو، أم الجندي القتيل ألكسندر إيلتشينكو. يفغيني كراسنيك، جندي مشاة. قسطنطين م.، مستشار عسكري. يفغيني كوتيلنيكوف، عريف، مرشد صحي في سَرِيَّة استطلاع. ألكسندر كوستاكوف، جندي، سلاح الإشارة. ألكسندر كوفشينيكوف، ملازم أول، آمر سَرِيَّة مدافع الهاون. ناديجدا سرغييفنا

كوزلوفا، أم الجندي القتيل أندريه كوزلوف. مارينا كيسيليوفا، موظفة. تاراس كيتسمور، جندي. بيوتر قربانوف، رائد، آمر سَرِيَّة مشاة جبلية. فاسيلي كوبيك، برابورشيك. أوليغ ليليوشينكو، جندي راجمات القذائف. ألكسندر ديليتكو، جندي. سيرغي لوسكوتوف، طبيب جراح حربي. فاليري ليسيتشينيوك، عريف سلاح الإشارة. ألكسندر لافروف، جندي. فيرا ليسينكو، موظفة. أرتور ميتليتسكي، جندي، رجل استطلاع. يفغيني ستيبانوفيتش موخرتوف، رائد، آمر كتيبة، وابنه أندريه موخرتوف، ملازم ثانٍ. ليديا يفيموفنا مانكيفتش، أم العريف القتيل دميتري مانكيفتش. غالينا ماليافايا، زوجة النقيب القتيل ستيبان ماليافايا. فلاديمير ميخولاب، جندي، سلاح مدفعية الهاون. مكسيم مدفيديف، جندي توجيه في سلاح الطيران. ألكسندر نيقولاينكو، نقيب، آمر في جناح المروحيات. أوليغ ل.، طيار مروحيات. ناتاليا أورلوفا، موظفة. غالينا بافلوفا، ممرضة. فلاديمير بانكراتوف، جندي استطلاع. فيتالي روجينتسيف، جندي، سائق. سيرغي روساك، جندي سلاح الدبابات. ميخائل سيروتين، ملازم أول، طيار. ألكسندر سوخوروكوف، ملازم أول، آمر سَرِيَّة مشاة جبلية. تيموفي سميرنوف، عريف في سلاح المدفعية. فالنتينا كيريلوفنا سانكو، أم الجندي القتيل فالنتين سانكو. نينا إيفانوفنا سيديلنيكوفا، أم. فلاديمير سيمانين، مقدم. توماس م.، عريف، آمر سرية مشاة. ليونيد إيفانوفيتش تاتارينكو، والد الجندي القتيل إيغور تاتارينكو. فاديم تروبين، ملازم، في القوات الخاصة. فلاديمير أولانوف، نقيب. تامارا فادييفا، طبيبة أخصائية في علم الجراثيم. لودميلا خاريتونتشيك، زوجة الملازم أول القتيل يوري خاريتونتشيك. أنا خاكاس، موظفة. فاليري خودياكوف، رائد. فالنتينا ياكوفليفا برابورشيك، مديرة الشعبة السرية...

اليوم الأول

«إن كثيرين سيأتون باسمي..»[7]

الصباح طويل مثل صلية رشاش، رنين جرس الهاتف:

– «اسمعي»، قال ذلك من دون ذكر اسمه، «أنا قرأت كُتيِّبك، فإذا كتبت ولو سطراً آخر...».

* «من أنت؟».

– «أحد الذين تكتبين عنهم. سيدعوننا مرة أخرى، وسيضعون بأيدينا السلاح، من أجل إحلال النظام. أنتم ستحاسبون عن كل شيء. لكن يجب أن تنشروا المزيد من أسمائكم وعدم التخفِّي وراء الأسماء المستعارة. أنا أكره النشطاء المعارضين للحرب! هل صعدت إلى الجبل بكامل لوازم الجندي، وركبت على المصفَّحة، حين تبلغ درجة الحرارة خمسين درجة؟ وهل تنفَّست الرائحة النتنة للأشواك في الليالي؟ وهل سمعت... لا؟ إذاً لا تمسِّينا! هذا شأننا! لمَ تتدخَّلين فيه؟ أنت امرأة، فأنجبي الأطفال!».

* «لماذا لا تذكر اسمك؟».

– لا تمسِّينا! لقد جُلب أفضل أصدقائي، كان لي مثل الأخ، في كيس من السيلوفان من إحدى الغارات... الرأس على حدة، والذراعان والساقان على حدة، والجلد مسلوخ كما لو كان جلد خنزير برِّي، والجثة مقطَّعة الأوصال...

7- إنجيل متى، 24–5. (المترجم)

لقد كان فتى يعزف على الكمان، وينظم الأشعار. هو الكاتب وليس أنت... لقد نُقلت أمُّه بعد يومين من دفنه إلى مستشفى الأمراض العقلية. كانت ترقد نائمة في المقبرة، فوق قبره. وفي الشتاء نامت فوق الثلج. أنت! أنت! لا تمسّي هذا الموضوع! كنا جنوداً، وأرسلونا إلى هناك. نحن نفَّذنا الأمر الصادر إلينا، وأنا أدَّيت القسم العسكري، وقبَّلت الراية راكعاً.

* «فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ! وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ». إنجيل متَّى.

– «أذكياء! بعد عشرة أعوام أصبح الجميع أذكياء. هل تريدون أن تبقوا أطهاراً؟ معنى هذا أننا نحن قذرون... أنتِ حتى لا تعرفين كيف تنطلق الرصاصة، ولم تمسكي رشَّاشاً بيديك. أنا أبصق على عهدك الجديد! أنا حملت الحقيقة في كيس من السيلوفان، الرأس على حدة... والذراعان كلٌّ على حدة، ولا توجد حقيقة أخرى...».

ثمَّ سمعت صفيراً في السماعة شبيهاً بانفجار بعيد.

آنا مع هذا آسفة لأنني لم أستطع محادثته. ولربما كان هو بطلي الرئيس..

المؤلفة

كانت تصلني أصوات فقط. ومهما أجهدتُ نفسي، فقد بقيت الأصوات بلا وجوه. وكانت تبتعد تارة وتارة تعود. أعتقد أنني بدأت أدرك: "أنا سأموت". وفتحت عينيَّ...

أفقت من الإغماء في طشقند في اليوم السادس عشر من وقوع الانفجار. وعندما يسترجع المرء وعيه ينتابه شعور بغيض، ويعتقد أن الوضع لن يكون أفضل، ولا عودة إلى الوراء... ماذا لو كانت الحال مريحة أكثر؟ ضباب وغثيان، إنه حتى ليس غثياناً، بل اختناقاً، كما لو كانت الرئتان مملوءتين بالماء. وتمرُّ فترة طويلة قبل أن يخرج المرء من هذا الحال. ضباب وغثيان... هو ذا وجع الرأس بسبب همسي أنا نفسي، ولم أكن أستطيع التكلُّم بصوت أعلى من الهمس. لقد أصبح مع الماضي المستشفى العسكري في كابُل. وفي كابُل فتحوا الجمجمة – كانت فيها عصيدة، وأزالوا قطع العظام الدقيقة، وجمعوا باللوالب اليد اليسرى الخالية من المفاصل. وكان أوَّل إحساس راودني هو الأسف لأنه لا يمكن استرجاع أي شيء، ولن أرى الأصدقاء، ولعلَّ أكثر ما آساني هو أنني لن أستطيع ممارسة التمارين على عارضة الجمباز.

بقيت راقداً في المستشفى فترة عامين إلا خمسة عشر يوماً. أُجريت لي ثماني عشرة عملية جراحية، تحت البنج الكامل. وكتب الطلاب في تقاريرهم الدراسية: ماذا يوجد لديَّ، وماذا يُفتقد. لم أكن أستطيع حلاقة ذقني بنفسي، وقام بهذا الشباب. في أوَّل مرَّة سكبوا عليَّ قنينة كولونيا صرخت: «هاتوا أخرى!». لا رائحة. أنا لا أشمُّها. واستخرجوا جميع محتويات الخزانة الصغيرة: النقانق والخيار والعسل والحلويات. لا أشمُّ أية رائحة! اللون موجود، والمذاق موجود، والرائحة مفقودة. كدت أُصاب بالجنون! وحلَّ

موسم الربيع، وأزهرت الأشجار، وأنا أرى كل شيء ولكن لا أشمُّ رائحة أي شيء. لقد اقتطعوا مني سنتمتراً مكعَّباً ونصف سنتيمتر من الدماغ، ويبدو أن إحدى العقد التي لها علاقة بالشمِّ قد أُزيلت. وأنا الآن بعد مرور خمسة أعوام لا أشمُّ عبير الزهور ورائحة دخان التبغ والعطور النسائية. ويمكن أن أشمَّ رائحة الكولونيا إذا كانت الرائحة غليظة وشديدة، لكن يجب وضع القنينة عند أرنبة الأنف. يبدو أن القسم الباقي من الدماغ أخذ لنفسه القدرة المفقودة على الشم. أعتقد ذلك.

في المستشفى العسكري تلقَّيت رسالة من صديق، وعلمت أن مصفَّحتنا دُمِّرت بواسطة لغم إيطالي الصنع. وشاهد بنفسه كيف انقذف مع المحرِّك جسدُ إنسان... وهو أنا.

خرجت من المستشفى وتلقَّيت منحة نقدية، ثلاثمئة روبل. إذا أُصيب الشخص بجروح خفيفة يتلقى مئة وخمسين روبلاً، أما إذا أُصيب بجروح خطيرة فيتلقَّى ثلاثمئة. وبعد ذلك عِشْ كما يحلو لك. المعاش التقاعدي زهيد، أو تصبح عالة على الوالدين. ولدى أبي حرب بلا حرب. ابيضَّ شعره، وأُصيب بداء ارتفاع ضغط الدم.

أنا لم أنضج في الحرب، بل أخذت أنضج بعدها. وجرى كل شيء بصورة معاكسة...

استُدعيتُ إلى الخدمة العسكرية في عام 1981. وقد تواصلت الحرب على مدى عامين، لكنَّ الناس "المدنيين" لم يعرفوا عنها إلا القليل ولم يتحدَّثوا عنها إلا نادراً. وفي أُسرتنا ساد الاعتقاد بأنه ما دامت الحكومة قد أرسلت القوَّات إلى هناك فهذا ما يجب القيام به. وكان والدي والجيران يفكِّرون بهذه الصورة. ولا أذكر أنَّ أحداً كان يفكِّر بشكل آخر. وحتى النساء لم ينتحبن، لأن الأحداث تجري في مكان بعيد ولا تبعث على الخوف. إنها حرب ولا حرب، وإذا كانت حرباً فهي غريبة من نوعها، بدون قتلى وأسرى. ولم يرَ أحد توابيت الزنك. وفيما بعد عرفنا بأنه جُلبت التوابيت

إلى المدينة، لكن جرى الدفن سرّاً، ليلاً، وكُتب على شواهد القبور "تُوفّي" بدلاً من "استُشهد". ولم يطرح أحد السؤال: لماذا صار الفتيان في سن 19 عاماً يُتوفُّون في الجيش؟ هل بسبب الفودكا أم الإنفلونزا؟ لربّما أفرطوا في أكل البرتقال؟ كان الأقرباء يبكون، أمّا الباقون فكانوا يعيشون كشأنهم سابقاً إذا لم يمسَّهم الأمر. وكُتب في الصحف أن جنودنا يبنون الجسور ويغرسون الأشجار في ممرّات الصداقة، بينما يعالج أطبّاؤنا نساء وأطفال أفغانستان.

ولم يكن سرّاً لدى أحد في معسكر التدريب في فيتبسك أنه يجري تدريب الجنود من أجل إرسالهم إلى أفغانستان. كان الكثيرون يسعون إلى "التهرُّب من الخدمة" بأي ثمن. واعترف أحدهم بأنهم يخشون، حسب قوله، أن يقتلونا جميعاً هناك، وصرتُ أحتقره. وقُبيل الرحيل رفض أحدهم السفر: في البداية عن طريق الاحتيال بحجّة أنه فقد بطاقة الكمسمول[8]، فعُثر عليها. ومن ثم زعم أن فتاته تضع طفلاً. وأنا اعتبرته شخصاً غير طبيعي، فقد كنا نسافر من أجل القيام بثورة! هذا ما قيل لنا، ونحن صدَّقنا. وتصوَّرنا أنه ينتظرنا شيء ما رومانسي.

الرصاصة تصيب الفرد، وتسمعها –لا يمكن نسيان ذلك، ولا يمكن خلطها بأي شيء آخر– إنها صدمة وطرطشة متميزة. سقط إلى جانبي فتى من معارفي ووجهه إلى الأسفل نحو التربة نفَّاذة الرائحة كالرماد. فقلبته على ظهره ووجدت بين أسنانه سيجارة كنت قد أعطيتها له قبل قليل، والدخان ما زال يتصاعد منها... لم أكن مستعداً لإطلاق النار على إنسان، إذ أنني ما زلتُ قادماً لتوِّي من الحياة المسالمة، من السلام... ولأوَّل مرَّة رحتُ أتصرَّف كما لو كنت في حلم: أهرول، وأسحب، وأطلق النار، لكن لا يبقى شيء في الذاكرة، وبعد المعركة لم أكن أستطيع الحديث. ويبدو كل شيء كما لو أنه خلف حاجز من الزجاج، ووراء وابل من المطر. إنه مثل كابوس رهيب.

8- منظمة الشبيبة الشيوعية في الإتحاد السوفيتي، تعرف بأنها القسم الشبابي للحزب الشيوعي السوفيتي.

ويجعلني الخوف أستيقظ، لكنني لا أستطيع تذكُّر شيء. لقد تبيَّن أنه يجب من أجل معاناة الرعب أن تتذكَّره وتعتاد عليه. وبعد مضي أسبوعين أو ثلاثة أسابيع لا يتبقَّى من الفرد السابق أي شيء سوى اسمه. فهو ليس نفسه، بل شخصاً آخر. أعتقد أن الأمر بهذا الشكل، ويبدو أنه فعلاً بهذا الشكل... وهذا الآخر، حين يرى قتيلاً لا يشعر بالخوف، بل يفكِّر بهدوء أو بأسى في طريقة سحبه من الصخرة أو حمله في القيظ لمسافة عدَّة كيلومترات. إنه لا يتصوَّر، إنه يعرف الآن ما هي الرائحة المنبعثة من الأحشاء المتدلِّية من الجسد في الجو الحار، ويعرف أن رائحة غائط ودم الإنسان لا تزول بالغسل. الخيال؟ الخيال لا يهدأ. ويرى المرء في بركة ماء قذرة وسط المعدن المنصهر جماجم محترقة، كما لو أن أصحابها لم يكونوا قبل عدة ساعات يتصايحون، ويضحكون قبل موتهم. وبغتة يتراءى للمرء أن كل شيء اعتيادي، ويتمُّ ببساطة... ويتولَّد شعور من الهيجان والاضطراب الشديدين لدى رؤية القتيل: لست أنا القتيل! وهذا الشعور يزول بسرعة. ويجري مثل هذا التحوُّل بسرعة جدّاً. إنه يحدث لدى الجميع.

في الحرب لا يوجد لدى البشر سرٌّ في الموت. القتل هو مجرَّد الضغط على الزناد. لقد علَّمونا: يبقى على قيد الحياة من يُطلق النار أوَّلاً. ذلكم هو قانون الحرب. وقال الآمر: «يجب عليك عندئذ امتلاك القدرة على عمل شيئين: التحرُّك بسرعة وإطلاق النار بدقَّة. وأنا فقط من يفكِّر». كنا نطلق النار إلى الجهة التي يأمروننا بإطلاق النار إليها. وقد علَّموني أن أطلق النار إلى حيث يأمرونني. فكنت أطلق النار من دون شفقة على أحد. وكان في استطاعتي أن أقتل طفلاً، إذ كان يقاتلنا هناك الجميع: الرجال والنساء والشيوخ والأطفال... تسير القافلة العسكرية عبر قرية. في الشاحنة الأولى يصاب المحرِّك بعطب. فينزل السائق من القمرة، ويرفع غطاء المحرك... ثمَّة صبي في العاشرة من العمر ينهال عليه بالسكين، ويطعنه في الظهر، في موضع القلب. ويستلقي الجندي فوق المحرِّك، فأطلق النيران على الصبي ويتحوَّل

إلى منخل... لو أُعطي الأمر لنا لحوَّلنا القرية كلها إلى رماد، لمحوناها من وجه الأرض. لقد كان كل فرد يسعى إلى البقاء على قيد الحياة. لم يكن هناك وقت للتفكير. كنا في عمر بين الثامنة عشر والعشرين. أنا اعتدت على موت الآخرين، بينما كنت أخشى أن أموت. وشاهدت كيف لا يتبقَّى شيء من الإنسان في لحظة خاطفة، كما لو أنه لم يوجد أصلاً. ويُرسل إلى الوطن الزيُّ العسكريُّ الاحتفاليُّ في التابوت الفارغ. ويُهال فيه التراب الغريب من أجل إكسابه الوزن المطلوب... بودِّي أن أحيا. لم أود أبداً من قبل أن أحيا كما وددت هناك. وعندما نعود من المعركة، نضحك. ولم أضحك هكذا أبداً كما ضحكت هناك. وكانت الفكاهات القديمة تتردَّد عندنا كما لو كانت أحسن الفكاهات. سأذكر ولو واحدة منها...

ذهب أحد تجَّار السوق السوداء إلى الحرب. وكان أوَّل ما استوضحه من الآخرين هو كم عدد الصكوك التي تُسدَّد مقابل كل أسير من "الأشباح[9]". وجرى تثمينه بثمانية صكوك. وبعد يومين ثار الغبار بالقرب من الحامية: فقد اقتاد التاجر أمامه مئتي أسير. وسأله صديقه: «بعني أحدهم. سأعطيك سبعة صكوك»، فأجاب: «كلا يا عزيزي. أنا اشتريته نفسي بتسعة صكوك».

وتُروى النكتة مئة مرة، فيضحك السامعون لدى سماعها للمرَّة المئة. كان الجنود يقهقهون لأتفه الأسباب.

يستلقي "الشبح" وفي يده قاموس. إنه قنَّاص. رأى ثلاث نجوم صغيرة، إنه ملازم أوَّل... قلَّب أوراق القاموس: مقابل ثلاث نجوم يحصل على خمسين ألف أفغاني[10]. طق! نجمة كبيرة واحدة، رائد؛ مئتا ألف أفغاني. طق! نجمتان صغيرتان – ملازم ثاني. طق! وفي الليل يسدِّد زعيم المجاهدين الثمن: يعطي مقابل الملازم أوَّل أفغانياً واحداً. ومقابل الرائد أفغانياً... مقابل أي شيء؟ الملازم ثاني؟! أنت قتلت معيلنا. من يبيع لنا الحليب المركَّز والمعلَّبات والأغطية؟ اشنقوه!

9- الشبح – تُطلق هذه التسمية عادة على الدوشمان – المجاهدين الأفغان. (المترجم)
10- أفغاني: المقصود العملة الأفغانية.

تحدَّثوا كثيراً عن النقود. أكثر من الحديث عن الموت. أنا لم أجلب شيئاً. الشظايا التي استخرجت من جسمي – هذا كلُّ ما جلبته. والبعض استحوذ على أواني الفخَّار والأحجار الكريمة والمصوغات والسجاجيد. جرى هذا في أثناء المعارك لدى اقتحام القرى. والبعض اشترى الأشياء، أو استبدلها بشيء آخر. وجرت مبادلة مخزن رصاص الرشَّاش بطقم من أدوات التجميل: كحل وبودرة وظل العين من أجل الحبيبة. وكانت الخراطيش تُباع وهي مغلية... إن الرصاصة المغلية لا تنطلق، بل تنقذف متطايرة في الاتجاهات كافَّةً من فوهة الرشَّاش، ولا يمكن قتلُ أحدٍ بها. وكان يُؤخذ دلو أو طاس وتُلقى فيه الرصاصات ثم تُغلى لمدَّة ساعتين، وتكون جاهزة! وفي المساء تُؤخذ للبيع. وكان يمارس هذا النوع من التجارة القادة والجنود، الأبطال والجبناء. واختفت من المطاعم السكاكين والأطباق والملاعق والشوكات. واختفت من الثكنات الكؤوس المعدنية والكراسي بلا مسند والفؤوس. وفُقدت حِراب الرشَّاشات ومرايا الشاحنات والسيَّارات والأدوات الاحتياطية، بما في ذلك الميداليات والأوسمة... كان أصحاب الدكاكين يشترون أي شيء، حتى القمامة التي تنقل من المدينة العسكرية: المعلَّبات الفارغة والصحف القديمة والمسامير الصدئة وقطع الأخشاب المعاكس وأكياس السلوفان. وكانت القمامة تُباع بحمولة سيَّارة كاملة. ويجد الطريق دوماً الدولار والماء، في كل مكان. ثمَّة ثلاثة أحلام للجندي: شراء وشاح رأس لأمِّه، وطقم أدوات تجميل لصديقته، وله شخصياً سروال السباحة، فلم تكن هذه السراويل متوفِّرة آنذاك في الاتحاد السوفيتي. تلكم كانت الحرب.

كانت تطلق علينا تسمية "الأفغان". اسم غريب. إنه مثل شارة، وصمة. نحن لسنا مثل جميع الآخرين. نختلف عنهم. بمَ؟ أنا لا أعرف من أنا: بطل أم أحمق ينبغي أن يُشار إليه بالبنان؟ لربَّما أنا مجرم؟ يُقال الآن إنها كانت خطأً سياسياً. يقولون هذا اليوم بصوت خافت، وغداً بصوت أعلى. لكنني أرقت دمائي هناك؛ دمائي، ليست دماء غيري. لقد منحونا أوسمة لا نحملها، وسنعيدها في المستقبل. الأوسمة التي حصلنا عليها بشرف في حرب غير

شريفة. ويدعوننا إلى التحدُّث في المدارس. وعمَّ نتحدَّث؟ عن العمليات العسكرية وعن أوَّل قتيل؟ وعن أنني ما زلتُ حتى اليوم أخشى الظلام؟ وإذا ما سقط شيءٌ ما فإنني أختلج؟ وعن كيف كنا نقبض على الأسرى لكي نأخذهم إلى الكتيبة... ليس دائماً (يصمت). خلال عام ونصف من الحرب لم أرَ دوشماناً حيّاً واحداً، بل رأيتهم أمواتاً فقط. وعن مجموعة الآذان البشرية المقطوعة المجفَّفة؟ وعن غنائم الحرب التي نتفاخر بها؟ وعن القرى بعد قصفها بالمدافع والتي لا تشبه المساكن بل الأرض المحروثة؟ هل يريدون سماع ذلك في مدارسنا؟ لا، هناك يحتاجون إلى الأبطال. وأنا أذكر كيف كنا ندمِّر ونقتل، وفور ذلك نبني ونقدِّم الهدايا. هذا كله كان يجري قريباً مني، بحيث إنني لا أستطيع حتى الآن فصلها عن بعضها البعض. إنني أخاف هذه الذكريات، وأختبئ منها، وأبتعد عنها. ولا أعرف شخصاً واحداً عاد من هناك من دون أن يشرب الخمر ويدخِّن. إن السجائر الخفيفة لا تنقذني، بل أبحث عن سجائر «اخوتنيتشي» التي كنا ندخِّنها هناك، بينما منعني الأطبَّاء من التدخين... إن نصف رأسي من الحديد، ولا أستطيع شرب الخمر...

لا تكتبي قط عن أخوَّتنا الأفغانية. فلا وجود لها، وأنا لا أؤمن بوجودها. لقد توحَّدنا في الحرب: فقد خدعونا سوية، وأردنا سوية البقاء على قيد الحياة، وأردنا سوية العودة إلى بيوتنا. ويوحِّدنا هنا أنه لا يوجد لدينا أي شيء، وتُوزَّع خيرات بلادنا وفق المحسوبية والامتيازات. إنهم يحتاجون إلى دمائنا. ولدينا مشكلة واحدة هي: التقاعد والشقق والأدوية الجيِّدة والأطراف الاصطناعية والأثاث، وبحلِّها تنهار أنديتنا. فلئن حصلت على الشقة والأثاث والثلاجة وماكينة الغسيل والتلفزيون الياباني – عندئذ ينتهي كل شيء! ويصبح واضحاً فوراً أنه لا يوجد لدي ما أفعله في هذا النادي. الشباب لا يأتون إلينا، فهم لا يفهموننا. بدا كما لو أنه جرت معادلتنا بالمشاركين في الحرب الوطنية العظمى، لكنَّ أولئك دافعوا عن الوطن، أما نحن؟ كنا نقوم بدور الألمان – كما قال لي أحد الشبَّان. وأعتقد أن الأمر كذلك. كذلك... هكذا ينظرون إلينا، ونحن نغتاظ منهم. كانوا يستمعون هنا إلى الموسيقى ويرقصون مع

الفتيات، ويطالعون الكتب، أما نحن فكنا نأكل العصيدة النيِّئة وتنفجر بنا الألغام. كلُّ من لم يكن معي هناك، ولم يرَ، ولم يتألَّم، ولم يُمتحن بالكرب، هو غير موجود بالنسبة إليَّ.

بعد عشرة أعوام حين ستبدأ بالظهور آثار الإصابة بالتهابات الكبد ورجات الدماغ والملاريا، سيتمُّ التخلُّص منا؛ في العمل، وفي الوطن. سيكفُّون عن إجلاسنا على منصَّة هيئات الرئاسة. سنكون جميعاً عبئاً ثقيلاً عليهم. ما الغرض من كتابك؟ من أجل من؟ لن يُعجب به أحدٌ منا في الأحوال كافَّة، نحن الذين عدنا من هناك. وهل يمكن أن تُروى جميع الأحداث كما هي؟ وكيف رقد الجمال والبشر القتلى في بركة دم واحدة، واختلطت دماؤهم؟ من يحتاج إلى هذا؟ نحن جميعاً غرباء في ديارنا، وكل ما بقي لدي هو بيتي وزوجتي والطفل الذي ستلده قريباً. وثمَّة عدَّة أصدقاء من هناك، وأنا لا أثق بأي أحد غير هؤلاء.

أنا لا أثق فعلاً.

جندي، من رماة راجمات القنابل

لقد لزمت الصمت عشرة أعوام... لزمت الصمت عن كل شيء.

جاء في الصحف: قامت الكتيبة بمسيرة تدريبية، ونُفِّذ إطلاق نار تدريبي. كنا نقرأ ذلك ونشعر بالإساءة. يمكن أن تصنع ثقباً في جسد السيَّارة بواسطة مفك، بينما هي هدف للرصاصة. في كل يوم كانوا يطلقون النار علينا، ويقتلوننا. قتلوا بالقرب مني فتى من معارفي. كان أوَّل قتيل يسقط أمام سمعي وبصري. ولم نكن قد تعرَّفنا على أحدنا الآخر كما يجب... أُطلقت النيران من مدفع هاون، ونازع الموت فترة طويلة، أُصيب جسده بشظايا كثيرة. لم يتعرَّف علينا. لكنه استدعى رجالاً لم نعرفهم...

قبيل السفر إلى كابُل كدتُ أتشاجر مع أحدهم، بينما أبعده صديقه عني.

- «مالك تخاصمه؟ غداً سيسافر إلى الأفغان!».

لم يكن لدينا هناك قِدر لكلٍّ واحد، وملعقة لكل واحد. فالقدر واحد ونتجمهر حوله جميعاً، وعددنا نحو الثمانية. لكن الأفغان ليست رواية بوليسية، وليست مغامرة. يرقد فلاح قتيل، الجسد نحيف والذراعان ضخمتان. في أثناء القصف تبتهل (إلى من تبتهل، لا أعلم، تبتهل إلى الرب): لتنشق الأرض وتخفيني في طيَّاتها. ولتنشق الصخرة... الكلاب تطلق عواءً مديداً. تعوي بألم الكلاب الخاصَّة بالبحث عن الألغام. إذ كانت أيضاً تُقتل وتُجرح. كلاب وبشر قتلى، وكلاب الحراسة والبشر تلفُّهم الضمادات. البشر بلا ساقين والكلاب بلا أطراف. ولا يمكن معرفة أين دم الكلاب وأين دم البشر فوق الثلج. وتكون الغنائم من الأسلحة: صينية، أمريكية، باكستانية، سوفيتية، إنكليزية - وعجبت لكونها جميلة، لكن هذا ليس من أجل قتلك. رعب! أنا لا أخجل من هذا الرعب. الرعب أكثر إنسانية من الجرأة، وقد

أدركت ذلك. إنك تخاف وتشفق ولو على نفسك. أتطلع حولي، وأبدأ بملاحظة مسيرة الحياة. الكل سيبقى حياً، بينما أنت ستختفي من الوجود. أنا لا أريد التفكير في أن أرقد مسكيناً وبائساً، على مسافة ألف كيلومتر عن البيت. البشر يحلِّقون الآن في الفضاء، لكنهم يواصلون ممارسة قتل بعضهم البعض، كما كانت الحال قبل آلاف الأعوام، بالرصاص والسكاكين والحجارة.. وقُتل جنودنا في القرى بالمذار الخشبية.

عدت إلى البيت في العام واحد وثمانين... كل شيء أُعِدَّ للترحيب بهتاف "هورا". فقد نفَّذنا الواجب الأممي! المقدَّس! أبطال! وصلنا إلى موسكو صباحاً، في الصباح الباكر. وصلنا بالقطار. وجاءت الحافلة في المساء فقط. لم أستطع الانتظار. وسافرت بعدَّة وسائل نقل: إلى موجايسك بالقطار الكهربائي، وإلى غاغارين بالحافلة العمومية، ومن ثم توجَّهت إلى سمولينسك بوسائل النقل المختلفة المارة. ومن سمولينسك ركبت شاحنة إلى فيتبسك. لم يأخذ أحدٌ مني نقوداً عندما علموا أنني قادم من أفغانستان. لقد بقي هذا في ذاكرتي. وقطعت مسافة آخر كيلومترين مشياً على الأقدام، وهرولةً. وهكذا وصلت إلى بيتي.

في البيت، رائحة أشجار الحور، وعربات الترامواي تطلق رنيناً، وثمة فتاة تتناول الآيس كريم. وأشجار الحور، أشجار الحور ذات العبير! وهناك الطبيعة، فيها المنطقة الخضراء، ما يُسمَّى بـ«زيليونكا» التي تطلق النار منها. لكم وددت أن أرى شجرة البتولا وطائر الزمير عندنا. كنت أخشى الزوايا، واقتربت من البيت من وراء الزاوية... الزاوية أمامي، ويعتصر كل عضو في بدني. مَن هناك وراء الزاوية؟ وبعد ذلك، وحتى عقب مرور عام واحد، كنت أخشى الخروج إلى الشارع: فلا يوجد لدي سترة مضادة للرصاص، ولا خوذة حديدية، ولا رشَّاش. أنا كالعاري. وفي الليالي راودتني الأحلام: أحدهم يوجِّه إلى جبيني سلاحه ذا العيار الكبير مما يمكن أن يقتلع نصف رأسي. اندفعت نحو الدار. أسمع رنين الهاتف، فيتدفَّق العرق على جبيني

- إنهم يطلقون النار! من أين؟ تبدأ عيناي بالبحلقة في الأنحاء كافَّة. فتقابلني خزانة الكتب... آه! أنا في البيت...

تكتب الصحف كالسابق: طيَّار المروحية (س) قام برحلة تدريبية، ومُنح وسام النجمة الحمراء... وفي كابُل أُقيمت حفلة موسيقية بمناسبة الأوَّل من مايو (أيار) بمشاركة الجنود السوفيت... أفغانستان حرَّرتني. شفتني من الاعتقاد بأن كل شيء عندنا صائب والصحافة صادقة. وسألت نفسي: «ما العمل؟ ما العمل؟». أردت الإقدام على خطوة ما، والذهاب إلى مكان ما. إلى أين؟ أقنعتني أمِّي بأن لا أفعل ذلك، ولم يدعمني الأصدقاء بحجَّة أن الجميع صامتون. هذا ما يجب عمله.

هذا هو حديثي إليك... لقد حاولت التحدُّث عمَّا أفكر فيه. أنا لم أعتد ذلك.

جندي، من رجال المشاة الميكانيكية

أنا أخشى البدء بالحديث. فستعود إليَّ مجدَّداً تلك الأشباح...

في كل يوم، في كل يوم كنت أقول لنفسي وأنا هناك: «أنا حمقاء، حمقاء. لماذا فعلت ذلك؟». وتراودني في الليالي على وجه الخصوص مثل هذه الأفكار، عندما لا أعمل، بينما كانت لديَّ في النهار أفكار أخرى: كيف أساعد الجميع؟ الجروح فظيعة... وقد صُعقت: لمَ كل هذه الرصاصات؟ من ابتدعها؟ وهل ابتدعها إنسان؟ فتحة الجرح صغيرة، وفي الداخل الأمعاء والكبد والطحال جميعها مقطَّعة وممزَّقة. ولا يكفي قتل الإنسان وجرحه، بل يجب أيضاً إرغامه على معاناة الألم... كانوا يصرخون دوماً، «ماما!»، حين يشعرون بالألم. أنا لم أسمع كلمات أخرى...

رغبت في السفر من لينينغراد لمدة عام أو عامين، ووجب السفر؛ فقد تُوفِّي طفلي، ثم تُوفِّي زوجي. ولم تكن هناك أية رابطة تربطني بالمدينة. بل بالعكس، إذ كان كل ما فيها يجعلني أتذكَّر، ويلاحقني. فهنا التقيته، وهناك تبادلتُ القبلات معه لأوَّل مرَّة. وفي دار الولادة هذه وضعت الطفل...

استدعاني كبير الأطبَّاء وقال:

- «هل تذهبين إلى أفغانستان؟».

* «نعم. سأذهب».

قيل لنا إن الحرب هناك عادلة، ونحن نساعد الشعب الأفغاني في التخلُّص من الإقطاع وفي بناء المجتمع الاشتراكي الوضاء. وسكتوا عن أن فتياننا يُقتلون هناك، وفهمنا أن هناك الكثير من الأمراض المعدية: الملاريا والتيفوئيد والتهاب الكبد. العام ثمانون... البداية. وصلنا إلى كابُل. خُصِّص

اسطبل إنكليزي قديم لتحويله إلى مستشفى عسكري. لم يوجد أي شيء... ثمَّة إبرة حقن واحدة للجميع! الضبَّاط يشربون الكحول، وتُعالَجُ الجروح بالبنزين، والجروح تلتئم ببطء. لقد ساعدت الشمس، فالشمس الساطعة تقتل الميكروبات. وشاهدت أوَّل الجرحى بالملابس الداخلية والجزم، بدون منامات، فالمنامات ظهرت في وقت لاحق. والنعال أيضاً مفقودة. والأغطية... يوجد غطاء لدى أحد الفتيان. وأنا أتذكَّر هذا الفتى: كان التقيُّح يغطِّي جسده كله، وبدا كما لو أنه بلا عظام، الساقان كالحبال. واستخرجتُ من جسده عشرين شظية.

أمضيت شهر مارس كله هناك بالقرب من عنابر المستشفى، وكنا نتلَّقى الأذرع والسيقان المبتورة. أما الجثث، فكانت في قسم خاص... الجثث شبه عارية، بعيون مسمَّلة، وفي إحداها حُفرت علامة النجمة فوق البطن. شاهدتُ شيئاً مماثلاً من قبل في السينما عن الحرب الأهلية، ولم تكن موجودة بعد توابيت الزنك، فلم تكن قد صُنعت بعد.

وسرعان ما بدأنا نفكِّر: من نحن؟ ولم تلقَ شكوكنا الرضا لدى المسؤولين. لم تكن قد توفّرت النعال والمنامات بعد، بينما عُلِّقت اللافتات والشعارات والنداءات التي جُلبت. وبدت أمام خلفية الشعارات هيئة فتياننا الهزيلة البائسة. لقد بقوا في ذاكرتي إلى الأبد. كانت تُنظَّم دروس توعية سياسية مرّتين في الأسبوع، وكانوا يُلقِّنوننا طوال الوقت: الواجب المقدَّس، والحدود يجب أن تكون مصانة. ولعل أبشع ما في الجيش هو الوشايات، والأمر بممارسة الوشاية حول أتفه الأمور، حول كل جريح ومريض. وكانت تُطلق على ذلك تسمية معرفة اتجاهات التفكير. الجيش يجب أن يكون معافى، ويجب تبليغ "الوشايات" حول الجميع، وبلا شفقة. لكن كانت تراودنا الشفقة، فقد اعتمد الجميع هناك على الشفقة والرحمة.

لقد سافرنا إلى هناك من أجل الإنقاذ والمساعدة والمحبَّة. لقد سافرنا من أجل ذلك. وبعد مضي فترة طرأت عليَّ فكرة أنني صرت أحقد. أحقد

على هذا الرمل الناعم والخفيف، الذي يحرق كالنار. وأكره هذه الجبال، وأكره هذه القرى الواطئة البيوت التي يمكن أن ينطلق منها الرصاص في أية لحظة، وأكره الأفغاني عابر الطريق الذي يحمل سلَّة فيها الشمَّام، أو الواقف أمام بيته، فلا يُعرف أين كان الليلة الماضية وماذا فعل. لقد قتلوا ضابطاً من معارفي تلقَّى العلاج في المستشفى العسكري منذ فترة قريبة، وذبحوا الجنود في خيمتين... وفي مكان أخرى دُسَّ السُّمُّ في الماء. ورفع أحدهم قدَّاحة جميلة فانفجرت في يديه. إنهم جميعاً فتياننا الذين لقوا حتفهم، فتياننا، يجب أن يفهم ذلك. لم تروا جثَّة إنسان محترقة؟ لم تروها. بلا وجه وبلا عينين وبلا جسد، بل ثمَّة شيء متغضِّن، تغطِّيه قشرة صفراء... لا صراخ، بل زمجرة تنبعث من تحت هذه القشرة...

كنا نحيا هناك ويغمرنا الحقد، ونصمد للبقاء بالحقد. أما الشعور بالذنب؟ لقد عرفناه هنا وليس هناك، عندما نظرت إلى ذلك من بعيد. فقد تراءى لي هناك أن كل شيء عادل، أما هنا فقد تملَّكني الهلع عندما تذكَّرت الصبية الصغيرة المرمية فوق التراب بلا ذراعين وساقين. إنها مثل دمية محطَّمة، بعد القصف من جانب قوَّاتنا. بينما كنا نعجب لماذا لا يحبُّوننا في حين كانوا يتلقَّون العلاج في مستشفانا. وعندما تقدِّم الدواء إلى المرأة، لا ترفع نظرها إليك، ولا تبتسم لك أبداً. وقد أثار ذلك الاستياء لدينا. أثار الاستياء هناك، أما هنا فلا، فأنت هنا إنسان طبيعي، وقد استرجعت جميع المشاعر.

إن مهنتي طيِّبة؛ هي الإنقاذ، وهي التي أنقذتني. وقد يُمكن تبرير الأمر بأنه كانت ثمَّة حاجة إلينا هناك. وقد عملنا على إنقاذ جميع من يمكن إنقاذهم، وهذا أفظع شيء. كنا نستطيع إنقاذ إنسان ما، لكن لم يتوفَّر الدواء اللازم. وكان في وسعنا إنقاذ آخر، لكنه نُقل إلينا بعد فوات الأوان (من قبل رجال السَّرِيَّة الطبِّية- وهم رجال لم يتلقَّوا التدريب الجيِّد، وتعلَّموا فقط شدَّ الضمادات). كان في وسعنا إنقاذ جريح، لكننا عجزنا عن إيقاظ الجرَّاح المخمور. كان في وسعنا إنقاذ البشر، لكننا لم نستطع حتى كتابة الحقيقة في تبليغات الوفاة.

كانوا يُقتلون ساعةَ انفجار الألغام، وحينئذ لا يبقى من الإنسان سوى نصف دلو من اللحم... بينما كنا نكتب: لقي حتفه في حادث طريق، وسقط في هوة، وتناول طعاماً فاسداً. وعندما بلغ عدد الضحايا عدَّة آلاف سُمح لنا بقول الحقيقة إلى ذويهم وأقاربهم. وأنا اعتدت على رؤية الجثث، لكن كان من المستحيل التسليم بفكرة كونهم من الشباب والأعزَّاء والصغار.

نُقل إلينا أحد الجرحى، وكنت أنا في المناوبة بالذات. فتح عينيه ونظر إليَّ:

- «انتهى الأمر». لقد أسلم الروح.

كان قد جرى البحث عنه في الجبال خلال ثلاثة أيام، وعثروا عليه ثم جلبوه. كان يهذي: «الطبيب! الطبيب!». وعندما رأى الصدار الأبيض اعتقد بأنه أُنقذ! لكن جروحه كانت تتجافى عن الحياة. وعرفت للتو ما القضية: الجرح؛ إنه في داخل قحف الجمجمة... إنني أحتفظ في ذاكرتي بمقبرة خاصة بي، وبمعرض لصور وجوه خاص بي، داخل إطار أسود.

لم يتساووا حتى في الموت. ولسببٍ ما كان الإشفاق أكثر على من يُقتل في أثناء المعركة. أما الإشفاق على من يموت في المستشفى فهو أقل. وأحياناً كانوا يصرخون في النزع الأخير، وما أشدَّ صياحهم! وتحضرني في ذاكرتي وفاة رائد في قسم الإنعاش، مستشار عسكري. عادته زوجته، ومات أمام سمعها وبصرها. وكان قد بدأ بإطلاق زعيق شديد... كالحيوان. أردت أن أغلق الأبواب كافَّة، بغية ألا يسمعه أحد، لأنه كان ينازع الموت وهناك العديد من الجنود، الفتيان، ولم يوجد هناك من يندبهم. كانوا يموتون لوحدهم على انفراد. وكانت غريبة بيننا...

- «ماما! ماما!».

فأقول له: «أنا هنا يا ولدي». وأحتضنه.

لقد أصبحنا بالنسبة إليهم كأمَّهات وأخوات. وكان بودِّي دوماً تبرير هذه الثقة.

جلبوا مرَّة جندياً جريحاً. وسلَّموه دون أن ينصرفوا:

- «يا فتيات، نحن لسنا في حاجة إلى أي شيء. فهل يمكننا فقط الجلوس عندكم؟».

هنا في الوطن لديهم أمَّهات وأخوات، وزوجات. هنا لا يحتاجون إلينا. أما هناك فكانوا يصارحوننا بأمور لا يتحدَّثون بها إلى أي أحد في حياتنا هنا. فإن أنت سرقت من رفيقك الحلوى بالشوكولاتة وأكلتها، يعتبر هذا الأمر هنا شيئاً تافهاً. أما هناك فهو خيبة أمل كبيرة في شخصك. إن تلك الظروف تكشف خبايا النفس. فإذا كان الفرد جباناً فسرعان ما يتَّضح أنه جبان. واذا كان واشياً فسرعان ما يتبيَّن أنه واشٍ. وإذا كان زير نساء، فيعرف الجميع بأنه زير نساء. وأنا لست واثقة فيما إذا كان أحدٌ ما يعترف هنا، لكنني سمعت هناك من أكثر من فرد: قد يعجبني القتل، والقتل متعة. هذا شعور حاد. وقد سافر برابورشيك من معارفي إلى الاتحاد السوفيتي، وقال بصراحة: «كيف سأعيش الآن؟ فأنا أريد أن أقتل». أعتقد أن هذه شهوة أيضاً؛ فهم يتحدَّثون عن ذلك بهدوء. يتحدَّث الفتيان - بابتهاج! - عن كيف أحرقوا قرية، ودمَّروا وسحقوا كل شيء. هل هم ليسوا مجانين؟ كم عدد مثل هؤلاء العائدين من هناك، والذين لا يكلِّفهم قتل إنسان أي عناء؟ زارنا مرَّة ضابط قدم من قندهار. وفي المساء كان من المنتظر أن نودِّعه، لكنه أغلق الباب على نفسه في غرفة خالية وأطلق النار على نفسه. قيل إنه كان مخموراً، لكنني لا أعرف. وضع صعب. كان من الصعوبة أن يعيش المرء يوماً واحداً هناك، فقد انتحر فتى كان في نوبة الحراسة بإطلاق النار على نفسه. وقف ثلاث ساعات تحت لهيب الشمس. والفتى كان مدلَّلاً في بيته، فلم يستطع تحمُّل ذلك. ووجد كثير من المجانين. في البداية كانوا في الردهات المشتركة بالمستشفى العسكري، وفيما بعد وُضعوا على انفراد، وصاروا يهربون، وكانت تخيفهم الحواجز المشبكة. كان وضعهم أيسر لدى البقاء مع الجميع. وأذكر أحدهم على الأخص:

- «اجلسي. سأغنِّي لك إحدى أغاني الجنود المسرَّحين من الجيش».

وصار يغنِّي ويغنّي ثمَّ استسلم إلى الوسن.

عندما استيقظ ردَّد:

- «إلى البيت! إلى البيت! إلى ماما... المكان قائظ هنا».

وأخذ يتوسَّل طوال الوقت طالباً الرجوع إلى البيت.

مارس الكثيرون عادة التدخين؛ تدخين الحشيش والماريوانا. وكل واحد يدخِّن ما يستطيع الحصول عليه. وأوضحوا قائلين إنهم يصبحون عندئذ أكثر قوَّة وتحرُّراً من أي شيء. وقبل كل شيء من الجسد نفسه. ويشعر المرء كما لو أنه يمشي على أطراف أصابع قدميه، ويتحسَّس الخفَّة في كل خليَّة في جسده، ويشعر بكل عضلة. وتتولَّد الرغبة لديه في الطيران. كما لو أنه يطير فعلاً! ثمَّة بهجة عارمة. ويشعر المرء بالإعجاب بكل شيء مهما كان تافهاً. ويسمع بشكل أفضل، ويرى بشكل أفضل. ويميِّز الروائح والأصوات بقدر أكبر. وفي هذا الوضع يكون القتل أسهل - فقد تصلَّبت روحه ولم تعد تعرف الألم. ولا توجد شفقة، والموت أسهل - فالخوف يزول. يتولَّد لديك الشعور بأنك ترتدي السترة الواقية من الرصاص، وبأنك مدرَّع. كنت أمتلك القدرة على الإصغاء إليهم. وحدث مرتين، أنني أنا نفسي، دخَّنت. وفي الحالتين كنت في وضع نفسي وجسدي لا يتحمَّل الصبر. عملت في قسم الأمراض المعدية. وكان المفروض أن يكون فيه ثلاثون سريراً، ولكن رقد هناك ثلاثمئة شخص: التيفوئيد والملاريا. ووزعت عليهم الشراشف والأغطية، بينما كانوا يرقدون على معاطفهم فوق الأرض العارية، بالسراويل الداخلية. رؤوسهم حليقة تماماً، بينما يتناثر منهم القمل، في الملابس، وفي الرؤوس. لم أتصوَّر وجود هذه الكمية من القمل... وفي القرية المجاورة كان الأفغان يرتدون منامات المستشفى الخاصة بنا، وعلى رؤوسهم شراشفنا بدلاً من العمامات. نعم، كان فتياننا يبيعون كل شيء. وأنا لا أدينهم. لا... غالباً ما لا أدينهم. إذ كانوا يموتون مقابل ثلاثة روبلات شهرياً - فقد كان الجندي عندنا يستلم ثمانية صكوك في الشهر، أي ثلاثة روبلات. وكانوا يُطعمون لحماً فيه دود وسمكاً

نتناً، وأُصبنا جميعاً بداء الإسقربوط[11]، وفقدت جميع أسناني الأمامية. كانوا يبيعون الأغطية من أجل شراء الحشيش، أو بعض الحلويات، أو الأشياء التافهة. فهناك الدكاكين زاهية المنظر وفيها الكثير من الأشياء الجذابة. أما عندنا، في الاتحاد السوفيتي فلا وجود لها، ولم يشاهدوا هذا. فكانوا يبيعون السلاح والرصاص لكي يُقتلوا لاحقاً بهذا السلاح والرصاص، واشتروا مقابل ذلك الشوكولاتة... والفطائر.

وبعد هذا كله رأيت بلادي بعيون أخرى. فالحدقة أصبحت مغايرة، إذ توسَّعت.

كنت أشعر بالرعب من العودة إلى هنا. إنه شيء غريب، فقد أحسست كما لو سُلخ جلدي كله، وكنت أنتحب طوال الوقت، لم أستطع رؤية شيء باستثناء من كان هناك. وودت لو أقضي النهار والليل معهم، وبدت أحاديث الآخرين تافهة وسخيفة إلى حدٍّ ما، واستمر الحال على هذا المنوال قرابة نصف عام. والآن صرت أتشاجر في الطابور لدى شراء اللحم، وأسعى لكي أعيش حياة اعتيادية كما عشت "من قبل"، لكنني لا أستطيع. لقد أصبحت غير مبالية حيال نفسي وحياتي. الحياة انتهت، ولن يحدث أي شيء لاحقاً. وهذه المعاناة لدى الرجال أكثر إيلاماً، فالمرأة تستطيع التشبُّث بالطفل، بينما لا يوجد لديهم ما يتشبَّثون به. إنهم يعودون ويعشقون، وينجبون أطفالاً، ومع ذلك تبقى أفغانستان بالنسبة إليهم أسمى من كل شيء. وأنا نفسي أريد استكناه أسباب ذلك، ولماذا حدث كل هذا؟ ولماذا يؤثر ذلك فيَّ؟ هناك حشر كل شيء في لواعج النفس، بينما ينبجس خارجاً هنا.

ينبغي إبداء الشفقة عليهم، إبداء الشفقة على جميع من كان هناك. أنا إنسانة بالغة، فقد كنت في سن الثلاثين، وإذا بي أُصاب بهذه الصدمة والانهيار. أما هم، الصغار، فلم يفهموا شيئاً. لقد أخذوهم من بيوتهم ووضعوا الرشاشات بأيديهم. وقيل لهم: اذهبوا للدفاع عن قضية مقدَّسة، والوطن لن ينساكم أبداً.

11- مرض نقص فيتامين سي. يسبب خمولًا ومشاكل في اللثة وآلاماً في العضلات.

والآن يغضُّون النظر عنهم، ويسعون إلى نسيان هذه الحرب. الجميع! وفي مقدَّمتهم من أرسلنا إلى هذه الحرب. وحتى نحن أنفسنا نحاول في اللقاءات التحدُّث عن الحرب بقدر أقل. هذه الحرب لا يحبها أحد، ولو أنني ما برحت أبكي، عندما يعزفون النشيد الوطني الأفغاني. أحببت الموسيقى الأفغانية كلها. إنها كالمخدرات.

منذ فترة قريبة التقيتُ جندياً في الحافلة، وكنا قد عالجناه من جراحه، لكن فقد إحدى ذراعيه. تذكَّرته جيِّداً، فهو من أبناء لينينغراد أيضاً. فقلت له:

- «ربما تحتاج إلى مساعدة ما يا سريوجا؟».

فأجابني مغتاظاً:

* «اذهبي إلى الجحيم!».

أنا أعرف بأنه سيعثر عليَّ ويعتذر. ولكن من سيطلب المغفرة منه؟ ومِن جميع الذين كانوا هناك؟ من حطَّمتهم الحرب وسحقتهم؟ ناهيك عن الحديث عن المعوَّقين؟ بأي قدر لا يحبُّ البعض شعبه لكي يرسله إلى مثل هذه الحرب؟ إنني الآن لا أحب، ليس الحرب فقط، بل حتى الشجار بين الصبيان. ولا تقولوا لي إن هذه الحرب انتهت. ففي الصيف إذا ما تصاعد الغبار الساخن، ولمع بريق حلقة من المياه الآسنة، وانبعثت الرائحة النفاذة للأزهار الجافة، أشعر كما لو وُجِّهت إليَّ ضربة في صدغي.

وسيلاحقني ذلك طوال حياتي...

ممرضة

لقد وجدت الراحة من الحرب، وابتعدت عن ذكرياتها... كيف سأروي كل ما جرى؟

رجفة الجسد كله، وذلك الغيظ... كيف؟ أنهيت قبل التحاقي بالجيش الدراسة في المعهد الفنِّي لطرق السيَّارات، وكُلِّفت بقيادة سيَّارة قائد الكتيبة. ولم أشكُ من شيء في عملي. لكن بدأ الحديث عندنا بإلحاح عن مجموعة القوات السوفيتية المحدودة في أفغانستان، ولم تخلُ أية فترة توعية سياسية من ذكر هذا الموضوع. إن قوَّاتنا تحرس حدود الوطن، وتقدِّم المساعدة إلى شعب صديق. وساد القلق في صفوفنا، فقد يرسلوننا إلى الحرب. وكما أفهم الآن فلقد قرروا أن يخدعونا...

استدعونا إلى مقابلة قائد الوحدة، ووجَّه إلينا السؤال:

- «يا شباب، هل تريدون العمل في قيادة سيَّارات جديدة؟».

بلا ريب، أجبنا بصوت واحد:

* «نعم، نحن نحلم بذلك».

وأعقب ذلك القول التالي:

- «يجب عليكم أوَّلاً أن تسافروا إلى الأراضي البكر وتقدِّموا المساعدة في حصاد الحبوب».

ووافق الجميع.

وفي الطائرة سمعنا بالصدفة من الطيارين أننا نطير إلى طشقند. وانبثقت لدي بلا إرادتي الشكوك: هل نطير إلى الأراضي البكر حقاً؟ وهبطنا فعلاً في طشقند. واقتادونا في طابور إلى مكان قريب من المطار محاط بالأسلاك

الشائكة، فجلسنا. وبدا القادة في وضع غير طبيعي، فهم مضطربون ويتهامسون فيما بينهم. وحان وقت الغداء، وجُلبت إلى مكان وقوفنا صناديق قناني الفودكا الواحد تلو الآخر. وصدر الأمر:

- «وقوفاً بطابور في صفَّين!».

واصطففنا، وأبلغونا فور ذلك بأنه ستأتي بعد عدة ساعات طائرة لنقلنا، وسنتوجَّه إلى جمهورية أفغانستان لتأدية الواجب العسكري. القسم.

عندئذ بدأت البلبلة! الخوف والفزع حوَّلا البشر إلى حيوانات؛ بعضهم هادئ، والبعض الآخر غاضب. وطفق بعضهم يبكي في نشيج مخنوق بسبب ما لحقهم من إساءة، أما البعض الآخر فكان في حال ذهول، وغيبوبة بسبب هذا الخداع اللئيم الصعب التصديق. إذاً هذا كان سبب إعدادهم للفودكا، بغية تسوية الأمور معنا بشكل أيسر وأبسط. وبعد الفودكا، حين أصاب الرؤوس الدوار والثمل، حاول بعض الجنود الهرب، واشتبكوا بالأيدي مع الضبَّاط. لكن طوَّق المعسكرَ جنودٌ برشَّاشات، وأخذوا يوجِّهون الجميع قسراً نحو الطائرة. وفي الطائرة شحنونا كالصناديق، وألقوا بنا في داخل جوفها الحديدي الفارغ.

هكذا أصبحنا في أفغانستان. وسرعان ما شاهدنا الجرحى والقتلى وسمعنا كلمات: "استطلاع" و"معركة" و"عملية". وأعتقد، كما أفهم الآن، بأنني أُصبت بصدمة، ولم أسترجع حالتي الطبيعية وأدرك ما يجري حولي بوضوح إلا بعد عدَّة أشهر.

عندما سألت زوجتي: «كيف أُرسل زوجي إلى أفغانستان؟» أجابوها: «أعرب عن رغبته في التطوع». ولقيتْ مثل هذا الجواب جميع أمَّهاتنا وزوجاتنا. لو كانت ثمَّة حاجة إلى حياتي ودمي من أجل قضية كبرى لذهبت أنا نفسي وقلت: «سجِّلوني متطوِّعاً!». لكنني خُدعت مرَّتين: فقد أرسلوني إلى الحرب ولم يقولوا لي الحقيقة حول أي حرب هي، وعرفت الحقيقة بعد ثمانية أعوام. يرقد في القبور أصدقائي وهم لا يعرفون كيف خدعوهم بشأن

هذه الحرب الغادرة. إنني أحسدهم أحياناً لكونهم لن يعرفوا ذلك أبداً، ولن يخدعوهم أكثر مستقبلاً.

جندي، سائق

شعرت بشوق شديد إلى الوطن وأنا بعيدة عنه...

أدّى زوجي الخدمة العسكرية فترة طويلة في ألمانيا، ومن ثم في منغوليا. عشرون عاماً من حياتي خارج الوطن، الذي أحببته حبّاً جارفاً. وكتبت إلى هيئة الأركان العامة بأنني أمضيت حياتي كلها في الخارج، ولن أحتمل أكثر. أرجو تقديم المساعدة في العودة إلى الوطن...

ركبنا القطار، ومع ذلك أنا لم أكن أصدق بأننا نسافر. في كل لحظة كنت أسأل زوجي:

- «هل نحن نسافر إلى الاتحاد السوفيتي حقّاً؟ أنت لا تخدعني، أليس كذلك؟».

وفي أوّل محطّة أخذت بيدي قبضة من تراب الوطن، وطفقت أتطلّع إليها وأبتسم. إنها من وطني! لقد التهمتها، صدّقيني! ومسحت بها وجهي...

حبيبي، لي، لنا، يورا[12] ابني الأكبر. لا يجوز لأم أن تعترف بهذا، لكنني أحببته أكثر من الجميع في العالم. أكثر من زوجي، وأكثر من ابني الثاني. وكنت أحبُّهم جميعاً، لكنني أحببته بامتياز. وحين كان صغيراً كنت أمسكه من ساقه. ولم أكن أتصوَّر كيف سأذهب إلى السينما وأترك ولدي مع شخص آخر. كنت آخذه معي، هو الطفل في عامه الثالث، مع عدة قناني حليب، وأذهب إلى السينما. وفي وسعي القول إنني كنت طوال حياتي معه، وتولّيت تربيته فقط وفقاً لما يرد في الكتب، وفق طراز الشخصيات المثالية: بافكا كوراغين، أوليغ كوشيفوي، زويا كوسموديميانسكايا. وفي السنة الأولى في المدرسة

12- لفظة التحبُّب لاسم «يوري». (المترجم)

حفظ جميع الحكايات عن ظهر قلب، وحفظ -ليس أشعار الأطفال- بل صفحات كاملة من كتاب "كيف سقينا الفولاذ" لنيقولاي اوستروفسكي.

وأبدت معلِّمته ابتهاجها قائلة:

- «من هي أمُّك يا يورا؟ لقد قرأتَ الكثير من الكتب».

* «أمِّي تعمل في المكتبة».

كان يعرف المُثُل العليا، لكنه لم يعرف الحياة. وأنا أيضاً كنت أتصوَّر حين عشت فترة طويلة بعيدة عن الوطن أن الحياة تتألَّف من مُثُل عليا. وإليك هذه الحادثة... رجعنا إلى موطننا، حيث عشنا في تشيرنوفتسي. والتحق يورا للدراسة بالكلية العسكرية. وحدث مرَّة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل أن دُقَّ جرس الباب. كان واقفاً في العتبة.

- «ولدي؟ لماذا جئت في هذا الوقت المتأخِّر؟ وتحت وابل المطر؟ أنت مبلَّل كلياً».

* «ماما، لقد جئت لكي أقول لك إن حياتي صعبة. إن كل ما علَّمتِني إيَّاه لا وجود له. من أين أخذت كل هذا؟ إنها البداية فقط... وكيف سأحيا فيما بعد؟».

جلسنا طوال الليل في المطبخ. وماذا الذي كان في وسعي قوله؟ الشيء ذاته: الحياة رائعة، الناس طيِّبون. وكل شيء حق. أصغى إليَّ بهدوء. وفي الصباح ذهب إلى الكلِّية، علماً أنني طلبت منه بإلحاح أكثر من مرَّة:

- «يورا، اترك الكلِّية العسكرية، والتحق بمعهد مدني. مكانك هناك. أنا أرى كيف تتعذَّب».

لم يكن راضياً عن خياره، لأنه أصبح عسكرياً بمحض الصدفة. وكان من الممكن أن يصبح مؤرِّخاً قديراً، أو عالماً. كان يحيا مع الكتب. "يا لها من بلاد رائعة - اليونان القديمة!". وقرأ كلَّ ما يتعلَّق باليونان. ثم قرأ عن إيطاليا: «ماما، ليوناردو دافنشي كان يفكِّر في التحليق في الفضاء. وسيأتي

الزمن الذي سيُكشف فيه سرُّ ابتسامة الجيوكندا». وفي الصف العاشر سافر إلى موسكو في العطلة الشتوية، حيث يعيش هناك أخي العقيد المتقاعد. وتحدَّث يورا معه قائلاً: «أريد الالتحاق بكلِّية الفلسفة في الجامعة». لكنه عارضه قائلاً:

- «أنت فتى شريف، يا يورا. من الصعب أن يكون الإنسان فيلسوفاً في أيَّامنا. فيجب عندئذ أن تخدع نفسك والآخرين. وإذا قلت الحقيقة فسيُزجُّ بك في السجن أو مستشفى الأمراض العقلية».

وفي الربيع اتَّخذ يورا قراره:

- «ماما، لا تسأليني عن أي شيء، قرَّرت أن أصبح ضابطاً».

أنا رأيت في الثكنة العسكرية توابيت الزنك. لكن آنذاك كان ولدي الأوَّل في الصف السابع، أما الآخر فكان لا يزال صغيراً. وأملت في أن تنتهي الحرب حين يكبران. وهل يمكن أن تستمرَّ الحرب كلَّ هذه الفترة الطويلة؟ قال أحدهم في حفل تأبين يورا: «لقد ظهر أنها استمرَّت فترة الدراسة في المدرسة، أي عشرة أعوام».

حفل التخرُّج في الكلِّية العسكرية. ولدي ضابط. لم أفهم كيف يسافر يورا إلى مكان ما. ولم أتصوَّر حياتي حتى خلال لحظة واحدة من دونه.

- «إلى أين يمكن أن يرسلوك؟».

* «سأطلب السفر إلى أفغانستان».

- «يورا!!».

* «ماما، أنت تولَّيت تربيتي بهذا الطريقة، ولا تفكِّري الآن في إعادة تربيتي. أنت فعلتِ ذلك بشكل صحيح. أما جميع أولاد الحرام الذين التقيتهم في الحياة، فهم لا يمثِّلون شعبنا ووطني. سأتوجَّه إلى أفغانستان لكي أبرهن لهم على أنه توجد في الحياة مُثُلٌ عليا، ولا يحتاج الجميع من أجل السعادة إلى الثلاجة المملوءة باللحم وسيَّارات «لادا». ثمَّة شيء آخر. هكذا علَّمتِني».

لم يكن الوحيد الذي طلب إرساله إلى أفغانستان، فقد قدَّم مثل هذه الطلبات كثير من الشبَّان الآخرين، وجميعهم من عوائل طيِّبة. فوالد أحدهم رئيس مزرعة تعاونية "كولخوز"، ووالد الآخر معلِّم ريفي، والأمُ ممرِّضة.

ماذا كان في وسعي أن أقول لولدي؟ إن الوطن لا يحتاج إلى ذلك؟ أمَّا الذين أراد أن يبرهن لهم على شيء ما، فهم اعتقدوا، وسيواصلون الاعتقاد، بأن الرجال يذهبون إلى أفغانستان فقط من أجل شراء الخرق، والحصول على الصكوك، وكسب الأوسمة و المناصب. أمَّا زويا كوسموديميانسكايا بطلة المقاومة ضدَّ النازية فهي بالنسبة إليهم مجرَّد متعصِّبة، وليست مثلاً أعلى، لأن الإنسان العادي لا يفعل ما فعلتْه.

لا أدري ماذا حدث لي؛ بكيت، وتوسَّلت، واعترفت له بما كنت أخشى الاعتراف به بنفسي، وعمَّ تحدَّثنا فعلاً، فقد دار الحديث عنه همساً في المطبخ. وسألته:

- «يورتشكا، الحياة ليست البتَّة كما علَّمتك. وإذا علمتُ بأنك أُرسلت إلى أفغانستان فسأخرج إلى الساحة الحمراء، إلى مكان النطع، وسأسكب البنزين على جسدي وأحرق نفسي. سيقتلونك هناك ليس من أجل الوطن، سيقتلونك لسبب مجهول... هكذا بلا سبب. هل يمكن أن يرسل الوطن خيرة أبنائه إلى الهلاك بلا فكرة عظيمة؟».

لقد خدعني وقال إنه سيسافر إلى منغوليا. لكنني كنت أعرف، فهو ولدي، وسيذهب إلى أفغانستان.

في هذا الوقت التحق بالجيش ولدي الأصغر غينا، ولكنني كنت مطمئنَّة بشأنه، فقد شبَّ برؤية أخرى، وكان يجادل يورا باستمرار.

يقول يورا: «أنت، يا غينا، قليل المطالعة. إنني لم أشاهد أبداً كتاباً بين يديك. وأنت دوماً مع الغيتار».

* «أنا لا أريد أن أصبح مثلك. أنا أريد أن أصبح مثل الآخرين».

بعد أن سافرا انتقلت للسكن في غرفتهما؛ غرفة الأطفال. وفقدتُ

الاهتمام بكل شيء باستثناء كتبهما وحاجياتهما ورسائلهما. كان يورا يكتب عن منغوليا، لكن اختلطت الأمور لديه في موضوع الجغرافيا، مما جعلني لا أشك بصدد المكان الذي يوجد فيه. بقيت أراجع مراحل حياتي ليلاً ونهاراً، وتمزَّقت أحشائي همَّاً وغمَّاً. وتعجز الكلمات عن تصوير تلك الأوجاع...

أنا نفسي أرسلته إلى هناك. أنا نفسي!

جاء أناس غرباء، فأرى مرتسماً في وجوههم، فوراً، أنهم جلبوا لي الفاجعة. وألوذ في غرفتي. يبقى الأمل الرهيب الأخير:

- «غينا؟».

إنهم يُبعدون أنظارهم جانباً. أنا مستعدَّة مرَّة أخرى للتضحية بولد من أجل إنقاذ الآخر.

- «غينا؟».

وهمس أحدهم بصوت خافت جدَّاً:

* «لا. إنه يورا».

لا أستطيع أكثر... لا أستطيع أكثر. أنا أصارع الموت طوال عامين. أنا لست مصابة بأي مرض، لكنني أنازع الموت. لم أحرق نفسي في الساحة الحمراء، ولم يرمِ زوجي البطاقة الحزبية في وجوههم. إننا في أغلب الظن في عداد الموتى. لكن لا يعرف ذلك أحد.

ونحن أنفسنا لا نعرف...

أم

لقد أقنعت نفسي فوراً: «أنا أنسى كل شيء. أنا أنسى كل شيء...».

يوجد في عائلتنا تابو حول هذا المِوضوع. زوجتي شابت في سن الأربعين، وكان شعر ابنتي طويلاً، والآن لديها تسريحة شعر قصيرة. ففي أثناء القصف الليلي في كابُل لم نكن نستطيع إيقاظها، ولذا كنا نجرُّها من ضفيرتها.

لكن بعد أربعة أعوام سيطر عليَّ فجأة هاجس، هاجس... أريد أن أتكلَّم. وأمس وجدنا سامعين عابرين، وأنا لا أستطيع التوقُّف عن الكلام. جلبت ألبوماً، وعرضت عليهم الصور المتسلسلة: تحلِّق المروحيات فوق القرية، ويوضع الجريح على نقَّالة، وإلى جانبه ساقه المقطوعة وفيها حذاء رياضي "كروسوفكا". ويتطلَّع الأسرى الذين حُكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص في عدسة الكاميرا ببلاهة، وبعد عشر دقائق لن يكون لهم وجود... الله أكبر! تطلَّعت حولي: الرجال يدخِّنون على الشرفة، بينما انصرفت النساء إلى المطبخ. ويجلس فقط أطفالهم، أحداث يافعون، يخامرهم الفضول. وأنا لا أدري ما يحدث لي؟ أريد الكلام. ولماذا تريد هذا فجأة؟ بغية ألا أنسى...

لن أذكر ماذا جرى آنذاك، وماذا أحسست آنذاك. وأستطيع الكلام عن مشاعري الآن، بعد أربعة أعوام... فبعد عشرة أعوام سيتراءى هذا كله بصيغة أخرى، ولربَّما، سيتحطَّم ويتشتت.

كان هناك شيء من الحقد، والكدر. لماذا يجب عليَّ أن أسافر؟ ولماذا وقع اختيارهم عليَّ؟ لكنني شعرت بالعبء من دون أن أنهار، ومنحني ذلك شعوراً بالارتياح والرضا. وبدأت أستعدُّ من تهيئة أبسط الأشياء: أيّ سكِّين سآخذ معي؟ وأي آلة حلاقة؟ وجمعتها. وفور ذلك تملَّكني نفاد الصبر: أودُّ

أن ألتقي المجهول بسرعة، بغية ألا أفقد روح الحماس، وسموَّ المشاعر. الأمور تمضي وفق الخطة. وسيحدِّثك عن ذلك كلٌّ من هبَّ ودَب. بينما تتملَّكني رجفة برد أو أتصبَّب عرقاً. وثمَّة أمر آخر: حين هبطت الطائرة شعرت بالارتياح وفي الوقت نفسه بالاضطراب؛ الآن سيبدأ كل شيء، سنرى، ونتلمَّس، وسنحيا فيه.

يقف ثلاثة أفغان، يتبادلون الأحاديث، ويضحكون. هرول بمحاذاة صفوف الدكاكين صبي قذر الهيئة، وغاص في مكان ما تحت الخرق السميكة في أسفل الدكاكين. تطلَّعت من دون أن أفقه شيئاً ممَّا يحدث. إنهم لا يتوقَّفون عن تبادل الحديث. ثم التفتَ من كان ظهره إليَّ، وصرت أنظر عندئذ إلى فوَّهة المسدَّس. وارتفع المسدَّس... ارتفع. ها هي الفوَّهة، إنني أراها. وفي الوقت نفسه سمعت طقة شديدة... ولم يعد لي وجود! أنا موجود في الوقت نفسه في هذا الجانب والجانب الآخر. لكنني لا أستلقي بل ما زلتُ واقفاً. وأريد التحدُّث معهم، لكنني لا أستطيع: آ-آ-آ...

ينجلي العالم ببطء كما في لوحة التصوير الفوتوغرافية. نافذة، نافذة عالية. وثمَّة شيء أبيض وكبير ورهيب في هذا البياض. من هو؟ النظَّارات تعرقل الرؤية، فلا أرى الوجه. العرق يتساقط منه، وقطرات العرق تنقرني في وجهي بألم. أفتح أجفاني بجهد وأسمع تنهيدة ارتياح:

- «وأخيراً، أيها الرفيق المقدَّم، لقد عدت من "المأمورية"».

لو أنني رفعت رأسي، أو لو أدرته قليلاً، لطار دماغي في مكان ما. أسترجع ومضات الوعي، مرة أخرى أشاهد الصبي يختفي وراء الخرق السميكة تحت الدكاكين، وحدَّق فيَّ ببَّغاء بعين خضراء لا ترمش. يقف ثلاثة أفغان، أحدهم، ذاك الذي يدير ظهره لي، يستدير فجأة، بينما أحدِّق ببصري في فوَّهة المسدَّس. ها هي الفوَّهة... إنني أراها، والآن لم أعد أنتظر الطقة المألوفة لدي. فأصرخ: «يجب أن أقتلك! يجب أن أقتلك!».

ما هو لون الصرخة؟ وما هو مذاقها؟ إنها في المستشفى العسكري

حمراء، وفوق الرمل الجاف رمادية، وفوق الصخرة زرقاء ساطعةٌ لدى حلول المساء، حيث لم تعد حية. يتدفَّق الدم من الإنسان المصاب بجرح خطير بسرعة، كما لو كان يتدفَّق من علبة محطمة. والإنسان يهمد... يهمد. العينان فقط تتألَّقان حتى النهاية، وتنظران جانباً بإصرار، نحو مكان ما...

لقد دفع ثمن كل شيء! كل شيء! كاملاً! (يبدأ بالمشي في الغرفة جيئة وذهاباً بعصبية).

أنت تنظر إلى الجبال من الأسفل، تنداح لا نهاية لها، لا يمكن بلوغها، ثم تصعد في الطائرة فترى المروحيات مقلوبة على الأرض. هل تفهمين ما أقصده؟ الزمن. المسافة بين الأحداث. آنذاك لم نعرف حتى نحن المشاركين فيها إنها الحرب. لا تخلطي بيني اليوم مع ما كنت عليه أمس، ومع من كان هناك في عام 79. نعم، كنت أؤمن بذلك حينئذ! في عام 80 عدت إلى موسكو. فوجدت الناس يعيشون ويتصرَّفون كما لو لم يكن لنا وجود هناك، ولم توجد أي حرب. وفي مترو الإنفاق كان الناس كما هو الحال دائماً، يضحكون ويتبادلون القبل، ويطالعون. وقد مشيت في شارع أربات وأخذت أستوقف المارَّة سائلاً:

- «منذ متى تدور رحى الحرب في أفغانستان؟».

* «لا أعرف».

- «كم من الأعوام استمرَّت الحرب؟».

* «لا أعلم. وما حاجتك إلى معرفة هذا؟».

- «كم من الأعوام....».

* «أعتقد لمدَّة عامين».

- «كم من الأعوام؟».

* «وهل تدور هناك حرب؟ فعلاً؟».

الآن يمكن الضحك علينا، والسخرية منا: لقد كنتم غير مبصرين وحمقى

كالغنم، وقطيعاً مطيعاً! أما الآن فقد سمح غورباتشوف، وخفَّف شدَّ الأعنة. اضحكي! تقول الحكمة الصينية القديمة: «يستحق كلَّ احتقار ذلك الصيَّاد الذي يتبجَّح عندما يقف عند أطراف الأسد النافق، بينما يستحق التكريم ذلك الصيَّاد الذي يقف عند أطراف الأسد الصريع»... من يستطيع التحدُّث عن الأخطاء؟ حقَّاً إنني لا أعلم. من؟ لست أنا، كلا. ويوجِّه إليَّ السؤال: «لماذا لزمت الصمت آنذاك؟ فلم تكن صبياً غرَّاً. وكنت تبلغ خمسين عاماً». يتعيَّن عليَّ أن أفهم...

سأبدأ من القول إنني أطلقت النار هناك، وفي الوقت نفسه أنا أحترم هذا الشعب، بل حتى إنني أحبُّه. وتعجبني أغانيه، وصلواته: إنها هادئة ولا نهاية لها مثل جباله. أما أنا – سأتكلَّم عن نفسي فقط – فقد كنت أؤمن صادقاً بأن الخيمة أسوأ من مبنى مؤلف من خمسة طوابق، وأنه لا ثقافة بلا مقعد المرحاض. ونحن أمطرناهم بمقاعد المراحيض، وشيَّدنا لهم البيوت من الحجر، وعلَّمناهم كيفية قيادة الجرَّار، وجلبنا إليهم المناضد للمكاتب، والأباريق للماء، والأغطية الحمراء من أجل الاجتماعات الرسمية، وآلاف الصور لماركس وإنغلز ولينين. لقد عُلِّقت في جميع المكاتب فوق رأس كل مسؤول إداري. وأحضرنا لهم سيَّارات "فولغا" السوداء من أجل الرؤساء والمدراء، وكذلك جراراتنا وثيراننا الأصيلة. لكنَّ الفلاحين (الدهاقنة) لم يرغبوا في استلام الأراضي التي قُدِّمت لهم كهدية، لأنها ملك الله، ولا يستطيع الإنسان إعطاءها أو أخذها. وتطلَّعت إلينا منابر المساجد المحطَّمة كما لو أنها ترى من الفضاء.

نحن لن نعرف أبداً ما هي رؤية النملة إلى العالم. اقرأوا عن ذلك لدى إنغلز. بينما كتب المستشرق البريطاني هنري سبنسر يقول: «بإمكانك استئجار الأفغاني ولكن لن يمكنك شراؤه أبداً». في الصباح أدخِّن سيجارة: رأيت في المنفضة سحلية صغيرة مثل خنفساء مايو. وعندما رجعت بعد عدَّة أيَّام رأيت السحلية في المنفضة بالوضعية ذاتها، وحتى أنها لم تدر رأسها. وأدركت:

هذا هو؛ الشرق. فأنا أختفي وأُبعث، وأتحطَّم وأنهض من جديد، أمَّا السحلية فلا يسعها حتى أن تدير رأسها الصغير. وبحسب تقويمهم إنه عام 1366...

هَأنذا أجلس في البيت أمام التلفزيون. فهل أستطيع أن أقتل إنساناً؟ لن أقتل حتى ذبابة! في الأيّام الأولى، وحتى في الأشهر الأولى، كانت الرصاصات تقطع أغصان شجرة التوت. هذا إحساس غير واقعي... إن سيكولوجية المعركة مختلفة، فأنت تهرول وتقتنص الهدف، أمامك، بنظرة جانبية. وأنا لم أحسب كم عدد الذين قتلتهم، لكنني كنت أهرول، وأجد الهدف. هنا، هناك، هدف متحرِّك حي. وأنا نفسي كنت هدفاً أيضاً، هدفاً للرماية. لا، لا يرجع الرجال من الحرب أبطالاً. لا يمكنك الرجوع من هناك بطلاً.

لقد دفع ثمن كل شيء! كل شيء! دفع الثمن كاملاً.

أنت قد تتصوَّر وتحبُّ جنديَّ عام 1945 الذي أحبَّتْه أوروبا كلها. إنه ساذج وبسيط وبحزام عريض. لم يكن في حاجة إلى شيء، كان في حاجة فقط إلى النصر، والعودة إلى البيت! أما الجندي الذي عاد إلى مدخل شقق مسكنكم، وإلى شارعكم، فهو جندي من نوع آخر. فهذا الجندي يريد الحصول على سراويل الجينز وجهاز المسجل. لقد رأى واحتفظ في ذاكرته بحياة أخرى، وأراد الكثير. لقد قال الحكماء الأولون: لا تيقظوا الكلب النائم. لا تمتحنوا الإنسان بأرزاء تفوق طاقة البشر. فهو لن يحتملها.

لم أستطع هناك مطالعة كاتبي المفضل دوستويفسكي، ففي كتبه كآبة. واصطحبت معي برادبري، أدباً خيالياً. من يريد أن يحيا إلى الأبد؟ لا أحد.

لكن وُجد إنسان كهذا. نعم، وجد! وأذكر كيف أروني في السجن زعيم إحدى العصابات، كما كنا نسمِّيها، وجدته راقداً على السرير يطالع كتاباً ما. إن غلاف الكتاب مألوف لديَّ؛ لينين: "الدولة والثورة". وقال: «للأسف لا يسعني الوقت لقراءته كلِّه. لربما سيطالعه أولادي...».

احترق مبنى المدرسة ولم يبقَ سوى جدار واحد. وفي كل صباح يأتي

الأطفال إليه لتلقّي الدروس ويكتبون عليه عبارات ما بقطع الفحم المتبقية بعد الحريق. وبعد الدروس يُطلى الدار بالجص فيصبح أبيض. ويغدو مجدداً مثل صفحة ورق بيضاء.

جلبوا من "المنطقة الخضراء" ملازماً بدون ذراعين وساقين، بدون عضو ذكري. وكانت أوّل كلمة قالها بعد أن عاد إلى وعيه عقب الصدمة: «كيف حال الشبابِ في وحدتي هناك؟».

لقد دفع ثمن كل شيء! ونحن دفعنا ثمناً غالياً أكثر من الجميع. أكثر منكم...

نحن لسنا في حاجة إلى أي شيء، فقد شهدنا كل شيء. استمعوا إلينا وستفهمون. لكن الجميع اعتادوا على العمل؛ إعطاء الدواء، إعطاء المعاش التقاعدي، إعطاء شقّة، إعطاء شيء ما ثم نسيانه. إن ثمن هذه "العطايا" قد سُدِّد بالعملة الأجنبية الغالية: بالدم. لكننا لم نأتِ إليكم من أجل الاعتراف. نحن نعترف.

ولا تنسوا سرَّ الاعتراف...

مستشار عسكري

لا، حسناً لقد انتهت بهذا الشكل، بالهزيمة، لكي تتفتح عيوننا...

لا يمكن أن أروي كل شيء، فقد جرى ما جرى، وبعد ذلك بقي ما شاهدته واحتفظت به في ذاكرتي، وهو جزء من الكل، وفيما بعد ربَّما سينبثق ما أستطيع التحدُّث عنه، وسيبقى من الكلمة عُشرها في أفضل الأحوال، إذا ما أجهدت نفسي في تذكُّرها. أن أجهد نفسي... لأي غرض؟ من أجل أليوشا الذي فارق الحياة بين يديَّ إثر ثماني شظايا في البطن؟ أنزلناه من الجبال طوال ثماني عشرة ساعة، وقد عاش ثماني عشرة ساعة، وفي الساعة الثامنة عشرة مات.

هل أتذكَّر من أجل أليوشا؟ لكن من وجهة نظر الدين فقط، لن يحتاج الإنسان إلى شيء ما، بالأخص هناك - في الأعالي. وأنا أعتقد أكثر فأكثر بأنهم لا يشعرون هناك بالألم ولا بالخوف ولا بالخجل. إذاً ما الحاجة إلى تحريك الذاكرة لاسترجاع الماضي؟ أتريدين معرفة شيء ما منا؟ حسناً.. نحن، طبعاً، بوصمة. وما الذي يمكنك معرفته منا؟ إنك في أغلب الظن تتصوَّرين بأننا أناس آخرون؟ افهمي أن من الصعب أن يكتسب الإنسان مُثُلاً عليا ما لدى وجوده في بلاد غريبة ويقاتل من أجل شيء مجهول، وإيجاد فكرة ما. كنا هناك متشابهين، لكننا لم نكن نفكِّر بالطريقة ذاتها. كذلك هو الحال هنا، في العالم الاعتيادي. ويحدث أن لا يكلِّف شيئاً استبدال من كان هناك بالذين لم يكونوا هناك. نحن جميعاً مختلفون، لكننا في الوقت نفسه متشابهون، هناك، وهنا.

أذكر كيف استدعتني المعلِّمة حين كنت في الصف السابع إلى اللوحة وقالت:

- «من هو بطلك المفضل؟ تشابايف[13] أم بافل كورتشاغين[14]؟».

* «هكلبيري فين[15]».

- «لماذا هكلبيري فين؟».

* «هكلبيري فين، حين حار بين أن يسلّم الزنجي الهارب جيم أو أنه سيحترق في جهنّم بدلاً منه، قال لنفسه: ليأخذه الشيطان! فلأحترق في جهنّم، ولم يسلّم جيم».

سألني صديقي أليوشا بعد الدروس:

- «ماذا لو كان جيم أبيض، وأنت أحمر[16]؟».

هكذا نحيا طوال حياتنا - بيضاً وحمراً، ومن ليس معنا فهو ضدُّنا.

في أطراف باغرام، دخلنا قرية، وطلبنا شيئاً يؤكل. وبحسب شرائعهم فإذا جاء إلى بيتك شخص جائع، فلا يجوز رفض منحه رغيفاً ساخناً. ودعتنا النساء للجلوس إلى مائدة وقدَّمن لنا الطعام. وعندما انصرفنا انهال أهاليهنَّ عليهنَّ وأطفالهنَّ بالرجم بالحجارة و بالضرب المبرِّح حتى الموت. كنَّ يعرفن أنهم سيقتلونهنَّ، بيد أنهنَّ قدَّمن لنا الطعام بالرغم من كل شيء. أما نحن فكنا نأتي إليهم بقوانيننا، وندخل المساجد بالقبّعات.

لماذا أُرغم على استعادة الذكريات؟ هذه أمور شخصية تماماً: أوَّل قتيل لي، ودمي فوق الرمل الناعم، ورأس البعير ذي العنق الطويل المتدلّي فوقي قبل أن أفقد الوعي. مع هذا كنت هناك مثل الجميع. لقد حدث مرَّة واحدة في حياتي أن رفضت أن أكون مثل الجميع. مرَّة واحدة فقط... أرغمونا في روضة الأطفال على أن نتشابك بالأيدي ونسير في صف اثنين اثنين، بينما

13- بطل قومي في حرب الأهلية الروسية. صنع عنه العديد من الأفلام و الروايات.

14- الشخصية الأساسية في رواية «كيف سقينا الفولاذ».

15- الشخصية الأساسية في رواية « مغامرات هكلبيري فين» لمارك توين.

16- في الحرب الأهلية في روسيا بعد ثورة 1917 انقسمت القوى إلى بيض وحمر. (المترجم)

كنت أحبُّ أن أسير لوحدي. وقد صبرت المربِّيات الشابات لبعض الوقت على نزواتي، لكن سرعان ما تزوَّجت إحداهنَّ، وسافرت، وحلَّت محلَّها العمَّة كلافا.

اقتادتني العمَّة كلافا إلى صبي آخر وقالت:

* «أمسك بيد سريوجا».

- «لا أريد».

* «لماذا لا تريد؟».

- «أحب أن أمشي لوحدي».

* «افعل كما يفعل جميع الصبايا والصبيان المطيعين».

- «لن أفعل».

بعد النزهة نزعت العمَّة كلافا عني ملابسي، وحتى الملابس الداخلية، وقفلت عليَّ الباب في غرفة مظلمة لمدة ثلاث ساعات. وفي الطفولة لا يوجد شيء أكثر رعباً من البقاء وحيداً، في الظلمة... ويتراءى للطفل أن الجميع قد نسوه، ولن يجدوه أبداً. في اليوم التالي مشيت مع سريوجا ماسكاً يده، وأصبحت مثل الجميع. في المدرسة، الصفُّ كان يقرِّر. وفي المعهد، الصفُّ كان يقرِّر أيضاً. وفي المصنع، كان فريق العاملين يتَّخذ القرار. في كل مكان كان القرار يُتَّخذ بدون إرادتي. وجرى إقناعي بأن الفرد الواحد لا يستطيع عمل شيء. وقرأت في أحد الكتب عبارة "قتل الجرأة". وعندما توجَّهت إلى هناك لم يكن لديَّ ما يجب قتله: "المتطوِّعين، خطوة إلى الأمام". فيسير الجميع خطوتين إلى الأمام، وأنا أيضاً؛ خطوتين إلى الأمام.

في شنداند رأيت اثنين من جنودنا أصابهما مسٌّ من الجنون، وكانا طوال الوقت يُجريان "مفاوضات" مع "الأشباح". وقد أوضحا لهم ما هي الاشتراكية بموجب المقرَّر الدراسي للصف العاشر، ومن هو لينين. "القضية أن الصنم أجوف وجلس فيه الكهنة ومنه تحدَّثوا إلى الرعية". الجد

كريلوف[17]، الأدب الكلاسيكي... وحدث مرَّة في المدرسة حين كنت في سن الحادية عشرة أن جاءت "عمَّة قنَّاصة" قتلت ثمانية وسبعين من "الأعمام الفريتسات - الألمان". ولما رجعت إلى البيت، صرت أتلعثم، وفي الليل ارتفعت درجة حرارتي. وقرَّر والداي أنني مصاب بالإنفلونزا. بقيت في البيت فترة أسبوعين، وطالعت رواية "أوفيد" المفضلة لدي.

لماذا أُرغم على استعادة الذكريات؟ عندما رجعتُ لم أستطع أن أرتدي سراويل الجينز والقمصان لفترة ما قبل الحرب، لقد كانت ملابس شخص آخر؛ شخص لا أعرفه. ولو أنها احتفظت برائحتي، كما أكَّدت لي أمي. ذلك الشخص لم يعد له وجود. وهذا الآخر، وهو أنا، يحمل فقط لقبي. وقبل الجيش كانت لدي فتاة، وكنت عاشقاً، ولما عدت لم أكلمها، علمت هي بالصدفة بأنني في المدينة ووجدتني. وعبثاً بحثت عني. لا حاجة إلى اللقاء معها. قلتُ لها: إن الشخص الذي أحببتِه وأحبَّكِ لا وجود له الآن. أنا شخص آخر. أنا لست أنا! فأُجهشت بالبكاء. وزارتني عدة مرَّات. واتَّصلت بالهاتف. لماذا؟ أنا شخص آخر! آخر! (صمت. وهدأت مشاعره). مع هذا كان يعجبني ذلك الشخص الآخر... أنا في شوق إليه، وأنا أذكره. سأل أوفيد مخاطباً مونتانيللي: «أيُّها الأب، هل ربُّك راضٍ الآن؟».

إلى من أوجِّه هذه الكلمات؟ مثل القنبلة اليدوية...

جندي، مدفعي

17- شاعر روسي عاش في القرن التاسع عشر. وهو مؤلف الحكايات الشهيرة المرتبطة باسمه. (المترجم).

كيف جئتُ إلى هنا؟ الأمر بسيط جداً؛ لقد صدَّقت كلَّ ما كُتب في الصحف...

قلت لنفسي: «سابقاً اجترح الأفراد المآثر، وكانوا قادرين على التضحية بالذات، أما الآن فشبابنا لا نفع منهم. وأنا أيضاً. هناك تدور رحى الحرب، بينما أنا أحوك لنفسي فستاناً، وأبتكر تسريحة شعر جديدة لي». وبكت أمِّي وقالت: «سأموت! ولن أسمح لك بالذهاب. أنا لم ألدك من أجل أن أدفنك بذراعين وساقين مبتورتين».

ما هي أولى انطباعاتي؟ النفي إلى كابُل. أسلاك شائكة وجنود يحملون الرشَّاشات. الكلاب تنبح. نساء فقط، مئات النساء. جاء الضبَّاط فاختاروا الأكثر جمالاً وصبا، بكلِّ صراحة. واستدعاني الرائد:

- «سآخذك إلى كتيبتي، إذا لم يثر الارتباك لديك منظر شاحنتي».

* «أية شاحنة؟».

- «إنها لنَقْل "الحمولة 200"».

وكنت أعرف أن "الحمولة 200" تعني القتلى والتوابيت.

* «هل توجد توابيت؟».

- «سُتشحن الآن».

إنها شاحنة "كاماز" عادية بغطاء من القماش المشمَّع. كانت التوابيت تُشحن برميها مثل صناديق الذخيرة. فتملَّكني الرعب، وأدرك الجنود أنني "حديثة العهد" في الخدمة. وصلت إلى الوحدة العسكرية، درجة الحرارة 60 درجة مئوية. في المرحاض أسراب من الذباب يمكن أن تحملني على

أجنحتها. لا يوجد "دُش" للاغتسال. الماء شحيح بثمن الذهب. وأنا المرأة الوحيدة.

بعد أسبوعين استدعاني آمر الكتيبة، وقال: «ستعيشين معي».

انصرمت فترة شهرين معه. وفي إحدى المرَّات كدت ألقي نحوه قنبلة يدوية. وفي الأخرى شهرت السكِّين. وسمعت منه الكثير من الأقوال: «اختاري وستصبحين أعلى من النجوم، وستريدين الشاي مع الزبدة – أنت نفسك ستأتين». أنا لم أتلفَّظ بعبارات السباب من قبل أبداً، أما عندئذ فكنت أردِّد:

– «اغرب عن وجهي!».

أصبحت الشتائم المقذعة شيئاً مألوفاً لديَّ، وغدوت خشنة الطبع. نُقلتُ إلى كابُل للعمل في فندق بوظيفة مناوبة. في البداية كنت أقابل الجميع بضراوة وحشية. وصاروا ينظرون إليَّ وكأنني مخبولة.

– «ما لك تنهالين على الجميع بالشتائم؟ لا يعتزم أحد إيذائك».

لكنني لم أستطع سلوك مسلك آخر، فقد غلبتني عادة الدفاع عن النفس. فإذا ما دعاني أحدهم:

– «تعالي لشرب الشاي معنا».

* «أنت تدعوني إلى شرب الشاي أم إلى العصا مع الشاي؟».

واستمرَّ الحال على هذا المنوال حتى أصبح لديَّ... حب؟ ومثل هذه الكلمات لا تقال في هذا المجال. وكان يقدِّمني إلى أصدقائه قائلاً: «زوجتي».

فيُقال له بهمسة في الأذن:

* «زوجة أفغانية؟».

انطلقنا في مصفحة.. وقد حميته بجسدي، لكن لحسن الحظ أصابت الرصاصة غطاء الكوة، وكان جالساً وظهره إليه. لدى عودتنا كتب إلى زوجته عني. وقد مضى شهران دون أن يستلم رسالة من الأهل.

أنا أحب إطلاق النار. وكنت أفرغ مخزن الرشّاش كله بصلية واحدة. فأشعر بارتياح أكثر.

وحدث أن قتلت أحد "الأشباح". توجَّهنا إلى الجبال لاستنشاق الهواء العليل والتنزُّه. فتناهت إلى سمعي خشخشة وراء صخرة ورائي، وبدا كما لو أنني صُعقت بتيّار كهربائي، فأطلقت صلية رشاشة. كنت أول من أطلق النار. ودنوت من المكان فشاهدت رجلاً وسيماً وقوياً راقداً هناك...

قال الشباب: يمكن الذهاب معك في مهمّة استطلاعية.

شعرت بالفخر. وأعجبهم أيضاً بأنني لم أعاجل بتفتيش جيوبه، وأخذت مسدسه فقط. وبعد ذلك تولّوا حراستي طوال الطريق. وبغتة شعرت بالغثيان والتقيؤ. لا بأس. أصبح الجسم أخف وزناً... وعندما رجعنا فتحت الثلاجة وأكلت حتى الشبع، إلى حدٍّ أن هذه الكمية من الطعام كانت ستكفيني في حال آخر لمدَّة أسبوع كامل. اضطراب عصبي. جلبوا قنينة فودكا، فشربت دون أن يغلب عليَّ السكْر، وتملَّكني الرعب، فلو أخطأت في إطلاق النار لسُلِّمتْ إلى أمّي في "الشحنة 200".

من أين جاء الحقد؟ الأمر بسيط للغاية. لقد قتلوا رفيقاً لك وكنت إلى جانبه، وأكلت معه من قدر واحد، وحدَّثك عن رفيقة له، وعن أمّه. وإذا به يرقد أمامك وجسمه مكسو بالحروق. كل شيء مفهوم فوراً. عندئذ ستُطلق النار كالمسعور. نحن لم نعتد التفكير في القضايا الكبيرة: من بدأ ذلك؟ من المذنب؟ ثمَّة مزحة حول هذا الموضوع... سأل راديو أرمينيا: هل سمعت كيف تبول البعوضة؟ السياسة كذلك، لكن بصوت أكثر خفوتاً حتى. دع الحكومة تقم بهذا، أما الناس فيرون هنا الدماء ويتحوَّلون إلى وحوش، ويُصابون بالخبل... فمرة ترى كيف يتلوى الجلد المحترق متحولاً إلى أنبوب، كما لو تمزَّقت وانفجرت جوارب نايلون، وهذا يكفيك. كما أنه شيء فظيع حين يقتلون الحيوانات. وحدث أن أطلقت النار على قافلة تحمل السلاح. وأطلقت النار على الأفراد لوحدهم، وعلى الحمير لوحدها. وكلهم

صمتوا وانتظروا الموت. ونعر حمار جريح بصوت يشبه صلصلة الحديد فوق الحديد، بصرير شديد.

وجهي الآن وجه آخر، وصوتي صوت آخر. يمكن أن تتصوَّري حالنا هنا، إذا ما جلسنا نحن الفتيات وتبادلنا الأحاديث مثل القول:

– «يا له من أحمق! تشاجر مع العريف، والتحق "بالأشباح". كان الأجدر به أن يطلق النار عليه وكفى. وعندئذ لحسب ذلك ضمن الخسائر في القتال».

هذا حديث سافر. إذ كان كثير من الضبَّاط يعتقدون أن الحال كما في الاتحاد السوفيتي: يمكن أن يعتدي الضابط على الجندي بالضرب، ويوجِّه إليه الإهانات. وقد عُثر عليهم قتلى... كان الرصاص يُطلق عليهم من الخلف. فابحث عن الفاعل، وأثبت وقوع الجريمة!

في المخافر الجبلية كان الفتيان لا يرون أحداً خلال عدة سنوات، وتزورهم المروحيات ثلاث مرَّات في الأسبوع. وقد ذهبت إلى هناك، فدنا مني الملازم وقال:

– «يا بنية، انزعي منديل الرأس. وسرِّحي شعرك» – وكان شعري طويلاً
– «فأنا لم أرَ خلال عامين سوى تسريحة رأس الجنود القصيرة».

وهُرع إليَّ جميع الجنود من الخنادق...

وخلال المعركة حماني أحد الجنود بجسمه. سأذكره مدى الحياة وأضع شمعة تكريماً لذكراه في الكنيسة. لم يكن يعرفني وقد فعل ذلك فقط لكوني امرأة. مثل هذه الأمور تُخزَّن في الذاكرة. وأين يمكن في حياتنا العادية أن تتأكَّد من أن أحداً ما سيحميك بجسده؟ هنا الأفضل هو أكثر فضلاً، والأسوأ أكثر سوءاً. أما عندما يطلقون النار، فهذا شيء آخر. صرخ جندي نحوي بعبارة مبتذلة. حقارة! إنه شيء قذر. وفكَّرت في دخيلة نفسي: «عليك اللعنة!». وقُتل، وانشطر رأسه وجسده إلى نصفين. حدث هذا أمام سمعي وبصري، وأصابتني رجفة كما في الملاريا. هذا بالرغم من أنني شاهدت قبل هذا أكياس السيلوفان الكبيرة التي تضم الجثث، وجثثاً ملفوفة برقائق معدنية.

كيف؟ لا أستطيع المقارنة. ما كان في وسعي الكتابة والبحث عن الكلمات. جرَّبت الكلمات لكي تناسب الذوق، لكنها مثل الدمى الكبيرة الحجم. لكن لم يحدث أن صُدمت وارتجفت لهذه الدرجة، وحينئذ لم أستطع الخلود إلى الهدوء.

لم يحدث أن شاهدت فتيات يحملن الأوسمة والميداليات العسكرية، حتى إن وُجدت لديهنَّ. ثبَّتت إحداهنَّ على صدرها ميدالية "لقاء الخدمات العسكرية"، فضحك الجميع وقالوا: إنها "لقاء الخدمات الجنسية". فمن المعروف أنه من الممكن الحصول على الميدالية بعد قضاء ليلة مع آمر الكتيبة. لماذا يجنِّدون النساء هناك؟ لأنه لا يمكن الاستغناء عنهن. مفهوم؟ إن بعض السادة الضبَّاط قد يصيبهم مسٌّ من الجنون. ولماذا تندفع النساء إلى الحرب؟ من أجل النقود، النقود الكثيرة. فتتمكنَّ شراء جهاز تسجيل وأشياء أخرى. ولدى العودة إلى الوطن يمكن بيعها. في الاتحاد السوفيتي لا تكسب مثل هذه النقود، ولا تدخرها. لا توجد حقيقة واحدة، فالحقائق متباينة، لكن هذه هي الحقيقة. حديثنا هنا شريف. بعض الفتيات تورَّطن مع أصحاب الدكاكين لدى شراء الملابس. تأتي الواحدة إلى دكان ما، وثمَّة أطفال يصيحون: «خانم، شيك – شيك»، ويشيرون إلى المستودع الملحق بالدكان. ويسدِّد الضباط الثمن بالصكوك، ويقولون: سأذهب إلى "أم الصكوك" أو التشيكيستكا[18]. هل سمعت الفكاهة؟ التقى في نقطة توزيع الجنود في كابُل كلٌّ من الثعبان المتعدِّد الرؤوس غورينيتش وكوشي بيسسميرتني وبابا يغا[19]. وتوجَّه الثلاثة للدفاع عن الثورة. وبعد عامين التقوا ببعضهم البعض لدى العودة إلى الوطن، فلم يتبقَّ لدى الثعبان سوى رأس واحد فقط، فقد قُطعت الرؤوس الأخرى، أما كوشي بيسميرتني فكان بالكاد قد نجا بجلده وبقي على قيد الحياة لأنه خالد لا يموت، بينما كانت السعلاة بابا يغا في أبهى حلَّة، ومرحة.

18- هنا تلاعب بالألفاظ، حيث تعني الكلمة الأخيرة عميلة الاستخبارات. (المترجم)
19- شخصيات من الحكايات الشعبية الروسية. (المترجم)

- «أنا طلبت البقاء عاماً آخر».

* «هل أصابك مسٌّ من الجنون يا بابا يغا؟!».

- «في الاتحاد السوفيتي أنا بابا يغا، أما هنا فأنا الحسناء فاسيليسا».

الجنود فتيان. إنهم يعودون من هنا محطمين، وهم في عمر 18-19 عاماً. هم أطفال. وشاهدوا الكثير هنا، الكثير. وكثيرون شاهدوا كيف تُباع النساء لقاء صندوق، بل أقل من صندوق، لقاء علبتي كونسروة من لحم البقر. وبعد ذلك ينظر بعينيه هاتين إلى زوجته، إلى الجميع. لقد أفسدوا هنا بصرهم، ولا عجب عندما نراهم في الاتحاد السوفيتي يسلكون سلوكاً غير لائق. أحد معارفي يرزح في السجن، إنهم يتمتَّعون بخبرة أخرى. لقد اعتادوا معالجة كل مسألة باستخدام السلاح، وبالقوة. باع صاحب أحد الدكاكين البطيخ بسعر مئة أفغاني للواحدة. لكنَّ الجنود أرادوا سعراً أقل، فرفض. آه، هكذا إذاً! وعمد أحدهم إلى إطلاق نار رشَّاشه على جميع البطيخ، تل من البطيخ. والآن حاولْ أن تطأ قدمَ أحد هؤلاء الجنود في حافلة الترولي، أو حاولْ منعه من مخالفة الطابور. حاولْ!

كنت أحلم بأن أعود إلى البيت وأضع المقعد المطوي في الحديقة وأغفو تحت شجرة التفَّاح. تحت التفَّاح... أنا الآن أخاف، ويمكن أن يسمع من الكثيرين، بالأخص الآن، قبل انسحاب قواتنا: «أنا أخاف العودة إلى الاتحاد السوفيتي». لماذا؟ الأمر بسيط جدّاً؛ نحن نرجع فنجد أن كل شيء قد تغيَّر: ثمَّة موضة أخرى في هذين العامين، وموسيقى أخرى، وشوارع أخرى. وموقف آخر من هذه الحرب... سنكون مثل الغربان البيض.

ابحثي عني بعد سنة، في البيت. سأترك لك عنواني...

موظَّفة

كنت واثقاً إلى درجة أنني الآن لا أستطيع التخلّي عن هذه الثقة...

والآن أيضاً، مهما قيل لي، ومهما قرأت، ففي كل مرَّة أترك لنفسي ثغرة صغيرة ما للتسلُّل منها. وتفعل فعلها غريزة حب البقاء؛ الحماية. قبل التحاقي بالجيش أنهيت دراستي في معهد التربية البدنية. وآخر فترة تدريب من أجل نيل شهادة التخرُّج كانت لدى عملي في مخيم الطلائع "ارتيك" بصفة رئيس فريق. وهناك ردَّدت أكثر من مرَّة الأقوال الرفيعة: كلمة عضو منظَّمة الطلائع، قضيَّة عضو منظَّمة الطلائع. الآن تبدو سخيفة، ولكن آنذاك كان ذكرها يبعث على ذرف الدموع...

في مكتب التجنيد رجوت قائلاً: «أرسلوني إلى أفغانستان». وتلا علينا الضابط نائب الآمر للتوعية السياسية محاضرة حول الوضع الدولي، وقال إننا سبقنا بساعة واحدة أصحاب "القبَّعات الخضر" الأمريكيين، حيث كانوا في الجو فعلاً. وآسف لتصديقي هذا الكلام. وقد أدخلوا وأدخلوا، وفي نهاية المطاف، أفلحوا في أن يدخلوا في عقولنا أن هذا "واجب أممي". أنا عاجز عن الوصول إلى الختام وإنهاء أفكاري، وأقول لنفسي: «انزع النظّارات الوردية». لقد سافرتُ، ليس في عام 1980 ولا في عام 1981، بل في عام 1986. وكان الجميع ما زالوا صامتين. وفي عام 1987 كنت في خوست. استولينا على أحد المرتفعات، ولقي سبعة من فتياننا مصرعهم. جاء صحفيون موسكوفيون. واستُدعي "الخضر" (أفراد الجيش الشعبي الأفغاني)، وزعموا أنهم استرجعوا المرتفع. ووقف الأفغان أمام عدسات الكاميرا بينما رقد جنودنا في معرض الجثث...

جرى في معسكر التدريب انتقاء أفضل الجنود لإرسالهم إلى أفغانستان.

وكنا نخاف إرسالنا إلى تولا وبسكوف وكيروف آباد، فهناك الأوحال والقيظ. ولهذا كنا نطلب ونرجو إرسالنا إلى أفغانستان. وراح الرائد زلوبين يقنعنا أنا وصديقي ساشا كريفتسوف بسحب طلبنا.

– «الأفضل أن يقتل سينيتسين بدلاً من أحدكما. لقد أنفقت الدولة عليكما الكثير من المال».

وسينيتسين فتى ريفي بسيط، سائق جرَّار. أما أنا فحائز على دبلوم، بينما درس ساشا في كلِّية اللغات الجرمانية-الرومانية في جامعة كيميروفو. كان سينيتسين يجيد الغناء بشكل رائع، ويعزف على البيانو والكمان والفلوت والغيتار، ويؤلِّف الموسيقى، ويرسم جيِّداً. وكنت أحيا معه مثل الأخ. وفي محاضرات التوعية السياسية كانوا يحدِّثوننا عن المآثر، والبطولة، وزعموا أن أفغانستان مثل إسبانيا. وفجأة يُقال لنا: «الأفضل أن يُقتل سينيتسين من أن يُقتل أحدنا».

كان الفضول من وجهة النظر السيكولوجية يدفعنا إلى رؤية الحرب. أردنا قبل كل شيء دراسة أنفسنا، وكان هذا الأمر يجذبني. سألنا معارفنا من الشباب الذين كانوا هناك، وقد عمد أحدهم، كما أعتقد الآن، إلى خداعنا. وشُوهدت على صدره بقعة كبيرة بشكل حرف «p» ربَّما من آثار حرق، وكان يبقي فتحة قميصه مكشوفة خصوصاً لكي يراها الجميع. وزعم أنهم نزلوا فوق الجبال من المروحية ليلاً، وأضاف أيضاً أن جندي الإنزال يكون في الثواني الثلاث الأولى وقبل انفتاح المظلة ملاكاً، وخلال ثلاث دقائق نسراً، ما دام يواصل التحليق. أما بقية الوقت بعد الهبوط فهو مثل حصان الحمل. وقد صدَّقنا جميع أقواله. أتمنَّى لو التقيت هوميروس هذا، الآن أكتشف أمثاله فوراً: «لو وُجد لديه دماغ لكان قد أُصيب برجة دماغية». أما الشاب الآخر، فعلى العكس، قد حاول إقناعي بعدم السفر:

– «لا حاجة لك بالذهاب إلى هناك. هذه قذارة وليست رومانسية».

ولم يعجبني الكلام:

* «أنت جرَّبت، وأنا أريد أن أجرِّب أيضاً».

وعلَّمني كيفية صيانة حياتي:

- «عندما تطلق النار تراجع عن المكان الذي أطلقت منه النار لمسافة مترين. خبِّئ فوهة البندقية وراء سور البيت أو صخرة لكي لا يرى بريق اللهب المنبعث منها، فلا يكتشف مكانك. في أثناء المسير لا تشرب وإلا سيصيبك الإجهاد. وعندما تقف في نوبة الحراسة لا تغفُ؛ اخدش وجهك، وعض ذراعك. رجل الإنزال يهرول في البداية قدْر ما يمكن، ومن ثم قدْر ما يجب».

أبي عالم، وماما مهندسة. لقد ربَّياني منذ الطفولة على أن أكون شخصيَّة مميَّزة، وأنا أردت أن أكون كذلك. ولهذا (يضحك) فصلوني من فريق أطفال أكتوبر، ولم يقبلوني في فصيل منظَّمة الطلائع فترة طويلة. وكنت أتشاجر دفاعاً عن الشرف. وعندما ربطوا لي ربطة العنق لم أنزعها ونمت معها. وقاطعتني المعلِّمة في دروس الأدب قائلة:

- «لا تتحدَّث من ذاتك، بل ممَّا هو مدوَّن في الكتاب».

* «هل ما أقوله غير صحيح؟».

- «ليس كما في الكتاب...».

كما في الحكاية حيث لم يحب القيصر جميع الألوان باستثناء اللون الرمادي، كان الجميع في هذه الدولة - المملكة بلون الفئران.

الآن أنا أدعو جميع تلاميذي (أنا أعمل في مدرسة):

- «تعلَّموا التفكير، بغية ألا يجعلوا منكم حمقى جداً. وجنود زنك».

قبل الجيش علَّمني دوستويفسكي وتولستوي كيف أحيا، وفي الجيش علَّمني ذلك العرفاء. وسُلطة العرفاء لا حدود لها، وفي كل فصيلة ثلاثة عرفاء.

- «أصغوا إلي. ماذا يجب أن يكون لدى جندي الإنزال؟ كرِّروا!».

* «يجب أن يكون لدى جندي الإنزال بوز وقح وقبضة حديدية، ودون غرام واحد من الضمير حتى».

- «الضمير هو ترف بالنسبة إلى جندي. كرِّروا!».

* «الضمير هو ترف بالنسبة إلى جندي الإنزال».

- «أنتم كتيبة الخدمات الطبِّية. وكتيبة الخدمات الطبِّية هي العظم الأبيض لقوَّات الإنزال الجوي. كرِّروا!».

من رسالة جندي: «ماما، اشتري خروفاً وأطلقي عليه اسم العريف، وعندما سأعود إلى البيت سأذبحه».

إن النظام نفسه يخمد ولا تتوفَّر القوَّة للمقاومة. ويمكن أن يفعلوا بك كل ما يريدون...

في الساعة السادسة صباحاً يُعلن أمر الاستيقاظ، ثلاث مرَّات: استيقاظ - رقاد. قيام - استلقاء.

تُحدَّد فترة ثلاث ثوان من أجل الاصطفاف في "المدرَّج"، أي اللينوليوم، الأبيض، بغية أن يغسل ويمسح بشدَّة باستمرار. ويجب على مئة وستين شخصاً القفز من الأسِرَّة والاصطفاف في غضون ثلاث ثوان. ويجب خلال خمس وأربعين ثانية ارتداء الزيِّ كاملاً - رقم ثلاثة، لكن من دون الحزام والقبَّعة. وإذا حدث أنَّ أحدهم لم يفلح في شد قطعتي القماش (بدلاً من الجوارب) على قدميه في الوقت المقرَّر، يصدر الأمر للجميع:

- «انصرفوا وأعيدوا الكرَّة!».

ومرَّة أخرى لم يفلح أحدهم في لفِّ قطعة القماش.

- «انصرفوا وأعيدوا الكرَّة!».

التمارين الرياضية. القتال بالأيدي وبالسلاح الأبيض؛ ويتضمَّن الكاراتيه والملاكمة والسامبو والأساليب القتالية لتفادي الإصابة بالسكِّين والعصا ومجرفة رجال سلاح الهندسة والمسدَّس والرشَّاش. فأحدهم يحمل رشَّاشاً، أما أنت فأعزل. وأنت تحمل مجرفة رجال سلاح الهندسة وهو أعزل. هرول مئة متر قفزاً "كالأرنب" على قدم واحدة، وحطِّم عشر لبنات بقبضة يدك. يُقاد

الجندي إلى موقع البناء ويقال له: «لن تغادر المكان قبل أن تتعلَّم». ولعل أصعب شيء هو السيطرة على أعصابه، وعدم الخوف من الضرب.

تُحدَّد خمس دقائق من أجل الاغتسال. اثنا عشر صنبوراً من أجل مئة وستين شخصاً.

- «اصطفاف! هرولة!» - بعد خمس دقائق - «اصطفاف! هرولة!».

التفتيش صباحاً: فحص القطعة المعدنية للحزام- يجب أن تلمع وتتألَّق، كما لدى مؤخرة القط، والياقات بيضاء، وأن توجد إبرة وخيط في القبعة.

- «إلى الأمام! سر! إلى موقع البداية!».

طوال اليوم - فترة استراحة لمدَّة نصف ساعة. وبعد الغداء يُخصَّص الوقت لكتابة الرسائل.

- «الجندي كريفتسوف، لماذا تجلس ولا تكتب؟».

* «أنا أفكِّر أيُّها الرفيق العريف».

- «لماذا تردُّ بصوت خافت؟».

* «أنا أفكِّر أيُّها الرفيق العريف».

- «لماذا لا تصيح بصوت عال كما علَّموك؟ يجب عليك التمرُّن مجدَّداً في "النقطة"».

والتمرُّن في "النقطة" معناه الصياح في مقعد المرحاض، والتمرُّن على اعتياد صوت إصدار الأوامر. ويقف العريف وراءك للتحقُّق من أن الصدى أصم.

من قاموس الجنود:

الانصراف إلى الثكنة - "أنا أحبُّك أيَّتها الحياة". التفتيش صباحاً - "صدِّقوني يا ناس". التفتيش مساء - "كانوا يعرفونها فرداً فرداً". في الزنزانة الانفرادية - "بعيداً عن الوطن". التسريح من الخدمة العسكرية - "ضياء نجم بعيد". وميدان التدريبات التكتيكية - "ميدان الحمقى". غسَّالة الصحون

- "ديسكوتيكا" (الصحون تدور مثل الأسطوانات). نائب الآمر للتوعية السياسية - "سندريلا" (في الأسطول - المسافر).

- «كتيبة الخدمات الطبِّية، العظم الأبيض لقوَّات الإنزال الجوِّي. كرِّروا!».

الشعور بالجوع الأبدي، والمكان المأمول: المتجر العسكري، فهناك يمكن شراء الكعك والحلوى والشوكولاتة. إذا ما أفلحت في إطلاق النار بدرجة "امتياز" يُسمح لك بالذهاب إلى المتجر. إذا لم تكفِ النقود تبيع عدة قطع طوب، نأخذ الطوب ونأتي، نحن الاثنين من ذوي القيافة المتينة، إلى مجنَّد جديد تتوفَّر لديه النقود:

- «اشترِ هذا الطوب».

* «ما حاجتي إليه؟».

فنحيط به في حلقة: «اشترِ الطوب...».

* «بكم؟».

- «بثلاثة روبلات».

يعطينا ثلاثة روبلات ثم يذهب إلى المنعطف ويرمي الطوب. بينما نشتري بثلاثة روبلات ما يشبعنا. فالطوبة الواحدة تعادل عشر كعكات.

- «الضمير هو ترف بالنسبة إلى جندي الإنزال. كتيبة الخدمات الطبِّية، العظم الأبيض لقوَّات الإنزال الجوِّي».

يبدو أنني ممثل لا بأس به، لأنني تعلَّمت بسرعة أداء الدور المكلَّف به. لعل أسوأ شيء هو أن يعتقد الآخرون بأنك "تشادوس" (من كلمة "تشادو" أي الطفل)، وكائن ضعيف، ليس من الذكور. بعد ثلاثة أشهر تم تسريحي. كيف نسي كل شيء! فمنذ فترة قريبة كنت أتبادل القبلات مع فتاة، وأجلس في مقهى، وأرقص. وتراءى لي أنها ليست ثلاثة أشهر انصرمت، بل ثلاثة أعوام، عدت بعدها إلى الحضارة.

في المساء:

- «أيَّها القردة، اصطفاف! ما هو الشيء المهم بالنسبة إلى جندي الإنزال؟ أن لا يطير بمحاذاة الأرض».

وقبيل الرحيل احتفلنا بعيد رأس السنة. وقمت بدور بابانويل، وساشكا قام بدور فتاة الثلج. وقد ذكَّرني هذا بأيام المدرسة.

مضت فترة اثني عشر يوماً. لا يمكن أن يكون ما هو أسوأ من الجبال سوى الجبال. كنا نبتعد منسحبين من عصابة مسلحة، وساعدَنا على الاحتفاظ بلياقتنا تناولُ المنشِّطات.

- «أيُّها المرشد الطبِّي، أعطنا حبَّاتك "أوزفيرين"». - وهو عقار باسم السيدنوكارب. وقد التهمنا جميع الحبوب.

كما مزحنا.

يبدأ أحدهم أوَّلاً بالكلام. سأل الطبيب القط ليوبولد: «ممَّ تشكو؟».

* «من الفئران».

- «سواء تفأرنت أم لم تتفأرن، كل شيء واضح. أنت طيِّب القلب جدَّاً، يجب عليك أن تغتاظ. هاك حبوب "أوزفيرين". فخذ بمعدل حبَّة واحدة ثلاث مرَّات في اليوم بعد الأكل».

* «وبعد ذلك؟».

- «تصبح متوحِّشاً».

في اليوم الخامس انتحر أحد الجنود. تخلَّف عن الجميع ثم وجَّه فوَّهة الرشَّاش نحو بلعومه. ووجب علينا حمل جثمانه وحقيبته الميدانية وسترتة المضادة للرصاص وخوذته. لم تصدر شكوى من أحد. لقد كان يعرف أن العادة المتَّبعة لدينا هي عدم ترك الجثث - فتحمل.

وقد تذكرنا وأبدينا أسفنا عليه حين سافرنا عائدين إلى الوطن، بعد تسريحنا.

- «تناولْ حبَّة واحدة ثلاث مرَّات في اليوم...».

* «وبعد ذلك؟».

- «تصبح متوحِّشاً».

إن الجروح الناجمة عن التفجيرات من أفظع الجروح؛ العظام متدلِّية، ومن الساق الثانية الكعب منفصل. العضو الذكري مقطوع. العين مفقوءة. الأذن مقطوعة... في أول مرَّة أصابتني رجفة، وشعرت بوخز في بلعومي، وصرت أقنع نفسي: «إذا لن تفعل ذلك الآن فلن تصبح مرشداً طبِّيَّاً أبداً». زحفت... المصاب بلا ساقين؛ فشددت الحزام وأوقفت نزيف الدم وأزلت الألم وأرقدته. رصاصة انشطارية أصابت البطن، الأمعاء متدلية منه، فشددت الضمادات وأوقفت نزيف الدم وأزلت الألم وأرقدته. صمد حياً أربع ساعات... ثمَّ مات.

كانت تنقصنا العقاقير الطبِّيَّة. لم يوجد حتى سائل التعقيم "زيليونكا" العادي. لربَّما لم يجدوا الوقت لإرسالها، ولربَّما نفدت المخزونات عندهم - فلدينا اقتصاد مخطط. وكنا نستولي على الغنائم من العقاقير المستوردة. وكانت توجد في حقيبتي دائماً عشرون إبرة حقن يابانية للاستعمال مرَّة واحدة. إنها تُحفظ في كيس نايلون ناعم، فأرفع الغطاء وأحقن بالإبرة. وفي أجهزة "ريكورد" السوفيتية استهلكت التكسيات الورقية، وأصبحت غير معقَّمة. كان نصفها لا يمتص، لا تضخ - عاطلة عن العمل. وزجاجات بدائل الدم السوفيتية الصنع حجمها نصف لتر. ويحتاج المصاب من أجل إسعافه بجروح بليغة إلى لترين، أي أربع زجاجات. فكيف يمكن في أرض المعركة الإمساك بنفاخ الهواء المطاطي بيد مرفوعة طوال ساعة تقريباً؟ هذا مستحيل عملياً. وكم عدد الزجاجات التي تحملها؟ ماذا يعرض الإيطاليون؟ إنهم يعرضون كيساً من البلاستيك بسعة لتر واحد، لا ينفجر حتى لو دست عليه بجزمتك. زد على ذلك - خذ الضمادة العادية، الضمادة السوفيتية المعقمة، التغليف فيها من خشب البلوط، ويزن أكثر من الضمادة نفسها. أما الضمادات

المستوردة، التايلندية والنمساوية، فهي لسبب ما أخفُّ وزناً، وأنصع بياضاً... ولم توجد ضمادات لدنة عموماً. كنت أستخدم أيضاً ضمادات الغنائم، الفرنسية والألمانية، أما ضماداتنا؟ إنها زحافات وليست من المواد الطبِّية. وكم يمكن أن تحمل منها معك؟ لقد كانت لدي ضمادات كهذه إنكليزية الصنع: منفردة، للكتف والساق والفخذ. وتثبت بـ"سحابات" وتنفخ، وتمد يدك فتثبِّتها. والعظم المكسور لا يتحرَّك في أثناء الحركة، ومحمي من الضربات لدى النقل.

وخلال تسعة أعوام لم يبدأ عندنا إنتاج أي شيء جديد. فالضمادة نفسها، وإطار العجلة المطَّاطي نفسه. إن الجنديَّ السوفيتيَّ من أرخص الجنود! ومن أكثر الجنود تحمُّلاً للصعاب، وقناعة وتواضعاً. فهو يفتقد إلى التجهيز وإلى الحماية. إنه مادَّة استهلاكية. هكذا كان الحال في عام 1940، كما بقي هذا الحال بعد خمسين عاماً. فلماذا؟

إنه أمر شنيع عندما يمطرونك بالرصاص بينما لا تطلق النار. يجب التفكير في ذلك دائماً إذا أردت أن تبقى على قيد الحياة... ولم أكن أركب أبداً في أوَّل أو آخر سيَّارة، ولم أنزل قدمي أبداً في كوَّة المصفَّحة، وسيكون من الأفضل أن تنقذف من الدرع، بغية ألا تفقدهما لدى وقوع انفجار. واحتفظت كاحتياطي بحبوب ألمانية خاصة بإخماد الشعور بالخوف، ولم يكن يتعاطاها أحد آخر. وكان لدي سترة مضادة للرصاص... مرَّة أخرى! إن من الصعب حمل ستراتنا، ومن المستحيل التحرُّك فيها. أما الأمريكية فلا يوجد فيها معدن واحد، وصنعت من مادة ما مضادَّة للرصاص. إنها مثل البزَّة الرياضية، ورصاص مسدَّس ماكاروف لا يخترقها عن قرب، أما رصاصة الرشَّاش فتخترقها فقط من مسافة مئة متر. ولدينا خوذ واقية يرجع عهدها إلى أعوام الثلاثينيات، إنها خوذ سخيفة من أزمان الحرب الماضية (يستغرق في التفكير). كان يصيبنا الخجل من هذا ومن أمور أخرى كثيرة... فلماذا نحن بهذا الحال؟ إن أكياس النوم الأمريكية من زمن عام 1949 صُنعت من ريش طيور التم وخفيفة الوزن. والأكياس اليابانية ممتازة لكنها قصيرة. أما كيسنا

المصنوع من القطن فوزنه يعادل ما لا يقل عن سبعة كيلوغرامات. وكنا ننتزع من القتلى المرتزقة الجاكتات والقبّعات ذات الحواف الطويلة والسراويل الصينية التي لا يحك ويكشط فيها الورك. كنا ننتزع كل شيء. كنا نأخذ الملابس الداخلية - فهي شحيحة، وكذلك الجوارب والأحذية الرياضية. وحصلت على مصباح يدوي صغير، وسكّين - خنجر. كما كنت أودُّ تناول الطعام دوماً! جوع! كنا نطلق النار على الخراف البرِّيَّة، وتُعتبر الخراف برِّيةً إذا كانت متخلِّفة عن القطيع مسافة خمسة أمتار. أو كنا نقايض كيلوغرامين من الشاي بخروف واحد. والشاي من الغنائم. والنقود، عملة الأفغاني، جئنا بها من ساحة المعركة. وكان ينتزعها منا أصحاب الرتب الأعلى، ويتقاسمونها على الفور أمام سمعنا وبصرنا. ويمكن إنقاذ ورقتين منها بإخفائهما في داخل الخرطوشة وسكب البارود فوقها.

كان أحدنا يودُّ أن يسكر، والآخر أن يبقى على قيد الحياة، والثالث يحلم بالحصول على الميداليات والأوسمة. وأنا أيضاً أردت الحصول على الأوسمة. سيستقبلونني في الاتحاد السوفيتي ويسألون:

- «أرنا يا عريف ما لديك؟ هل كسبت كومة من اللوازم العسكرية؟».

وا أسفاه، لسرعة تصديقي كلام الآخرين. إن نواب الآمر للتوعية السياسية كانوا يقنعوننا بأشياء لم يصدِّقوها أنفسهم.

إن توصيات ضابط التوعية السياسية قبيل العودة إلى البيت كانت ما يمكن التحدُّث عنه وما لا يجوز لنا التحدُّث عنه. فلا يجوز الحديث عن القتلى، لأننا جيش كبير وقوي. كما لا يجوز التحدُّث عن التصرُّفات المخالفة لقواعد الخدمة العسكرية لأننا جيش كبير وقويٌّ وسليم معنوياً. يجب إتلاف الصور الفوتوغرافية. ونحن لم نمارسْ هنا إطلاق النار، ولم نقصفْ، ولم نسمِّمْ، ولم نفجِّرْ. نحن جيش كبير وقويٌّ وأفضل جيش في العالم...

في نقطة الجمارك صُودرتْ منا الهدايا التي جلبناها معا إلى البيت: العطور والمناديل والساعات.

- «ممنوع يا شباب».

ولم يُسجَّل أي شيء، بل كان هذا مجرَّد عمل تجاري بالنسبة إليهم. وكيف كانت رائحة أوراق الربيع الخضراء؟ وانبجست في الذاكرة ثم اختفت سفيتكا أفوشكا (لا أتذَّكر لقبها - لتكن أفوشكا وأفوشكا). في اليوم الأوَّل لوصولها إلى كابُل ضاجعت أحد الجنود مقابل مئة أفوشكا (المقصود بها العملة الأفغانية - أفغاني)، قبل أن تستوضح الأمور. وبعد أسبوعين أخذت تطلب ثلاثة آلاف. وكان هذا فوق طاقة جيب الجندي. وأين باشكا كورجاغين؟ إن اسمه الحقيقي هو أندريه، ودعوه باشكا اعتماداً على لقبه.

- «باشكا، انظر، كم هنَّ فتيات حسناوات!».

كانت لدى باشكا-أندريه فتاة أرسلت إليه صورة حفلة زفافها. وكنا نرافقه في الليالي خوفاً عليه. وحدث مرَّة صباحاً أن علَّق الصورة الفوتوغرافية على صخرة وأطلق عليها نيران المدفع الرشاش.

- «باشكا، انظر، يا لهنَّ من فتيات حسناوات!».

راودني في القطار حلم: نحن نستعدُّ للانطلاق في مهمَّة قتالية، فيسأل ساشكا كريفتسوف:

- «لماذا لديك ثلاثمئة وخمسون طلقة وليس أربعمئة؟».

* «لأنه توجد لدي مواد طبِّية».

فصمت ثم سأل:

- «هل تستطيع أن تطلق النار على تلك الأفغانية؟».

* «من هي؟».

- «تلك التي وجَّهتنا إلى الكمين. أَتذكر؟ قُتل أربعة».

* «لا أعلم... في أغلب الظن لا أستطيع. في روضة الأطفال وفي المدرسة كانت تطلق عليَّ تسمية "زير نساء" لأنني كنت أدافع عن الفتيات. وأنت هل تستطيع؟».

- «أشعر بالخجل...».

ولم يفلح في إكمال حديثه حول سبب خجله، فاستيقظت من نومي.

في البيت كانت في انتظاري برقية من أم ساشكا: «تعال، قُتل ساشا».

وقفت عند قبره:

- «ساشكا، أشعر بالخجل لكوني حصلت في الامتحان النهائي بمادّة الشيوعية العلمية على درجة امتياز لانتقادي الديمقراطية البرجوازية. أجريتُ تحليلاً مقارناً. هل تفهمني؟ لقد ذهبنا إلى أفغان كالعميان، والآن يقول الجميع إن تلك الحرب كانت عاراً! ومنذ فترة قريبة سلّموني شارات جديدة "المقاتل الأممي". لقد صمت؟.. وحتى قلت «شكراً!». ساشكا أنت هناك وأنا هنا».

يجب عليَّ أن أتبادل الحديث معه...

رئيس عرفاء، المرشد الصحّي لسريَّة الخدمات الطبّية

كان قصير القامة، وولداً صغيراً، مثل صبية. ووزنه كيلوغرامان، وطوله ثلاثون ستيمتراً. كنت أخشى إمساكه بيدي.

أحتضنه: «أنت شمسي...».

لم يكن يخاف شيئاً باستثناء العنكبوت. يأتي من الشارع، كنا قد اشترينا له معطفاً جديداً، كان قد بلغ عامه الثالث. علَّقت هذا المعطف على المشجب وسمعت من المطبخ: شليوب-شليوب، شليوب-شليوب... فهُرعت إلى مدخل البيت لأجده مليئاً بالضفادع التي خرجت من جيوب معطفه وراحت تتقافز. وصار يجمعها قائلاً: «ماموتشكا، لا تخافي، إنها طيِّبة لا تؤذي».

وأخذ يعيد الضفادع إلى جيوبه.

- «أنت شمسي».

كان يحبُّ اللّعَب العسكرية. وأهديته دبَّابة ورشَّاشاً ومسدَّساً، وراح يعلِّقها على كتفه ويمشي مشية عسكرية في أرجاء البيت.

- «أنا جندي... أنا جندي».

* «أنت شمسي... مارسْ لعبة سلْمية ما».

- «أنا جندي».

لدى الالتحاق بالصف الأوَّل لم نستطع إيجاد بزَّة تناسبه، حيث كان يغرق في أية بذلة يجرِّبها.

- «أنت شمسي».

التحق بالجيش. وكنت أبتهل من أجل ألا يضربوه وألا يقتلوه. كنت أخشى أن يستهزأ به الفتيان الأقوى منه، فهو صغير جدّاً. وروى كيف كانوا يرغمونه

على تنظيف المراحيض بفرشة الأسنان، وغسل ملابس الآخرين الداخلية، لم أكن أخاف ذلك. رجاني قائلاً: «أرسلي جميع الصور الفوتوغرافية: ماما وبابا وأختي. فإنني مسافر».

ولم يكتب إلى أين يسافر. وبعد شهرين وردت رسالة من أفغانستان: «ماما، لا تبكِ، فإن درعنا متينة مضمونة».

- «أنت شمسي... درعنا متينة مضمونة...».

كنت في انتظار عودته إلى البيت، فلم يبقَ لانتهاء خدمته سوى شهر واحد. واشتريت له القمصان واللفاف والأحذية. إنها الآن في الخزانة. كنت أودُّ أن ألبسه إياها حين دفنه في القبر... كنت سأقوم بهذا بنفسي، لكنهم لم يسمحوا بفتح التابوت. لم يسمحوا بإلقاء نظرة على ولدي، ولمسه. هل وجدوا له البزّة المناسبة لطوله؟ وبمَ يرقد هناك؟

في البداية جاء نقيب من قوميسارية التجنيد:

- «تماسكي يا أم...».

* «أين ولدي؟».

- «هنا، في مينسك. سيجلبونه الآن».

رقدت على الأرض:

- «أنت يا شمسي!».

ثم نهضت وهجمت بقبضتي يديَّ على النقيب:

- «لماذا أنت حيٌّ بينما لا يحيا ولدي؟ أنت قويٌّ، ومعافى، وهو صغير البنية... أنت رجل، وهو صبي. لماذا أنت حي؟!».

جاؤوا بالتابوت، وطرقت التابوت: «أنت يا شمسي! أنت يا شمسي!».

الآن أزور قبره. أجثو على الحجارة، وأحتضنها:

- «أنت يا شمسي!».

أم

وضعت في جيبي قبضة من تربة أرض بلدي. لقد ولد مثل هذا الإحساس في القطار...

أوه! الحرب! سأقاتل. كان بيننا طبعاً بعض الجبناء. وصاح فتى لم ينجح في فحوص اللجنة بسبب بصره قائلاً بابتهاج: «لقد حالفني الحظ!». وأعقبه آخر في الطابور، فلم يُلحقوه بالخدمة أيضاً، وكاد أن يبكي قائلاً: «كيف سأعود إلى وحدتي؟ لقد ودَّعني الشباب طوال أسبوعين. لو كنت على الأقل مصاباً بقرحة في المعدة، بينما لديَّ وجع في الأسنان فحسب». واندفع بثيابه الداخلية فقط نحو الجنرال قائلاً: بسبب مجرَّد وجع أسنان لا تأخذونني؟ إذاً اقتلعوا هاتين السنَّيْن!

كنت في المدرسة أحصل على درجة امتياز في مادة الجغرافية. هَأنَذا أغلق عينيَّ وأتصوَّر: جبال وقرود ونحن في مكان ما وراء الجبال نأكل الموز. لكن حدث الأمر كما يلي: أجلسونا على دبَّابات، بالمعاطف العسكرية، مدفع رشَّاش من اليمين، وآخر من اليسار، والدبَّابة الأخيرة في نهاية القافلة – مدفع نحو المؤخرة، وجميع الكوى مفتوحة، وتبرز منها الرشَّاشات. إنها مثل قنفذ حديدي. لاقينا في الطريق مدرَّعتين؛ الشبَّان يجلسون على الدرع، لابسين القمصان المخطَّطة وعلى رؤوسهم قلنسوات، وصاروا يقهقهون ضحكاً. شاهدت مرتزقاً قتيلاً، فصُدمت. أي تدريب تلقَّى؟ إنه بطل رياضي مفتول العضلات. جئت إلى الجبال ولم أكن أعرف كيف أدوس على الصخرة، وأنه يجب أن تطأها بالقدم اليسرى. وحملت جهاز الهاتف إلى صخرة شديدة الانحدار على ارتفاع عشرة أمتار...

لدى وقوع انفجار كنت أغلق فمي بينما كان يجب أن أفتحه وإلا فستُمزَّق

طبلة الأذن. وتسلَّمنا الأقنعة الواقية من الغازات، وفي اليوم الأوَّل رميناها، لأن "الأشباح" لا يمتلكون الأسلحة الكيمياوية، وبعنا خوذنا في الدكاكين. إنها ثقل زائد عن الحاجة فوق الرأس، كما إنها تسخِّنه مثل المقالي. وكانت لدي مشكلة واحدة هي: من أين يمكن أن أسرق مخزناً إضافياً للرصاص؟ لقد أُعطينا أربعة مخازن، واشتريت الخامس حين استلمتُ أوَّل راتب من رفيق لي، أما السادس فقد استلمته كهدية. وتمسك في أثناء المعركة آخر مخزن وآخر رصاصة بين الأسنان... إنها لنفسي.

لقد جئنا لبناء الاشتراكية، فأحاطونا بحاجز من الأسلاك الشائكة: «يا شباب لا يجوز الذهاب إلى هناك. ولا حاجة إلى الدعوة إلى الاشتراكية، فهناك رجال مختصُّون بذلك». هذا شيء مؤسف طبعاً، فهم لا يثقون بنا. تحدثْت مع صاحب دكان:

– «إن حياتك لم تكن على صواب. سنعلِّمك الآن. سنبني الاشتراكية».

فابتسم:

– «لقد كنت أمارس التجارة قبل الثورة وأمارسها الآن أيضاً. عد إلى وطنك، فهذه الجبال جبالنا، وستتدبَّر أمورنا بأنفسنا».

نتنقَّل في أنحاء كابُل، فتُهاجمنا النساء بالعصي والأحجار، والصبيان يشتمون بكلمات مقذعة ويردِّدون بلا لكنة: «يا روسي اذهبْ إلى بلادك».

لماذا نحن هنا؟

أطلقت النار من راجمة قنابل، وكنت قد أفلحت في إدارة المدفع الرشَّاش، وهذا أدَّى إلى إنقاذي. وجِّهت القذيفة إليَّ فأصابت إحدى الذراعين، وخدشت الشظايا الذراع الأخرى. وأذكر: أصابني إحساس خفيف وطيب، ولم أشعر بأي ألم. صرخ أحدهم فوقي: «أطلق النار! أطلق النار!». فضغطت، لكنَّ المدفع الرشَّاش صامت، وبعد ذلك رأيت أن يدي معلَّقة، واحترقت كلها، وثمَّة إحساس بأنني أضغط بأصابعي، لكن لا توجد أصابع...

لم أفقد الوعي، وخرجت مع الجميع من المدرَّعة، ووضعت على يدي المرقاة[20]. ووجب أن أمشي لكنني خطوتُ خطوتين ثم سقطت. فقدت نحو لتر ونصف اللتر من الدم. وسمعت مَن يقول: «إنهم يطوِّقوننا!».

وقال آخر:

* «يجب أن نتركه، وإلا فسنُقتل جميعاً».

ورجوتهم:

- «أجهزوا عليَّ...».

ابتعد أحد الفتيان فوراً، أما الثاني فقد سحب زناد الرشَّاش، لكن ببطء. وعندما تتمُّ الحركة ببطء يمكن أن تنحرف الطلقة عن مسارها، وقد تحوَّلت الطلقة إلى مسار الانحراف، لكنه ألقى الرشَّاش جانباً وقال:

- «لا أستطيع! افعل ذلك بنفسك».

سحبت الرشَّاش، لكن لا يمكن أن تفعل شيئاً بيد واحدة.

وقد حالفني الحظ: فقد كانت هناك وهدة صغيرة، فاستلقيت هناك وراء الأحجار. كانت تخفيني عن الأنظار صخرة كبيرة ملساء. وراودتني فكرة: حالما يعثرون عليَّ يجب أن أقتل نفسي بصورة ما. وتلمَّست حجارة ملقاة هناك، وسحبتها ثمَّ جرَّبت كيفية استخدامها...

في الصباح عثر عليَّ رجالنا، وحملني على المعطف العسكري الاثنان اللذان هربا ليلاً. وأدركت: إنهما يخافان أن أكشف الحقيقة. ولكن كان الأمر سواء بالنسبة إليَّ عندئذ. في المستشفى العسكري أرقدوني فوراً على الطاولة، ودنا الجرَّاح وقال: «بتر». عندما استيقظت اكتشفت أنني بلا ذراع. وكان يرقد هناك مختلف الأفراد: بدون ذراع واحدة، وبلا ذراعين، وبلا ساق. كانوا ينتحبون بهدوء. وفيما بعد أصبحوا يعاقرون الخمر. وبدأت أتعلَّم إمساك القلم باليد اليسرى.

20- ضاغط لوقف النزيف الدموي.

عدت إلى بيت جدِّي، فلم يكن لديَّ أحد غيره. أخذت جدَّتي تبكي، فقد أصبح الحفيد المحبوب بلا ذراع. بينما صرخ جدِّي بها قائلاً: «أنت لا تفهمين سياسة الحزب». وحينما التقيت معارفي قالوا:

- «هل جلبت معطف فرو الضأن؟ هل جلبت جهاز تسجيل ياباني؟».

وددت لو جلبت رشَّاشاً!

بدأت أبحث عن رفاقي من الفتيان. هو كان هناك، وأنا كنت هناك أيضاً، إذاً فلغتنا واحدة. هي لغتنا، ويفهم أحدنا الآخر. استدعاني مدير المعهد: «نحن قبلناك في المعهد بدرجة مقبول، وأعطيناك منحة شهرية... لماذا تجتمعون في المقبرة؟ هذا مخالف للنظام». في البداية كانوا لا يسمحون لنا بالاجتماع سوية. كانوا يخافون منا، بزعم أننا ننشر إشاعات غير سليمة. وإذا ما انتظمنا فسوف نكافح في سبيل حقوقنا. سيتعيَّن عليهم منحنا الشقق، وسنُرغمهم على مساعدة أمَّهات الفتيان الذين يرقدون في القبور. وسنطالب بإقامة النصب، وبناء أسيجة حول هذه القبور. وقد يقول البعض: ما الحاجة إلى هذا كله؟ وواصلوا إقناعنا: يا شباب، نرجو ألا تروِّجوا الأحاديث حول ما رأيتموه. هذا سِرٌّ من أسرار الدولة! وجود مئة ألف جندي في بلاد غريبة سِرٌّ! حتى شدَّة القيظ في كابُل سر...

إن الحرب لا تجعل الإنسان أفضل، بل تجعله أسوأ فقط. هذا حكم قاطع. لن أعود أبداً إلى ذلك اليوم حين ذهبت إلى الحرب. ولن أصبح ما كنت عليه قبل الحرب. كيف يمكن أن أصبح أفضل إذا ما رأيت كيف يتم شراء قدحين من بول مصاب بداء اليرقان من المسؤول الطبِّي مقابل صكوك؟ يشربه أحدهم، فيمرض، وتفحصه اللجنة وتصدر قرارها بمرضه. وكيف يتلف أحدهم أصابعه بزناد المدفع الرشَّاش. وكيف... وكيف... وكيف تعود إلى الوطن في طائرة واحدة مع توابيت الزنك والحقائب الحاوية على معاطف فرو الضأن وسراويل الجينز والملابس الداخلية النسائية، والشاي الصيني...

سابقاً كانت شفتاي ترتجفان لدى تلفُّظ كلمة "الوطن". أما الآن فأنا إنسان آخر. الكفاح من أجل أي شيء... من أجل ماذا أكافح؟ لقد حاربنا وحاربنا، وهذا شيء طبيعي. لكن ربَّما حاربنا من أجل قضيَّة ما؟ فعندنا لكلِّ جيل حربٌ خاصَّة به. تكتب الصحف بأن كل شيء على ما يرام وصحيح، وسيكون صحيحاً. في جانب آخر يبدؤون بالكتابة عن أننا قتلة. فمن نصدِّق؟ لا أعلم. أنا لم أعد أصدِّق أحداً. الصحف؟ أنا لا أطالعها، ولا أشترك فيها حتَّى. اليوم نكتب شيئاً ما وغداً نكتب شيئاً آخر. هذا هو زماننا. بيريسترويكا[21]، الحقائق كثيرة، لكن أين الحقيقة الواحدة، حقيقتي؟ لديَّ أصدقاء، أنا أصدِّق واحداً واثنين وثلاثة منهم، وأستطيع الوثوق بهم في كل شيء. وفيما عداهم لا أثق بأحد. أنا هنا منذ ستَّة أعوام، وأرى هذا كله...

سلَّموني دفتر المعوَّقين، فهناك تسهيلات مقرَّرة لي! أذهب إلى صندوق المشاركين في الحرب:

- «إلى أين جئت يا فتى؟ لقد أضعت الطريق».

فكزَزت على أسناني، وصمتُّ. قال أحدهم خلفي:

- «أنا حاربت من أجل الوطن، وهذا...».

وسأل أحدٌ لا أعرفه:

- «أين ذراعه؟».

* «لقد سقط مخموراً تحت القطار الكهربائي، ففقدها».

أما عندما يتفهَّمون وضعي فيُبدون الشفقة.

طالعت منذ فترة وجيزة في رواية فالنتين بيكول: "لي الشرف -اعترافات ضابط في هيئة الأركان العامَّة" ما يلي: «الآن (المقصود العواقب المخزية للحرب الروسية - اليابانية في عام 1905) يقدِّم كثير من الضبَّاط استقالاتهم،

21- تعني «إعادة البناء» هي برنامج للإصلاحات الاقتصادية أطلقه رئيس الاتحاد السوفيتي، ميخائيل غورباتشوف.

لأنهم يُقابَلون أينما وجدوا بالاحتقار والسخرية. وبلغ الأمر حدَّ أن الضابط يخجل من ارتداء بزَّته العسكرية، ويسعى إلى الخروج بالزيِّ المدني. وحتى المعوَّقون الجرحى لا يثيرون التعاطف، فيعطون إلى الشحَّاذين مقطوعي الساقين أكثر إذا قالوا إنهم فقدوا سيقانهم في شارع نيفسكي أو ليتيني تحت عجلات الترام، ولا توجد أية علاقة لهم بموكدين ولياوليان[22]». عمَّا قريب سيكتبون عنا الشيء ذاته...

أعتقد أنني أستطيع الآن استبدال الوطن... والرحيل.

جندي، سلاح الإشارة

22- مناطق في الصين، جرت فيها بعض أكبر الحروب البرية بين روسيا واليابان.

أنا نفسي طلبت السفر إلى هناك. كنت أحلم بالذهاب إلى الحرب، فقد جذب ذلك اهتمامي...

تصورّت نفسي هناك، وأردت أن أعرف كيف الأمر حين توجد لديك تفّاحة واحدة وصديقان، وأنت جائع، فتعطيهما هذه التفّاحة. اعتقدت أن روابط الصداقة تجمع بين الكلّ هناك، وأن الجميع أخوة. ولهذا توجّهت إلى هناك.

خرجت من الطائرة وأخذت أُطيل النظر في الجبال، وإذا بأحد المجنَّدين (كان الفتى في طريقه إلى الاتحاد السوفيتي جوّاً) يلكزني في كتفي:

– «هات الحزام».

* «ماذا؟». كان الحزام حزامي، اشتريته في السوق السوداء.

– «أحمق، سيصادرونه منك في الأحوال كافّة».

أخذوه مني في اليوم الأوّل. وكنت أعتقد أن أفغانستان هي البلد الذي يرتبط فيه الجميع بعرى الصداقة. أنا أبله! الجندي الفتي هذا يمكن إيقاظه وضربه والانهيال عليه بالكراسي والعصي والقبضات والأرجل ليلاً، ويمكن توجيه لكمة إليه في المرحاض نهاراً، وسلبه حقيبة السفر والأشياء والكحل والبسكويت (لدى من يتوفّر لديه ذلك، وجَلَبه معه). وتجري التسلية بموجب قانون الضعيف والقوي. «اغسل لي، يا عصفور، جواربي» – هذا لا بأس فيه، وإليك أمراً آخر: «هيا، يا عصفور، الحس جواربي. الحسها جيّداً لكي يرى ذلك الجميع». درجة الحرارة تعادل ستّين درجة مئوية، فتمشي وتترنّح، وينقلونك إلى أماكن شتّى. لكن في أثناء العمليات القتالية كان "الأجداد"

يسيرون في المقدَّمة، ويحموننا. كانوا ينقذوننا؛ هذا حق، لكن حين نعود إلى الثكنة: «هيا يا عصفور، الحس جواربي...».

هذا أكثر فظاعة من أوَّل معركة. أوَّل معركة تُثير الاهتمام! يبدو كما لو أنك تشاهد فيلماً سينمائياً، وقد شاهدت مئات المرَّات في السينما كيف ينطلقون في الهجوم ولكن تبيَّن أنَّ هذا اختلاق. إنهم لا يمشون، بل يركضون، ولا يهرولون بسرعة مع الانحناء بهيئة جميلة، بل يهرولون بكل قواهم. والقوى عند الإنسان حينئذ تكون مثلها لدى المجنون، ويتقافز أحدهم بحركة التفاف مثل الأرنب المسعور. سابقاً كنتُ أحبُّ الاستعراضات العسكرية في الساحة الحمراء، والمعدَّات العسكرية، كنت أحبُّ ذلك. والآن أعرف بأنه لا يجوز الإعجاب بذلك، والأحرى بهذه الدبَّابات والمصفَّحات والرشَّاشات أن توضع في مكانها، وتُغطَّى، لأنها جميعاً تُستخدم في قتل الإنسان وتحويله إلى رماد! وإلى طين! مثلك؟ الأفضل أن يسير في الساحة الحمراء جميع "أصحاب الأطراف الاصطناعية" الأفغان، ولمشيتُ أنا معهم... انظروا! لقد بُترت كلتا ساقيَّ فوق الركبتين، لو بُترتا أسفل الركبتين لكنتُ مُوفَّقاً! ولكنتُ إنساناً سعيداً. إنني أحسد من لديهم ركبتان... بعد تغيير الضمادات تنتفض ساعة، وساعة ونصف، فقد أصبحت صغيراً بلا أطراف صناعية. وترقد في سروال السباحة وقميص البحَّارة المخطَّط، ويبدو القميص بطولك. في الفترة الأولى لم أكن أسمح لأحد بالاقتراب مني، ولزمت الصمت. حسناً لو بقيت بساقٍ واحدة، وليس بدون ساقين. لعلَّ أصعب شيء هو أن تنسى بأنه كانت لك ساقان. بودِّي أن أختار من بين الجدران الأربعة ذلك الذي توجد فيه نافذة.

وجَّهت الإنذار إلى أمِّي: «إذا بكيت، فلن أسافر». وهناك كنت أكثر ما أخشاه هو أن يقتلوني، ويجلبوا جثَّتي إلى البيت، فتبكي أمِّي. بعد المعركة يوجد شعور الشفقة تجاهه، أما القتيل فلا شفقة عليه، والشفقة على أمِّه فقط. في المستشفى العسكري أردت إبداء الشكر والامتنان إلى الممرِّضة الجليسة، فلم أستطع، لقد نسيت حتى الكلمات.

- «هل كنت لتذهب إلى أفغانستان مرَّة أخرى؟».

* «نعم».

- «هناك الصديق صديق، والعدو عدو. أما هنا فثمَّة سؤال أبدي: لماذا لقي أصدقائي مصرعهم؟ هل من أجل هؤلاء المضاربين الشبعانين؟ والموظَّفين؟ أم الشباب اللامبالي الذي لا يهتمُّ بأي شيء، سوى أن يجد لديه علبة بيرة في الصباح. هنا كل شيء ليس على ما يرام. وأحس بأنني من عالم آخر... غريب».

أتعلَّم المشي. يسندونني من الخلف. أسقط، وأقول لنفسي: «مهلاً. الإيعاز الأوَّل: استدر وارفع الضغط عن اليدين. الإيعاز الثاني: انهض وامشِ». كان الأصح في الأشهر الأولى عدم المشي، بل الحبو. الحبو. وأبرز صورة من هناك: صبي أسود بملامح وجه روسية... عددهم كبير هناك، فنحن هناك منذ عام 1979، سبعة أعوام. بودِّي أن أسافر إلى هناك. حتماً! لو لم تكن كلتا الساقين مبتورتين فوق الركبتين! آه لو بُترتا من أسفل الركبتين...

لسافرت إلى هناك...

جندي، من وحدة مدافع الهاون

أنا أسأل نفسي: لماذا ذهبت إلى هناك؟

الأجوبة مئة... لكنَّ الجواب الرئيس يرد في الأبيات الشعرية، ولو أنني لا أعرف لمن هي. لربَّما نظمها أحد فتياننا؟

ثمة شيئان في الدنيا، هما شيء واحد بلا جدال:
أوَّلاً، النساء. وثانياً، النبيذ.
لكنَّ الحرب بالنسبة إلى الرجال
أحلى من النساء، وأطيب مذاقاً من النبيذ.

كنت أحسد الزملاء الذين كانوا في أفغانستان؛ فقد تكدَّست لديهم خبرة عظيمة. أين تكسب مثلها في الحياة السلْمية؟ أنا جرَّاح. عملت سابقاً طوال عشرة أعوام كجرَّاح في مستشفى المدينة، لكن عندما وصلت أوَّل وجبة من الجرحى كدتُ أفقد عقلي. لا أذرع ولا سيقان، ويرقد الجريح مثل جذمة، تتنفَّس. لن يرى المرء مثل هذه الأشياء في الأفلام السادية. ونفَّذت هناك عمليات جراحية يمكن أن يحلم بها فقط الجرَّاح في الاتحاد السوفيتي. لم تحتمل ذلك الممرِّضات الشابَّات، فالواحدة منهنَّ تبكي تارة وتتلعثم تارة، وتارة أخرى تقهقه. ووقفت إحداهنَّ والابتسامة لا تفارق ثغرها طوال الوقت. وتمت إعادتهنَّ إلى بيوتهنَّ في الوطن.

الإنسان لا يموت كما في السينما أبداً. الإنسان لا يموت وفق طريقة الفنَّان المسرحي ستانسلافسكي؛ فعندما تصيب رأسه رصاصة يلوِّح بيديه ويسقط. أما في واقع الحال: فحين تصيب الرصاصة الرأس تتطاير قطع الدماغ وهو يهرول وراءها، ولربَّما يهرول مسافة نصف كيلومتر ويمسك بها. هذا في النهاية. إنه يهرول حتى يحلَّ الموت الفسيولوجي. من الأيسر

أن يقتل بدلاً من مشاهدة وسماع كيف يشهق أو يرقد ويرجو الموت من أجل الخلاص، هذا إذا ما بقيت لديه بقيَّة قوَّة. والآخر يرقد ويصيبه الرعب، ويبدأ قلبه يخشخش. إنه يصرخ ويتوسَّل، وتفحصه، وتطمئنه، وبالكاد تبتعد عن السرير فإذا بالفتى قد غاب عن الوجود، بينما كان موجوداً قبل لحظة...

لن يُنسى هذا قريباً. سيشبُّ هؤلاء الصبيان-الجنود، وسيسترجعون ذلك مجدَّداً، وتتغيَّر آراؤهم، ويُنسى شيءٌ ما، بينما ينبجس شيء ما من الخزائن. لقد كان والدي طيَّاراً في أيَّام الحرب العالمية الثانية، لكنه لم يتحدَّث أبداً عمَّا جرى له. كان صامتاً دائماً، وآنذاك لم أفهمه، والآن أفهمه وأحترم صمته. استعادة الذكريات مثل مدِّ يدك إلى النار، وتكفي الكلمة، والتلميح. قرأت أمس في الجريدة: «دافع حتى آخر طلقة، وأطلق النار على نفسه». ما هذا؟ يُطلق النار على نفسه؟ في المعركة يطرح السؤال بشكل مطلق: أنت؟ أم هو؟ والجواب واضح، يجب أن تبقى أنت حيّاً. لكن الجميع انسحبوا ويجب عليك أن تغطِّي انسحابهم، هم أمروك بذلك أم أنت قرَّرت، عالماً بصورة أكيدة بأنك اخترت الموت. أنا على ثقة من أنَّ هذا ليس عسيراً في تلك اللحظة من الناحية السيكولوجية؛ ففي ذلك الوضع يُعتبر الانتحار ظاهرة طبيعية، ويستطيع القيام به الكثيرون. وبعد ذلك يُوصفون بأنهم أبطال. لكن هنا، في الحياة العادية، يُعتبر المنتحرون أفراداً غير عاديين. وهناك؟ هناك كل شيء بالعكس... القوانين مختلفة. سطران في الجريدة فقط، بينما لا يغمض لك جفن في الليل، تسترجع كلَّ الذكريات. إنها تعود.

إن من كان هناك مرَّة لا يريد القتال مرَّة ثانية، ولن يخدعنا أحدٌ بالقول إن اللحم ينمو فوق الأشجار. ومهما كنا سُذَّجاً وقساة القلوب ومحبِّين للزوجة والأطفال، أم غير محبِّين للزوجة والأطفال، فإننا كنا مع هذا نمارس القتل. لقد أدركت مكاني في الفرقة الأجنبية، لكنني لا آسف على أي شيء. الآن صار الجميع يتحدَّثون عن الشعور بالذنب، لكنه غير موجود لديَّ. المذنبون هم مَن أرسلونا إلى هناك. أنا أرتدي بكل ارتياح البزَّة الأفغانية، وأشعر فيها

بأنني رجل، والنساء في غاية السرور! وحدث مرَّة أن ارتديتها وذهبت إلى مطعم، وحدَّقت المديرة فيَّ، وهذا ما كنتُ أنتظره. فقلت:

- «ماذا؟ هل بزَّتي غريبة؟ هيَّا، أفسحوا الطريق للقلب المعذَّب بلهيب الحرب...».

ليقل أحد ما إن بزَّتي العسكرية لا تعجبه، ودعه يصأصئ. لسبب ما أنا أبحث عن هذا الإنسان...

طبيب عسكري

أنجبت بنتاً أوَّلاً...

وقُبيل ولادتها قال زوجي إن الأمر سواء لديه؛ بيد أن الأفضل أن تكون بنتاً لكي يكون لها أخ لاحقاً، وستشدُّ أربطة حذاءيه. وهذا ما حدث...

هتف زوجي إلى المستشفى. فأجابوه:

- «بنت».

* «حسناً. ستكون لدينا بنتان».

وفور ذلك أبلغوه بالصدق:

- «لديك ولد... ولد!».

* «حسناً، شكراً! شكراً لكم!».

وأعرب عن الامتنان لإبلاغه بمولد الابن.

اليوم الأوَّل... الثاني... كانت المربِّيات تحملن الأطفال إلى الجميع فيما عداي. لا يقول أحدٌ شيئاً. طفقت أبكي وارتفعت درجة حرارتي. جاء الطبيب. «ماذا جرى لك يا ماموتشكا فحزنتِ؟ لديك طفل جبَّار حقيقي. إنه ما زال نائماً، ولا يستيقظ. لم يشعر بالجوع بعد، فلا تقلقي». حملوه إليَّ، وكشف القماط، فإذا هو نائم. عندئذ اطمأننت.

كيف سمَّينا الابن؟ اخترنا من بين ثلاثة أسماء: ساشا، وإليوشا، وميشا. كلها أعجبتنا. وزارتني ابنتي مع زوجي، وقالت تانيتشكا: «أنا أجريت قوعة...». ما هي هذه "القوعة"؟ لقد تبيَّن أنها أجرت قرعة بإلقاء أوراق في القبَّعة ثم سحبها، ولدى السحب مرَّتين كان الاسم هو "ساشا". وهكذا قرَّرت تانيتشكا هو الاسم. وُلد الطفل ثقيلاً، حيث بلغ وزنه أربعة كيلوغرامات

وخمسمئة غرام. وكبيراً، وطوله ستين سنتيمتراً. وأظن أنه دخل شهره العاشر. لدى بلوغه عاماً ونصف العام كان يتحدَّث بصورة جيِّدة، لكنه حتى الثالثة من العمر لم يستطع تلفُّظ حرفي "ر" و"س"، وبدلاً من "أنا نفسي" كان يقول: "أنا نفشي". كان يدعو صديقه نيغلي بدلاً من سيرغي. ودعا المربِّية في روضة الأطفال كيرا نيقولايفنا بـ"كيلا كالافنا". وعندما رأى البحر لأوَّل مرة صرخ: «أنا لم أولد، بل ألقت بي الأمواج على ساحل البحر».

في الخامسة من عمره أهديته أوَّل ألبوم صور. وكانت لديه أربعة ألبومات: طفولي ومدرسي وعسكري (حين درس في الكلِّية العسكرية)، وأفغاني؛ يضمُّ الصور الفوتوغرافية التي كان يرسلها من هناك. بينما كانت لدى ابنتي ألبومات خاصَّة بها، إذ أهديت إليهما الألبومات كلاً على حدة. كنت أحبُّ البيت وطفليَّ، ونظمت الشعر لهما.

شقَّت طريقها زهرةُ اللبن الثلجيَّة

عبر الثلوج الربيعيَّة.

وعندما انطلق الربيع في وثبة الخلود

ظهر ولدي في عالم الوجود...

كان التلامذة في المدرسة يحبُّونني سابقاً. فقد كنتُ طلقة المحيا، مشرقة الجبين...

كان ابني يحبُّ كثيراً ممارسة لعبة القوزاق - الحرامية: "أنا جسور". كان في الخامسة من العمر، بينما كانت تانيتشكا في التاسعة من العمر، عندما سافرنا إلى الفولجا. غادرنا الباخرة، والمسافة من رصيف المرفأ حتى بيت الجدَّة نحو نصف كيلومتر. جمد ساشا في مكانه كالمسمار:

- «لن أذهب. احمليني».

* «صبي كبير مثلك، ويُحمل على اليدين؟!».

- «لن أذهب، وكفى!».

ورفض السير. بقينا نُذكِّره بذلك فترة طويلة.

في روضة الأطفال كان يهوى الرقص، وكانت لديه سراويل حمراء عريضة. التقطت له الصور الفوتوغرافية فيها، وهذه الصور موجودة. مارس هواية اقتناء الطوابع البريدية حتى الصف الثامن، وبقيت الألبومات والطوابع. بعد ذلك بدأ باقتناء الشارات، وبقيت علبة فيها الشارات. أبدى ولعاً بالموسيقى، وبقيت تسجيلات أغانيه المفضلة...

لقد راوده خلال فترة الطفولة كلِّها الحلم في أن يصبح موسيقاراً. لكن يبدو أنه ترسَّخت لديه وسيطرت عليه فكرة أن أباه كان عسكرياً وأننا عشنا الحياة كلها في المدن العسكرية: كان يأكل العصيدة مع الجنود، ويغسل معهم السيَّارات. لم يقل له أحد «لا» عندما بعث الوثائق إلى الكلِّية العسكرية، بل بالعكس قيل له: «ستدافع، يا بنيَّ، عن الوطن». وقد وُفِّق في الدراسة، كان في المدرسة نشيطاً دائماً، وبعثت إلينا القيادةُ رسالة امتنان.

عام 1985... ساشا في أفغانستان... كنا نفتخر ونعجب به؛ فهو في الحرب. وحدَّثت تلامذتي عن ساشا وأصدقائه. وكنا في انتظار مجيئه في فترة الإجازة. ولسببٍ ما لم نكن نفكِّر في الأمور السيِّئة....

قبل مينسك كنا نقطن في المدن العسكرية، وبقيت لدينا العادة في عدم إغلاق الباب بالمفتاح لدى الخروج من البيت. فدخل دون أن يرنَّ الجرس وقال: «هل استدعيتم عامل تصليح التلفزيون؟». كان قد جاء مع رفاق له إلى طشقند ومنها استطاع اقتناء تذكرة إلى دونيتسك، حيث لم يحصل على إمكانية السفر إلى مكان أقرب. وطار من دونيستك (كانت مينسك لا تستقبل الطائرات بسبب سوء الأحوال الجوية) إلى فيلنوس. ووجب عليه أن ينتظر القطار في فيلنوس لمدة ثلاث ساعات، علماً أنها فترة طويلة، بينما لا يبعد البيت سوى مسافة مئتي كيلومتر فحسب. فأخذوا سيَّارة أجرة إلى مينسك.

بدا أسمر السحنة ونحيفاً، ولمعة الأسنان فقط:

- «يا بنيَّ! - طفقت أبكي - أنت نحيفٌ جدَّاً!».

* «ماموتشكا! – رفعني بديه وصار يدور في أرجاء الغرفة – أنا على قيد الحياة! أنا حي ياماموتشكا! هل تفهمين؟ أنا حي!».

بعد يومين حلَّ عيد رأس السنة، ووضع الهدايا لنا تحت شجرة عيد الميلاد. أهداني منديلاً كبيراً، أسود.

– «لمَ، يا بنيَّ، اخترت الأسود؟».

* «ماموتشكا، كانت هناك مناديل مختلفة. لكن عندما حان دوري في الطابور لم تبقَ سوى المناديل السوداء. انظري، إنه يناسبك..».

وبهذا المنديل ودَّعته إلى مثواه الأخير، ولم أخلعه طوال عامين.

كان دائماً يحبُّ تقديم الهدايا التي يصفها بأنها "مفاجآت". كانا ما زالا صغيرين، حين عدتُ برفقة الأب إلى البيت ولم أجد الطفلين، فهُرعتُ إلى الجيران، وإلى الشارع، لم أجد أثراً للطفلين ولم يرهما أحد. وصرتُ أصرخ وأبكي بحرقة! فتفتح العلبة التي كان بها جهاز التلفزيون (كنا قد اشترينا التلفزيون ولم تجد الفرصة بعد لإلقاء العلبة في الخارج)، ويخرج منها ابني وابنتي: «لماذا تبكين، ماموتشكا؟». قاما بتهيئة المائدة، وإعداد الشاي، انتظرانا، لكننا تأخَّرنا في الخارج. ففكَّرا بـ "المفاجأة": الاختباء في العلبة. فاختبآ وغلبتهما الغفوة هناك.

كان عطوفاً رقيق القلب، والصبيان نادراً ما يكونون عطوفين بهذا الشكل. وكان دائماً يقبِّلني ويحتضنني ويقول: «ماموتشكا... ماموتشكا». وبعد أفغانستان أصبح عطوفاً أكثر. وأثار إعجابه كل شيء في البيت. لكن وُجدت لحظات كان يجلس ويلتزم الصمت فيها، ولا يرى أحداً. وفي الليالي كان يقفز من فراشه ويخطو في الغرفة. ومرَّة استيقظت حين سماع صراخ: «وميض! وميض لهب! إنهم يطلقون النار يا ماموتشكا!». وفي مرَّة أخرى سمعت في الليل أحداً يبكي. ومَن يمكن أن يبكي عندنا؟ فلا يوجد أطفال صغار. ففتحت باب غرفته: وجدته ممسكاً برأسه بيديه وباكياً...

– «ولدي، لماذا تبكي؟».

* «ماموتشكا، شيء مخيف».

ولم ينبس بأية كلمة أخرى، سواء لأبيه أم لي.

وسافر كالعادة. وأعددت له حقيبة كاملة من البسكويت "أوريشكا". هو يحبُّه. أعددت حقيبة كاملة من أجل أن تكفي الجميع، فهم هناك يشعرون بالحنين إلى البيت، بيتهم.

في المرة الثانية جاء أيضاً بمناسبة عيد رأس السنة. كنا في انتظاره في البداية خلال الصيف. وكتب: «ماموتشكا، أعدِّي المزيد من الكومبوت (الخشاف)، واصنعي المربَّى، سآتي وأشرب وآكل هذا كله». وأُجِّلت الإجازة من أغسطس إلى سبتمبر، وأراد أن يذهب إلى الغابة لجمع الفطر. لكنه لم يأتِ. وفي أعياد نوفمبر لم يأتِ أيضاً. تلقَّينا رسالة كتب فيها: «ما رأيكم؟ أليس من الأفضل أن آتيكم في أعياد رأس السنة؟ ستكون هناك شجرة عيد الميلاد، وعيد ميلاد أبي في ديسمبر، بينما عيد ميلاد أمِّي في يناير».

في 30 ديسمبر جلست في البيت طوال اليوم، ولم أخرج إلى أي مكان. وقبل ذلك تلقَّيت رسالة: «ماموتشكا، سأطلب منك مقدَّماً فطائرَ محشوَّة بحبَّات الآس الأسود، وفطائر محشوَّة بالكرز، وفطائر محشوَّة بالقريشة». عاد زوجي من عمله فقرَّرنا أن يجلس وينتظر بينما أنا أذهب إلى المتجر وأشتري غيتاراً. وكنت قد تلقَّيت في الصباح بطاقة بريدية يذكر فيها أنه قد طُرحت للبيع آلات الغيتار. ورجاني ساشا ألا أشتري غيتاراً غالياً، بل عادياً من النوع السائد في المحلة.

عدت من المتجر، فوجدته في البيت.

– «أوي، يا ولدي، كنت في انتظارك!».

رأى الغيتار:

* «يا له من غيتار جميل! – وصار يرقص في أرجاء الغرفة – أنا في البيت. أجمل بيت! كم الأحوال عندنا طيِّبة! وفي مدخل المبنى شممت رائحة متميِّزة».

قال إن مدينتنا من أجمل المدن، وشارعنا من أجمل الشوارع، وفي باحة البيت أجمل أشجار القراصية[23]. لقد أحبَّ هذا المبنى. والآن غدت الحياة فيه صعبة، فغالباً ما نتذكَّر ساشا، كما من الصعب الانتقال إلى مكان آخر؛ فقد أحبَّ هنا كل شيء.

جاء إلينا هذه المرَّة شخصاً آخر. لاحظ ذلك جميع الأصدقاء وليس نحن فقط. فقال لهم:

– «ما أسعدكم جميعاً! أنتم حتى لا تتصوَّرون كم أنتم جميعاً سعداء! لديكم عيد في كل يوم».

أتيت من صالون الحلاقة بتسريحة شعر جديدة، وقد أعجبته فقال:

– «ماموتشكا، سرِّحي شعركِ هكذا دائماً. كم أنت جميلة!».

* «سيكلِّفني ذلك الكثير من النقود إذا سرَّحته هكذا كلَّ يوم».

– «لقد جلبتُ النقود. خذيها كلها. أنا لا أحتاج إلى النقود».

رُزق صديق له بولد. وأذكر كيف كانت سحنته حين رجاه قائلاً: «دعني أحمله». فأخذه في ذراعيه، وتجمَّد في مكانه. في أواخر أغسطس أُصيب بوجع في ضرسه، علماً أنه كان يخاف طبيبَ الأسنان منذ طفولته. جرجرته إلى المستوصف قسراً، جلسنا في انتظار دورنا ليستدعونا. تطلَّعت إليه فوجدتُ العرق يتفصَّد في وجهه من الخوف.

إذا ما عُرض على شاشة التلفزيون برنامجٌ حول أفغانستان كان يخرج إلى الغرفة الأخرى. وقبل أسبوع من السفر بدت في عينيه علامات الكآبة، فقد كانت تتناثر منهما. ربما أنا أعتقد ذلك الآن؟ وآنذاك كنت سعيدة: فولدي برتبة نقيب في سن الثلاثين عاماً، وجاء وعلى صدره وسام النجمة الحمراء. وفي المطار تطلَّعت إليه ولم أصدِّق: هل هذا الضابط الوسيم والفتيُّ هو ابني؟ كنت أفتخر به.

23- شجر مثمر من الفصيلة الوردية، ويصنع منها المربى، ومن نقيعها يصنع شراب يشبه التمر الهندي.

بعد مرور شهر تلقَّيت رسالة، وتضمَّنت تهنئة الأب بعيد الجيش السوفيتي، بينما شكرني على الفطائر المحشوَّة بالفطر. بعد هذه الرسالة جرى لي شيء ما، فلم أستطع النوم. كنت مستلقية في الفراش وراقدة، لكنني بقيت حتى الخامسة عند الفجر مفتوحة العينين، لا يغمض لي جفن.

في الرابع من مارس راودني حلم. ميدان واسع، وتنبثق ومضات فيه في كل مكان. ثمة انفجارات... وتمتد شرائط بيضاء طويلة... وساشا ابني يهرول ويهرول هارباً... إنه ينطلق، ولا يجد مكاناً يلوذ إليه... وومض هناك شيء ما، وهناك. كنت أركض وراءه، أريد اللحاق به، أريد أن أكون أمامه وهو خلفي... كما حدث لنا في أيَّام طفولته في القرية حين غطَّتنا عاصفة رعدية. فقد خبَّأته تحت ردائي، وصار يلوذ في كنفي بهدوء مثل فأر صغير قائلاً: «ماموتشكا، أنقذيني!». لكنني لم ألحق به... فهو طويل القامة، وخطواته واسعة وواسعة. كنت أركض بكل قواي... وقلبي يكاد أن ينفجر. لكنني لا أستطيع اللحاق به.

طرق أحدهم الباب، ودخل رجل. جلست مع ابنتي على الأريكة، وتقدَّم نحونا عبر الغرفة كلها بجزمتيه والمعطف والقبَّعة. ولم يحدث مثل هذا الشيء أبداً، فولدي محبٌّ للنظام، لأنه كان في الجيش خلال حياته كلها، والانضباط يتحكَّم بسلوكه. اقترب وجثا على ركبتيه أمامنا:

- «يا بنات، جاءتنا مصيبة».

وعندئذ لاحظت وجود أناس آخرين في مدخل البيت. ودخلت ممرضة والقوميسار العسكري والمعلِّمون من مدرستي ومعارف زوجي...

- «ساشينكا! ولدي الحبيب!».

انصرمت ثلاث سنوات ونحن لا نستطيع فتح الحقيبة. هناك حاجيَّات ساشا... لقد جُلبت مع التابوت. وأعتقد أن رائحة ساشا تفوح منها.

لقد أُصيب بخمس عشرة شظية دفعة واحدة. ولم يفلح سوى بالقول: «هذا مؤلم يا ماموتشكا».

لأي غرض؟ لماذا؟ مثل هذا الفتى اللطيف، طيِّب القلب. كيف لم يعد له

وجود؟ إن هذه الأفكار تقتلني ببطء. أنا أعلم بأنني سأموت؛ فلا مغزى للحياة بعد هذا. أنا أتوّجه إلى الناس، أمضي بجهد إلى الناس. أمضي مع ساشا، مع اسمه، وأتحدَّث عنه. تحدَّثتُ في المعهد التكنولوجي، فدنت مني طالبةٌ وقالت: «لو حشوتِ رأسه بدرجةٍ أقلّ بهذه الروح الوطنية لكان الآن حيّاً». شعرتُ بالدوران بعد هذه الكلمات. وأُغمي عليَّ هناك.

أنا ذهبتُ من أجل ساشا، ومن أجل ذكراه. كنت أفتخر به، والآن يقال: كان ذلك خطأً فادحاً، ولم تكن لأحد حاجة إلى هذا؛ سواء لنا أم للشعب الأفغاني. سابقاً كنت أكره الذين قتلوا ساشا، أمَّا الآن فأنا أكره الدولة التي أرسلته إلى هناك. لا تذكروا الاسم... فهو الآن لنا فقط. ولن أعطيه إلى أي لأحد. وحتى ذكراه...

(بعد عدَّة أعوام اتصلت بي).

أريد أن أواصل حديثي، فقد خلا من النهاية. آنذاك لم أكمله، لم أكن مستعدَّة بعد للحديث. لكنني... أنا طبعاً لست شابة. لقد تبنَّينا قبل نصف عام صبياً من دار اليتامى، وسمَّيناه ساشا. إنه يشبه كثيراً ساشا في صغره. وبدلاً من "أنا نفسي" يقول "نفشي". ولا يلفظ بشكل صحيح حرفي "ر" و"س". لقد أعدنا إلينا ابننا... أتفهمينني؟ لكنني أقسمت، وأخذت قسماً من زوجي، على أنه لن يصبح عسكرياً أبداً...

أبداً...

أم

أنا أطلقت النار... أطلقت النار مثل الجميع. أنا لا أعلم كيف تُدبَّر هذه الأمور، وكيف تُدبَّر شؤون هذا العالم. أنا أطلقت النار...

كانت وحدتنا ترابط في كابُل (يضحك فجأة). كانت لدينا "قاعة للمطالعة" - إنها مرحاض كبير، لا تحزني يا ماما، إنها حفرة مساحتها تعادل عشرين في عشرين متراً وبعمق ستة أمتار، وهناك أربعون ثقباً وحواجز من الألواح عُلِّقت فيها بالمسامير صحف "برافدا" و"كمسمولسكايا برافدا" و"ازفستيا". ويفك أحدنا سراويله، والسيجارة في فمه، فيدخِّن ويجلس ويطالع. وإذا وجد شيئاً حول أفغانستان يقرأ: القوَّات الحكومية الأفغانية دخلت إلى مكان كذا... وسيطرت على مكان كذا. أما بصددنا فلا توجد كلمة واحدة، يا ل...ة. أمس قُطعت أوصال أربعين من فتياننا كلِّيّاً، وكنت قد جلست مع أحدهم فوق الثقب هنا وطالعنا الصحف، وضحكنا. ياللـــــــ..! يودُّ أحدنا وضع فوهة الرشَّاش في فمه لكي يتطاير بعدها الدماغ من مكانه! الكآبة شديدة. الكذب في كل مكان... وسئمنا من الثكنة... الطعام رديء إلى درجة تبعث على التقيُّؤ، والمسرَّة الوحيدة هي الذهاب إلى الحرب، والقيام بغارة، وتنفيذ مهمَّة قتالية. سواء سنقتل أم لا، فإننا كنا نزحف نحو ساحة المعارك ليس لأن هذا يتطلبه الوطن والواجب، بل لأننا كنا نفتقر إلى الانطباعات. فنحن نجلس عدَّة شهور وراء الأسلاك الشائكة. خلال أربعة شهور تناولنا عصيدة الحنطة السوداء وحدها: في الفطور والغداء والعشاء. هذه العصيدة وحدها. أما حين التوجُّه إلى القتال فتُعطى لنا وجبة باردة تتألَّف من معلَّبات اللحم وحتى شوكلاتة "أليونكا" أحياناً. وبعد المعركة تفتِّش في جيوب القتلى من الأشباح فتحصل على معلَّبات من المربَّى ومعلَّبات جيِّدة

وسجائر بفلتر. يا إلهي! علبة "مارلبرو" بينما توجد لدينا فقط سجائر رخيصة "أوخوتنيتشي". لا بد من أنك سمعت بها؟ توجد على العلبة صورة موجيك يحمل عصا ويمشي في المستنقعات وسُمِّيت "الموت في المستنقعات". كما كانت هناك سجائر "بامير"، وهي تعني "الموت في الجبال". وفي أفغانستان جرَّبت لأوَّل مرَّة مذاق السرطانات ومعلَّبات اللحم الأمريكية... كما دخنت سيجاراً غالي الثمن... وكان يمكن المرور بدكان وسرقة شيء ما، ليس لأننا من السلابين، لكن الإنسان يرغب دائماً في تناول ما لذ وطاب، والنوم بقدر أكبر. أما نحن فقد أخذونا من أمهاتنا وقالوا لنا: إلى الأمام يا فتيان، هذا واجب مقدَّس، وواجب عليكم، وأنتم في سن 18عاماً. يا للـــــ...

نُقلنا في البداية إلى طشقند، وخرج نائب آمرٍ للتوعية السياسية ذو كرش كبير، وقال: ليكتب من يريد الذهاب إلى أفغانستان طلباً. وكتب الفتيان: "أرجو إرسالي..."، لكنني لم أكتب. لكن في اليوم التالي أعطونا جميعاً وجبة طعام بارد، ونفقات سفر، وأركبونا الشاحنات ونقلونا إلى نقطة الإرسال. في المساء جاء الأقدم منا في الخدمة وقالوا: «يا شباب، هاتوا النقود السوفيتية، ففي المكان الذي ستذهبون إليه يكون التعامل بالعملة المحلية – الأفغاني». ما هذا الهراء؟ إنهم يسوقوننا كالخراف، وبعضنا مبتهج، لأنه طلب ذلك بنفسه، والبعض الآخر يرفض ويُصاب بالهستيريا، ويبكي، وآخر يحتسي الكولونيا. يا للـــــ...أصابني شعور من الخواء، وأصبح الأمر سواء لديَّ. وفكَّرت: «حسناً، يا للشيطان! لماذا لم نحصل على التدريب العسكري الخاص؟ يا للـــــ... إنهم يرسلونني إلى حرب حقيقية». أنا لم أتعلَّم بعد إطلاق النار كما يجب. وكم مرة أطلقنا النار خلال التدريبات؟ ثلاث إطلاقات منفردة وست صليات بالرصاص... لا تحزني يا أماه! أوَّل الانطباعات من كابُل... رمل، الفم ممتلئ بالرمل. وفي يوم الوصول اعتدى عليَّ بالضرب في غرفة الحرس جنود سيُسرَّحون قريباً. ومنذ الصباح صدرت الأوامر: «تعال إلى هنا، هل غسلت الصحون؟ هرولة! قف! ما هو

لقبك؟». كانوا يضربوننا، ولكن ليس على الوجه، لكي لا يلاحظ الضبَّاط آثار الضرب، بل يضربون في الصدر، في زر بذلة الجندي، فإنها مثل الفطر تنغرس في الجلد بيسر. وعندما كنا نُرسَل إلى موقع الحراسة، كنت أشعر بالسعادة؛ فلن يمسَّني خلال ساعتين "جندي قديم" أو جندي على وشك التسريح. وقبل أربعة أيَّام من وصولنا جاء مجنَّد حديث العهد في الخدمة إلى خيمة جنودٍ على وشك التسريح وألقى هناك قنبلة يدوية، وهكذا قتل سبعة منهم واختفوا من الوجود بكل بساطة، في لحظة خاطفة! وبعد ذلك وجَّه فوَّهة الرشَّاش إلى فمه وتطايرت قطع الدماغ في الهواء! وجرى شطبهم من القوائم بصفتهم من ضمن الخسائر في المعارك. لكن أمنا-الحرب لا تشطب كل شيء. يا للـــــ...! بعد العشاء استدعاني "الجنود القدامى" وقالوا: «هيا يا موسكو (أنا من ضواحي موسكو) يجب أن تقوم بطهو البطاطس. سنسجِّل الوقت: أربعون دقيقة. هيا اذهب». وركلوني في مؤخرتي. سألت: «أين سأجد البطاطس؟». الجواب: «هل تريد أن تحيا؟». ويجب أن تكون البطاطس مقلية مع البصل والفلفل وزيت عبَّاد الشمس، وكانت تُطلق على هذا الطبق تسمية "غراجدانوتشكا". كما يجب أن تُوضَع أوراق الغار فوقه. وقد تأخَّرت عشرين دقيقة فأمطروني بالشتائم... ماما لا تحزني! فقد عثرت على البطاطس لدى رجال المروحيات، وقد جلس هناك "مجندون فتيان" وانهمكوا في تقشير البطاطس من أجل الضبَّاط. وقد رجوتهم ببساطة: «يا شباب، أعطوني وإلا فسيقتلونني شرَّ قتلة!»، فأعطوني نصف دلو. ولحقوا بي قائلين: «يمكنك أن تحصل على الزيت من طاهينا الأوزبكي. أطنب الحديث معه حول الصداقة بين الشعوب، فهذا ما يحبُّه». وأعطاني الأوزبكي الزيت والبصل من مائدة السادة الضبَّاط. وقمت بطهو البطاطس فوق نار أوقدتها في الوهدة، وبعد ذلك هرولت لكي لا تبرد المقلاة... الآن حين أقرأ عن الأخوة الأفغانية، تنتابني الرغبة في القهقهة. في وقت ما سيُخرجون فيلماً عن هذه الأخوة، وسيصدِّقه الجميع. أما أنا فإذا ما ذهبت لمشاهدته فإنما أفعل ذلك

فقط من أجل مشاهدة المناظر الطبيعية الأفغانية. عندما ترفع رأسك تشاهد الجبال! جبال بنفسجية اللون. السماء! وأنت، كما لو أنك في السجن. وإذا لم يقتلك الأشباح فستقتلك جماعتك. وفيما بعد رويت ذلك لأحد السجناء في الاتحاد السوفيتي فلم يصدِّق أن يستهزئ الزملاء بأصحابهم وقال: «هذا غير ممكن!». علماً أنه رزح في السجن عشرة أعوام، ورأى عجائب الأمور! يا للـــ... وبغية ألا يُجنَّ الإنسان، وألا يصاب بلوثة في عقله، تجد البعض يشربون الخمر، ويدخِّنون الحشيش، ويشربون الفودكا المنزلية الصنع "الساماغون"، وكانت تُصنع مما يتوفر تحت اليد: الزبيب، السكَّر، التوت، الخميرة، ويضاف إليها الخبز. وعندما لا تكفي السجائر يستخدم الشاي بدلاً من التبغ، ويلفُّ بورق الصحف، المذاق حقيرا لكن يوجد دخان. وطبعاً "التشارس"! و"التشارس": هو طلع القنب... وعندما يجربه أحد ما يأخذ بالضحك، ويضحك مع نفسه، أما الآخر فيندس تحت الطاولة ويجلس هناك حتى الصباح. وبدون هذا، أي بدون المخدرات وبدون "الساماغون" قد يصبح رجلاً بلا عقل ولا حصاة له... إنهم يرسلونك إلى نقطة الحراسة ويعطونك خزَّانين من الرصاص، فإذا حدث شيء ما فإنَّ ستين طلقة تنفد خلال نصف دقيقة من المعركة العنيفة. وجرى تعليم القنَّاصة لدى "الأشباح" بأن يطلقوا النار لدى رؤية دخان السيجارة، ووميض عود الكبريت.

أنا أفهم... لن أحدثك أكثر عن الحرب، بل سأحدثك عن الإنسان، عن الإنسان الذي لا يرد ذكره كثيراً في كتبنا. إنهم يخشونه، ويُخفونه. عن الإنسان البيولوجي، بلا فكرة... أنا أُصاب بالغثيان لدى سماع كلمتي "البطولة" و"الروحانية". أنقلب ظهراً على بطن. (يصمت).

إذاً... لنواصل. لقد عانيت بقدر أكبر من رجالنا، فـ"الأشباح" صنعوا منك رجلاً، أما رجالنا فقد صنعوا منك حقارة. وفي الجيش فقط أدركت بأنه يمكن تحطيم أي رجل، ويكمن الفرق فقط في الوسائل وفي الزمن المحدَّد لذلك. فقد يستلقي "الجندي القديم" الذي أمضى في الخدمة نصف عام، وبطنه إلى

الأعلى، يستلقي بالجزمتين. ويدعوني: «امسح جزمتي بلسانك حتى تصبح نظيفة. الوقت المحدَّد خمس دقائق». أنا أقف...فيصرخ: «أحمرَ الشعر! تعال إلى هنا»، وأحمر الشعر هو الفتى الذي جئت معه، وتصادقنا. فيقبض اثنان من الأعوان على ذي الشعر الأحمر بقوة، فأرى أنهما قد يحطِّمان عموده الفقري. أما فهو فنظر إلي... وصار يلحس الجزمتين، بغية أن يبقى على قيد الحياة وإلا يصاب بعاهة ما. أنا لم أكن أعرف قبل الجيش أنه يمكن أن يُضغط على كليتي الإنسان بهذا الشكل حتي يكاد يختنق، هذا حين تكون وحيداً ولا يدعمك أحد... وعندئذ ستلقى الأمرَّين.

كان لدي صديق، وكنيته الدب، وهو رجلٌ ضخم الجثَّة وقويُّ البنيان ويُعادل طوله المترين. عاد من أفغانستان وبعد عام شنق نفسه. أنا لا أعرف... فهو لم يثق بأحد، ولا يعرف أحد، لماذا انتحر: هل بسبب الحرب؟ أم لاقتناعه بأن الإنسان حيوان حقير؟ في الحرب لم يُوجِّه هذه الأسئلة لنفسه، وبعد الحرب صار يفكِّر. ففقد عقله... ولي صديق آخر أدمن شرب الخمر... كتب لي، وبعث لي برسالتين يذكر فيها: يا أخي كانت الحياة هناك حياة حقيقية، أما هنا فهي مترعة بالحقارة، وهناك قاتلنا وهاجسنا البقاء على قيد الحياة، أما هنا فلا تفهم شيئاً مما يحدث.. وقد هتفت له مرة، وكان مخمورا جدّاً. وفي المرة الثانية كان مخموراً أيضاً (يدخن). أنا أذكر كيف وصلنا أنا والدب إلى موسكو في محطة قطار قازانسكي بموسكو، وسافرنا في القطار من طشقند فترة أربعة أيام، كنا نشرب ليلاً ونهاراً. ونسينا إرسال برقيات لكي يستقبلوننا. وخرجنا إلى رصيف المحطة في الساعة الخامسة فجراً، فصدمت أنظارنا الألوان! كان الجميع بملابس حمراء وصفراء وزرقاء وشابات جميلات. اللعـ...! إنه عالم مختلف تماماً. وصرنا مخبولين! لقد عدت في الثامن من نوفمبر، وبعد شهر التحقت بالجامعة للدراسة، في السنة الدراسية الثانية. لقد حالفني الحظ! وقد حشرت ذهني بأمور شتى، ولم يتوفر لدي الوقت لكي أراجع دخيلة نفسي، ووجب أن أؤدي الامتحانات بدءاً من الصفر. ولم يتبقَّ في ذاكرتي خلال عامين سوى "مقرر المقاتل

الفتي": تقشير البطاطس والهرولة مسافة ثمانية عشر كيلومتراً. أما ساقاي فقد كُشطتا حتى الركبتين. وهو؟ لقد وصل الدب من دون أن يوجد له أي شيء، لا الاختصاص ولا العمل. وتفكيره ينحصر في النقانق: يجب أن تكون نقانق من نوع "دكتورسكويه" بمبلغ روبلين وعشرين كوبيكا وقنينة فودكا بسعر ثلاثة روبلات واثنين وستين كوبيكا. من يهتم بعودة الفتيان؟ هل عقولهم مخبولة أو بجدعة بطول عشرة إلى اثني عشر سنتيمتراً، ويتقافزون على عجزهم في سن عشرين عاماً؟ قد يقول أحدهم: ليس ابني والحمد لله. إن نظامنا هو كالآتي: يدمّرون حياتك في الجيش وفي الخدمة المدنية. لقد جئت إلى النظام، وحالما تقبض عليك الآلة الجهنمية ويتم نشرك إلى أجزاء، مهما كنت طيّباً، ومهما راودتك الأحلام في أعماق الروح. (يصمت). لا تكفيني الكلمات اللازمة... إنها قليلة جدّاً من أجل إيصال فكرتي: الشيء الأساسي ألا تقع في أسر النظام. ولكن كيف يمكن الإفلات منه؟ تجب علينا خدمة الوطن، وبطاقة الكمسمول في الجيب هذا شيء مقدّس. يرد في النظام الداخلي العسكري: يجب على الجندي أن يتحمّل بصلابة وبجرأة صعوبات الخدمة العسكرية كافّة. بصلابة وبجرأة! باختصار – ماما لا تحزني. (صمت وتوجّه إلى الطاولة لأخذ سيجارة جديدة، لكن العلبة كانت قد فرغت). يا للعنة! لم تعد علبة واحدة كافية خلال اليوم...

يجب أن ننطلق من أننا وحوش، وهذه الوحشية مغطاة بكساء رقيق من الثقافة، وتنويمة رقيقة. آه، ريلكه! آه، بوشكين! والوحش ينبجس من الإنسان في لحظة خاطفة، وقبل أن يرفّ له جفن. ويكفي أن يتملّكه الخوف على نفسه، وعلى حياته، أو يمتلك سلطة، سلطة صغيرة، صغيرة جدّاً! والنظام في الجيش على مراتب: فالمرء قبل أداء القسم: "روح"، وبعد القسم: "عصفور السيميلي" (جيزارا)، وبعد نصف عام "تشيرباك"، من تشيرباك حتى العام ونصف: "جد"، ومن العامين: "ديمبل" (قبل التسريح). وفي البداية يكون مجرد روح بلا جسد، وحياته كلها وعاء من الخراء.

لكنني كنت أطلق النار... أطلق النار مثل الجميع. ورغم كل شيء فهذا هو الشيء الرئيس... لا تتوفر لدي الرغبة في التفكير في ذلك. أنا لا أستطيع التفكير في ذلك.

كان الهيروويين مرمياً تحت أقدامنا... كان الصبيان يهبطون من ذرى الجبال وينثرونه. وبعد ذلك يختفون مع مهب الريح. لكننا كنا نمتِّع أنفسنا بالحشيش، ونادراً ما يتعاطى أحدٌ الهيروويين، فهو هيروويين نقي، ويكفي أن تجرِّبه مرة أو مرتين وستحلُّ نهايتك، ستصبح مدمناً. وقد منعت نفسي عن ذلك. أما الشرط الثاني للبقاء على قيد الحياة فهو عدم التفكير في أي شيء! فاشرب ونم واذهب إلى المهمة القتالية. وما تراه تنساه فوراً، وتحشره في الأعماق. لكن فيما بعد، رأيت كيف تصبح حدقة العين لدى الإنسان بحجم مقلة العين نفسها، وتغادر الروح الجسد... الدقّات تتسع، وتصبح قاتمة... أنت ترى هذا وتنساه فوراً. والآن أتذكَّر ذلك معك.

أطلقت النار! طبعاً، أنا أطلقت النار. كنت أقتنص الشخص في المهداف، ثم أضغط على الزناد... الآن آمل في ألا أكون قد قتلت كثيرين، لأنهم... لأنهم كانوا يدافعون عن وطنهم. وأنا أتذكَّر أحدهم جيِّداً، فحالما أطلقت النار، سقط. يداه ارتفعتا إلى الأعلى وسقط... لكنني احتفظت به في ذاكرتي. فقد خشيت أن أُضطرَّ إلى دخول معركة بالسلاح الأبيض. وحدَّثوني أنه حين تطبق عليه بالحديد وتنظر في عينيه... يا للـــ... لقد كشف لي الدبُّ حين كان مخموراً بقوله: «أنت لا تتصور كيف يشخر الشخص حين يسيل الدم من بلعومه. يجب أن تتعلَّم كيف تقتل»... إن الشخص الذي لم يقتل أحداً، حتى لم يذهب إلى الصيد، يجب أن يتعلَّم كيفية قتل شخص آخر. وروى الدب: يستلقي "الشبح"، المصاب بجروح خطيرة، إنه مصاب بجرح في بطنه، لكنه حي، فيأخذ الآمر سكين رجال الإنزال ويعطيها له قائلاً: «خذ وأجهز عليه، وانظر في عينيه». أتعرفين لمَ يجب ذلك؟ بغية أن تقتل فيما بعد من دون تفكير، وحين يجب عليك إنقاذ رفاقك. وفي أول مرة يجب اجتياز

هذا الامتحان، والمرور عبر ذلك... الدب.. إنه يمسك بالسكين ويضعه على البلعوم، أو صدر الجريح، لكنه لا يستطيع أن يذبح إنساناً... كيف يقدم الشخص على طعن القفص الصدري الحي، حيث ينبض القلب؟ و"الشبح" يتابع ببصره السكين... لكن لا يفلح في القيام بذلك فترة طويلة... فيقتل خلال فترة طويلة. عندما كان الدب يسكر يأخذ بالنحيب، لقد حجز لنفسه مكاناً في جهنم...

وبعد التسريح من الجيش درست في الجامعة. وعشت في مساكن الطلاب، هناك يشربون الخمر كثيراً، ويصخبون. ويعزفون على الجيتار. فيطرق أحدهم الباب، وأنا أقفز كالمصاب بالطاعون، وأقف وراء الباب. في حالة الدفاع. وعندما يهدر الرعد أو يطرق المطر زجاج النوافذ، يطفر قلبي من مكانه. وأشرب قنينة واحدة، وبدا أن هذا شيء عادي، لكن سرعان ما لم تعد تكفي القنينة الواحدة. واشتد مرض الكبد، وأصابه التلف. فأدخلوني المستشفى وقيل لي هناك: «اسمع يا فتى، إذا أردت أن تعيش ولو حتى سن الأربعين، فاترك شرب الخمر». وأخذت أفكِّر: إنني لم أعرف المرأة بعد، وما أكثر الفتيات الجميلات حولي، بينما أنا قد أفارق الحياة. وهكذا تركت الشرب. وظهرت فتاة في حياتي.

الحب... مقولة غير أرضية. وأنا لا أستطيع القول إنني أحب. أنا الآن متزوج ولدي ابنة صغيرة، لكنني لا أعرف ما هذا؛ هل هو حب شخص آخر؟ ولو أنني على استعداد للدفاع عنهما بكل قوة، وأدفن من يؤذيهما في الإسفلت. وأضحِّي بحياتي من أجلهما! لكن هل هذا هو الحب؟ يعترف الناس بأنهم يحبُّون، كما يتصوَّرون ذلك، لكنَّ الحبَّ عملٌ وحشي ودموي يومي. هل أحببت؟ أقولها بنزاهة إنني لم أفهم. لقد راودتني أحاسيسُ ما، وتملَّكني حماس داخلي، وأنجزت عملاً ما، روحانياً خالصاً، لا علاقة له بالحياة اليومية القذرة، لكن هل هذا حب أم هو شيء الشيطان وحده يعرف ما هو؟ لقد علَّموني في الحرب: "يجب أن تحب الوطن". واستقبلنا الوطن

بالأحضان الواسعة، وفي كل قبضة لديه ضربة قاضية "نوك-اوت" واحدة. من الأفضل أن تسأليني: هل كنت سعيداً؟ وأنا أجيب بأنني كنت سعيداً، عندما مشيت في شارعنا عائداً إلى البيت بعد أفغانستان... حدث ذلك في نوفمبر، كان شهر نوفبمبر، وأحسست في أنفي، وقد صدمت جمجمتي وتراجعت إلى أخمص القدمين، رائحة الأرض التي لم أرها خلال عامين، وشعرت باختناق في بلعومي، ولم أستطع السير، لأنني أردت أن أبكي. وبعد هذا في وسعي القول: لقد كنت سعيداً في هذه الحياة. لكن هل أحببت؟ وكيف هي مقابلة الموت؟ والموت قبيح دائماً... ما هو الحب؟ لقد حضرت في أثناء الولادة، حين كانت زوجتي في طور المخاض. في مثل هذه اللحظات يجب أن يكون إلى جانب الأم شخصٌ قريب منها، وأن يمسك بيدها. والآن أودُّ أن أرغم كل حيوان ذكر حقير أن يقف عند رأس المرأة حين تلد. وحين تكون ساقاها مرفوعتين كالمذراة، وكلها ملطخة بالدم، وبالخراء. فانظروا يا أبناء الكلاب كيف يظهر الطفل إلى النور، بينما أنت تقتل الإنسان بكل بساطة. القتل سهل. بسيط. وأنا كنت أعتقد بأنني نفسي سأفقد وعيي. الأفراد يرجعون من الحرب، ويُصابون بالإغماء. والمرأة ليست باباً يمكن الدخول فيه والخروج منه. ثمة عالمان قلبا حياتي رأسا على عقب، هما الحرب والمرأة. لقد أرغماني على التفكير حول لماذا أنا، أنا هذه القطعة من اللحم، قد جئت إلى هذه الأرض.

الإنسان يتغيَّر ليس في الحرب، بل بعد الحرب. إنه يتغيَّر حين ينظر بالعينين ذاتهما اللتين رأى بهما ما كان هناك، وإلى ما يوجد هنا. في الأشهر الأولى كانت الرؤية مزدوجة؛ أنت هناك وكذلك هنا. الانعطاف يتم هنا. وأنا الآن مستعد للتفكير فيما جرى لي هناك... الحرَّاس في البنوك، ورجال الحماية لدى رجال الأعمال الأثرياء، القتلة.. إنهم جميعاً شبابنا. التقيت وتحدَّثت معهم وفهمت: لم يرغبوا في العودة من الحرب؛ العودة إلى هنا. الأحوال هناك تعجبهم أكثر. من هناك، وبعد تلك الحياة.، تتبقى مشاعر لا يمكن وصفها، وأوَّلها احتقار الموت، وشيء أسمى من الموت... "الأشباح"

لم يخافوا الموت، لقد كانوا يعرفون مثلاً أنهم سيُعدَمون غداً، إنهم يضحكون بكل هدوء بال، ويتبادلون الأحاديث. وبدا أنهم مسرورون حتى! إنهم مرحون وهادئون. الموت: هو التحول العظيم، ويجب على المرء أن ينتظره كما ينتظر العروس. هذا ما ينصُّ عليه القرآن...

النكتة أفضل... وإلا فإنني قد أرعبت الكاتبة. (يضحك). حسناً، وهكذا إذاً... الموجيك يموت ويذهب إلى جهنم، فيتطلع حوله: إنهم يسلقون الأشخاص في المرجل، وينشرون أجسادهم بالمنشار فوق طاولة... ويمشي أبعد. يرى في مكان أبعد طاولة يجلس حولها رجال يحتسون البيرة، ويلعبون القمار، ويصفّون قطع الدومينو. فيدنو منهم:

- «ما هذا لديكم؟ بيرة؟».

* «بيرة».

- «هل يمكن أن أتذوَّقها؟».

يتذوقها. فيكتشف أنها بيرة حقاً، وباردة

- «وما هذه؟ سجائر؟».

* «سجائر. هل تريد التدخين؟».

يدخِّن.

- «ما هذا المكان؟ هل هو جهنم أم لا؟».

* «طبعاً، جهنَّم، اطمئن! (يضحكون) إن المكان الذي يسلقون ويقطعون فيه البشر بالمنشار، هو جهنم بالنسبة إلى الذين يتصوَّرونه كذلك».

فالتصوُّر وليد الاعتقاد. وكل شيء حسب اعتقاد الفرد وصلواته الذاتية. فإذا انتظرت الموت كما تنتظر العروس، فهو سيأتي إليك كعروس.

حدث مرة أن بحثت بين القتلى عن فتى من معارفي. كانت تُطلق على الجنود في معرض الجثث، الذين يستقبلون جثث القتلى، تسمية اللصوص قطاع الطرق، لأنهم يستخرجون من جيوب القتلى كل محتوياتها. يرقد فتى

يوجد ثقب في صدره أو جميع أحشائه متدلية خارج جسمه، أما هم فيفتِّشون جميع جيوبه. كانوا يستولون على كل شيء: القدَّاحات والقلم الجميل ومقصَّات الأظافر، وفيما بعد يقدِّمونها في الاتحاد السوفيتي كهدايا إلى فتياتهم.

ماما لا تحزني!

كم عدد القرى المهدَّمة التي رأيتها؟ لكنني لم أشاهد روضة أطفال أو مدرسة واحدة شُيِّدتْ، أو شجرة غُرستْ، كتلك التي كتبت عنها صحفنا... (صمت).

أحدنا ينتظر وينتظر ورود الرسائل من الأهل... صديقتي بعثت صورتها الفوتوغرافية؛ تقف وسط الأزهار التي تغطِّيها حتى الخصر، وكان الأفضل لو أنها بالمايوه! المايوه البكيني! أو لو كانت تقف بطول قامتها، بغية النظر إلى ساقيها، وبتنورة قصيرة... أما "المضحخات السياسية"، أي ضبَّاط التوعية السياسية، فكانوا يطنبون في الحديث عن الوطن وعن واجب الجندي في دروس التوعية السياسية، بينما نستبقي في الليالي، والموضوع رقم واحد في أحاديثنا هو حول النساء، ومن منا لديه فتاة أو كانت لديه فتاة. وهذه الأحاديث كثيرة لا تنضب! وأيدي الجميع في مكان واحد... ماما لا تحزني! هناك، الأفغان يمارسون اللواط – هذا شيء طبيعي. تأتي إلى الدكان: «رفيق، تعال... تعال هنا... أنا أنكحك في عجزك، ومقابل ذلك خذ من هنا كل ما تريد. خذ مثلاً منديلاً من أجل أمك». كانت الأفلام المتوفرة لدينا قليلة، والشيء الوحيد الذي كان يرد إلينا بانتظام هو صحيفة "فرونزنتس" بكميات كبيرة. إنها صحيفة الحامية، وكنا نأخذها فوراً إلى "قاعة المطالعة". هيا، إلى هناك... وأحياناً كانت تسنح لنا الفرصة في التقاط برنامج موسيقي في الراديو، وعندما كنا نسمع صوت "لودميلا زيكينا" تغنِّي «من بعيد يجري نهر الفولغا» نأخذ جميعاً بالبكاء. كنا نجلس ونبكي.

في البيت لم أستطع صياغة عبارة عادية، أما هنا اللـــــــ...! يا... أمك!

قالت لي أمي في البداية: «يا بني، لماذا لا تروي لنا أي شيء؟». فتذكَّرت بعض الأشياء. وكانت أمي تقاطعني: «جيراننا دبَّروا لابنهم الخدمة العسكرية البديلة في المستشفى. كنت سأحترق خجلاً لو أن ابني حمل أوعية بول العجائز. فهل هذا رجل؟». فأجبتها: «أتعلمين يا أمي؟ عندما سيكون لدي أبناء فإنني سأفعل كل شيء من أجل ألا يؤدوا الخدمة العسكرية في جيشنا». ونظر الأب والأم إليَّ كما لو كنت ضعيف العقل. وبعد ذلك لم يتحدَّثوا معي بشأن الحرب، بالأخص بحضور المعارف. تركت البيت بسرعة. سافرت للدراسة، وكانت فتاتي في انتظاري. وفكَّرت - سأمتلكها في اليوم الأوَّل. سأضاجعها في اليوم الأوَّل. لكنها أبعدت يدي عن كتفها وقالت: «إنها ملطَّخة بالدم». وهكذا أفقدتني الشهوة الجنسية خلال ثلاثة أعوام، وكنت أخشى الاقتراب من أية امرأة خلال ثلاثة أعوام. يالـــ...! لقد علَّمونا: يجب أن تدافع عن الوطن، وأن تدافع عن فتاتك، فأنت رجل... وقد أعجبتني الميثولوجيا الاسكندنافية، وأحببت قراءة الكتب حول الفايكنغ. وكانوا يعتبرون من العار أن يموت الرجل في فراشه. وكانوا يموتون في ساحة القتال. وكانوا يعلِّمون الصبي منذ سن الخامسة استعمال السلاح، والموت. إن الحرب ليست مجالاً للسؤال: هل أنت إنسان أم حقير جبان؟ واجب الجندي أن يقتل، وأنت أداة للقتل، وهذا هو مصيرك مثل القذيفة أو الرشَّاش. الآن أنا أتفلسف، وأريد أن أدرك حقيقة نفسي...

في إحدى المرَّات ذهبت إلى النادي الأفغاني من أجل لقاء، وبعد هذا لم أعد أذهب. مرة واحدة فقط... كان اللقاء مع أمريكيين، من قدامى المشاركين في الحرب الفيتنامية. جلسنا في مقهى، وجلس وراء كل طاولة أمريكي واحد وثلاثة روس. وقال أحد شباننا للأمريكي الذي جلس معنا: «أنا غاضب من الأمريكيين، لأنني أُصبت جرَّاء انفجار لغم أمريكي الصنع. لقد فقدت ساقي». فأجابه الأمريكي: «أما أنا فقد أُصبت في سايغون بشظايا قذيفة سوفيتية الصنع». كل شيء على ما يرام! ماما لا تحزني! شربنا، تعانقنا،

بصفتنا أخوة في السلاح. وبعد ذلك سكرنا على الطريقة الروسية: شرب الأقداح بطريقة "برودرشافت"، دفعة واحدة. وردت في ذهني هناك فكرة بسيطة: الجندي هو جندي في كل مكان، مماثل للآخر، إنه لحم؛ واللحم هو اللحم. قسم اللحوم. ولكن بفارق واحد، فهم يتناولون على الفطور صنفين من الآيس كريم، أما عندنا فيتناول الجندي عصيدة الحنطة السوداء في الفطور والغداء والعشاء، ولا يرى الفاكهة عموماً، ويحلم بالبيض والسمك الطازج. وكنا نأكل رأس البصل باعتباره تفاحة. ورجعت من الجيش بلا أسنان. كان ذلك في ديسمبر، ودرجة الحرارة تبلغ ثلاثين تحت الصفر. وكان ذلك الفتى من كاليفورنيا، توجهنا لمرافقته إلى الفندق، وكان يرتدي معطفاً مبطَّناً بالريش، وقفَّازات سميكة، ومشى في موسكو ملفعاً بهذا الشكل. يقابلنا الروسي فانيا بمعطف فرو الضأن المكشوف، وقميص البحَّارة المتدلي، بلا قبعة وقفَّازات. «مرحبا يا شباب!». «مرحبا!» – «من هذا؟» – «أمريكي». أوه، أمريكي! فصافحه وربت على كتفه. وواصل السير. صعدنا إلى غرفة الفندق، والأمريكي صامت. فنسأله: «ياريس! ماذا حدث لك؟» – «أنا في معطف محشو بالريش وبالقفازات، بينما هو عار، ويده دافئة. لا تجوز محاربة هذه البلاد». فأجبته: «طبعاً لا يجوز. سنقابل العدو بإلقاء الجثث». ماما لا تحزني! سنشرب كل ما يحرق، وسنضرب بقوة كل ما يتحرك، أما الذي لا يتحرك فإننا نحركه ومع ذلك نضربه بقوة.

لم أعد أتحدث عن أفغانستان منذ فترة طويلة، فهذه الأحاديث لا تهمُّني. لكنني لو خُيِّرت: أن تعرف في الحرب ما هي وتعاني من أهوالها، لكن توجد خيارات أخرى – فيمكن أن تبقى صبياً ولا تذهب إلى هناك – هذا خيارك بالرغم من كل ذلك فإنني كنت سأمرُّ بهذه التجربة مجدداً وأُمتحن بالمحنة مجدداً. بفضل أفغانستان تعرَّفت على الأصدقاء، والتقيت زوجتي، ولدي مثل هذه الابنة الصغيرة الرائعة. وهناك عرفت القذارة الكامنة في أعماقي. عدت وبدأت أقرأ الإنجيل وبيدي القلم الرصاص. وأنا أطالعه باستمرار.

إن غاليتش يغنّي جيداً ويقول: أخشى من يقول أنا أعرف كيف. أنا لا أعرف كيف. أنا نفسي أبحث، وأرى في الأحلام الجبال البنفسجية، وأعمدة الرمل الشائك.

لقد وُلدت هنا.. المرء لا يختار الوطن كاختياره للحبيبة، إنه يُعطى لك إذا ما وُلدت في هذه البلاد، فافعل كل ما في وسعك من أجل أن تموت فيها. أنا أريد ان أعيش في هذه البلاد، لتكن فقيرة، وبائسة، لكن في الحكاية الشعبية يعيش ليفشا القادر على دق الحدوة في رجل البقة. ويقرر الرجال الموجيك عند كشك البيرة القضايا العالمية. لكنني أحبُّها.

أنا رأيت... وأعرف الآن أن الأطفال يُولدون منورين. إنهم ملائكة.

جندي مشاة

وميض... نافورة ضوء، وانتهى...

فيما بعد، ليل؛ ظلام.. فتحت إحدى عينيَّ وزحفت بمحاذاة الجدار: أين أنا؟ في المستشفى العسكري. وأواصل التحقق: يداي في مكانهما؟ في مكانهما. وفي الأسفل... ألمس جسدي بيدي. أين ساقاي؟ ساقاي!!!

(يلتفت نحو الجدار ولا يرغب في الكلام فترة طويلة).

لقد نسيت كل ما جرى سابقاً. إصابة شديدة في الدماغ... نسيت حياتي كلها. فتحت الهوية الشخصية وطالعت فيها لقبي. أين ولدت؟ في فورونيج. ثلاثون عاماً. متزوج. طفلان؛ صبيان.

لم أذكر وجه أي شخص.

(صمت مرة أخرى فترة طويلة. ونظر في السقف).

كانت الأم أول الزائرين. قالت: «أنا أمُّك». فنظرت إليها ولم أستطع تذكُّرها، ومع ذلك لم تكن تلك المرأة غريبة بالنسبة إليّ. كنت أدرك أنها ليست غريبة. حدَّثتني عن طفولتي، وعن المدرسة، وحتى عن بعض التفاصيل مثل: أي معطف جيد كان لدي في الصف الخامس، وكيف مزَّقته لدى عبور السياج. وأية علامات حصلت عليها في الامتحانات؛ علامات جيِّدة وحتى بدرجة امتياز، لكن وُضعت لي علامة مقبول في السلوك. كنت مشاغباً، وكنت أحبُّ أكثر من كل شيء آخر حساء البازلاء. وكنت أصغي إليها كما لو أنني أتطلع إلى نفسي من جانب...

صاحت العاملة المناوبة في المطعم:

- «اجلس في العربة. سأدفعك. لقد جاءت زوجتك لزيارتك».

وقفت إلى جانب الردهة امرأة جميلة. تطلعت إليها: إنها واقفة، ودعها تبقَ واقفة. أين زوجتي؟ لقد كانت هي زوجتي... بدا لي أن وجهها مألوف لدي، لكنني لا أعرفه...

حدَّثتني عن حبِّنا، وكيف تعارفنا، وكيف قبَّلتها في أوَّل مرَّة. وجلبت الصورة الفوتوغرافية لزواجنا. وكيف وُلد الصبيَّان. صبيَّان... كنت أصغي من دون أن أتذكَّر، ولكنني تذكرت بعد جهد جهيد، وشعرت بصداع شديد في رأسي. والخاتم... أين خاتم الزواج؟ لقد ذكرت الخاتم. تطلَّعت إلى يدي اليسرى فلم أجد فيها الأصابع...

تذكَّرت ولديَّ حين رؤية الصورة الفوتوغرافية. وعندما زاراني كانا غريبين. هما ولداي وليسا ولديَّ. فالأبيض صار أسمر السحنة وصبيا كبيراً. تطلعت إلى نفسي في المرآة: يشبهانني!

وعد الأطبَّاء بأن تعود إليَّ ذاكرتي. وستكون حينئذ لديَّ حياتان: تلك التي حدَّثوني عنها، وتلك التي لم توجد. إذاً تعالي وسأحدِّثك عن الحرب.

نقيب، طيار مروحيات

انتشر لهيب النار، وتجوَّلت فترة طويلة في سفوح الجبال.

عند حلول المساء برز أمامنا قطيع من الغنم. هورا-را-را!! إنها هدية من الله. الله أكبر! كنا جائعين وتعبين بعد يومين من المسيرة، أكلنا كل ما كان لدينا من طعام بارد منذ فترة طويلة. وبقي البقصم[24] فقط. وهنا قطيع تائه... بلا راعٍ، ولا حاجة إلى الشراء أو المقايضة بالشاي والصابون (الخروف الواحد يُبادَل بكيلوغرام من الشاي أو عشر قطع صابون)، ولا حاجة إلى ممارسة اللصوصية. أمسكنا أوَّلاً خروفاً كبيراً وشددناه إلى جذع شجرة، وعندئذ لن تذهب الخراف الأخرى إلى أي مكان. نحن تعلَّمنا ذلك، وتذكَّرناه. إن الخراف تهرب في أثناء القصف الجوي، وبعد ذلك ترجع إلى مكان وجود قائد القطيع. بعد ذلك اخترنا أكثر الخراف سمنة، واقتدناه إلى....

راقبت مراراً كيف يستقبل هذا الحيوان الموت طائعاً، والأمر يختلف عندما يُذبح الخنزير أو العجل... إنهما لا يريدان أن يموتا؛ يحاولان الإفلات ويزعقان. أما الخروف فلا يهرب ولا يصرخ ولا يرتجف بشكل هستيري، بل يمضي صامتاً، بعينين مفتوحتين، يمضي وراء الرجل الذي يحمل السكِّين.

وهذا لم يكن البتة أمراً يشبه القتل، بل يذكر دوماً بالمراسم؛ بمراسم القرابين.

جندي، في وحدة استطلاع

24- نوع من الكعك.

اليوم الثاني

«يموت الآخر بروح مترعة بالأسى...»

لقد هتف لي مرة أخرى. ولحسن الحظ كنت في البيت...

- لم أفكِّر في الاتصال بك هاتفياً. لكنني دخلت اليوم الحافلة وسمعت كيف جرت مناقشة بين امرأتين: «أي أبطال هم؟ إنهم يقتلون الأطفال والنساء هناك... هل هم بشر ذوو عقل سليم؟ ويدعونهم إلى المدارس، إلى أطفالنا. كما تُوفَّر لهم الامتيازات». فخرجت من الحافلة في أول موقف. نحن كنا جنوداً ونفَّذنا الواجب. وعقوبة عدم تنفيذ الأمر في ظروف زمن الحرب هي الإعدام رمياً بالرصاص! ويُقدَّم الجندي إلى المحكمة العسكرية! طبعاً، إن الجنرالات لا يطلقون النار على النساء والأطفال، لكنهم يُصدرون الأوامر. والآن أصبح الذنب كله يقع علينا! الجنود مذنبون! والآن يؤكِّدون لنا أن تنفيذ الأمر الإجرامي هو جريمة. لكنني وثقت فيمن أعطى الأوامر! وثقت فيهم! وبقدر ما أتذكَّر فكان يجري تعليمي دوماً بأن أصدِّق، أصدِّق فقط! ولم يعلِّمني أحد: فكِّرْ - ثِقْ أو لا تثقْ! سافرنا من هنا بهذا الوضع، ولم نرجع من هناك بهذا الوضع.

- «هل يمكن أن نلتقي... ونتبادل الأحاديث؟».

أستطيع التحدُّث فقط مع الذين مثلي. ومع من عاد من هناك.. أتفهمين؟ نعم، لقد مارست القتل، وكياني كله ملطَّخ بالدم. لقد رقد ميتاً، صديقي، وكان بمثابة أخ لي. الرأس على حدة، واليدان على حدة، والجلد... طلبتُ

فوراً إرسالي في عملية هجومية. لقد شاهدت في قرية موكب جنازة، كان هناك عدد كبير من الناس، وحملوا الجثمان في قماش أبيض... كنت أراقبهم عبر المنظار. وأصدرت الأمر: «أطلقوا النار!».

- «أنا أفكِّر، كيف تحيا بهذا؟ أي رعب يسيطر عليك؟».

* «نعم، أنا قتلت... لأنني أردتُ أن أحيا. أردت العودة إلى البيت. والآن أحسد الموتى، فالموتى لا يشعرون بالألم».

انقطع الحديث مرة أخرى.

الكاتبة

كما في الحلم... بدا لي أنني شاهدت ذلك في مكان ما، في فيلم ما. الآن ثمة إحساس بأنني لم أقتل أبداً...

طلبت ذلك بنفسي... اسأليني: هل من أجل فكرة، أم من أجل إدراك من أنا؟ طبعاً الصيغة الثانية. لقد درست في المعهد، وهناك لا مجال لإظهار القدرات، ولا أستطيع التعرف على الذات. أردت أن أصبح بطلاً، وبحثت عن الفرصة لأصبح بطلاً. فتركت المعهد من السنة الثانية. قيل... سمعت من يزعم إنها حرب صبيانية، حارب فيها الصبيان، من كانوا أمس من تلامذة الصف العاشر. الحال في الحرب كشأنها دائماً. وفي الحرب الوطنية العظمة كانت كذلك. إنها بالنسبة إلينا مثل لعبة من الألعاب. واتسم الاعتزاز بالنفس بأهمية كبيرة، وكذلك الكبرياء. هل أستطيع أم لا أستطيع؟ هو استطاع. وأنا؟ كنا نشغل فكرنا في هذا، وليس في السياسة. إنني منذ طفولتي أعددت نفسي لامتحان عسير ما. وجاك لندن، كاتبي المفضل، قال: الرجل الحقيقي يجب أن يكون قوياً، ويكون قوياً في الحرب. وفتاتي حاولت أن تثنيني عن هذه الفكرة: «تصوّر لو قال هذا القول بونين[25] أو منديلشتام[26]؟». كما لم يفهمني أحد من أصدقائي. بعضهم تزوَّج، وبعضهم ولع بالفلسفة الشرقية أو باليوغا. وحدي ذهبت إلى الحرب.

في الأعلى تبدو الجبال التي أحرقتها الشمس... وفي الأسفل فتاة تصيح وراء الماعز، وامرأة تعلّق الغسيل على الحبل، كما عندنا في القوقاز. أصابني

25- أديب وشاعر روسي، نال جائزة نوبل للأداب في العام 1933. اضطر للعيش خارج روسيا.

26- شاعر روسي. سُجن عدة مرات في عهد ستالين.

شيء من خيبة الأمل... في الليل أُطلقت رصاصة باتجاه نار أشعلناها: رفعت غلاية الشاي فوجدت الرصاصة تحتها. إنها الحرب! في الحواجز؛ العطش، موجع، ومذل. يصيب الفم الجفاف، ولا يمكن إفراز اللعاب، من أجل بلعه. ويبدو كما لو أن فمك مملوء بالرمل. كنا نلحس قطرات الطل، ونلحس عرقنا... يجب أن أحيا. أنا أريد أن أحيا! اصطدت سلحفاة، وغرزت حجارة مدببة في بلعومها، وشربت دم السلحفاة. الآخرون لم يستطيعوا ذلك. لم يستطع أي أحد منهم. شربوا بولهم...

بيدي السلاح... ورأيت في أوَّل معركة كيف يُصابون بصدمة. يفقدون وعيهم ويصابون بالإغماء. بعضهم يصرخ باكياً لدى تذكُّر كيف كانوا يُقتلون. وبعد المعركة تبدو أذنٌ ما عالقة على الشجرة... وتسيل عين بشرية فوق وجه... وأنا صمدت! كان بيننا صيَّاد تفاخر بأنه كان قبل الجيش يقتل الأرانب، ويقتنص الخنازير البرية. لكنه كان دائماً يصاب بالغثيان ويتقيأ. فقتل الحيوان شيء، وقتل إنسان شيء آخر. في المعركة يتحوَّل الفرد إلى خشبة. العقل بارد. يحسب لكل شيء حسابه. بندقيَّتي هي حياتي. تتحول البندقية إلى جزء من الجسد. إنها عضو آخر...

لقد دارت رحى حرب عصابات، المعارك الكبيرة نادرة. فدائماً: أنت وهو. وتغدو مرهف الإحساس مثل الوشق. تطلق صلية ثم تجلس. تنتظر. من الآن إنك لم تسمع إطلاق الرصاص بعد، ولكنك تشعر كيف انطلقت الرصاصة. وتزحف من حجر إلى حجر... تختبيء، وتلاحقه، مثل الصيَّاد. أنت متوتر الأعصاب. لا تتنفَّس. تلتقط لحظة خاطفة ما.. وإذا ما لقيته فيمكن أن تقتله بعقب سلاحك. قتلته فكرة ثاقبة، من يبقى على قيد الحياة الآن. أنا حي مرَّة أخرى! لا أشعر بالبهجة لقتل إنسان. الحرب - ليست القتل فقط، إنها شيء آخر أيضاً. وللحرب حتى رائحة خاصَّة بها، وصوت خاص بها.

قتلى - جرحى... لا يوجد أفراد متشابهون. يرقدون في الماء... في الماء يحدث شيء ما لوجه الميت، ثمَّة ابتسامة لديهم جميعاً. وبعد المطر

يرقدون نظيفين. أما بدون الماء، في التراب، يكون الموت سافراً أكثر. البزَّة لدى الميت جديدة، وبدلاً من الرأس توجد صفحة جافة حمراء... لقد سحق تحت العجلة مثل سحلية... لكنني حيّ! آخر يجلس بمحاذاة الجدار، بالقرب من أحد البيوت. وإلى جانبه قشور جوز. يجلس بعينين مفتوحتين، لم يكن هناك من يغلقهما. بعد الموت بنحو عشر أو خمس عشرة دقيقة يمكن إغلاق العيون. أما بعد ذلك فلا يمكن. العيون لا تنغلق... لكنني حيٌّ أُرزق! وآخر يرقد مائل الجسد، سحَّاب السروال مفتوح... وحتى... تنزل قطرات... كيف عاشوا في تلك اللحظة؟ وماذا فعلوا؟ بقوا على ذلك الحال في هذا العالم، وهناك... في الأعالي... لكنني ما زلتُ حيّاً! أنا مستعدٌّ للمس نفسي، والتأكُّد من وجودي. الطيور لا تخشى الموت. إنها تجلس أيضاً، وتنظر باطمئنان. والأطفال لا يهابون الموت. إنهم يجلسون أيضاً ويتطلَّعون باطمئنان، وبفضول. مثل الطيور. لقد رأيت كيف راقب نسر سير المعركة. كان جالساً مثل أبي هول صغير... في المطعم تتناول الحساء، وتنظر إلى جارك وتتخيَّله ميتاً. في وقت ما لم أكن أستطيع النظر إلى الصور الفوتوغرافية لأقربائي. فبعد العودة من المهمَّة القتالية لا يمكن النظر إلى صور الأطفال والنساء. وفيما بعد تزول. في الصباح تجري التمارين الرياضية، وتمارس التمارين على العقلة فترة طويلة. كنت أفكِّر في اللياقة البدنية، وبحالي حين أعود. حقّاً، كنت قليل النوم. القمل، لاسيما في الشتاء. رُشَّت الحشيات بمواد مضادَّة للحشرات.

لقد عرفت الخوف من الموت لدى عودتي إلى البيت. عدت، وولد لي ابن. كنت أخشى أن أموت فيشب ابني بدوني. وبقيت في الذاكرة سبع رصاصات... كان يمكن أن ترسلني، كما يُقال عندنا، إلى "الناس الذين في الأعلى"... لكنها انطلقت من دون أن تمسَّني. وحتى تولد لدي شعور بأنني لم أنجز اللعبة. ولم أكمل القتال.

لا أشعر بالذنب، ولا أخاف الكوابيس. كنت دوماً أختار النزال الشريف

- هو وأنا. وعندما كنت أرى كيف يضربون الأسير، شخصان ينهالان بالضرب، والأسير مقيَّد، يرقد مثل خرقة، كنت أمنعهما من ضربه. لقد احتقرت أمثالهما. هناك من يأخذ البندقيَّة ويطلق النار على نسر... وأنا لم أتمالك نفسي عن توجيه لكمة إلى أحدهم.. فما ذنب الطائر؟

سألني أهلي:

- «كيف الحال هناك؟».

* «حسناً. أرجو المعذرة، سأحدِّثكم فيما بعد».

أنهيت الدراسة في المعهد. وأعمل حالياً مهندساً. أريد أن أكون مهندساً فحسب، وليس من قدامى المحاربين في أفغانستان. أنا لا أحبُّ استعادة الذكريات. ولو أنني لا أعرف مصيرنا نحن الجيل الذي بقي على قيد الحياة، بقي على قيد الحياة في حرب لم نكن في حاجة إليها. لم يحتاجها أي أحد. لا... لا... وأخيراً قلتها... كما في القطار، ركب أناس غرباء، تبادلنا الأحاديث وغادرنا في محطَّات مختلفة. يداي ترتجفان. لسببٍ ما أشعر بالقلق... وكنت أعتقد بأنني خرجت من اللعبة بيسر. إذا كتبت فأرجو أن لا تذكري اسمي...

أنا لا أخاف شيئاً، لكنني لا أريد ان أبقى أكثر في كل هذه القصَّة...

آمر سريَّة مشاة

كان من المقرَّر أن تُقام حفلة زفافي في ديسمبر. قبل شهر من الزفاف، في نوفمبر، سافرت إلى أفغانستان. اعترفت لخطيبي وضحكت: «للدفاع عن الحدود الجنوبية لوطننا!». وعندما أيقن بأنني لا أمزح قال: «ماذا بكِ؟ ألا يوجد هنا من تنامين معه؟».

سافرت إلى هناك وجال في خاطري: «أنا لم أفلح في السفر إلى مشروع "بام"، وإلى الأراضي البكر، وحالفني الحظ بالذهاب إلى أفغانستان». لقد صدَّقت الأغاني التي جاء بها الشباب، وكنت أستمع إليها طوال اليوم:

في الأعوام الماضية
أرسلت روسيا أبناءها
إلى الأرض الأفغانية
ونثرتهم فوق الصخور...

كنتُ فتاة موسكوفية تحب الكتب. وكنت أعتقد أن الحياة الحقيقية في مكان ما بعيد. وهناك جميع الرجال أقوياء، والنساء جميلات. وثمَّة كثير من المغامرات. وأردت التخلُّص من الحياة الرتيبة...

سافرت طوال ثلاث ليال إلى كابُل، ولم يغمض لي جفن. قرَّر رجال الجمارك بأنني مدمنة على المخدِّرات. وأذكر كيف صرت أؤكِّد لأحدهم قائلة:

– «أنا لست مدمنة على المخدِّرات. أريد أن أنام».

أحمل الحقيبة الثقيلة – فيها المربَّى وعلب البسكويت التي وضعتها أمِّي فيها – ولا يساعدني أحدٌ من الرجال. علما أنهم ليسوا مجرَّد رجال، بل هم

ضباط شباب وسيمون وأقوياء. وكان الفتيان دوماً يغازلونني ويعجبون بي. فدُهشت كل الدهشة:

- «ساعدوني!».

لكنهم كانوا يتطلّعون إليَّ بدهشة.

ثم جلست ثلاث ليال أخرى في نقطة الترحيل. وفي اليوم الأوّل اقترب مني برابورشيك وقال:

- «هل تريدين البقاء في كابُل، تعالي إليَّ ليلاً...».

إنه رجل بدين، مكتنز. كنيته بالون.

وجهت للعمل في الوحدة بصفة كاتبة طابعة. وكنا نعمل باستخدام آلات الطابعة القديمة لدى الجيش. وفي الأسابيع الأولى جرحت أصابعي حتى سال منها الدم. وصرت أطبع وأصابعي بالضمادات، وانفصلت الأظافر عن الأصابع.

بعد أسبوعين طرق الباب باب غرفتي أحدُ الجنود وقال:

- «الآمر يدعوك».

* «لن أذهب».

- «ما لك تتصنّعين؟ ألم تعرفي إلى أين أنت ذاهبة؟».

في الصباح هدّدني الآمر بإرسالي إلى قندهار، وأمور أخرى...

ما هي قندهار؟

ذباب، و«أشباح»، وكابوس...

كنت أخاف في تلك الأيّام من أن تدهسني سيّارة... ومن طلقة في الظهر... ومن أن يقتلوني...

عاشت في المبنى السكني الداخلي المجاور فتاتان: واحدة مسؤولة عن الكهرباء، وكنيتها "الكهربائية"، بينما كانت الأخرى تمارس أعمال التعقيم بالكلور. وهما تفسران كل شيء بالقول:

- «هذه هي الحياة...».

في ذلك الوقت بالذات نشرت في صحيفة "برافدا" مقالة بعنوان "عذارى أفغانستان". وكتبت الفتيات من الاتحاد السوفيتي إنها - أي هذه البلاد - حظيت بإعجاب الجميع، وحتى توجَّه بعضهنَّ إلى مركز التجنيد وطلبن إرسالهن إلى أفغانستان، وقُرئت المقالة في المدارس. بينما لم نكن نحن نستطيع المرور بالجنود بهدوء: فكانوا يصرخون: «بنات البوتشكا، أنتنَّ كما تبيَّن من هواة الهيروويين! يجب أداء الواجب الأممي في الفراش!». أما كلمة "بوتشكا" فهي تعني عربات القطار[27] التي يعيش فيها أصحاب النجوم الكبار، ليس أقل من رتبة نقيب. وتطلق على صديقاتهم من الفتيات تسمية "بنات البوتشكا". ولا يخفي الفتيان الذين يؤدُّون الخدمة العسكرية هنا أفكارهم: «حين أسمع أن فتاة ما كانت في أفغانستان، فإنها تختفي بالنسبة إليَّ». نحن عانينا من جميع الأمراض، فجميع الفتيات أُصبن بالتهاب الكبد وبالملاريا. كما تعرَّضنا لإطلاق النار. وها نحن في الاتحاد، وأنا لا أستطيع أن أرتمي على فتى لأعانقه. فنحن جميعاً بالنسبة إليهم عاهرات أو مخبولات. وعدم النوم مع امرأة يعني عدم تلطيخ السمعة. «مع من أنام؟ أنا أنام مع الرشَّاش...». وحاولي بعد هذا الابتسام لأحد.

كانت أمِّي تعلن لمعارفها بافتخار: «ابنتي في أفغانستان». أمِّي ساذجة! بودِّي أن اكتب لها: «ماما، اسكتي، وإلا فسيبلغ سمعك هاجر الكلام!». ربَّما سأعود، وأضع كل شيء في محله - سأعتزل الناس، وأبحث عن الدفء. أما الآن فأنا محطَّمة ومهشَّمة نفسياً. ماذا تعلَّمت هنا؟ وهل يمكن أن يتعلَّم أحدٌ هنا الطيِّبة أو الرحمة؟ أو المسرَّة؟

الصبيان الأفغان يركضون وراء السيَّارة:

- «خانم، أرينا...».

ويمكن أن يدسُّوا لك النقود. ومعنى ذلك أن هناك من يأخذ منهم النقود.

27- المسماة البراميل من كلمة «بوتشكا» الروسية. (المترجم)

انبجست لديَّ فكرة مفادها إنني لن أحيا حتى العودة إلى الوطن. والآن تجاوزت هذا الوضع. وثمة حلمان يراودانني ويتكرَّران هنا.

الحلم الأوَّل.

ندخل إلى متجر كبير... على الجدران سجَّاد معلَّق، سجادة ثمينة جدَّاً. وهناك يبيعني رجالنا. يجلبون لهم كيساً فيه نقود، وينهمكون في عدِّ أوراق البنكنوت المحلية "الأفغاني"... ويقوم اثنان من "الأشباح" بشدِّ شعر رأسي بأيديهما. ويرن جرس ساعة المنبَّه... فأصرخ رعبا وأستيقظ. لم أشاهد جميع الأشياء المرعبة دفعة واحدة.

الحلم الثاني.

نحلِّق في الطائرة الحربية ايل – 65 من طشقند إلى كابُل. تبدو عبر النافذة الجبال، ونور يتألَّق ثم يخمد. وبدأنا بالسقوط في هاوية ما، وأخذت تبتلعنا الأرض الثقيلة الأفغانية، وصرت أحفرها مثل حيوان الخلد، فلا أستطيع الخروج إلى النور، وأشعر بالاختناق... وأحفر وأحفر...

إذا لم أتوقَّف فلن ينتهي حديثي. وفي كل يوم يحدث شيء ما يهزُّني ويقلق روحي. يوم أمس تلقَّى أحد الفتيان رسالة من الاتحاد السوفيتي، من فتاته: «أنا لا أريد أن أبقى معك، يداك ملطَّختان...». اقترب هو مني – أنا أفهم قصده.

نحن جميعاً نفكِّر في البيت، لكننا لا نتكلَّم عنه كثيراً. هذا مصدره الإيمان بالخرافات. متى سنعود؟ عن هذا نلتزم الصمت أيضاً. ونروي فقط الفكاهات:

– «يا أولاد، من هم آباؤكم؟».

يرفع الجميع أيديهم:

* «أبي طبيب».
* «أبي عامل».
* «أبي... يعمل في السيرك».

أما فوفا الصغير فيلتزم الصمت.

- «فوفا، ألا تعرف من هو أبوك؟».

* «سابقاً كان طيَّاراً، والآن يعمل فاشياً في أفغانستان».

في البيت كنت أحبُّ مطالعة الكتب عن الحرب، أما الآن فأصطحب معي كتب ديوما. في الحرب لا أرغب في الحديث عن الحرب، ومطالعة الكتب عن الحرب. كانت الفتيات يذهبن لمشاهدة القتلى. وذكرن أنهم يرقدون هناك بالجوارب فقط... لن أذهب... أنا لا أحب مغادرة المدينة، والذهاب إلى الدكاكين لشراء الحاجيات... هناك في الشوارع يوجد كثير من الرجال بساق واحدة، وأطفال يمشون بأطراف اصطناعية بدائية... أنا لا أستطيع اعتياد ذلك. كنت أحلم بأن أصبح صحفية، والآن لا أعرف، يصعب عليَّ الآن الإيمان بشيء ما، وحبُّ شيء ما.

سأعود إلى الوطن ولن أسافر أبداً إلى الجنوب. لا أمتلك القوة أكثر للتطلُّع إلى الجبال. وعندما أرى الجبال يبدو لي أن إطلاق النار سيبدأ الآن. وفي إحدى المرَّات أطلقوا الرصاص علينا، فجثت إحدى فتياتنا على ركبتيها وراحت تبكي وتصلي وترسم علامة الصليب... يا ترى، ماذا كانت ترجو من السماء؟ نحن جميعاً هنا منغلقات على أنفسنا، ولا يكشف أي أحد عن دخيلة نفسه حتى النهاية. وكل واحدة شعرت بخيبة أمل ما...

وأنا أبكي دائماً. أبكي على مصير تلك الصبية الموسكوفية الهاوية للكتب...

موظَّفة

ماذا فهمت هناك؟ إن الخير لن ينتصر أبداً. والشر لا يتناقص في العالم. الإنسان كائن فظيع. والطبيعة جميلة... والغبار. الفم مملوء بالرمل دائماً. ولا تستطيع الكلام.

نقوم بعملية تمشيط القرية... أسير إلى جانب فتى آخر. ويفتح الباب بقدمه. فينطلق رصاص المدفع الرشَّاش نحوه عن كثب. تسع رصاصات... وتمتلئ نفسي حقداً. فأطلقنا الرصاص على الجميع، وحتى الحيوانات المنزلية.

حقاً إن إطلاق النار أكثر فظاعة. الشفقة على الحيوانات. وقد منعت الآخرين من قتل الحمير... فما هو ذنبها؟ وعُلِّقت على رقابها تمائم، كالتي تُعلَّق على رقاب الأطفال، بالأسماء... وعندما أُحرِق حقل الحنطة، انفجرت غاضباً لأنني من أبناء الريف. عندئذ تذكَّرت حياتي السابقة لكن الطيِّبة، وفيها الكثير من فترة الطفولة. وكيف كنت أستلقي فوق العشب وسط زهور الأجراس الزرقاء والبابونج... وكيف كنا نشوي على النار سنابل القمح ونأكلها... كانت الحياة تدبُّ في كل مكان حولنا، تلك الحياة التي لم نفهمها. إنها غريبة عنا، لذا كان القتل أسهل مما... (صمت)... لو كنا في أماكن مألوفة لدينا، شبيهة بأماكننا.

إذا ما توخَّينا الدقة، لدى الحديث عن مشاعرنا... التغاضي والكبرياء – أنا قتلت!

كان الحرُّ شديداً، حتى أن الحديد تفطّر فوق سقوف الدكاكين. واحترق الحقل فوراً وتفجَّر بالنيران. وفاحت رائحة الخبز... إن النيران رفعت إلى الأعلى رائحة الخبز الطفولية أيضاً.

الليل هناك لا يدلهمُّ، بل يهلّ على حين غرة فوقك. كان النهار، وجاء الليل. الفجر جميل... فأنت كنت صبياً والآن أصبحت رجلاً. هذا ما تفعله الحرب.

هناك يهطل المطر، وأنت تراه، لكنه لا يصل إلى الأرض. وترى عبر القمر الاصطناعي برنامجاً حول الاتحاد السوفيتي فتتذكّر بأن هناك حياةً أخرى، لكنها لم تعد تتسلّل إليك... يمكن أن يروى هذا كله، ويمكن أن ينشر هذا كله، لكن يحدث أمر ما يولد الشعور بالإساءة والمرارة... إنني لا أستطيع التعبير عن ذلك. ما معنى ان تعيش حياة مزدوجة، وتتذكّر؟ هذا يعني أنك لن تكون أبداً وحيداً. فستكونان معاً أنتما الاثنان سوية؛ أنت والحرب...ولدينا خيار غير كبير: أن تنسى وتصمت أو تصبح مجنوناً وتصرخ. والخيار الأخير لا يحتاجه أحد... ليس السلطة فقط، بل والأقارب أيضاً. الناس المقرَّبون منك. ها أنت جئت... لماذا جئت؟! هذا شيء غير إنساني... (يدخن بعصبية).

أحياناً أرغب في أن أكتب بنفسي عن كل ما رأيته، كله... أنا – ذو التعليم الأدبي.

في المستشفى العسكري... بلا ذراع، ويجلس على السرير رجل بلا ساق ويكتب رسالة إلى أمّه. فتاة أفغانية صغيرة... أخذت قطعة حلوى من جندي سوفيتي. في الصباح قطعوا كلتا يديها... الكتابة عن كل ما جرى وبلا أية تأمُّلات. تساقط المطر... فقط عن هذا – تساقط المطر... بلا أية تأمُّلات – هل سقوط المطر شيء جيِّد أم سيِّئ؟ المطر... إن أي ماء هناك ليس مجرَّد ماء.

تصب من الزمزمية – الماء ساخن تقريباً، مذاقه ساخن. لا يوجد مكان تلوذ به من حرقة الشمس... عن أي شيء يمكنني أن أكتب أيضاً؟

الدم... رأيت أوَّل دم، ودبت في البرودة، البرودة الشديدة. القشعريرة. البرودة وسط القيظ حيث درجة الحرارة تبلغ أربعين فوق الصفر... في الأتون...

اقتادوا أسيرَين، ووجب قتل أحدهما لأنه لا يوجد مكان للاثنين في المروحية، بينما نحتاج إلى الآخر بصفة "لسان". ولم أستطع اتخاذ القرار: أي واحد منهما؟

في المستشفى العسكري... الأحياء والأموات يتبادلون الأماكن، وأنا لم أعد أفرِّق بينهم. وفي إحدى المرَّات تحدَّثت ساعة كاملة مع ميت...

كفى! (يضرب الطاولة بقبضته. ثم يستعيد هدوءه).

أمعنت الفكر... وحلمت كيف سأبيت في البيت أوَّل مرَّة، بعد كل ما حدث...

لقد عدنا أملاً في أنهم ينتظروننا في البيت برحابة صدر. وفجأة نكتشف أن أي أحد لا يهتم بما حدث لنا من معاناة. يقف في الباحة فتيان من معارفي: «آه، لقد عدت؟ حسناً، عدت». وذهبت إلى لقاء الخرِّيجين في المدرسة. المعلِّمون لا يسألون أيضاً حول أي شيء. وجرى الحديث التالي مع مديرة المدرسة:

- «يجب تكريم ذكرى الذين استشهدوا لدى أداء الوجب الأممي».

فأجابت:

* «لقد كانوا من المتخلِّفين في الدراسة، والأشقياء. كيف نعلِّق لوحة تذكارية لتكريمهم في المدرسة؟».

ولسان حالها يقول: أية مأثرة بطولية اجترحتم؟ لقد هُزمتم في الحرب؟ ومن كان يحتاج إلى هذه الحرب - بريجنيف والجنرالات العسكريون؟ المتعصِّبون من دعاة الثورة العالمية... يتبيَّن من هذا أن أصدقائي لقوا حتفهم عبثاً، وكان يمكن أن أُقتل أيضاً عبثاً... وقد شاهدتني أمِّي من النافذة وهُرعت راكضة في الشارع بطوله، صائحة من الابتهاج. وأقول لنفسي: «كلا، لتنقلب الدنيا رأساً على عقب، لكن هذا الحال لن ينقلب: الأبطال يرقدون تحت التراب. أولئك الأبطال!».

في المعهد كان أحد المدرِّسين القدامى يؤكِّد لي قائلاً:

- «أنتم كنتم ضحايا خطأ سياسي... وجعلوكم شركاء في الجريمة».

* «كنت آنذاك في الثامنة عشرة من العمر. وكم عمرك؟ عندما تقشَّر جلدنا هناك بسبب القيظ وحر الهاجرة أنتم سكتم، وعندما نقلونا في "الزنابق السوداء" أنتم لزمتم الصمت، وسمعتم كيف هدرت في المقابر صليات التحية العسكرية للقتيل، وعزفت الفرقة الموسيقية العسكرية ألحانها... وعندما مارسنا القتل هناك لزمتم الصمت أيضاً. والآن أخذتم فجأة تتحدَّثون: ضحايا لا معنى لها... وخطأ... لكنني لا أريد ان أكون ضحية لخطأ سياسي. وسأكافح في سبيل ذلك!

دع الدنيا تنقلب رأساً على عقب، لكن هذا الأمر لن ينقلب: الأبطال يرقدون تحت التراب! (يكرِّر ذلك، ثم يجلس ويستعيد هدوءه). الإنسان كائن فظيع... والطبيعة جميلة...

إنه لشيء مخيف أن يرد ذِكر الجمال. الموت والجمال.

جندي، من رماة راجمة القنابل

لقد حالفني الحظ...

لقد رجعت إلى البيت بذراعين وساقين وعينين، بلا حروق ولست مجنوناً. لقد أدركنا منذ أن كنا هناك أن هذه الحرب ليست تلك التي جئنا من أجلها. وقررنا: دعنا نقاتل في الفترة المقررة، ونبقى على قيد الحياة، ثم نعود إلى الوطن وعندئذ نستوضح الأمر.

لقد كنا أول بديل للذين دخلوا إلى أفغانستان. ولم تكن لدينا أفكار بل كان لدينا أمر عسكري. والأوامر العسكرية لا تُناقَش، وإذا ما نوقشت فهذا لا يعتبر جيشاً. اقرأ ما كتبه مؤسسو الماركسية- اللينينية: «الجندي يجب أن يكون مثل الرصاصة؛ مستعدّاً للانطلاق في أية لحظة». هل تذكَّرت هذا جيِّداً؟ الرجال يذهبون إلى الحرب لممارسة القتل. ومهنتي القتل. لقد علَّموني ذلك. الخوف النافل؟ يمكن أن يقتلوا جندياً آخر، ولا يقتلوني. لقد قتلوا ذاك ولم يقتلوني. والعقل لا يتقبَّل احتمال الاختفاء من الوجود بحدٍّ ذاته. وعندما ذهبت إلى هناك لم أكن صبيّاً، بل في الثلاثين من العمر.

لقد شعرت هناك بمعنى الحياة. كانت تلك الأعوام أفضل الأعوام بالنسبة إليَّ - هذا ما أقوله لك. إن حياتنا هنا بائسة وصغيرة القيمة: العمل - البيت، البيت - العمل.

أما هناك فقد جرَّبنا كل شيء وتعرَّفنا على كل شيء. وجرَّبنا صداقة الرجال الحقة.

رأينا غرائب الأمور: كيف يتلبَّد ضباب الفجر في الوديان الضيِّقة، كما لو أنها حجاب من الدخان، والبوروبوهايك - وهي الشاحنات الأفغانية المزوقة

ذوات السطوح العالية، والحافلات الحمراء، التي يتنقل في داخلها البشر سوية مع الخراف والأبقار، وسيَّارات الأجرة (التاكسي). وثمَّة أماكن تشبه المنظر الطبيعي أثناء بزوغ القمر، إنها شيء خيالي وفضائي. وتبدو الجبال الخالدة وحدها وكأن الإنسان لا وجود له على الأرض، ويحيا الحجر وحده، وهذا الحجر يطلق النار عليك. أنت تشعر فحسب بالروح العدوانية للطبيعة، كما لو أنك غريب عنها. كنا معلقين بين الحياة والموت، كما توجد بين أيدينا حياة أو موت أحد ما. فهل يوجد ما هو أقوى من هذا الشعور؟ كم تنزَّهنا هناك؟ نحن لن نتنزه هكذا في أي مكان آخر. وكيف أحبَّتنا النساء هناك؟ إنهنَّ لن يحببنا هكذا في أي مكان آخر. لقد احتدم أكثر الشعور باقتراب الموت، ونحن كنا نلتف وندور دوماً، ونتبجس بالقرب من الموت. حدثت مغامرات كثيرة، وأعتقد بأنني أعرف رائحة الخطر، وكيف تنبعث حين ترى قذالك بعين ثالثة... تتكشف عين ثالثة... لقد جرَّبت هناك كل شيء وخرجت صحيحاً معافى.

الحياة هناك كانت حياة ذكورية. وأشعر بالحنين إليها... اللازمة الأفغانية...لم يفكر أحد في تلك الأيَّام فيما إذا كانت القضية عادلة أو غير عادلة. كنا ننفِّذ الأوامر الصادرة إلينا. إنها التربية، العادة. طبعاً، الآن أعيد التفكير في كل شيء، وأُدخِل الزمن، والذاكرة، والمعلومات، والحقيقة، عنصر التوازن فيه. لكن حدث هذا بعد عشر سنوات تقريباً! أما يومذاك فقد كان يوجد شخص العدو، المعروف من الكتب، ومن المدرسة، ومن الأفلام حول عصابات الأميين. لقد شاهدت فيلم "شمس بيضاء في الصحراء" خمس مرَّات. وها هو العدو أمامي! وهذا يمثل الكفاية، والحصيلة. لدينا نحن جميعاً الخبرة الروحية للحرب او الثورة... ولم يعطونا أمثلة أخرى.

نحن استبدلنا الأوائل وأخذنا بمرح ندق الأوتاد ونضع الأسس للثكنات والمطاعم ونوادي الجيش القادمة. سلَّمونا المسدَّسات ت ت – 44 من أزمان الحرب، وحملها ضبَّاط التوعية السياسية. ويمكن بواسطتها فقط الانتحار

أو بيعها في أحد الدكاكين. كنا نرتدي أي شيء يقع بين أيدينا مثل رجال الأنصار. أغلبنا كان يرتدي الملابس والأحذية الرياضية، وأنا كنت شبيهاً بالجندي المغوار شفيك[28]. درجة الحرارة خمسون فوق الصفر، بينما تطلب منا القيادة شدَّ ربطة العنق والزيَّ العسكري الكامل... كما يجب بموجب القواعد العسكرية من كامتشاتكا إلى كابُل.

في معرض الجثث – أكياس فيها اللحم البشري... صدمة! بعد نصف عام...

شاهدت السينما... يتطاير الرصاص الخطاط على الشاشة. نحن نواصل مشاهدة السينما، نلعب الكرة الطائرة، يبدأ إطلاق النار... نظرنا إلى اتجاه القصف بالهاونات، ثم واصلنا اللعب... جلبوا الأفلام عن الحرب وعن لينين وعن كيف تخون الزوجة زوجها... هو مسافر، وهي مع رجل آخر... والجميع أرادوا مشاهدة الأفلام الكوميدية، لكنهم لم يجلبوا الأفلام الكوميدية أبداً... يريد أحدنا أن يرفع الرشَّاش ويطلق صلية رصاص على الشاشة. الشاشة عبارة عن ثلاث أو أربع ملاءات سرير خيطت سوية وعلِّقت في الهواء الطلق والمشاهدون يجلسون على الرمل. مرَّة في الأسبوع يُخصَّص يوم للاغتسال في الحمَّام وشرب قدح ما. قنينة فودكا – ثلاثون صكاً – ذهبية! جُلبت من الاتحاد... وبموجب تعليمات الجمارك يُسمح للشخص الواحد بحمل قنينتي فودكا، وأربع قناني نبيذ، أما البيرة فيمكن حمل أية كمية منها. ويتم سكب البيرة من القنينة وتصب بدلاً منها الفودكا. الزجاجة التي كتب عليها مياه "بورجومي"، ولدى تذوُّقها، تجد أن الكحول فيها بنسبة 40 ٪. وعلبة مربَّى مغلقة وكتب عليها بيد الزوجة بالقلم "مربى الكرز" و"مربى الفراولة"، ولدى فتحها تجد أنها ذات 40 ٪. وكانت كنية الكلب عندنا "فيرموت". العيون حمراء لا تميل إلى الصفرة. وكنا نشرب "شباغو" – وهو الكحول

28- الشخصية الأساسية في رواية «الجندي الطيب شفيك و ما جرى له في الحرب العالمية» لياروسلاف هاشيك.

المعالج للطائرات، ومانع التجلّد - السائل المستخدم لتبريد محركات السيّارات. ويحذر الجندي:

- «اشرب أي شيء باستثناء سائل التبريد».

بعد يوم أو يومين من الوصول يُستدعى الطبيب:

- «ماذا؟».

* «لقد تسمَّم المجنَّدون الجدد بمانع التجلّد».

دخنت المخدِّرات... المفعول مختلف، فتارة تشعر بالقشعريرة، وتمضي مستبرداً، وتارة تُطلق أية رصاصة فتعتقد أنك الهدف. بالتدخين ليلاً تبدأ الأوهام... البعض راودتهم الرؤى الملونة، كما لو يشاهدون فيلماً سينمائياً. في الفترة الأولى كانت المخدِّرات تُباع لنا في الدكاكين، وفيما بعد كانوا يعطونها مجاناً:

- «دخِّنْ، يا روسي! خذْ، دخِّنْ».

الأطفال يهرولون وراء الجنود ويدسُّون لهم المخدِّرات.

تريد أن تضحك... (يبتسم، لكن بعينين حزينتين) أنا أذكر ليس الأشياء المرعبة فقط بل الأشياء المضحكة أيضاً. النكات المحببة...

لا رغبة لأحد في الموت... هذا غير مفهوم وبلا رغبة... إنها أفكار سخيفة. لماذا التحقت بالكلِّية العسكرية وليس بمعهد مهندسي البناء؟ في كل يوم كنا نودّع أحداً ما إلى مثواه الأخير، إذ يعلق كعب حذاء أحدهم بسلك اللغم، وتسمع طقطقة جهاز التفجير، وكما يحدث دائماً في هذه الحال، لا ينبطح الجندي ويلتصق بالأرض، بل يلتفت إلى مصدر الصوت بدهشة، فيستقبل عشرات الشظايا... انفجرت دبَّابة: انفتح القعر مثل علبة المعلَّبات، وانفكَّت المدحلات والجنازير. يحاول السائق الخروج من الكوَّة، وتظهر يداه فقط منها، وبعد ذلك يعجز عن الخروج، فيحترق مع الدبابة. ولا يريد أحد الرقاد على سرير القتيل في الثكنة. ويأتي مجند جديد، وحسب تعبيرنا "البديل": «نم هنا، على هذا السرير... فأنت لم تعرفه في الأحوال كافّة».

كنا غالباً ما نتذكَّر الذين بقي لديهم أطفال. سيكبرون يتامى، بلا أب. وماذا عن الذين لم يخلِّفوا أحداً؟ ستجد الفتيات عرساناً جدداً، وستربِّي الأمَّهات الأبناء الجدد، ويتكرَّر هذا أكثر من مرَّة.

لقد دفعوا لنا ثمناً بخساً جدّاً مقابل الحرب: ما يعادل راتبين، يتم تحويل أحدهما إلى مئتين وسبعين صكاً. وتحسب منها الخصومات والاشتراكات في الصحف، والضرائب، وهلمَّ جرّا. بينما كان يُدفع إلى العامل العادي في سالانغ راتبٌ قدره ألف وخمسمئة صك. وقارن هذا براتب الضابط. إن المستشارين العسكريين كانوا يتلقَّون رواتب أكثر بخمسة وعشرة أمثال، وعدم المساواة تظهر في نقاط الجمارك حين يحمل المسافر السلع الأجنبية. فلدى أحدهم جهاز تسجيل وزوج من سراويل الجينز، ولدى آخر جهاز فيديو ومعه خمس أو سبع حقائب يعادل طولها الحشية، وأُطلقلت عليها تسمية "حلم المحتل"، ولا يكاد الجنود يستطيعون جرَّها. فالعجلات فيها لا تحتمل ثقلها. وانقبضت.

في طشقند:

- «من أفغانستان؟ هل تريد فتاة؟ فتاة مثل الخوخة، عزيزي». ويدعونك إلى بيت الدعارة الخاص.

* «لا، عزيزي، شكراً. أريد السفر إلى البيت. إلى زوجتي. أنا في حاجة إلى تذكرة سفر».

- «ادفع البخشيش مقابل التذكرة. هل تعطيني نظَّارات شمسية إيطالية؟».

* «حسناً».

لقد أنفقت مئة روبل حتى وصولي جوّاً إلى سفردلوفسك، وأعطيت النظَّارات الإيطالية والمنديل الياباني المزين بالخيوط المذهَّبة وعلبة مواد التجميل الفرنسية. وعلَّموني في الطابور:

- «ما لك تقف هنا؟ ضع أربعين صكاً في جواز الخدمة - وبعد يوم تكون في البيت».

فتسلَّحت بهذه النصيحة:

- «يا فتاة، أريد تذكرة إلى سفردلوفسك».

* «سأتبيَّن الآن. من الجيّد أنك جئت، فقد تبيَّن وجود تذكرة واحدة».

عندما تعود إلى البيت في إجازة تجد عالماً آخر تماماً مع الأهل. في الأيام الأولى لا تسمع شيئاً، بل ترى فقط. تمسُّهم. كيف أحدِّثك عن معنى أن تمرِّر يدك فوق رأس طفلك...

وفي الصباح ستشمُّ في المطبخ رائحة القهوة والفطائر. وزوجتك تدعوك إلى الفطور.

ستغادر بعد شهر. إلى أين؟ ولماذا؟ غير مفهوم. لا تفكِّر في ذلك. لا تفكِّر في ذلك فحسب.

أنت تعرف شيئاً واحداً: ستسافر لأن هذا واجبك. هذا ما تتطلَّبه الخدمة. في الليل يصطك في أسنانك الرمل الأفغاني، الناعم مثل البودرة أو الدقيق. أنت رقدت قبل لحظة فوق التراب الأحمر.. أو في الطين الجاف... وإلى جانبك هدرت المدرَّعات. عدت إلى رشدك، ووثبت في مكانك - لا، أنت ما زلت في البيت... ستسافر غداً. وطلب مني أبي أن أذبح الخنزير، سابقاً كان هو يذبح الخنزير، بينما كنت لا أقترب منه، وأسدُّ أذنيَّ لكي لا أسمع زعيقه ذاك. هربت إلى خارج البيت.

الأب:

- «هيا ساعدني»، ويعطيني السكِّين.

فأقول له:

* «ابتعد، سأقوم بهذا بنفسي... يجب أن يطعن هنا في القلب». وطعنته.

يجب على كل واحد أن ينقذ نفسه بنفسه... بنفسه!

يجلس الجنود. وتحتهم يمرُّ شيخ وحمار. فيطلق أحدهم قذيفة من راجمة القنابل:

شار-ر-راخ! لا وجود للشيخ ولا للحمار...

- «يا شباب، هل جننتم؟ الشيخ والحمار. ماذا فعلا لكم؟».

* «أمس مرَّ شيخ وحمار أيضاً، وسار جندي أيضاً، فمرَّ الشيخ والحمار، بينما بقي الجندي راقداً جثة هامدة».

- «ربَّما هذا شيخ آخر وحمار آخر؟».

لا يجوز إراقة أول دم. كيف ستطلق النار باستمرار على شيخ أمس وحمار أمس؟

انتهينا من القتال. وبقينا على قيد الحياة، وعدنا إلى أهلنا في البيت. والآن نستوضح الأمر.

نقيب، مدفعي

لم أصلِّ من قبل أبداً، والآن أصلِّي وأرتاد الكنيسة لحضور القداس...

كنت أجلس عند التابوت وأتساءل: «من هناك؟ هل أنت هناك يا ولدي؟». كنت أكرِّر فقط: «من هناك؟ أجبني، يا ولدي. لقد كنت كبيراً، أما التابوت فهو صغير جدّاً...».

مضى الزمن. وأردت أن أعرف كيف لقي ولدي حتفه. وتوجَّهت إلى مكتب الكومندان:

- «حدِّثوني كيف استشهد ولدي؟ أين؟ أنا لا أصدِّق بأنه قُتل. أعتقد بأنني دفنت صندوقاً من الحديد، أما ابني فهو حي يرزق في مكان ما».

اغتاظ الكومندان العسكري، وصرخ بي:

* «هذا الأمر سر. وأنت تتجوَّلين وتقولين إن ابنك قُتل. الأمر الصادر هو عدم كشف السر!».

عانيت من العذاب يوماً كاملاً قبل أن يولد الطفل. وعرفت أنه صبي، فزال الألم: لم أتعذب عبثاً. كنت أخشى منذ الأيام الأولى أن يصيبه الأذى، فلم يكن لدي أحد غيره. وكنا نعيش في عنبر: في غرفتي سرير وعربة الطفل، وكرسيان. كنت أعمل في السكك الحديدية كعاملة إشارة، براتب قدره ستون روبلاً.

لما عدت إلى البيت من المستشفى أرسلوني فوراً إلى نوبة ليلية. كنت أذهب إلى العمل مع عربة الطفل. وآخذ معي الموقد الصغير وأطعمه فينام، بينما كنت أستقبل وأودع القطارات. وعندما شب صرت أتركه لوحده في البيت. كنت أربط ساقه بالسرير وأخرج. وقد شبَّ صبياً طيِّباً.

التحق بمعهد هندسة البناء في بتروزافودسك. وجئت لزيارته هناك، فقبّلني وخرج مسرعاً إلى مكان ما. أما أنا فتملّكني الاستياء. ثم عاد إلى الغرفة وابتسم:

- «الآن ستأتي الفتيات».

* «أية فتيات؟».

لقد ذهب إلى الفتيات من أجل أن يفتخر أمامهنَّ بأن أمَّه جاءت لزيارته، بغية أن يأتين ويشاهدن الماما وكيف هي.

من كان يقدِّم لي الهدايا؟ لا أحد. أنه يأتي في الثامن من مارس. وأنا أستقبله في محطة القطار:

- «دعني أساعدك يا ولدي».

* «ماما، الحقيبة ثقيلة. خذي أنبوبة الرسوم الهندسية، واحمليها بحذر، ففيها رسوم هندسية».

كنت أحملها بينما كان يتحقَّق من أنني أحملها كما يجب. ما هي هذه الرسوم الهندسية؟! في البيت يخلع البذلة ويسرع إلى المطبخ: كيف حال فطائري؟ أرفع رأسي فأجده واقفاً وفي يده ثلاث زهور خزامى حمراء. أين وجدها في أقاليم الشمال؟ في كاريليا؟ لقد لفَّها بقطعة قماش ووضعها في داخل أنبوب حفظ الرسوم الهندسية كيلا تذبل من البرد. لم يقدِّم لي أي أحد الزهور كهدية أبداً.

في الصيف سافر مع فريق طلابي للبناء. وعاد تحديداً قبيل يوم عيد ميلادي:

- «ماما، أرجو المعذرة لأنني لم أهنئك. لكنني جلبت لك شيئاً». وقدَّم لي ورقة تبليغ باستلام حوالة نقدية.

فأقرأ فيها:

- * «اثنا عشر روبلاً وخمسون كوبيكاً».

- «ماما، أنت نسيت الأرقام الكبيرة! ألف ومائتان وخمسون روبلاً».

* «أنا لم أمسك بيدي في حياتي كلها مثل هذا المبلغ الكبير ولا أعرف كيفية كتابته».

وأبدى ارتياحه البالغ وقال:

- «الآن اخلدي إلى الراحة، بينما أنا سأعمل. سأكسب كثيراً من المال. أتذكرين، حين كنت صغيراً وعدتك بأنني حين أكبر سأوفِّر لك حياة رغيدة؟».

حقاً، لقد قال هذا. وقد شبَّ ممشوق القامة بطول نحو متر وستة وتسعين سنتيمتراً.

كان يرفعني ويحملني كصبية. ربما أحبّ أحدنا الآخر لأنه لم يكن لدينا أحد آخر.

وكيف كنت سأعطيه إلى زوجة: لا أدري. لم أكن لأتحمَّل ذلك.

ورد تبليغ الالتحاق بالجيش. وأراد أن ينضم إلى قوَّات الإنزال الجوِّي:

- «ماما يجري انتقاء الأفراد إلى قوَّات الإنزال الجوِّي. لكنهم قالوا إنهم لن يأخذوني، لأنني بوزني يمكن أن أقطع جميع حبال المظلات. ورجال المظلات يضعون على رؤوسهم قبَّعات حمراء جميلة».

بالرغم من ذلك التحق بفرقة المظليين في فيتبسك. سافرت إليه يوم أداء القسم العسكري. لم أعرفه حتى، فقد أصبح ممشوق القوام، ولم يعد يخجل من طول قامته.

- «ماما لماذا أنت صغيرة بهذا الشكل؟».

* «لأنني أشتاق ولا أنمو»، أردت أن أمزح.

- «ماما سيرسلوننا إلى أفغانستان، لكنهم لن يأخذوني إلى هناك لأنني الوحيد لديك. لماذا لم تلدي صبية آخرين؟».

في مراسم أداء القسم العسكري حضر عدد كبير من الآباء والأمَّهات. وسمعت من يقول:

- «أم جورافليوف موجودة هنا؟ ماما تعالي وقدمي التهاني إلى ابنك».

أقتربت منه وأردت تهنئته، لكنني لم أستطع الوقوف عالياً لتقبيله.

وأمره القائد:

- «الجندي جورافليوف، يجب الانحناء لكي تقبِّلك أمُّك».

فانحنى وقبَّلته، والتقط أحد ما صورة فوتوغرافية لنا في تلك اللحظة. إنها الصورة الفوتوغرافية الوحيدة الموجودة لديَّ وأنا معه في الجيش.

وبعد أداء القسم سمحوا له بالانصراف معي لمدَّة عدَّة ساعات، وتجوَّلنا في المتنزَّه. جلسنا على العشب. ونزع جزمتيه. كانت قدماه قد سحجتا حتى سال الدم منهما. كانوا قد قاموا بمسيرة لمسافة خمسين كيلومتراً، ولم تكن لديهم جزمة ذات مقاس 46، فأعطوه واحدةً بمقاس 44. لكنه لم يشكُ، بل بالعكس.

- «لقد هرولنا حاملين الحقائب السفرية المملوءة بالرمل. ماذا كان دوري في النهاية؟».

* «أظن أنك كنت الأخير بهاتين الجزمتين».

- «لا، ماما، كنت الأول. لقد نزعت الجزمتين وهرولت بدونهما، ولم أسكب الرمل من الحقيبة كما فعل آخرون».

أردت أن أفعل شيئاً ما متميِّزاً له:

* «ربما يا ولدي نذهب إلى المطعم؟».

- «ماما، الأفضل أن تشتري لي كيلوغراماً من القند[29]. وسيكون هدية منك».

وافترقنا قبل أن تعلن فترة العودة إلى الثكنة. ولوح لي بقبضته وفيها القند مودِّعاً.

أسكنونا نحن الآباء والأمَّهات في قاعة الرياضة في الوحدة العسكرية

29- نوع من الحلوى.

ورقدنا على بسط التمارين الرياضية. لكننا لم نغفُ إلا قبيل الفجر، أمضينا الليل كله في التمشي حول الثكنة حيث نام أبناؤنا. وصدح البوق، فتململت: سيتوجّهون بهم إلى أداء التمارين الرياضية الصباحية، وقد تسنح لي الفرصة لرؤيته مرة أخرى، ولو من بعيد. إنهم يهرولون وجميعهم بقمصان مخطّطة متشابهة. فقدته، ولم أره. كانوا يسيرون في طابور إلى المراحيض، وفي طابور إلى التمارين الرياضية، وفي طابور إلى المطعم. لم يُسمح لهم بالسير على انفراد، لأن الفتيان عندما علموا أنهم سيُرسلون إلى أفغانستان، شنق أحدهم نفسه في المرحاض، بينما قطع اثنان الأوردة في أذرعهما. لقد كانوا تحت الحراسة.

ركبنا الحافلة، وبدأت إحدى الأمّهات تنتحب. كما لو أن أحداً ما أبلغني بأنني سأراه في آخر مرة. سرعان ما كتب لي: «ماما، رأيت حافلتكم، وهرولت بسرعة لكي أراك مرة أخرى». حين جلست معه في المتنزّه كان المذياع يبثُّ أغنية "كيف ودّعتني أمي العزيزة". الآن أسمع هذه الأغنية... (تحبس دموعها بصعوبة).

بدأت رسالته الثانية بعبارة: «تحية من كابُل». قرأتها وأنا أصرخ بصوت عال، فهُرع إليّ الجيران. وصرت أدق برأسي على الطاولة: «أين القانون؟ أين الحماية؟ إنه ولدي الوحيد، وحتى في زمن القيصر كان المعيل الوحيد لا يُؤخذ إلى الجيش. والآن يرسلونه إلى الحرب». وأبديت لأوّل مرّة بعد مولد ساشا الأسف لأنني لم أتزوج، ولا يوجد من يحميني. وكان ساشا أحياناً يعاكسني بقوله:

- «ماما لماذا لا تتزوجين؟».

* «لأنك تبدي الغيرة بسببي».

فيضحك ويلتزم الصمت. نحن كنا نعتزم العيش سوية فترة طويلة وطويلة.

تلقّيت عدة رسائل أخرى ثم حلّ الصمت، الصمت لفترة طويلة جدّاً،

حتى أنني توجَّهت إلى قائد الوحدة. وفور ذلك كتب ساشا: «ماما، لا تكتبي بعد هذا إلى قائد الوحدة، أتعرفين كيف عنَّفوني؟ أنا لم أستطع الكتابة إليك لأن زنبوراً لسعني في يدي، ولم أرغب في أن أطلب من أحد الكتابة نيابة عني، فإنك ستُصابين بالخوف لدى رؤية خط غريب». لقد أشفق عليَّ، وابتدع حكاية، كما لو أنني لم أكن أشاهد التلفزيون يومياً ولا أستطيع التكهُّن مسبقاً بأنه جريح. وبعد ذلك كنت أصاب بشلل في الساقين إذا لم أتلقَّ منه رسالة في كل يوم. وكتب مبرِّراً موقفه: «كيف يمكن أن ترد رسالة في كل يوم إذا ما كانوا يجلبون لنا الماء مرة واحدة في كل عشرة أيام؟». وكانت إحدى الرسائل سارة: «هورا-هورا! لقد رافقنا طابوراً إلى الاتحاد السوفيتي. وبلغنا الحدود، وبعدها لم يسمحوا لنا، لقد نظرنا ولو من بعيد إلى وطننا. لا توجد أرض أفضل في أي مكان آخر». وجاء في رسالته الأخيرة: «إذا ما بقيت حيَّاً خلال الصيف، فسأعود».

في 29 أغسطس قرَّرت أن الصيف انتهى، فاشتريت له بذلة وأحذية. مازالت معلقة في الخزانة.

لا بد لي من إبداء الامتنان إلى أخي لبقائي على قيد الحياة بعد مصرع ابني. فقد جلس كل ليلة طوال أسبوع كامل إلى جانب أريكتي مثل الكلب. كان يحرسني. وكان يدور في خاطري شيء واحد: الاندفاع إلى الشرفة والقفز من الطابق السابع... وأذكر كيف جلبوا التابوت إلى الغرفة، فألقيت نفسي فوقه وأنا أقيس وأقيس... متر واحد، متران.. كان طول ابني نحو مترين.. وقست بذراعي التابوت، فهل يناسب طوله؟ وصرت كالمجنونة أحدِّث التابوت: «من هناك؟ هل أنت هناك يا بني؟». جلبوا التابوت مغلقاً: «هاك، يا أم، ابنك... نحن نعطيك إياه». لم أستطع أن أقبِّله في آخر مرَّة. وأن أمسِّده بيدي. وأنا لم أرَ حتى بأي بزَّة كان...

قلت إنني سأختار بنفسي المكان لدفنه في المقبرة. تم حقني بإبرتين وتوجَّهت مع أخي إلى هناك. وكان في الممرِّ الرئيس صف من قبور "الأفغان".

- «ليدفن ابني هنا مع رفاقه، سيكون أكثر سعادة معهم».

أنا لا أذكر من كان معنا، فقد هزَّ أحدهم رأسه، وهو مسؤول ما، وقال:

- «لا يسمح بدفنهم سوية. سنوزِّعهم في أنحاء المقبرة».

أوه، كم أصبحت عديمة الشفقة! أوه، كم أصبحت عديمة الشفقة! وتوسَّل أخي لي قائلاً: «صونيا، لا تغضبي. فقط لا تغضبي يا صونيا». وكيف لي أن أكون طيِّبة؟ إنهم يبثون في التلفزيون مشاهد كابُلهم تلك... بودِّي أن آخذ المدفع الرشَّاش وأصليهم بنيران حامية وأجلس عند التلفزيون و"أقتلهم"... لقد قتلوا ابني ساشا. وفي إحدى المرَّات عرضوا مشهد امرأة عجوز يبدو أنها أم أفغانية. تطلعت إليَّ مباشرة وجها لوجه... و فكَّرت: «هناك يوجد ابنها، ربَّما قتلوه أيضاً؟» وبعدها توقَّفت عن "إطلاق النار".

أنا لست مجنونة، لكنني أنتظره... وتروى قصة: جُلب التابوت إلى الأم، ودفنته. وبعد عام رجع ابنها إليها... وأنا أنتظر. أنا لست مجنونة.

أم

سأبدأ منذ البداية... سأبدأ من تلك اللحظة حين انهار كل شيء لديَّ. وتبعثر كل شيء إلى فتات.

كنا في الطريق إلى جلال آباد، وقفت في الطريق طفلة بعمر سبع سنوات... تتدلَّى ذراعها المقطوعة مثل لعبة قماشية ممزَّقة معلَّقة بخيط ما. عيناها السوداوان مثل حبَّتَي زيتون تتطلَّعان إلي بصدمة سبَّبها الألم. فقفزت من السيَّارة لكي أحملها بيدي إلى ممرَّضاتنا، فاذا بها تهرب مني برعب رهيب مثل الوحش وهي تهرب وتصرخ. والذراع الصغيرة ترتج وتكاد أن تنقطع في أية لحظة. وأنا أيضاً كنت أصرخ وأهرول خلفها. ولحقت بها فاحتضنتها وأخذت أمسد رأسها. بينما كانت تعضني وتخدشني بأظافرها، وترتجف بكل كيانها. كما لو أنه أمسك بها وحش ما وليس إنساناً. وطرأت في ذهني كالرعد فكرة: إنها لا تصدِّق أنني أريد إنقاذها، إنها تعتقد أنني أريد قتلها، فالروس لا يستطيعون عمل أي شيء سوى القتل فقط...

يحملون النقالة وفوقها عجوز أفغانية ابتسمت.

وسأل أحدهم: «أين موضع الجرح؟».

وقالت الممرضة: «في القلب».

جئنا إلى هنا وعيوننا متألِّقة حماساً مثل الجميع؛ فهناك من يحتاج إلينا. ربما كنت سأفقد حياتي من أجل ذلك! وكيف هربت مني... وكيف ارتجفت! لن أنسى ذلك...

لم تراودني هناك الأحلام حول الحرب. أما هنا فإنني أقاتل في الليل. وأركض للحاق بتلك الصبية الصغيرة... العينان حبتا زيتون...

سألت رفاقي:

- «هل أنا في حاجة إلى طبيب نفساني؟».

* «ماذا؟».

- «إنني أقاتل».

* «نحن جميعاً نقاتل».

لا تفكِّروا في أن كل واحد من هؤلاء الشباب كان بطلاً خارقاً. كانوا يجلسون والسجائر في أفواههم فوق جثث القتلى ويفتحون معلَّبات لحم البقر، وكانوا يأكلون البطِّيخ... هراء! إنهم شباب عاديون. وفي وسع أي شخص أن يكون مكاننا، ومنهم من يُطلق الأحكام اليوم: "أنتم هناك مارستم القتل". بودِّي أن أوجِّه لكمة إلى هذا البوز. أنتم لم تكونوا هناك، فلا تُطلقوا الأحكام! أنتم لا تستطيعون أبداً الوقوف إلى جانبنا موقف الند للند. ولا يحق لأحد أن يطلق الحكم علينا. حاولوا ولو أن تفهموا... حاولوا... لقد تركونا مع هذه الحرب لوحدنا. وأكَّدوا لنا: دبِّروا أموركم بأنفسكم. بينما أصبحنا كالمذنبين، ويجب أن نبرِّر موقفنا أو أن نلتزم الصمت... أمام من نبرِّر موقفنا؟ لقد أرسلونا إلى هناك، ونحن صدَّقناهم. وهناك لقينا مصرعنا بهذا الاعتقاد. ويجب ألا يوضع الذين أرسلونا إلى هناك إلى جانب من كان هناك. لقد قُتل صديقي؛ الرائد ساشا كرافتس، فقولوا لأمِّه إنه مذنب! قولوا هذا إلى زوجته وأطفاله... قال لي الطبيب: «كل شيء لديك على ما يرام وأنت في حالة طبيعية». أي أناس طبيعيون نحن؟! لقد عانينا الكثير في أعماقنا.

جرى تحسُّس الوطن هناك بشكل مغاير تماماً. الوطن؛ اسمه – الاتحاد السوفيتي. وجرى توديع المسرَّحين من الخدمة بالقول:

- «اركعوا هناك للاتحاد».

وبدا أنه يوجد وراء ظهرنا شيء كبير وقوي، وسيحمينا دائماً. وأذكر: خرجنا من المعركة، والخسائر قتلى وجرحى بحالة خطيرة... في المساء فتحنا التلفزيون لإلهاء أنفسنا: ماذا يجري هناك في الاتحاد؟ شُيِّد في سيبيريا

مصنع عملاق جديد. ملكة بريطانيا تقيم مأدبة على شرف ضيف رفيع. وفي فورونيج أحداث اغتصبوا تلميذتين دفعاً للسأم. وفي إفريقيا اغتيل أمير. ومشاعرنا: لا يحتاج أحدٌ إلينا، البلاد تحيا بمشاغلها.

وكان أوّل من انفجر بنفاد صبرٍ هو ساشا كوتشينسكي:

– «أطفئ الجهاز! وإلا فسأطلق النار على التلفزيون».

وبعد المعركة أبلغوا بواسطة اللاسلكي:

– «سجِّل "الثلاثمئة" ستةً، و"الصفر – واحد وعشرون" سجِّله أربعة».

"الثلاثمئة" هم الجرحى، و"الصفر – واحد وعشرون" هم القتلى. وتتطلَّع في القتيل فتفكِّر في أمِّه: أنا أعلم بأن ولدها قُتل، بينما هي لا تعلم. هل تم تبليغها؟ والشيء الاسوأ – هل سقط في نهر أو وهدة، ولم يعثر على جثته؟ ويتم تبليغ الأم: مفقود. حرب من كانت؟ إنها حرب الأمَّهات، لقد قاتلن، وسيُقاتلن حتى الموت. سيتولَّين العناية، ويلتمَّسن منا أرواحنا. أما الشعب كله فلم يتأثَّر بمصاب. الشعب لا يعلم. وقيل له إننا نقاتل "العصابات". جيش مؤلَّف من مئة ألف رجل لا يستطيع خلال تسعة أعوام القضاء على زمر منفردة من "العصابات"؟ جيش مجهز بأحدث المعدات... لا سمح الله بأن نقع تحت نيران مدفعيتنا، حين يُقصف الهدف بواسطة الوحدات الصاروخية من طراز "غراد"... أو "أوراغان"... إن أعمدة التلغراف تتطاير في الهواء، والفرد مستعدٌّ للاختباء تحت الأرض مثل الدودة الأرضية... بينما يتسلَّح "رجال العصابات" بالمدافع الرشَّاشة من طراز "مكسيم" التي لم نرها سوى في السينما. أما صواريخ "ستينغر" والمدافع اليابانية غير القابلة للارتداد فقد ظهرت لديهم فيما بعد. ويجري اقتياد الأسرىَ وهم أفراد هزيلون ومتعبون وأياديهم فلاحية خشنة... أي رجال عصابات هم؟! إنهم الشعب!

يجرى ذلك هناك، تمر بالقرى المهجورة، الدخان يتصاعد من النار، وتفوح رائحة طعام. ويمضي بعير يجرُّ أحشاءه المتدلِّية من بطنه كما لو أنه يلفُّ بها سنامه. يجب الإجهاز عليه... ولكن أفكاري مبرمجة مع هذا نحو

حياة السلام، فلا أستطيع الإجهاز عليه. ويدي لم ترفع السلاح مرَّة واحدة. بينما يعمد شخصٌ آخر إلى إطلاق صلية رصاص على البعير لمجرَّد اللهو! بفعل الرغبة، والحماقة! لو فعل ذلك في الاتحاد السوفيتي لوضعوه في السجن، أما هنا فهو بطل! ينتقم من رجال العصابات. لماذا يقتل من هم في سن 18–19 عاماً بيسر أكثر ممَّن هم في سن الثلاثين مثلاً؟ تعوزهم الشفقة. بعد الحرب اكتشفت فجأة مدى فظاعة حكايات الأطفال، ففيها نجد دوماً من قُتل، والسعلاة (بابا يغا) تشوي البشر في الموقد، بينما لا يشعر الأطفال بالخوف من ذلك، ونادراً ما يبكون.

لكن بودِّي أن أكون إنساناً طبيعياً. جاءت إلينا مغنِّية، امرأة حسناء، وأغانيها مؤثِّرة. والمرء يشعر هناك بالشوق إلى المرأة، وينتظر قدومها، باعتبارها شخصاً قريباً منه. وصعدت على خشبة المسرح:

- «حينما جئت إليكم سمحوا لي بإطلاق النار من المدفع الرشَّاش. وقد فعلت ذلك ببالغ السرور».

وصارت تغنِّي، وتطلب منا الترديد:

- «يا شباب، هيَّا صفِّقوا! صفِّقوا يا شباب!».

لكن لم يصفِّق أحد. لقد صمتوا. فخرجت، وفشلت الحفلة الغنائية. لقد جاءت فتاة خارقة إلى فتيان خارقين. في كل شهر تخلو ثمانية إلى عشرة أسرَّة من الفتيان النائمين فيها في الثكنات... ويصبح من كان ينام فيها في الثلاجة. في معرض الجثث... بينما في الثكنات توجد فوق الأسرَّة فقط الرسائل المطوية... من أم أو من فتاة: «اذهب طائراً مع التحيَّات، وعد بالجواب»...

الشيء الرئيس في هذه الحرب هو البقاء على قيد الحياة. وينبغي عدم الإصابة بانفجار لغم، وعدم الاحتراق في المدرَّعة، وعدم التعرُّض كهدف إلى رصاص قنَّاص. أما بالنسبة إلى البعض فهو البقاء على قيد الحياة وجلب شيء ما: تلفزيون ومعطف من فرو الضأن، وجهاز تسجيل من أحدث طراز. تردَّدت فكاهة مفادها أن الناس في الاتحاد السوفيتي يعرفون الحرب ممَّا

يعرض في محلات الكومسيون، ومن السلع الجديدة. تمشي في مدينتنا سمولينسك فترى الفتيات يرتدين معاطف فرو أفغانية. الموضة!

يعلِّق كل جندي في رقبته تعويذة. وتسأله:

- «ما هذا؟».

* «صلوات أعطتني ماما إياها».

ولدى عودته تصارحه ماما قائلة:

- «توليا أنت لا تعرف بأنني مارست السحر حيالك، ولهذا عدتَ حيّاً ومعافى».

حين التوجُّه في مهمَّة قتالية تضع إحدى القصاصات في القسم العلوي من البزَّة، أما الأخرى ففي القسم السفلي. وإذا ما انفجر لغم فيك فسيبقى أحد القسمين: العلوي والسفلي. وكان الجنود يحملون في معاصمهم سواراً نُقش عليه اللقب، وزمرة الدم، والرقم الشخصي للضابط. ولم يقولوا أبداً: «سأذهب. أرسلوني». ولم يتلفَّظوا بكلمة: "الأخير".

- «هيا لنذهب آخر مرة...».

* «ماذا بك؟ هل أصابك الخبل؟ لا توجد مثل هذه الكلمة... الأخير، بل الرابع والخامس.. وهنا لا تستخدم هذه الكلمة».

الحرب ذات قوانين سافلة: التقطتَ صورة فوتوغرافية قبيل التوجُّه إلى مهمَّة قتالية، إذاً ستقتل. وإن حلقت ذقنك؛ ستقتل. وكان أوَّل القتلى من جاء لاجتراح المآثر البطولية، ومن ذوي العيون الزرق. والتقيتُ أحدهم: "سأكون بطلاً". ولقي مصرعه فوراً. وفي العملية القتالية نحن نربض هناك وفور ذلك نقضي الحاجة الطبيعية. والمثل السائد لدى الجنود: من الأفضل أن تدوس على خرائك من أن تصبح أنت نفسك خراءً في الألغام. وولدت لدينا عبارات شعبية شائعة: "السطح" أي الطائرة. "الدرع" أي السترة المضادة للرصاص. "الخضراء" أي الأحراش ومنابت القصب. و"الدوارة" تعني المروحية. و"أوهام" تعني التخيُّلات بعد تناول المخدِّرات. "قفز على لغم" أي انفجر

فيه لغم. "البديل" هو من يسافر عائداً إلى الوطن. وابتدعوا الكثير من العبارات والألفاظ بحيث يمكن تأليف قاموس منها. قُتل أكبر عدد منهم في الأشهر الأولى والأخيرة. ففي الأولى كان هناك كثير من الفضول، وفي الأخيرة؛ بسبب توقُّف عمل مراكز الحذر، ويبدأ التبلُّد. في الليالي لا يستطيع المرء إدراك: أين هو، ومن هو، ولمَ؟ وهل ما يحدث يتعلّق به؟ ولا ينام البدلاء من الجنود المقرَّر تسريحهم فترة شهر ونصف أو شهرين. ولديهم حساباتهم: 34 مارس أم 56 فبراير أم نهاية فبراير. وهذا يعني أنه يجب أن يرحل في نهاية مارس أو نهاية فبراير. إنه ينتظر هذا الموعد على أحر من الجمر. قائمة الطعام في المطعم: سمك أحمر - كيلكا بالطماطم، سمك أبيض - كيلكا بالزيت، تثير الإزعاج. أحواض الزهور في وسط باحة الحامية تثير الإزعاج. النكات التي كانت حتى وقت قريب تولد الضحك لا تعجبهم. غريب! لقد كانت أمس وأمس الأول مضحكة. وما الشيء المضحك فيها؟

جاء ضابط إلى الاتحاد السوفيتي في مهمَّة رسمية. دخل إلى صالون الحلاقة، وأجلسته الفتاة في المقعد:

- «كيف الأحوال في أفغانستان؟».

* «يجري تطبيعها...».

وبعد عدَّة دقائق تقول:

- «كيف الأحوال في أفغانستان؟».

* «يجري تطبيعها...».

ثم تمضي فترة أخرى:

- «كيف الأحوال في أفغانستان؟».

* «يجري تطبيعها...».

أنهى قص شعره وانصرف. وفي صالون الحلاقة بدأت العاملات في التساؤل: «لماذا عذَّبتِ الرجل بأسئلتك؟».

* «كنت كلَّما أسأله عن أفغانستان ينتصب شعره؛ فيسهل قصُّه!».

أنا أحبُّ النكات، ومختلف الأمور التافهة. بينما أخشى التفكير في الأمور الجدِّية.

أُسقطت طائرة طيَّار سوفيتي في سماء فيتنام، يمكن استبدالها بأفغانستان... ويعمد رجال الاستخبارات الأمريكية إلى عرض أجزاء الطائرة الساقطة أمامه: قل ما هي هذه الأجزاء؟ هذه... وهذه... ويلتزم الصمت. فيضربونه، ولكنه يصمت. وبعد ذلك جرى تبادل الأسرى، فيعود الطيَّار إلى وحدته العسكرية، ويسألونه: «كيف الأمور هناك في الأسر؟ صعبة؟». فيجيب: «لا، عموماً ليست صعبة جدّاً، لكن تجب دراسة القسم المادي للطائرة. لقد ضربوني ضرباً مبرحاً بسببها».

تعتريني الرغبة في العودة ليس إلى الحرب، بل إلى الأشخاص. فأنت تنتظر وتنتظر، بينما تبدي الأسف للرحيل في آخر يوم، حين بدا لك أنك أخذت عناوين الجميع. الجميع!

لوتيك... هذا هو اسم فاليركا شيروكوف، الفتى الضعيف البنية والوسيم. لا، لا... إنه ليس ما ينشده البعض في الأغنية: "يداه مثل ورود الحب". إنه ذو طبع صلب، ولن يقول كلمة نافلة أبداً. كان بين الجنود شاب بخيل، يكدس كل شيء، ويشتري ويبادل السلع. فوقف فاليركا أمامه مرَّة وأخرج من حافظة نقوده مئتي صك ومزَّقها أمام سمع وبصر الشاب الذي أصابه الخبل... لقد مزَّق الأوراق إرْباً إرْباً. وخرج صامتاً.

ساشا روديك... لقد استقبلنا العام الجديد سوية معه. شجرة عيد الميلاد - نصبنا الرشَّاشات بشكل هرمي، وبدلاً من اللُّعَب علَّقنا القنابل اليدوية، وكتبنا على شاحنة منظومة "غراد" بمعجون الأسنان: «كل عام وأنتم بخير!!!». ولسببٍ ما كتبنا ثلاث علامات تعجُّب. كان ساشا يجيد الرسم. وقد جلبت معي لدى عودتي إلى البيت شرشفاً رسم عليه منظراً طبيعياً: كلباً وفتاة وأشجار الزيزفون. لم يرسم الجبال، فنحن كرهنا الجبال هناك.

اسأل أي واحد: «لماذا أنت كئيب؟» فيجيبك: «أريد الذهاب إلى الغابة... والسباحة في النهر... وشرب قدح كبير من الحليب».

في طشقند جاءت النادلة وقالت:

- «أحبائي، اطلبوا الحليب».

* «سنطلب قدحين من المياه العادية. أما الحليب فسنشربه غداً. لقد وصلنا لتونا».

جلب كل واحد من الاتحاد السوفيتي حقيبة فيها المربى ومهشة من أغصان البتولا. لكن توجد هناك أشجار الأوكالبتوس؛ إنها حلم! كلا، لقد جلبوا معهم أغصان البتولا...

ساشيكا لاشوك... فتى نظيف. غالباً ما يكتب الرسائل إلى الأهل. «أمّي وأبي دبَّت فيهما الشيخوخة. إنهما لا يعرفان بأنني هنا. لذا أكتب لهما عن منغوليا». جاء حاملاً الغيتار. ورحل مع الغيتار. كان هناك مختلف الناس. لا تتصوَّرينا وكأننا متشابهون. في البداية لزموا الصمت عنا، وبعد ذلك أخذوا يصوِّرون الجميع كأبطال، أما الآن فهم يرفضوننا ويتجاهلوننا، بغية نسياننا لاحقاً. هناك قد ينبطح أحدنا على لغم من أجل إنقاذ فتيان لا يعرفهم، بينما يأتي الآخر ويسألك: «سأغسل ملابسك إذا أردتَ ولكن لا ترسلني في مهمَّة قتالية».

يسير طابور من شاحنات "كاماز". وكتب على جوانبها بحروف كبيرة: كوستروما، دوبنا، لينينغراد، نابرجنيه تشلني. أو "أريد الذهاب إلى ألما-آتا". وكان اللينينغرادي يجد اللينينغرادي، وابن كوستروما يجد ابن كوستروما... فيحتضن أحدهما الآخر وكأنهما أخوة. ونحن في الاتحاد كالأخوة أيضاً. واليوم من يستطيع من الشبَّان السير في الشارع على عكَّازتين وعلى صدره وسام لامع جديد؟ واحد منا فقط. أخي... أخونا... فنتعانق، ومرَّة أخرى نجلس على مصطبة وندخِّن سيجارة، كما لو أننا كنا نتبادل الأحاديث طوال اليوم. ونحن جميعاً نعاني من سوء التغذية... وهناك يتمثَّل في عدم التناسب

بين الوزن والطول... أما هنا فناجم عن عدم تناسب مشاعر احتمال الانفجار في كلماتنا، وأفعالنا. نحن نعاني من سوء التغذية في هذه الحياة.

ركبنا الحافلة من المطار إلى الفندق. الساعات الأولى في الوطن. لزمنا الصمت والهدوء... وفي لحظة خاطفة لم تحتمل الأعصاب لدى الجميع، وأخذنا سوية بالصراخ مخاطبين السائق:

- «المسار! المسار! التزم مسار الطريق!».

وأعقبت ذلك قهقهة. ومن ثم - الشعور بالسعادة: نحن الآن في الاتحاد السوفيتي! يمكن أن نسير على جانب الطريق... وفي مسار الوسط... وفي الأرض كلها... إن المرء يثمل من هذه الفكرة.

بعد مرور عدة أيام اكتشفنا:

- «ياشباب! نحن جميعاً حدب».

نحن لا نستطيع السير باستقامة، فقدنا القدرة على ذلك. وكنت خلال نصف عام أربط نفسي بالسرير من أجل اعتدال القامة.

لقاء في نادي الضبَّاط. الأسئلة: «حدِّثونا عن الرومانسية في الخدمة في أفغانستان». «هل قتلت شخصيَّاً أحداً؟». وأبدت الفتيات بشكل خاص إعجابهن بطرح أسئلة دموية، لرغبتهنَّ في دغدغة أعصابهن. فيسألن: «هل كان في وسعك عدم الذهاب إلى أفغانستان؟». أنا؟ أنا... لقد رفض ذلك واحد فقط من بيننا؛ إنه آمر البطارية، الرائد بوندارينكو:

- «أنا سأذهب للدفاع عن الوطن. ولن أذهب إلى أفغانستان».

وفور ذلك عُقدت محكمة شرف الضبَّاط اجتماعاً، وقرَّرت احتقاره لجبنه! فما معنى ذلك بالنسبة إلى حب الذات الرجولي؟ هل هي أنشوطة على العنق، ومسدَّس مُوجَّه إلى الصدغ؟ وفور ذلك خُفِّضت رتبته من رائد إلى نقيب، أو كما كنا نقول نثر نجمه. ونُقل إلى الكتيبة الإنشائية. فهل تحمَّل ذلك؟ وطُرد من الحزب. وهذا أيضاً؟ إن هذا أفظع من الذهاب إلى الحرب. أربعة وخمسون عاماً، قضى ثلاثين عاماً منها في الجيش: في البداية في

مدرسة سوفوروف العسكرية للناشئين، ومن ثم الأكاديمية العسكرية... ماذا سيعمل في الحياة السلمية؟ البدء من نقطة الصفر؟

ويسألون الضابط: ماذا يمكن أن تعمل؟

- «أستطيع قيادة سَرِيَّة. وأستطيع قيادة فصيل وبطارية مدفعية».

* «ماذا تستطيع أيضاً؟».

- «أستطيع أن أحفر...».

في نقطة الجمارك أتلفوا أشرطة سُجِّلت فيها أغاني روزنباوم.

- «يا شباب، الأغاني ممتازة!».

فقالوا مشيرين إلى ورقة لديهم:

* «لدينا قائمة بالأغاني التي يمكن تمريرها، والأخرى الممنوع تمريرها عبر الحدود».

وصلت إلى سمولينسك، فسمعت من نوافذ مساكن الطلبة جميعاً موسيقى: إنهم يسمعون أغاني روزنباوم...

أما الآن – يجب تخويف البلطجية، فيأتي إلينا رجال الميليشيا:

- «هيا يا شباب، ساعدونا».

واذا ما تطلَّب الأمر تفريق المعارضين:

- «لندعُ "الأفغان"».

ويزعمون أن "الأفغاني" قد اعتاد على عدم الاهتمام بشيء: قبضات قوية، وعقل ضعيف. الجميع يخافونه. والجميع لا يحبُّونه.

عندما تشعر بوجع في يدك لن تقطعها، بل ستعتني بها بغية أن تُشفى. ستعالجها.

لماذا نجتمع معاً؟ لكي ننقذ أنفسنا سوية... لكنَّ المرء يعود إلى بيته وحيداً.

رائد، داعية في كتيبة مدفعية

في كل ليلة أرى الحلم ذاته، تختلط الأمور جميعاً في ذهني. الجميع يطلقون النار، وأنا أطلق النار. الكل يركضون، وأنا أركض. وأسقط، وأستيقظ من نومي.

أنا راقد في سرير المستشفى... وأستيقظ. أريد أن أنهض من السرير بقفزة واحدة، بغية أن أذهب إلى الممر وأدخِّن. وفوراً أدرك أنني بلا ساقين... حينئذٍ أعود إلى الواقع.

لا أريد أن أسمع شيئاً عن الخطأ السياسي! لا أريد أن أعرف! إذا كان ذلك خطأً، إذاً أعيدوا إليّ ساقيَّ... (يرمي العكازتين بعيداً بيأس).

- «المعذرة... المعذرة».

(يجلس صامتاً وقد تملَّكه الهدوء)

أنت؟ هل أخرجت في وقت ما من جيب قتيل رسالة لم يرسلها: "عزيزتي"، "أعزائي"، "حبيبتي..."؟ هل رأيت جندياً لقي مصرعه بقذيفة مدفع صوانية ورشّاش صيني في آن واحد؟

لقد أرسلونا إلى هناك، ونحن نفَّذنا الأمر. في الجيش يجب أوَّلاً أن تنفِّذ الأمر، ومن ثم تستطيع الطعن به. قيل لك: إلى الأمام. معنى ذلك: إلى الأمام. وإذا عصيت الأمر - سلِّم البطاقة الحزبية. سلِّم الرتبة. هل أدَّيت القسم؟! أديته. لقد فات الأوان لشرب المياه المعدنية "بورجومي"، إذا ما أصاب الكليتين المرض. «نحن لم نرسلك إلى هناك».

- «من أرسلني إذاً؟».

كان لدي صديق هناك. وعندما كنت أنطلق في مهمَّة قتالية كان يودِّعني،

ولدى عودتي يحتضنني. أنت حي! لن يكون لديَّ مثل هذا الصديق هنا...

نادراً ما أخرج إلى الشارع، لأنني ما زلت أخجل...

هل حدث في وقت ما أن ربطت أو رأيت عن كثب أطرافنا الاصطناعية؟ المرء يمشي بها ويخاف أن يدق عنقه. يقال إن "أصحاب الأطراف الاصطناعية" في البلدان الأخرى يتزلّجون على الزحافات، ويلعبون التنس، ويرقصون. فاشتروها بالعملة الأجنبية بدلاً من شراء مواد التجميل الفرنسية، وبدلاً من السكَّر الكوبي، والبرتقال المغربي، والأثاث الإيطالي...

عمري 22 عاماً، وأمامي الحياة كلها. يجب عليَّ البحث عن زوجة. كانت لدي فتاة. وقلت لها: «أنا أكرهك» من أجل أن تتركني. لقد أشفقت عليَّ. لكنني أردت منها أن تحبَّني.

أرى بيتي في الأحلام في الليالي،

وفي هدوء أطراف الغابة تنتصب أشجار الغبيراء

ثلاثون، تسعون، مئة...

ما لك أصبحت كريماً، أيُّها الوقواق؟!

هذه من أحب الأغاني إليَّ من بين جميع أغانينا. وأحياناً حتى لا أريد أن أحيا في يومي هذا...

لكنني أحلم حتى الآن متمنياً أن أرى ولو بطرف عيني هذه القطعة من الأرض. صحراء الكتاب المقدس... نحن ننجذب جميعاً إليها... هكذا تنجذب إليها حين تقف على شفير الهاوية أو عالياً فوق سطح. تتملَّكك وقتئذٍ رغبة عارمة، ويصيبك الدوار...

لقد انتهت الحرب... والآن يحاولون نسياننا، وإخفاءنا في مكان بعيد ما، ويغلقون علينا الباب بالمزلاج، كما حدث في الحرب الفنلندية... ما أكثر ما أُلِّف من الكتب عن الحرب الوطنية العظمى، بينما لم يكتب شيء عن الحرب الفنلندية... لا يحبُّ أحد تذكُّر الحرب التي خُسرت. وأنا سأعتاد على هذا بعد عشرة أعوام، وسيكون الأمر بالنسبة إليَّ سيان.

هل مارست القتل هناك؟ لقد قتلت. ماذا تريدين، هل كنت تريدين أن نبقى ملائكة هناك؟ هل كنتم تنتظرون عودة الملائكة؟

ملازم أول، آمر سَرِيَّة مدفعية الهاون

أدَّيت الخدمة العسكرية في الشرق الأقصى...

استُدعيت إلى قائد الوحدة، وجلب جندي الإشارة المناوب برقية: «يجب إرسال الملازم أول إيفانوف إلى هيئة أركان الجيش من أجل بحث مسألة نقله إلى دائرة تركستان العسكرية لغرض مواصلة الخدمة العسكرية». التاريخ والزمن. كنت أتوقع أن يرسلوني إلى كوبا، حيث دار الحديث لدى فحصي في اللجنة الطبِّية عن بلاد ذات مناخ حار.

سألوني:

- «هل تمانع لو أرسلناك في مهمَّة إلى خارج البلاد؟».

* «لا، لن أعارض».

- «هل توافق على الذهاب إلى أفغانستان؟».

* «موافق تماماً».

- «أتعرف؟ هناك يطلقون النار ويقتلون».

* «أعرف تماماً».

أية حياة لدى رجال سلاح الهندسة في الاتحاد السوفيتي؟ إنهم يحفرون بالمسحاة، ويدقُّون الأرض بالمعول. وثمَّة حاجة إلى رجال الهندسة دائماً في الحرب. وقد ذهبت لكي أتعلَّم كيفية القتال.

رفض شخص واحد من بين جميع الذين تمَّ استدعائهم، وجرى استدعاؤه ثلاث مرَّات:

- «هل تعارض إذا أرسلناك في مهمَّة إلى خارج البلاد؟».

* «أعارض».

أصبح في وضع لا يُحسد عليه. فقد صدر فوراً توبيخٌ بحقه، وأصبح اسمه كضابط ملطَّخاً بالعار، ولن تكون له أية ترقية في الخدمة. لقد رفض بسبب حالته الصحية، إذ ربما كان مصابا بالتهاب في غشاء المعدة أو مصاباً بالقرحة. لكنهم لم يهتموا بذلك: هل الطقس حار أم غير حار؟ طلبوا منه أن يرحل. وتم طبع القوائم.

سافرت في القطار من خباروفسك إلى موسكو طوال ستة أيام. سافرت عبر روسيا كلها، عبر أنهار سيبيريا، وعلى ضفاف بايكال. وبعد مضي يوم انتهى مخزون الشاي لدى جامعة التذاكر في القطار، وفي اليوم الثاني تعطَّل جهاز تسخين الماء. استقبلني الأهل. وبكوا. لكن ما باليد حيلة ما دام ذلك واجباً.

فتحت الكوَّة - السماء زرقاء شديدة الزرقة. عندنا تكون السماء بهذه الزرقة، كما الحال هناك، فقط عند النهر، كان هناك من يستقبل البديل أو الأصدقاء أو ينتظر رزمة بعث بها الأهل في الاتحاد السوفيتي. كانوا جميعاً قد لفحتهم الشمس، وتبدو عليهم علائم المرح. لم يعد أحدٌ يصدِّق بأنه يوجد في مكان ما أرض تبلغ درجة الحرارة فيها 35 درجة مئوية، والدروع تبرد. رأيت أول أفغاني في نقطة الترحيل عبر حاجز من الأسلاك الشائكة. لم يراودني أي شعور سوى الفضول. إنه رجل كبقية الناس.

تسلَّمت في باغرام وثائق التعيين في منصب آمر فصيلة هندسة شق الطرق التابعة إلى كتيبة سلاح الهندسة...

كنا ننهض في وقت مبكِّر صباحاً ونتوجَّه كما يتوجَّه المرء إلى العمل: دبَّابة ذات مجرفة، مجموعة من رجال سلاح الهندسة، كلب مختصٌّ بكشف الألغام، ومصفَّحتان للحماية القتالية. سرنا في أوَّل كيلومترين جالسين على الدروع. فمن هناك ترى بيُسرٍ الآثار: الطريق ترابي، والتراب كالبودرة، وكالثلج. إذا مشى طائر فوقه - تبقى آثاره. وإذا سارت في الأمس دبَّابات، فخذْ حذرك وافتح عينيك: يمكن أن يُزرع لغم في آثار الجنازير. ويجري

تصوير الجنازير بالأصابع، وتُمسح الآثار بعمامة أو بكيس. استدار الطريق حول قريتين مهجورتين. ولم يكن هناك بشر، بل فقط الطين المحترق. التمويه ممتاز! لكن يجب التزام الحذر دائماً. أصبحت القرى خلفنا، ونزلنا من الدروع. الوضع الآن كالتالي: تعدو أمامنا الكلاب، وتنطلق هنا وهناك، ويمضي خلفها رجال سلاح الهندسة حاملين المجسات. إنهم يسيرون ويغرزونها في الأرض. فهنا يصاحبك الرب، وحدسك، وخبرتك، وحسُّك الباطني. هنا غصن مكسور، وهناك قطعة حديدية ما متروكة، أمس لم تكن موجودة، وهناك حجر. إنهم يضعون الشارات لأنفسهم ابتغاء عدم انفجار لغم فيهم.

ثمة قطعة حديدية، وأخرى... وصامولة ما... يبدو كما لو أنها مرمية فوق التراب.. بينما توجد تحت الأرض بطاريات، وسلك مربوط بقنبلة أو صندوق تروتيل... إن الإنسان لا يتحسس اللغم المضاد للدبَّابات، فهو ينفجر حين يكون الضغط عليه نحو مئتين وخمسين أو ثلاثمئة كيلوغرام. أوَّل انفجار... كنت الوحيد الباقي فوق الدبابة، كنت جالساً بالقرب من ماسورة المدفع، وحماني برجها، أما الآخرون فقد أسقطتهم موجة الانفجار. وتفحَّصت فوراً جسدي وتأكَّدت مما إذا كان الرأس في مكانه؟ وكذلك اليدان والساقان في مكانها؟ كل شيء في مكانه - فواصلنا المسير.

وقع انفجار آخر أمامنا... فقد اصطدمت بقنبلة حارقة شديدة الانفجار عربةُ جرٍّ خفيفة... انقسمت عربة الجر إلى نصفين، وتشكَّلت حفرة بطول ثلاثة أمتار وبعمق يُعادل طول إنسان... وكانت عربة الجر تنقل القذائف، نحو مئتي قذيفة لمدافع الهاون. وتناثرت القذائف في الأحراش، وعلى جانبي الطريق. كانت مرمية بشكل مروحي... كان يرافق العربة خمسة جنود وملازم أوَّل، كنت قد جلست معه مراراً في الأمسيات، كنا ندخِّن، ونتبادل الأحاديث... ولم يتبقَّ أحد منهم على قيد الحياة..

ساعدت الكلاب كثيراً، وهي مثل البشر. إنها ذوات مواهب وبلا مواهب.

ذات حدس وبلا حدس. الحارس يغفو، بينما الكلب لا يغفو. وقد أحببت الكلب آرس. كان يتودَّد إلى جنودنا، بينما ينبح على الأفغان، إذ أن ملابسهم خضراء زاهية أكثر من ملابسنا الضاربة إلى الصفرة. لكن كيف كان يميِّزها؟ كان يتحسَّس الألغام من مسافة عدَّة خطوات، فيربض على الأرض وينتصب ذنبه عالياً منذراً: لا تتحرَّك! ومصائد الألغام مختلفة، وأخطرها الألغام البدائية الصنع، لأنها لا تتكرر، ولا يمكن كشف قانونها الحتمي. القانون التقني! تنتصب غلاية شاي صدئة، فيها عبوة ناسفة، في جهاز التسجيل، في الساعة، في علبة المعلبات، وتُطلق على من يتوجَّه بلا مرافقة رجال سلاح الهندسة تسمية الانتحاريين. فهناك ألغام في الطريق، وفي الطريق الجبلي، وفي البيت... يتوجَّه رجال سلاح الهندسة في المقدَّمة مثل رجال الاستطلاع...

راوحنا في مكاننا في خندق كان قد اكتُشف لغم فيه، راوحنا هناك طوال يومين. لكن حالما قفزت من الأعلى – وقع انفجار! لم أفقد الوعي. تطلَّعت إلى السماء... السماء متألِّقة. إن أوَّل رد فعل لدى رجال سلاح الهندسة لدى وقوع انفجار هو التطلُّع إلى السماء دوماً. هل العينان سليمتان؟ كنت أحمل في عقب البندقية جديلة تمَّ بها ربط ساقي في موضع فوق الركبة. كنت أعرف: حيثما تربط الجديلة، يتم هناك بتر الساق بمسافة 3 – 5 سنتيمترات فوق موضع القطع.

فصرخت بالجندي قائلاً: «أين تربط الجديلة؟».

– «الإصابة لديك أيها الرفيق الملازم أوَّل حتى الركبتين».

بعد ذلك نقلوني مسافة خمسة عشر كيلومتراً إلى الكتيبة الطبِّية. مضت فترة ساعة ونصف. هناك غسلوني، ثمَّ حُقنتُ بمخدر النوفوكايين. بُترتْ ساقي في اليوم الأول، وصدر أزيز من المنشار فأُغمي عليَّ. في اليوم الثاني أُجريت عملية جراحية في العينين. فقد أصاب اللهب وجهي لدى وقوع الانفجار. ويمكن القول إنهم طرَّزوني، حيث وضعوا اثنتي عشرة درزة. وكانوا يزيلون في كل يوم اثنتين أو ثلاثاً منها بغية ألا تلتصق مقلة العين.

كانوا يوجِّهون نور المصباح اليدوي من الجهة اليسرى، ثم من الجهة اليمنى، للتحقُّق من تحسُّس النور في الشبكية.

المصباح أحمر اللون... لا بد من أنه شديد الحمرة.

كان في وسعي أن أكتب قصة كاملة عن كيف يتحوَّل الضابط إلى حرفي يعمل في بيته. أنا أقوم بتجميع المقابس والقوابض الكهربائية... مئة قطعة في اليوم. وكذلك برشمة الأسلاك. أية واحدة منها. الحمراء والسوداء والبيضاء – لا أعرف...أنا لا أرى... أنا أعمى تقريباً. أنا أحدس وأتصوَّر ليس بصورة شاملة أكثر ممَّا أرى. كما أصنع الشباك. وألصق العلب الكرتونية. سابقاً كنت أعتقد أن المجانين فقط يمارسون هذه الأعمال... ثلاثون شبكة في اليوم... وأنا أنفِّذ المعدَّل المطلوب للإنتاج...

كانت فرص رجال سلاح الهندسة قليلة في العودة سالمين أو في العودة أصلاً عموماً، بالأخص سرايا إزالة الألغام، والعمليات الخاصة لإزالة الألغام. فواحدهم إما جريح، أو قتيل. حين ننطلق لتنفيذ العملية، لا نودِّع بعضنا بمصافحة الأيدي. في يوم الانفجار صافحني الآمر الجديد بيدي. وفعل هذا بإخلاص، ولم يكن أحدٌ قد حذره بعد. فقذفني الانفجار في الهواء... يمكن أن تصدِّقي أو لا تصدِّقي ذلك. فقد وُجد اعتقادٌ تقليدي: ما دمت قد طلبت نفسك الذهاب إلى أفغانستان، فنهايتك ليست طيِّبة، وإذا أرسلوك فهذا ضمن الواجب ويمكن أن تحافظ على حياتك، وتعود.

أية أحلام تراودني الآن؟ حقل ألغام طويل... أعد مدونة الخدمة: عدد الألغام، الرسم التخطيطي لصفوفها والاتجاهات التي يمكن إيجادها فيها. أنا لم أفقد مدونة الخدمة هذه، علماً أنها غالباً ما تُفقد، أو تأخذ المدون ويحدِّد الاتجاه بموجبها في شجرة احترقت، أو كومة من الأحجار تم نسفها... لم يذهب أي أحد ولم يفحص المكان. كانوا يخافون. فقد تنفجر فيها ألغامهم ذاتها. وأنا أرى في الحلم مجموعة أطفال يركضون بجوار حقل الألغام. إنهم لا يعرفون بأن هناك ألغاماً... ويجب عليَّ أن أصرخ: «هناك ألغام! لا تذهبوا

إلى هناك!». ويجب عليَّ أن أسبقهم. فأركض. ومرة أخرى تُصاب ساقاي... وأنا أرى...

لكن هذا ما أراه في الليل فقط، وفي الحلم فقط...

ملازم أوّل، سلاح الهندسة

أنا لا أستطيع ذلك مثل الآخرين، ولا أفلح في العيش بمثل هذه الحياة...

لربَّما إنَّ هذا سخف وغير معقول، في هذه الحرب، لكنني شخص رومانسي، وأعتقد بأنني لم أعش بعد بصورة حقيقية ولا أعيش، وأحلم دوماً بالحياة. أبتدع، وأتصور. في اليوم الأوَّل حين وصلت إلى هناك استدعاني الآمر، مدير المستشفى العسكري، وقال: «ما الذي دعاك إلى المجيء إلى هنا؟». إنه لم يفهم... الرجل...

ووجب عليَّ أن أروي له حياتي كلها، هو الرجل الغريب الذي لا أعرفه، العسكري، كما في الساحة العامة... يكمن في هذا أكثر الأمور ألماً، وأكثرها إذلالاً بالنسبة إليَّ. لا يوجد أي سر أو شيء خاص، فينكشف كل شيء. هل شاهدت فيلم "فوق الإدراك" حول حياة السجناء في المعتقل؟ كنا نعيش الحياة نفسها. الأسلاك الشائكة نفسها، وفسحة الأرض المحدودة نفسها.

الأشخاص المحيطون بي هم الفتيات – النادلات والطبَّاخات. الأحاديث تدور حول الروبلات والصكوك واللحم بالعظام وبدونها والنقانق المدخَّنة والبسكويت البلغاري. وحسب تصوراتي فقد كان ذلك تضحية بالذات، وواجباً نسائياً – حماية فتياننا، وإنقاذهم! كنت أتصوَّر ذلك بروح السمو. الأفراد ينزفون دماً، فأتبرع بدمي. أدركت في نقطة الترحيل في طشقند أنني أذهب إلى غير المكان المطلوب. ركبت الطائرة؛ طفقت أبكي، ولا أستطيع التوقُّف عن البكاء. فهناك الشيء نفسه الذي هربت بسببه من هنا، الشيء الذي أردت الابتعاد عنه. في نقطة الترحيل كانت الفودكا تسكب بلا حساب. وشاهدنا في الحلم العشب بالقرب من المطار الكوني... عشب أخضر وأخضر... إنني أبدو كمن حلَّق في الفضاء... وهنا في الاتحاد السوفيتي

يوجد لكل شخص بيته، وحصنه. أما هناك فكنا نعيش أربعة أشخاص في غرفة واحدة، كانت الفتاة التي تعمل طبَّاخة تجلب لنا من المطعم اللحم وتدسُّه تحت السرير...

ونقول: «نظِّفي الأرض».

- «أنا نظَّفتها يوم أمس، اليوم جاء دورك».

* «نظِّفيها وسأعطيك مئة روبل...».

فلزمت الصمت.

* «سأعطيك لحماً».

صمتّ. فتأخذ دلو الماء وتسكبه على سريري.

الجميع يضحكون: ها-ها-ها-ها.

أما الفتاة الأخرى. النادلة. فقد كانت تطلق الشتائم الفاحشة وتطالع أشعار تسفيتايفا. وبعد نوبة العمل تجلس وتوزع أوراق القمار في لعبة "السوليتير":

- «سيكون - لن يكون... سيكون - لن يكون».

* «ما الذي "سيكون - لن يكون"؟».

- «الحب، وأي شيء غيره؟».

كانت هناك حفلات زفاف، حفلات زفاف حقيقية! وكذلك الحب! لكن بصورة نادرة. كان الحب حتى بلوغ طشقند: أما من هناك... فهو إلى اليسار، وهي إلى اليمين. كما في الأغنية: "طريقها في اتجاه آخر".

كانت تانيا بيتير (طويلة القامة، ضخمة الجسم) تحب الجلوس والتحدُّث حتى وقت متأخِّر، وتشرب الكحول صافياً من دون إضافات.

- «كيف تستطيعين ذلك؟».

* «ماذا تقولين؟ الفودكا ضعيفة ولا تؤثِّر فيَّ».

أنا أتذكَّر فيروتشكا خاركوفا حين تجلس أمام المرآة وتفتح فمها وتدلي لسانها. كانت تخاف الإصابة بالتيفوئيد. وقال لها أحدهم إنه يجب التطلُّع في

كل صباح في المرآة: ولدى الإصابة بالتيفوئيد تظهر على اللسان آثار الأسنان القواطع.

لم يعترفن بي. فأنا بالنسبة إليهنَّ مجرد واحدة غبية تحمل أنابيب الميكروبات. كنت أعمل طبيبة مختصة بالأبحاث الجرثومية في مستشفى الأمراض المعدية، وكان يتردد على لساني الكلام حول موضوع واحد: التيفوئيد والتهاب الكبد والباراتيفوئيد. والجرحى لا ينقلون إلى المستشفى مباشرة. فكانوا يتركون مستلقين في الجبال وفوق الرمال خمس أو عشر ساعات وأحياناً يوماً أو يومين. ولهذا تتسرَّب الميكروبات إلى الجروح، ويُسمَّى ذلك عدوى الجروح. ويُنقل الجريح إلى قسم الإنعاش فأكتشف إصابته بالتيفوئيد.

كانوا يموتون بصمت. في إحدى المرَّات رأيت ضابطاً ينتحب، مولدافي، فهُرع إليه الجرّاح، وكان مولدافياً أيضاً، وسأله باللغة المولدافية:

- «باتيوشكا، ممَّ تشكو؟ ماذا يؤلمك؟».

فانفجر هذا بالبكاء وقال:

* «أنقذني. يجب أن أعيش. لدي زوجة لطيفة وابنة لطيفة. يجب أن أعود...».

وكاد أن يموت، لكنه بكى عندما سمع لغته الأم.

لم أكن أستطيع الذهاب إلى معرض الجثث. كانوا يجلبون إلى هناك اللحم البشري، ممزوجاً بالتراب. كما يوجد تحت سرير الفتيات اللحم. إنهن يضعن المقلاة على المائدة: "روبا! روبا!"- ومعنى ذلك باللغة المولدافية "إلى الأمام". الحر شديد؛ العرق يتصبب على المقلاة. لقد رأيت فقط الجرحى وتعاملت فقط مع الميكروبات، ولن أذهب لبيع الميكروبات... كان يمكن في المخزن العسكري شراء الحلوى مقابل الصكوك. هذا حلمي! وكانوا ينشدون هناك أغنية: "أفغانستان، ما أروعها!". وأعترف بنزاهة أنني كنت أخاف كل شيء... وجئت إلى هناك ولم أميّز حتى النجوم على كتافيات

الضباط، ولا الرتب.وكنت أخاطب الجميع بصيغة الاحترام "حضرتكم". ولا أذكر مَن، كنَّ أحدهم أعطاني في مطبخ المستشفى العسكري بيضتين غير مطبوختين، لأن الأطبَّاء كانوا شبه جياع. كنا نتناول دوماً هريسة البطاطس واللحم المجمد المحفوظ منذ زمن بعيد في مخازن الجيش، من الاحتياطيات القديمة. إنه كالخشب... بلا رائحة ولون. فلففتُ هاتين البيضتين بمنديل وقررت أن آكلهما مع البصل في البيت. طوال النهار كنت أتخيل كيف سأتناول طعام العشاء. وفي تلك الأثناء جُلب فتى جريح فوق ناقلة بغية ترحيله إلى طشقند. لم أشاهد ماذا كان تحت الغطاء الأبيض، واهتز فقط رأس وسيم فوق الوسادة. رفع عينيه وقال:

- «أريد أن آكل».

حدث هذا بالذات قبل موعد الغداء، ولم تجلب أوعية الطعام بعد. بينما سيجري نقله. ولا يعرف متى سيصل إلى طشقند، ومتى سيطعمونه.

* «هاك» - وأعطيته البيضتين. ثم استدرت وانصرفت ولم أسأله: هل يوجد له ذراعان وساقان؟ وقد وضعت البيضتين على الوسادة. لم أكسرهما ولم أطعمه. فقد لا تكون لديه ذراعان؟

في حادث آخر انطلقنا في سيارة نحو ساعتين، وإلى جانبنا الجثث... أربع جثث. كانوا بملابس رياضية...

عدت إلى الوطن... لم أستطع سماع الموسيقى، والتحدُّث في الشارع، وفي حافلة الترولّلي. وددت أن أغلق باب الغرفة، بغية أن أكون لوحدي مع التلفزيون. قبيل يوم واحد من السفر إلى الاتحاد أطلق النار على نفسه الآمر - مدير مستشفانا العسكري يوري يفيموفتش جيبكوف... لماذا؟ ماذا جرى في أعماق روحه؟ قد لا يفهم البعض ذلك. أما أنا... أنا أفهم، بل وحتى أعرف. فهناك كل هذا قريب. وفي أفغانستان أعدت كتابة نصٍّ لأحد الضبَّاط جاء فيه ما يلي: «إن الأجنبي الذي تُلقي به الأقدار إلى أفغانستان لا بد من أن يكون تحت عناية خاصة من قبل السماء، إذا ما خرج من هناك معافى، وغير

مصاب ورأسه على كتفيه». الفرنسي فورنيه. كان الواجب أن يخلص ليس فيزيقياً فقط، فالإنسان كائن ذو حشوة معقدة. إنه فطيرة ذات عدة طبقات، كما قالت لي فتياتي. بدأ في نهاية الحرب بممارسة الفلسفة قليلاً. قبيل العودة إلى الوطن...

التقيت في الشارع شاباً. ثمة شيء محبب بالنسبة إليَّ في هيئته، إنه في أغلب الظن من "الأفغان"؟ أي ممن حاربوا في أفغانستان. ولم أعمد إلى مخاطبته لكيلا أبدو مضحكة. أنا لست جريئة، وذات طبع رقيق الحاشية... وتملَّكني الخوف حين طرأت لدي فكرة أنني يمكن أن أتحول إلى كائن عدواني وعنيف. الإنسان تحت التبعية، إنه حتى لا يعرف بأنه تابع إلى أفعاله، مما كان قد حدث له سابقاً. إنه يخاف... نحن نعدُّ الفتيان لإخراجهم بعد العلاج... فتجدهم يختبئون في عليات المبنى وفي أقبية المستشفى العسكري، ولا يريدون إخراجهم وإعادتهم إلى الوحدة العسكرية. نقوم بالبحث عنهم، ونخرجهم من مخبأهم. في نقطة الترحيل علَّمتني الفتيات لمن يجب أن أعطي قنينة فودكا بغية إرسالي إلى مكان جيد. لقد علَّمنني، وهن في سن 18–20 عاماً، بينما أنا في الخامسة والأربعين من عمري.

في نقطة الجمارك، حين رجعنا، أرغمونا على خلع ملابسنا حتى حمالة الصدر.

– «من أنت؟».

* «أنا طبيبة مختصة بالبكتريولوجيا».

– «أبرزي الوثائق – أخذوا الوثائق – افتحي الحقائب. سنفتِّشها».

كنت أحمل معي في طريق العودة معطفي القديم واللحاف والغطاء والدبابيس والشوكات... كل ما جلبته معي من البيت. فأفرغوا المحتويات على الطاولة:

– «هل أنت مجنونة؟ لا بد من أنك تنظمين الأشعار؟».

أنا لا أطيق الصبر على البقاء هنا. هنا أكثر فظاعة من هناك. هناك كنا

نجلس مع القادمين من الاتحاد وراء طاولة واحدة. النخب الثالث. صمت. نخب الشهداء. نجلس وراء الطاولة، والفئران تتجوَّل في المكان، وتلحس الأحذية. في الساعة الرابعة فجراً أسمع عواءً. في أوَّل مرَّة قفزت من سريري: «يا بنات، ذئاب». لكن الفتيات ضحكن: «إنه المؤذن يدعو إلى الصلاة». صار ينتابني الشرود في البيت لفترة طويلة عند الساعة الرابعة فجراً.

بودي الاستمرار في الحديث... طلبت إرسالي إلى نيكاراغوا، إلى أي مكان تدور فيه رحى الحرب... فأنا لم أعد أستطيع العيش هنا.

طبيبة، مختصة بالبكتريولوجيا

أنا اخترته أولاً...

يقف شاب وسيم طويل القامة. فقلت: «يا بنات، إنه لي». دنوتُ منه ودعوته إلى رقصة الفالس وقت طلب السيِّدات. أي حين تختار السيِّدات رفيق الرقص. وأنا – اخترت مصيري...

كانت لي رغبة شديدة في أن يكون لي ابن. واتفقنا: إذا ولدت صبية فسأسمِّيها أنا. وستكون أولتشكا. وإذا ولد صبي فسيسمِّيه هو. وسيكون ارتيوم أو دينيس. فوُلدت أولتشكا.

– «وهل سيكون لنا ولد؟».

* «سيولد. لكن دع أولتشكا تشب قليلاً».

وولدتُ له صبيّاً.

– «لوبيتشكا، لا تخافي، كيلا يختفي الحليب في صدرك –كنت أرضع الطفلة بثديي– سيرسلونني إلى أفغانستان».

* «ولماذا أنت؟ لديك طفلة صغيرة».

– «إذا لم أكن أنا فسيُرسل غيري. إذا أمر الحزب فإن الكمسمول يجيب: سمعاً وطاعة».

كان رجلاً مخلصاً للجيش. وكان يكرِّر: «الأوامر لا تُناقَش». في أسرته تتمتَّع الأمُّ بشخصية قوية جدّاً، واعتاد الطاعة والخضوع. ووجد الخدمة في الجيش سهلة.

كيف جرى حفل الوداع؟ الرجال يدخِّنون. والأمُّ صامتة. وأنا بكيت: فمن يحتاج إلى هذه الحرب؟ وابنتي نائمة في المهد.

التقيت في الشارع امرأة بلهاء، غريبة الأطوار، وهي غالباً ما تتجوَّل في السوق أو المتجر في مدينتنا العسكرية. وقيل إن أحدهم اغتصبها حين كانت فتية، ومنذ ذلك الحين لم تعد تعرف حتى أمها. وقفت إلى جانبي وقالت:

- «سيجلبون زوجك في صندوق». وضحكت ثم ابتعدت عني.

لم أكن أعرف ما سيحدث، لكنني كنت أعرف أن شيئاً ما سيحدث.

انتظرته كما لدى الكاتب سيمونوف: «انتظريني، فسأعود...». وكان في وسعي أن أكتب له ثلاث أو أربع رسائل في اليوم وأرسلها. وبدا لي أنني سأحفظه وأحميه حين أفكِّر فيه، وأشعر بالشوق إليه. أما هو فكان يكتب لي أنه هناك في الحرب يؤدِّي كل فرد عمله. وينفِّذ الأمر. ولكل واحد مصيره. فلا تقلقي وانتظري.

وعندما كنت أزور والديه لا أذكر أي شيء عن أفغانستان، أية كلمة. وكذلك تفعل الأم، والأب. لم نتَّفق على ذلك، لكننا خشينا التفوُّه بهذه الكلمة.

ألبست الطفلة لكي أحملها إلى روضة الأطفال، وقبَّلتها. وعندما فتحت الباب رأيت أمامي عسكريين وفي يد أحدهم حقيبة زوجي، الصغيرة، البنية اللون، أنا جهَّزتها له حين سافر. وأصابني شعور ما... إذا ما سمحت لهم بالدخول، فسيجلبون إلى البيت شيئاً فظيعاً. لن أسمح لهم بالدخول، وسيبقون جميعاً في مكانهم. فسحبوا الباب، وأرادوا الدخول، لكنني أمسكت به، ولم أسمح لهم.

- «هل هو جريح؟». كان ذلك الأمل الوحيد المتبقي لديَّ، في أن يكون جريحاً.

* «لودميلا يوسفوفنا، يجب علينا أن نبلِّغك ببالغ الحزن، بأن زوجك...».

لم أذرف الدموع. صرخت. ورأيت صديقه فارتميت على صدره:

- «توليك، إذا قلت أنت فسأصدِّقك. ما لك صامتاً؟».

فاستدعى البرابورشيك المرافق للتابوت:

* «قل لها...».

لكن هذا ارتجف ولزم الصمت أيضاً.

وجاءت إليّ بعض النساء، وأمطرنني بالقبل.

- «هدئي من روعك. أعطينا أرقام هواتف الأقارب».

فجلست وأعطيت دفعة واحدة جميع العناوين وأرقام الهاتف، عشرات العناوين والأرقام، والتي لم أكن أحفظها في ذاكرتي. وفيما بعد تحقّقت منها في مفكرتي، فوجدت أنها صحيحة كلها تماماً.

إن شقتنا صغيرة، وتتألّف من غرفة واحدة. وُضع التابوت في نادي الوحدة العسكرية. فاحتضنت التابوت وصرخت:

- «لماذا؟ هل أسأت إلى أحد ما؟».

وعندما ثبت إلى رشدي تطلّعت إلى ذلك الصندوق: «سيجلبون زوجك في صندوق...». ومرّة أخرى صرخت:

- «أنا لا أصدّقكم بأن زوجي هنا. برهنوا لي أنه هنا. ولا توجد فيه حتى كوة صغيرة. ماذا جلبتم؟ من جلبتم لي؟».

وقلت: «توليك، أقسم لي بأن زوجي هنا».

* «أقسم بحياة ابنتي، بأن زوجك هنا. لقد فارق الحياة فوراً من دون ألم. لا أستطيع قول شيء أكثر من هذا!».

لقد تحققت نبوءته: «إذا ما جاء الموت، فليكن ذلك بدون عذاب». ونحن بقينا...

صورته الكبيرة معلّقة على الجدار، وتطلب ابنتي:

- «ارفعي أبي من أجلي. سألعب مع أبي».

إنها تحيط الصورة بالألعاب، وتتحدّث معها. وعندما أضعها في الفراش ليلاً تقول:

- «أين أطلقوا النار على بابا؟ ولماذا وقع اختيارهم على أبي بالذات؟».

أقتادها إلى روضة الأطفال؛ وفي المساء يجب أخذها إلى البيت. فتبكي وتصرخ.

- «لن أخرج من روضة الأطفال، حتى يأتي إليَّ بابا. أين بابا؟».

أنا لا أدري بماذا أجيبها. وكيف أفسِّر لها؟ أنا نفسي في الحادية والعشرين من العمر... في الصيف أخذتها إلى أمِّي في القرية. فلربما ستنساه هناك. لا أمتلك القوَّة على البكاء في كل يوم... وفي كل دقيقة. عندما أرى زوجاً وزوجة وطفلاً معهما - أبكي. إن روحي تصرخ، وجسدي يصرخ. سابقاً كنت أحب النوم عارية في الصيف، أما الآن فلا أنام عارية أبداً. أنا أتذكر كل شيء... أتذكَّر الحب. واعذريني على الصراحة... في وسعي إبداء الثقة بك فقط. أنت الغريبة عني. كنت أقول له في الليل: «قم ولو دقيقة واحدة... وانظر كيف كبرت ابنتنا! إن هذه الحرب غير المفهومة قد انتهت بالنسبة إليك. أما بالنسبة إليَّ - فلا. وبالنسبة إلى ابنتنا؟ إن أبناءنا من أكثر الأبناء تعاسة، إنهم سيحاسبون عن كل شيء. هل تسمعني...».

لمن أصرخ؟ ومن يسمع؟

زوجة

كنت في وقت ما أحلم بأن ألد ابناً... أنا نفسي ألد رجلاً سيجد من يحبه، وسيحبني أنا نفسي أيضاً...

افترقت عن زوجي. لقد تركني وتزوج أخرى شابة ولدت له طفلاً بعد تخرُّجها من المدرسة فوراً. كنت أحبُّه، ولربما كان هذا سبب عدم ارتباطي برجل آخر. وأنا لم أبحث.

تولَّيت تربية ابني مع أمِّي، امرأتان، وهو صبي. كنت أنهض بهدوء وأتطلَّع إلى مدخل المبنى: مع من هو، ومن هم أصحابه؟

عندما يعود إلى البيت يقول: «ماما، أنا صرت كبيراً، وأنت تواصلين رعايتي».

في صغره كان مثل فتاة. أبيض البشرة، وهشّاً، وقد وُلد في الشهر الثامن، ولادة اصطناعية. إن جيلنا لم يستطع إنجاب أطفال أصحاء، فقد أنجبنا في فترة الحرب. القصف الجوي، إطلاق النار، الجوع، الخوف...

كان يلعب دوماً مع البنات اللواتي كن يتقبَّلنه فهو لا يتشاجر. وأحبَّ القطط، وكان يربط الأطواق في أعناقها.

- «اشتري لي يا ماما همستر[30]، إن فروه دافئ جدّاً، ومبلَّل جدّاً. اشتري لي همستر. وحوض الأسماك الزجاجي. والأسماك». وعندما نذهب إلى السوق: «اشتري لي دجاجة حيَّة... رقطاء...».

وأنا أفكِّر: هل من المعقول أنه يطلق النار هناك؟ ابني الصبي المدلَّل، لم يخلق من أجل الحرب... لقد أحببناه ودلَّلناه كثيراً...

30- حيوان أليف من فصيلة القوارض، يشبه الفأر في شكله.

سافرت إليه في عشق آباد حيث كانت ترابط سَرِيَّة التدريب:

- «اندريوشا، أريد التحدُّث مع الآمر. أنت ابني الوحيد... والحدود قريبة من هنا...».

* «لا تتجرئي على ذلك، يا ماما. سيسخر الآخرون مني، بأنني صبي مدلَّل. إنهم أصلاً يقولون: أنت رقيق، ورنان وشفاف».

- «كيف حالك هنا؟».

* «الملازم عندنا رجل طيب، ويعاملنا معاملة الند للند. أما النقيب فيمكن أن يصفع أحدنا...».

- «كيف؟! إنني والجدة لم نضربك أبداً، حتى حين كنت صغيراً».

* «ماما، الحياة هنا حياة رجال. الأفضل ألا أحدِّثك والجدة عن أي شيء».

لقد كان ابناً لي في صغره فقط. كنت أغسله في الحمام، وينبجس من لجَّة الماء كشيطان صغير، وألفه بشرشف، وأحتضنه. كنت أعتقد بأنه لن ينتزعه أحدٌ مني أبداً، ولن أعطيه إلى أي أحد. ولكنهم انتزعوه مني لاحقاً...

أنا نفسي أقنعته بعد الصف الثامن بالالتحاق بمعهد الهندسة الإنشائية المهني. كنت أعتقد أنه بهذه المهنة سيجد الخدمة في الجيش ميسرة. فبعد انتهاء فترة الخدمة العسكرية سيلتحق بالمعهد العالي. لقد أراد أن يضبح حارس غابات، إذ كان يبتهج دوماً في الغابة. وكان يتعرف على الطيور من أصواتها، ويبيِّن أين تنبت مختلف أصناف الزهور. وبهذا كان يشبه أباه؛ فقد كان من أبناء سيبيريا ويحب الطبيعة لدرجة أنه لم يسمح بقص العشب في فناء البيت. وتعجبه بزة حارس الغابات وقبَّعته: «ماما، إنها تشبه بزَّة عسكرية».

وأنا أفكِّر: هل يعقل أنه يطلق النار هناك؟

كان غالباً ما يكتب لي وللجدَّة من عشق آباد. وقد حفظتِ نص إحدى الرسائل، وأمسكتها بيدي ألف مرة:

«تحية إلى ماما وجدّتي العزيزتين! هَأنذا أخدم في الجيش لثلاثة أشهر. وتمضي الخدمة بصورة طيبة. أنا أنفِّذ جميع المهام الموكل بها إليَّ حتى الآن بصورة جيِّدة، ولا توجد ملاحظات بشأنها من قبل القيادة. منذ فترة قريبة توجَّهت سريتنا إلى مركز التدريب الميداني الذي يبعد 80 كيلومتراً عن عشق آباد، في وسط الجبال. ومارستْ هناك التدريبات والتكتيك وإطلاق النار من الأسلحة الخفيفة طوال فترة أسبوعين. أما أنا وثلاثة أفراد آخرين فقد بقينا في موقع الوحدة ولم نسافر إلى هناك. لقد أبقونا لأننا نعمل منذ ثلاثة أسابيع في معمل صنع الأثاث، حيث نشيد إحدى الورشات. ومقابل ذلك قدم المعمل طاولات إلى السرية. ونقوم هناك بأعمال رص الطوب وإكساء الجدران بالجص.

ماما، أنت تسألين عن رسالتك، لقد استلمتها، كما استلمت الرزمة وعشرة روبلات فيها. وقد أنفقنا أنا وصديقي هذه النقود في تناول الطعام عدة مرات في البوفيه وشراء الحلوى...».

كنت أعلِّل نفسي بالأمل بأنه ما دام يقوم بأعمال التجصيص ورص الطوب فمعنى ذلك أن ثمة حاجة إليه كعامل بناء. دعه يشيِّدْ لهم بيوتهم الريفية الخاصة، والكراجات الشخصية، فلا يرسلونه إلى مكان أبعد. وبعد ذلك كتب أنه عمل في خدمة أحد الجنرالات في أطراف المدينة.

حلَّ عام 1981... ترددت إشاعات. لم يعلم إلا قلائل جدّاً بأن هناك مذبحة ومفرمة لحم في أفغانستان. وشاهدنا على شاشة التلفزيون مشاهد تآخي الجنود السوفيت والأفغان، والزهور على مدرَّعاتنا، وفلاحون يقبّلون الأرض المهداة إليهم... وأثار مخاوفي شيء واحد؛ عندما سافرت إليه في عشق آباد التقيت امرأة... في البداية قالوا لا يوجد مكان شاغر في الفندق:

- «لا يوجد مكان شاغر».

* «سأنام على الأرض. أنا جئت من مكان بعيد لزيارة ابني الجندي. ولن أذهب إلى أي مكان».

- «حسناً، ستقيمين في غرفة فيها أربعة أَسِرَّة. تعيش هناك أم أيضاً تزور ابنها».

وسمعت من هذه المرأة لأوَّل مرَّة بأنه يجري تشكيل مجموعة جديدة لإرسالها إلى أفغانستان، وأنها جلبت معها مبلغاً كبيراً من أجل إنقاذ ابنها. وسافرت راضية، وأبلغتني لدى توديعها قائلة: «لا تكوني حمقاء ساذجة...». وعندما رويت ذلك لأمِّي بكت وقالت: «لماذا لم تركعي أمام أقدامهم؟! ولم تتوسَّلي إليهم؟ وكان يجب أن تنزعي أقراطك وتقدِّميها لهم».

كانت الأقراط أثمن شيء في بيتنا، علماً أنها رخيصة الثمن. وليست مطعَّمة بالجواهر! لكنها بدت كثروة بالنسبة إلى أمي التي عاشت حياتها كلها بصورة أكثر من متواضعة. يا إلهي! ماذا يفعلون بنا؟ وإذا لم يذهب هو، فهناك فتى آخر سيذهب مكانه. ولديه أم أيضاً...

كانت مفاجأة بالنسبة إليه أيضاً إلحاقه بكتيبة إنزال جوِّي هجومية وترحيله إلى أفغانستان. وقد غمره الفخر والاعتزاز بالنفس كصبي. لم يخف ذلك.

أنا امرأة، وإنسان مدني خالص. ربما لا أفهم بعض الأمور. لكن دعهم يفسِّروا لي لماذا مارس ابني أعمال التجصيص ورص الطوب في الوقت الذي وجب فيه أن يتدرب على العمليات القتالية؟ لقد كانوا يعرفون إلى أين يرسلونهم. وقد نشرت في الجرائد صور المجاهدين... رجال في الثلاثين والأربعين من العمر، في أرضهم، إلى جانب عوائلهم وأطفالهم. إذاً أخبروني كيف نُقل ابني من وحدة قوَّات عامة إلى كتيبة إنزال جوِّي هجومية؟ وحتى أنا أعرف ما هي قوَّات الإنزال، وأي شبَّان أقوياء البنية يجب أن يكونوا هناك، ويجري تدريبهم بصورة خاصة. وفيما أجابني مدير مدرسة التدريب زاعماً أن ولدي كان حائزاً على مرتبة الامتياز في الإعداد القتالي والسياسي. كيف أصبح كذلك؟ وأين؟ في معمل صنع الأثاث؟ أم عند العمل لدى الجنرال في البيت الريفي؟ لمن أعطيت ابني؟ وبمن وثقت؟ إنهم حتى لم يصنعوا منه جندياً...

تلقَّيت من أفغانستان رسالة واحدة فقط: «لا تقلقي، هنا المكان جميل وهادئ. زهور كثيرة لا وجود لها عندنا، الأشجار تورق، والطيور تغرِّد. الأسماك كثيرة». إنها جنات عدن وليست حرباً! لقد أراد تهدئتنا، لكي لا نعمد حاشا الله إلى التوسُّل من أجل انتزاعه من هناك. إنهم فتيان لم يكتسبوا خبرة القتال بعد؛ أطفال تقريباً، ألقوا بهم في النار، بينما اعتبروا هم ذلك شرفاً لهم. نحن ربَّيناهم بهذا الشكل.

لقد لقي مصرعه في الشهر الأوَّل... فتاي... صغيري... كيف رقد هنالك؟ لن أعرف ذلك أبداً.

حملوه إلينا بعد عشرة أيام. وكنت خلال الأيام العشرة كلها أفقد شيئاً ما في الحلم ولم أستطع إيجاده. وفي جميع تلك الأيام كانت تصفر غلاية الشاي في المطبخ. وتضع الغلاية لتسخينها فإذا بها تغنِّي بمختلف الأصوات. أنا أحب الزهور في الغرفة، ولديَّ كثير منها على رفوف النوافذ وفوق الخزانة ورفوف الكتب. وفي كل صباح عندما أسقيها صرت أسقط الآنيات الخزفية. لقد كانت تنزلق من يدي وتتحطَّم. وسادت في البيت رائحة التربة الندية...

توقفت عند مدخل البيت سيَّارتان إحداهما عسكرية والأخرى للإسعاف. وفي لحظة خاطفة حدست الأمر؛ إنهم آتون إلينا، إلى بيتي. وحالما بلغت الباب وفتحت قلت:

- «لا تقولوا! لا تقولوا لي أي شيء! أنا أكرهكم! أعطوني فقط جثمان ولدي... سأدفنه كما أريد. لوحدي. لا أريد أية مراسم تكريم عسكرية...».

اكتبي! انشري الحقيقة! الحقيقة كلها! أنا لم أعد أخاف شيئاً... كفى، كنت أخاف طوال حياتي...

أم

الحقيقة؟ سيقول لك الحقيقة فقط الإنسان اليائس. اليائس تماماً سيحدثك عن كل شيء...

لا يعرف أحد الحقيقة. نعرفها نحن فقط... الحقيقة رهيبة جدّاً، ولن توجد حقيقة. لا يريد أحد أن يكون البادئ، ولا يجازف أحد. من سيتحدَّث عن كيف تُنقل المخدِّرات في التوابيت، ومعاطف الفرو بدلاً من القتلى؟ من سيُريك قلادة من الآذان البشرية المجفَّفة؟ هل سمعت بذلك أم أنها معلومة جديدة؟ غنائم الحرب... كانت تحفظ في علب الكبريت، وتُلفُّ في أوراق صغيرة مبرومة... مستحيل؟ ليس من المناسب سماع شيء كهذا حول الفتيان السوفيت الأماجد؟ لقد تبيَّن أن هذا ممكن! إنها أيضاً حقيقة لا يمكن التهرُّب منها إلى أي مكان، وتغطيتها بطلاء رصاصي رخيص. وأنتم كنتم تتصوَّرون: سنقيم النصب التذكارية وكفى؟ وسنوزِّع الميداليات...

أنا لم أذهب من أجل ممارسة القتل، فأنا إنسان عادي. كانوا يقنعوننا بأننا نحارب رجال عصابات قطاع الطرق، وسنكون أبطالاً، وسيُوجَّه إلينا الشكر. وأنا أتذكَّر جيِّداً لافتة كتب عليها: "أيها المقاتلون، سنحمي الحدود الجنوبية لوطننا". "لا تلطِّخ بالعار شرف التشكيلة العسكرية". "الزهور، وطن لينين". "المجد للحزب الشيوعي السوفيتي". أنا قادم من هناك... كانت هناك دائماً مرآة صغيرة، وهنا مرآة كبيرة. تطلَّعت فيها فلم أعرف نفسي. إن أحدهم ينظر إليَّ، بعينين جديدتين، وبوجه جديد. لقد تغيَّر حتى مظهري...

أدَّيت الخدمة العسكرية في تشيكوسلوفاكيا. تردَّدت إشاعات: سيُرسلوننا إلى أفغانستان..

- «لماذا أنا؟».

* «أنت أعزب».

جمعت حاجياتي كما لو كنت مسافراً في مأمورية. ماذا آخذ معي؟ لم يعرف أحد. لم يوجد لدينا بعد من يحمل لقب: "أفغاني". ونصحني أحد بأن آخذ معي الجزمتين المطَّاطيتين، وأنا لم ألبسهما ولو مرة واحدة خلال عامين لعدم الحاجة إليهما. لقد تركتهما في كابُل. طرت من طشقند فوق صناديق الذخيرة. وهبطنا في شندان. كان "التساندروي"، شرطتهم، يحملون رشَّاشاتنا من أزمان الحرب الوطنية العظمى، وجنودنا وجنودهم قذرون وكسالى، كما لو خرجوا لتوِّهم من الخنادق. هذا أمر مناقض تماماً لما اعتدنا عليه في تشيكوسلوفاكيا. جرى نقل الجرحى، وأحدهم مصاب في بطنه بشظايا. وسمعت رجال المروحيات الذين جاءوا به من المخافر: «هذا لن يبقى حيّاً، سيموت في الطريق». ذُهلت للهجة الهادئة التي كانوا يتكلَّمون بها عن الموت.

ربما كان هذا الأمر الأكثر عسراً على الإدراك – أي الموقف من الموت. هنا أيضاً، إذا قلنا الحقيقة كلها، فهذا غير ممكن. إن ما يعسر على الإدراك هنا، يعتبر شيئاً عادياً يومياً هناك. إن ممارسة القتل مسألة رهيبة وبغيضة، لكن سرعان ما يبدأ المرء بالتفكير في أن القتل عن كثب رهيب وبغيض، أما ممارسة القتل الجماعي وسوية فهو أمر يبعث على الحماس وأحياناً حتى – كما رأيت – على المرح. في الحياة السلْمية تُحفظ الأسلحة في هرم، وكل هرم في قسم خاص، غرفة السلاح المزوَّدة بجهاز تنبيه صوتي. أما هنا فالسلاح دائماً معك، وتعتاد عليه. في المساء أطلقوا نيران المسدَّس على المصباح من السرير، بسبب الكسل في النهوض وإطفاء النور. وعندما يتبلَّد العقل بسبب القيظ يجري إفراغ مخزن الرشَّاش في الهواء، ولو إلى أي مكان... نطوِّق قافلة، وتبدي القافلة المقاومة بإطلاق نيران المدافع الرشَّاشة. يصدر الأمر بتدمير القافلة. نبدأ بالتدمير... ويتعالى فوق الأرض زغد وهدير الجمال الجرحى الوحشي... هل لهذا سلَّمونا أوسمة الشعب الأفغاني تعبيراً عن الامتنان؟

الحرب هي الحرب، وتجب ممارسة القتل. ماذا؟ هل سلَّمونا أسلحة القتال من أجل ممارسة لعبة "زارنيتسا" (الألعاب الرياضية - العسكرية للطلائع في الاتحاد السوفيتي) مع الأخوة في الطبقة؟ أو لإصلاح الجرارات والباذرات؟ لقد كانوا يقتلوننا، ونحن كنا نقتل أيضاً. كنا نقتل حيثما استطعنا. وحيثما رغبنا. لكنها ليست الحرب التي عرفناها في الكتب والأفلام: خط الجبهة، المنطقة المحايدة، الخط الأمامي... حرب الأنفاق - "كيريزي" التي حفرت في وقت ما لغرض الري. ويخرج منها الأفراد ليلاً ونهاراً كالأشباح... مع رشَّاش وحجارة في اليد. ولا يُستبعد أن يكون أحدنا قد ساوم منذ فترة وجيزة في دكان ما شبحاً من هذه الأشباح لدى شراء سلعة ما، أما الآن فهو غير جدير بعطفك... فقد قتل لتوه صديقك. ويرقد، بدلاً من الصديق، نصف إنسان. وآخر كلماته هي: «لا تكتب عن هذا إلى أمي، أتوسَّل إليك، دعها لا تعرف شيئاً». وأنت المسمَّى "الشوروي"، أي السوفيتي، غير جدير بعطفه هو "الشبح". إن مدفعيتك قد مسحت قريته من على وجه الأرض، ولم يجد فيها شيئاً تقريباً - لا أمَّه ولا زوجته ولا أطفاله. كلهم لحم مفروم. إن السلاح الحديث يضاعف جرائمنا، فبواسطة السكِّين يمكن أن أقتل شخصاً أو شخصين، وبالقنبلة أقتل العشرات... ولكني رجل عسكري، ومهنتي القتل. ماذا جاء في الحكاية؟ أنا عبد مصباح علاء الدين السحري؟ وأنا كذلك عبد وزارة الدفاع، وأطلق النار حيثما تأمرني. ومهنتي: إطلاق النار.

لكنني لم أذهب إلى هناك لكي أقتل، فما أردت ذلك. فكيف حدث هذا؟ لماذا لقينا الشعب الأفغاني باعتبارنا أناساً غير ما نحن عليه في واقع الحال؟ الصبيان-الباتشاتا يقفون لابسين جزمات مطاطية بلا جوارب في الزمهرير، فيقدِّم لهم فتياننا وجبة الطعام الباردة. يقترب من السيارة صبي بأسمال بالية، إنه لا يطلب شيئاً كالآخرين، بل يتطلَّع فقط. كان في جيبي مبلغ عشرين أفغاني، فأعطيته إياه. فجثا على ركبتيه في الرمل، ولم ينهض حتى ركوبنا المدرَّعة، ورحيلنا. في مكان قريب يجري شيء آخر... أفراد دوريتنا يسلبون

الصبيان-السقاة ما لديهم من نقود. كوبيكات. كلا، إنني لا أريد الذهاب إلى هناك حتى بصفة سائح. لن أذهب أبداً. أنا قلت لك: الحقيقة رهيبة جدّاً، ولن تكون هناك حقيقة، ولا يحتاجها أحد. لا أنتم الذين بقيتم هنا، ولا نحن الذين كنا هناك. ولاحظي، أن عددكم أكبر. سيشب أبناؤنا وسيُخفون أن آباءهم قاتلوا هناك.

التقيت مدَّعين أيضاً يزعم أحدهم قائلاً: أنا من الأفغان، وكنا هناك وهناك...

- «أين خدمت؟».

* «في كابُل...».

- «في أية وحدة؟».

* «من القوّات الخاصة...».

في كوليما، في المنابر التي يُحتجز فيها المصابون بلوثة عقلية، يصيحون: «أنا ستالين! أنا ستالين!». والآن يعلن شاب في وضع طبيعي: «أنا من الأفغان». إنهم مخبولون... يجب وضعهم في مستشفى الأمراض العقلية!

يحضرني في الذاكرة أحدهم... أشرب، وأجلس، وأحبُّ الاستماع إلى الأغاني الأفغانية، أي التي حول أفغانستان، لكن لوحدي. لقد حدث هذا... هذه الصفحات... على الرغم من أنها ملوثة، لكن يوجد مهرب للخلاص منها... يجتمع عدة شبان معاً، إنهم مغتاظون ومخدوعون. من الصعب أن يجدوا أنفسهم، وأن يكتسبوا قيماً أخلاقية ما مجدَّداً. واعترف أحدهم لي قائلاً: «لو كنت أعرف بأنه لن يحدث لي شيء لقتلت إنساناً. هكذا لمجرَّد القتل. ليس لأي سبب. ولا أشعر بالشفقة عليه». كانت أفغانستان، والآن لا وجود لها. لن تقضي الحياة كلها في الصلاة وطلب المغفرة... أريد أن أتزوج، أريد ابناً... وكلما التزمنا الصمت بشكل أسرع كان ذلك أفضل بالنسبة إلى الجميع. من يحتاج إلى هذه الحقيقة؟ الدهماء! بغية أن تبصق في روحنا: «آه، يا أنذال، لقد قتلتم ونهبتم، وتطلبون العلاوات والتسهيلات؟».

ونكون نحن وحدنا المذنبين. وتذهب معاناتنا كلها أدراج الرياح. لكن وجب أن نحتفظ بها ولو من أجل أنفسنا.

لماذا جرى هذا كله؟ لماذا؟

في موسكو دخلت إلى المرحاض في محطة القطار. فوجدت أن المرحاض تابع لمؤسسة تعاونية. جلس فتى، يستلم أجرة الدخول. وفوق رأسه لافتة كتب عليها: «الدخول مجاناً للأطفال دون سن سبعة أعوام وللمعوَّقين وقدامى المحاربين في الحرب الوطنية العظمى والمقاتلين الأمميين».

ذهلت فسألته:

- «هل أنت ابتدعت هذا؟».

فقال بافتخار:

* «نعم، أنا. أبرز الهوية وتفضَّلْ بالدخول».

- «هل قاتل أبي خلال الحرب كلها، وأنا بلعت الرمال الغريبة طوال عامين، من أجل التبوُّل هنا مجاناً؟».

لم أشعر بمثل هذا الحقد نحو أي أحد في أفغانستان كحقدي على ذلك الشاب. وقررت أن أدفع له...

ملازم أوَّل، آمر طاقم بطارية

وصلنا جوّاً إلى الاتحاد السوفيتي في إجازة، وذهبت إلى الحمام. النساء يستلقين على المصاطب ويطلقن التأوُّهات، فخُيِّل إليَّ أنه أنين الجرحى...

في البيت شعرت بالحنين إلى الأصدقاء من أفغانستان. أما في كابُل فبعد عدَّة أيَّام شعرت بالحنين إلى البيت. أنا من مواليد سيمفروبل. تخرَّجت من المعهد الموسيقي. السعيدات لا يأتين إلى هنا. جميع النساء هنا وحيدات، مقهورات. حاول أن تعيش بمبلغ مئة وعشرين روبلاً في الشهر - هو راتبي حين أريد أن أقتني الملابس، والاستجمام بشكل ظريف في فترة الإجازة. يقال: أنتن جئتن بحثاً عن الأزواج! ولمَ لا؟ حقّاً... نعم، حقّاً. أنا في الثانية والثلاثين من عمري. ووحيدة...

عرفت هنا أن أفظع الألغام هي الإيطالية، بعد انفجارها تُجمع أطراف الإنسان في دلو. زارني فتى وصار يتحدَّث، ويتحدَّث... واعتقدت أنه لن يتوقَّف عن الكلام أبداً، فأصابني الهلع. وعندئذ قال: «أرجو المعذرة، أنا ذاهب...». فتى لا أعرفه، وهذا شيء اعتيادي، رأى امرأة وأراد مبادلتها الحديث. لقد بقي في ذاكرته عن الفتيان بعد الانفجار نصف جزمة... كانوا من طاقم مدفع رشّاش أُصيب بقذيفة. فتيان من معارفه... واعتقدت أنه لن يتوقَّف عن الكلام. يا ترى إلى من سيتوجَّه بالحديث بعد هذا؟

لدينا قسمان نسائيان للسكن: سُمِّي أحدهما "بيت القطة"؛ وتسكن هناك النساء اللواتي أمضين في أفغانستان فترة عامين أو ثلاثة أعوام. والآخر سُمِّي "زهرة البابونج - روماشكا"؛ وتسكن هناك القادمات حديثاً، والطاهرات كما يبدو، وتمسك الواحدة منهن الزهرة لمعرفة حظها: يحبُّني، لا يحبُّني، وتضم الزهرة إلى صدرها، ثم تلقي بها إلى الشيطان. في يوم السبت يُخصَّص

الحمام للجنود، وفي يوم الأحد للنساء. ولا يسمح للنساء بدخول حمام الضبَّاط؛ إن النساء... بينما هؤلاء الضباط أنفسهم يأتون إلينا في طلب... ذلك الشيء... يطرقون الباب ليلاً حاملين قنينة نبيذ. وتوجد في حافظات النقود صور الأطفال والزوجات تُقدَّم إلينا لكي نراها. هذا أمر اعتيادي...

يبدأ القصف. تنطلق القذيفة، وينبعث منها صفير. يتمزق شيء ما في الأحشاء، وثمة ألم في البطن... ذهب في مهمَّة جنديان وكلب، وعاد الكلب، بينما لم يعد الجنديان... (صمت). يبدأ القصف، ونحن نهرول إلى الشقوق للاختباء. أما الأطفال الأفغان فيرقصون ابتهاجاً على السطوح. ويجلبون قتيلنا... الأطفال يضحكون، ويصفِّقون. بينما نحمل إليهم الهدايا في القرى: الدقيق والحشيات واللعب القماشية... دببة وأرانب. بينما هم يرقصون... (تصمت) يبدأ القصف... إنهم سعداء...

أوَّل سؤال وُجِّه إليّ في الاتحاد السوفيتي: هل تزوَّجت؟ أية منح يقدِّمون لكم؟ إن المنحة الوحيدة للموظفين: إذا قُتل يعطون ألف روبل إلى أسرته. وعندما تُجلب السلع إلى المخزن العسكري يقف الرجال في المقدمة: «من أنتم؟ يجب علينا شراء هدايا إلى زوجاتنا». وفي الليل يطرقون الباب علينا... هذا شيء اعتيادي... هكذا هنا... إنهم يؤدُّون "الواجب الأممي" ويكسبون النقود. يوجد معيار للتقويم: علبة حليب مجفَّف: خمسمئة أفغاني. قبَّعة عسكرية: أربعمئة أفغاني. مرآة للسيَّارة: ألف. عجلة شاحنة من طراز "كاماز": ثمانية عشر ألفاً. مسدَّس "ماكاروف": ثلاثون ألفاً. بندقيَّة كالاشنيكوف: مئة ألف. حمولة عربة قمامة من المدينة العسكرية (تبعاً لنوع القمامة، وهل توجد هناك علب معدنية، وكم عددها): من سبعمئة إلى ألفي أفغاني... هذا شيء اعتيادي. تعيش النساء اللواتي يضاجعن من هم برتبة برابورتشوك بأفضل حال. ومن هو أعلى رتبة منه، البرابورتشوك الأقدم فقط. أما في المخافر فيُصاب الفتيان بداء الإسقربوط... إنهم يأكلون الكرنب العفن.

تقول الممرِّضات إن الأحاديث في قسم ذوي الأطراف المبتورة عن كل

شيء باستثناء المستقبل. هناك لا يحبُّ أي أحد الحديث عن المستقبل. كما لا يتحدَّثون عن الحب. يبدو أن من المرعب أن يموت أحدهم سعيداً. وهو أكثر من المرعب. أما أنا فأشفق على أمّي.

تتسلَّل قطة بين الأموات... تبحث عمَّا يؤكل، وتخاف. يرقد الشبان؛ يبدو أنهم مثل الأحياء... وربَّما القطة لا تعرف: هل هم أحياء أم أموات؟

أوقفوني عن الحديث بأنفسكم... فسأواصل وأواصل الكلام. لكنني لم أقتل أحداً أبداً...

موظَّفة

أحياناً أستغرق في التفكير... ماذا لو لم أذهب إلى هذه الحرب؟

لكنت عندئذ سعيداً، ولما أصابتني خيبة الأمل أبداً في نفسي، ولما عرفت شيئاً مما كان من المفضل ألا أعرفه عن نفسي. وكما قال زرادشت: لست وحدك من يتطلّع في الهوّة، فهي أيضاً تتطلّع في أعماق روحك...

كنت أدرس في السنة الثانية في معهد هندسة الراديو، لكنني انجذبت إلى الموسيقى، وإلى كتب الفن. كان هذا العالم الأقرب إليَّ. كنت في حيرة من أمري، وفي تلك اللحظة تلقّيت تبليغاً من دائرة التجنيد العسكري. أنا شخص بلا إرادة، وأحاول عدم التدخُّل في قدري. وإذا ما تدخَّلت فسأكون الخاسر في جميع الأحوال، وأبتغي ألا أكون المذنب. طبعاً لم أكن مستعداً للالتحاق بالجيش. على حين غرة... لقد فاجأني على حين غرة.

لم يصارحوني بشكل سافر، لكن كان كل شيء واضحاً: سنذهب إلى أفغانستان. أنا لم أتدخَّل في قدري... اصطففنا في الساحة، وتُلي الأمر، بأننا من المقاتلين – الأمميين... وقوبل كل شيء بهدوء، ولم يقل أحد: «أنا خائف! لا أريد!». نحن نتوجَّه لأداء الواجب الأممي، وكل شيء مرتَّب في موضعه. وفي نقطة الترحيل في غارديز بدأ كل شيء. فصادر الجنود القدامى كل شيء ثمين؛ الجزم والقمصان المخطَّطة والقبّعات البيريه. ولكل شيء ثمنه: القبعة: عشرة صكوك. مجموعة الشارات، وعددها لدى رجال الإنزال خمس: شارة "جفارديسكي" المحارب الممتاز في قوات الإنزال الجوي، وشارة المظلّي، وشارة الامتياز، وشارة المحارب–الرياضي، وكنا ندعوه بـ"الراكض". وثمن هذه المجموعة نحو خمسة وعشرين صكاً. وصادروا قمصان الاحتفالات الرسمية، وبادلوها بالمخدِّرات لدى الأفغان. ويأتي عدة

جنود "قدامي" أي الأجداد: «أين كيس حاجياتك؟». ويبحثون فيه ويأخذون ما يعجبهم، وكفى. في السرية صادروا من الجميع البزّات الجديدة، أبدلوها بالقديمة. استدعوني إلى المخزن: «ما حاجتك إلى الجديدة؟ إن الشباب يعودون إلى الاتحاد». وكتبت رسالة الأهل عن الجو الطيِّب في منغوليا؛ الطعام جيِّد، والشمس مشرقة. لكن كانت هنا حرب...

توجَّهنا لأوَّل مرَّة إلى قرية... ولقَّننا الآمر كيف نتعامل مع الأهالي المحليين:

- «جميع الأفغان مهما كانت أعمارهم هم "باجا"[31]. مفهوم؟ وسأريكم الباقي».

قابلنا شيخاً في الطريق. صدر الأمر:

- «أوقفوا العربة المدرَّعة. وفتشوا كل شيء».

اقترب الآمر من الشيخ فأسقط عمامته وتفحَّص لحيته:

- «هيا، اذهب، اذهب، باجا».

كان ذلك شيئاً غير متوقَّع.

في القرية رمينا إلى الأطفال علب العصيدة المجفَّفة بشكل مكعبات. فهرب الأطفال لاعتقادهم أننا رمينا قنابل يدوية.

أوَّل مهمَّة قتالية كانت مرافقة قافلة. انفعال شديد واهتمام في دخيلة نفسي: الحرب قريبة منا! في أيدينا وأحزمتنا أسلحة وقنابل يدوية كنا نراها سابقاً فقط في الملصقات الجدارية. اقتربنا من منطقة خضراء، أي الأحراش. وبصفتي موجِّه التنشين، كنت أنظر باهتمام شديد عبر العدسة... فيما إذا ظهرت عمامة ما...

فأصرخ لمن يجلس عند المدفع: سيريوغا، أرى عمامة. ما العمل؟

- «أطلق النار».

31- بمعنى صديق أو فتى بلغة البوشتو. (المترجم)

* «هكذا ببساطة أطلق النار؟».

- «وماذا تعتقد؟»، وتنطلق قذيفة.

* «أرى مرة أخرى... عمامة بيضاء... ما العمل؟».

- «أطلق النار!!!».

أطلقنا نصف مخزن الذخيرة في العربة. أطلقنا النار من المدفع، ومن المدفع الرشَّاش.

- «أين رأيت العمامة البيضاء؟ هذا كثيب[32]».

* «سيريوغا، إن "كثيبك" يتحرَّك... إن "إنسانك الثلجي" يحمل رشَّاشاً».

نتزل من العربة المدرَّعة، ونطلق على المكان صليات الرشَّاشات.

هل قتل إنسان أم لم يقتل - هذه المسألة غير واردة. كنت طوال الوقت أريد أن آكل وأنام، وطوال الوقت كانت لدي رغبة واحدة: حبذا لو انتهى كل شيء بسرعة. أن ينتهي إطلاق النار، والسير... التنقُّل فوق الدرع الساخن. وتنفُّس الرمل الجاف حاد الرائحة... الرصاص يصفر فوق الرأس، ونحن ننام... هل أقتل أم لا أقتل؟ هذه من الأسئلة التي تُوجَّه بعد الحرب، إن سيكولوجيا الحرب نفسها أكثر بساطة. لا يمكن أن ترى هناك شخصاً في هدوء، وإذا لم نستطع قتله، نطوق القرية المعادية، ونرابط هناك يوماً أو يومين... ويتملَّك المرء شعور وحشي بسبب القيظ والتعب... لقد أصبحنا أكثر قسوة من "الخضر". هم من الأهالي وشبُّوا في هذه القرى. أما نحن فلا نفكِّر. إنها حياة آخرين، ومن الأسهل بالنسبة إلينا أن نرمي القنابل اليدوية...

رجعنا في إحدى المرات؛ سبعة فتيان جرحى، واثنان أُصيبا برجة دماغية. القرى على امتداد الطريق خالية من السكَّان: البعض ذهب إلى الجبال، والبعض يكمن في مخبئه. وفجأة تندفع امرأة عجوز أفغانية، تبكي وتصرخ، وتضرب الدرع بقبضتيها. لقد قُتل ابنها. إنها تمطرنا باللعنات... وتركت لدى

32- كتلة رملية يبلغ ارتفاعها عدة أمتار، تحركها الرياح من مكان لآخر.

الجميع شعوراً واحداً: لماذا تصرخ وتهدِّد؟ أبعدوها عن الطريق! نحن لم نقتله، كان في إمكاننا أن نقتله. ألقيناها جانباً على التراب وواصلنا السير. نحن ننقل سبعة من جرحانا...

كانت معارفنا قليلة. كنا جنوداً، وحاربنا. إن حياتنا كجنود منفصلة عن الأفغان، فقد حُظر عليهم الدخول إلى منطقة الوحدة العسكرية. كنا نعرف فقط أنهم يقتلوننا. والجميع أرادوا العيش. كنت أطرح احتمال إصابتي بجروح، وحتى تمنيت أن أصاب بجرح خفيف، كي أستلقي في الفراش وأشبع نوماً. لكن لم يرد أحد أن يموت. عندما ولج ثلاثة من جنودنا أحد الدكاكين، أطلقوا النار على عائلة صاحب الدكان، ونهبوا محتوياته، وبدأ التحقيق في الحادث. في البداية نفى المسؤولون في الوحدة العسكرية علاقة جنودها بالحادث، قائلين إنهم ليس جنودهم. فجلبوا لنا الرصاصات المستخرجة من جثث القتلى. وبدأ البحث عن الفاعلين: من هم؟ فوجدوا ثلاثة: ضابط وبرابورشيك وجندي. وأذكر أنه عندما جرى التحرّي في السرية بحثاً عن النقود والأشياء، تولَّد شعور بالمذلَّة: كيف يفتِّشون السرية بسببهم، بسبب قتلى أفغان؟ عُقدت جلسة المحكمة العسكرية. فصدر الحكم على اثنين بالإعدام رمياً بالرصاص هما البرابورشيك والجندي. وأشفق الجميع عليهما؛ فقد هلكا بسبب حماقتهما. ووُصف الحادث بأنه حماقة وليست جريمة. كما لو لم يكن لصاحب الدكان عائلة. وضع كل شيء في مكانه – هم ونحن. صديق وعدو. الآن فقط بدأت أفكر في الأمر، حين انهارت الأفكار المقولبة. علماً أنني لم أكن أستطيع قراءة قصة «مومو» لتورجينيف من دون أن أذرف الدموع!

في الحرب يحدث للإنسان شيء ما، فهو موجود وغير موجود هناك. فهل علَّمونا: لا تقتل؟ كان يأتي إلى المدرسة والمعهد المحاربون القدامى ويتحدَّثون عن كيف كانوا يقتلون. وثُبِّتت في عروة بذلات العيد لدى الجميع شارات الأوسمة والميداليات. وأنا لم أسمع مرةً من يقول إنه لا يجوز ممارسة

القتل في الحرب. وتجري محاكمة فقط من يقتل في وقت السلْم؛ فهم قتلة. أما في الحرب فالتسمية مختلفة: "واجب الابن تجاه الوطن" و"قضية الرجل المقدَّسة" و"الدفاع عن الوطن". ويوضح لنا أننا نكرر مآثر الجنود في الحرب الوطنية العظمى. وكيف يمكن أن أبدي الشك؟ وكان يُكرِّر لنا دائماً: نحن أفضل الجميع. وإذا كنا الأفضل، فلمَ إذاً نفكِّر، طالما أن كل شيء لدينا هو عين الصواب؟ وفيما بعد تأمَّلت كثيراً... بحثت عمَّن يمكن أن أحدِّثه... وقال الأصدقاء: «أنت إما جننت، أو تريد أن تجن!». أمَّا أنا، فكما ربَّتني أمِّي، إنسان نزيهٌ وقوي. ولم أرغب أبداً في التدخل في قدري....

في "معسكر التدريب" روى رجال الاستطلاع من القوات الخاصة قصصا مثيرة. قاسية وجميلة. وأردت أن أكون قوياً مثلهم، ولا أخشى شيئاً. يبدو أنني أعيش بعقدة النقص: أنا أحب الموسيقى والكتب، كما أود اقتحام قرية أفغانية، وحز رقاب الجميع والتبجُّح بذلك بيسر فيما بعد... كما كنت أعاني من الخوف برعب. انطلقنا... بدأ إطلاق النار. توقَّفت العربات. صدر الأمر: «اتخاذ موقع الدفاع!» قفزنا. ووقفت على الأرض، وحل محلي آخر وأصابته قذيفة بصورة مباشرة... أشعر بأنني أطير من العربة وأنبطح، وأنزل ببطء، كما في أفلام الكارتون. بينما أوصال جسد آخر تتساقط أسرع مني... أنا لسبب ما أطير بشكل أبطأ... والغريب في الأمر أن وعيي يسجِّل هذا كله. أظن أنه يمكن بهذه الصورة تذكُّر موتي أنا نفسي، ومتابعته... شيء ظريف. سقطت وانزلقت مثل صرصور في ترعة. استلقيت ورفعت يدي الجريحة إلى الأعلى، واتضح فيما بعد أنني أُصبت بجرح خفيف، لكنني بقيت ممسكاً بيدي ولم أتحرَّك...

كلا، لن أصبح رجلاً قوياً قادراً على اقتحام قرية، وحزِّ رأس أحد ما. بعد سنة أُدخلت المستشفى بسبب الهزال وسوء التغذية، وقد تبين أنني "الشاب" الوحيد في الفصيلة، مع عشرة "عجائز"، أنا "الشاب" الوحيد. كنت أنام ثلاث ساعات في اليوم، وأغسل الصحون للجميع، وأجهِّز الحطب

للموقد، وأنظِّف المكان. وأحمل الماء من النهر الذي يبعد مسافة عشرين متراً... أمشي في الصباح وأشعر بأنه يجب عدم مواصلة المشي: هناك لغم! لكنني كنت أخاف أن يضربوني مرة أخرى، إذ سيستيقظون ولا يجدون الماء، ولا يوجد ما يغتسلون به. لذا واصلت المشي فانفجر بي اللغم. الحمد لله انفجر لغم الإشارة. وانطلق الصاروخ وأنار المكان... فسقطت، وجلست... واصلت الزحف. يجب أن أحمل ولو دلواً واحداً من الماء، فلا يوجد حتى ما يكفي لتنظيف الأسنان... إنهم لن يستوضحوا حقيقة الأمر، وسيضربونني. لقد تحوَّلت خلال عام من فتى اعتيادي إلى إنسان مصاب بالهزال، ولم أستطع المشي عبر الردهة بدون مساعدة الممرِّضة، وأنا أتصبَّب عرقاً. رجعت إلى الوحدة، وصاروا يضربونني مرة أخرى. ضربوني بشدة مما أدَّى إلى إيذاء ساقي، فأُجريتْ لي عملية جراحية. وزارني في المستشفى قائد الكتيبة وسألني:

– «من ضربك؟».

لقد ضربوني ليلاً، ومع ذلك كنت أعرف من ضربني. لكن لا يجوز البوح باسمه، لئلا أصبح من الوشاة. هذا قانون لا أستطيع خرقه.

– «ما بك لا تتكلم؟ قل من ضربك، وسأقدِّم هذا الوغد إلى المحكمة العسكرية».

لكنني لزمت الصمت. إن السلطة الخارجية كانت عاجزة أمام سلطة حياة الجنود الداخلية. وهذه القوانين الداخلية قرَّرت مصيري، وكانت الهزيمة تلحق دائماً بمن حاول الوقوف ضدَّها. أنا رأيت ذلك، لذا لم أتدخَّل في مصيري... في نهاية الخدمة العسكرية حاولت أن أضرب أحدهم. لكنني لم أفلح في ذلك... إن نظام سيطرة الجنود القدامى – "الديدوفشينا" لا يتوقَّف على الإنسان، بل يمليه شعور الانتماء إلى القطيع. في البداية يضربونك، وفيما بعد يجب أن تضرب أنت الآخرين. وأنا أخفيت عن الذين يجري تسريحهم من الخدمة أنني لا أستطيع أن أضرب أحداً، عندئذ لاحتقرني من يَضرب

وكذلك من يُضرب. رجعت إلى الوطن، وذهبت إلى نقطة التجنيد، جُلب إلى هناك تابوت من الزنك... كان الملازم الأوّل في فصيلتنا. كُتب في تبليغ الوفاة: «لقي مصرعه لدى تنفيذ الواجب الأممي». ويومئذ تذكَّرت كيف كان يشرب الخمر ويمضي في الممر، محطّماً فكوك جنود نوبات الحراسة. كان يسلّي نفسه بهذا الشكل مرَّة واحدة في الأسبوع. وإذا لم تختبئ في مكان ما، فستبصق أسنانك... إن العنصر الإنساني في الإنسان يعادل الغرام والقطرة - هذا ما عرفته في الحرب. فإذا لم يأكل شيئاً يكون قاسياً، وإذا ما ساءت أحواله يكون قاسياً. إذاً ما هو مقدار الجانب الإنساني فيه؟ ذهبت إلى المقبرة مرَّة واحدة فقط... كُتب على شواهد القبور: "استشهد ببطولة"، و"أبدى الجرأة والبسالة"، و"نفَّذ واجبه العسكري". كان هناك طبعاً أبطال إذا ما أخذنا المعنى الضيّق لكلمة "بطل"، وعلى سبيل المثال أن يقوم في أثناء المعركة بحماية صديقه بجسده، أو أن يحمل قائده الجريح إلى مكان آمن... لكنني أعرف أن أحدنا تسمَّم بالمخدِّرات، وآخر أطلق الحارس عليه النار فأرداه قتيلاً عندما تسلَّل إلى مخزن المؤونة... نحن جميعاً تسلَّلنا إلى المخزن. وحلمنا بالحليب المركز والبسكويت. لكن لا تكتبي عن هذا... فلن يقول أحد إن هناك تحت الأرض تكمن حقيقة ما. فتُعطى الأوسمة للأحياء، وتُمنح للموتى الأساطير، والجميع بخير.

إن الحرب كالحياة هنا، كل شيء نفسه، سوى أن الوفيات أكثر... والحمد لله، لديَّ الآن عالم آخر، وأُغلق ذاك. إنه عالم الكتب والموسيقى، وهو الذي أنقذني. بدأت أتفهَّم هنا وليس هناك: أين كنت، وماذا جرى لي وفي دخيلتي؟ لكنني أفكِّر في ذلك وحيداً، ولا أرتاد النوادي "الأفغانية"، ولا أتصوَّر نفسي وأنا ذاهب إلى مدرسة لكي أتحدَّث عن الحرب، وكيف صنعوا مني، أنا الإنسان غير المتشكِّل بعد، قاتلاً أو كائناً ما يأكل وينام فقط. أنا أكره "الأفغان". إن نواديهم تشبه الجيش، لديهم أفعال الجيش ذاتها: فرقة غناء "المتيال" لا تعجبنا فهيا بنا نذهب يا شباب لنذيقهم علقة ساخنة. ولنؤدِّبْ

اللوطيين! إنه ذلك الجزء من حياتي الذي أريد الابتعاد عنه، وليس الاندماج فيه. مجتمعنا قاسٍ... ويحيا وفق قوانين قاسية. سابقاً لم ألاحظ ذلك.

حدث مرَّة في المستشفى العسكري أن سرقنا عقار فينازيبام، الذي يُستخدم في علاج المصابين بلوثة عقلية... الجرعة من حبَّة أو حبَّتين... وكان البعض يتناول عشر حبَّات، والبعض الآخر عشرين حبة... في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل يذهب أحدهم إلى المطبخ لغسل الأطباق، علماً أنها نظيفة. بينما يجلس آخرون عابسين ويلعبون بالورق... وثمة فرد ثالث قضى حاجته فوق المخدة... غير معقول تماماً! وهرولت الممرِّضة بجزع، واستدعت الحرس.

تلكم هي الحرب التي بقيت في ذاكرتي. من جانب، لا معقول تماماً.. (يصمت) ومن جانب آخر ارتكبنا أفعالاً لا ندخل بعدها الجنة...

جندي، تسديد المدفعية

أنجبت توأمين، صبيين، لكن بقي واحد منهما لدي...

كانا مسجلين معاً في معهد رعاية الأمومة، حتى سن الثامنة عشرة، أي سن البلوغ، حين استلمنا تبليغاً للالتحاق بالجيش. هل كان من الواجب إرسال مثل هؤلاء الجنود إلى أفغانستان؟ كانت جارتي على صواب حين وجهت إليَّ اللوم قائلة: «هل عجزت عن جمع ألفي روبل ودفع رشوة؟». بعضهم دفعها وأنقذ ابنه. فأرسلوا ابني بدلاً منه. ولم أكن أدرك أنه من الممكن إنقاذ ابني بالنقود، إذ كنت لأنقذه بروحي.

جئت إليه حين أداء القسم العسكري. فرأيت أنه غير مستعد للحرب، ومضطرب. كنا أنا وهو دائماً صريحين:

- «أنت غير مستعد يا كوليا. سأطلب إعفاءك».

* «ماما لا تتوسَّلي وتذلِّي نفسك. هل تعتقدين أن أي أحد مهتم بكوني غير مستعد؟ من يهتم بهذه الاشياء هنا؟».

بالرغم من ذلك أفلحت في طلب مقابلة آمر الكتيبة. فرجوته قائلة:

- «إنه ولدي الوحيد... وإذا حدث له شيء ما فلن أستطيع الحياة. وهو غير مستعد بعد. أنا أرى: إنه غير مستعد».

فأبدى تعاطفاً معي وقال: «راجعي مكتب التجنيد لديكم. وإذا ما أرسلوا لي ورقة رسمية، فسأبقيه في الاتحاد».

وصلت الطائرة ليلاً، وفي الساعة التاسعة صباحاً هُرعت إلى مكتب التجنيد. والقوميسار العسكري عندنا هو الرفيق غورياتشيف. كان يجلس ويتحدَّث بالهاتف وأنا واقفة.

- «ماذا تطلبين؟».

فرويت له الموضوع. وفي هذه الأثناء رن جرس الهاتف. رفع السمّاعة وقال:

- «لن أكتب أية أوراق».

توسّلت إليه، وجثوتُ على ركبتي. وكنت مستعدَّةً لتقبيل يده:

* «إنه ولدي الوحيد».

لكنه حتى لم ينهض من وراء الطاولة.

بدأت أنصرف ومع ذلك أتوسل:

* «اكتب لقبي...».

بقي لدي أمل بالرغم من كل شيء: ربما سيفكِّر في الأمر، وسيطالع ملف ابني، فهو لم يُخلق من حجر.

انصرمت أربعة أشهر. كانت لديهم دورات لمدة ثلاثة أشهر، وصار ابني يكتب من أفغانستان. مجرد أربعة أشهر... وصيف واحد فحسب...

في الصباح أتوجَّه إلى العمل... أنزل من السلّم إلى أسفل، وإذا بهم يقابلونني، ويحمل كل واحد منهم قبَّعته على ذراعه نصف الملتوية. وكنت أعرف بأن هذا يعني المأتم. شارة المأتم... حينئذٍ لم أنزل إلى الأسفل بل هرولت إلى الأعلى. ويبدو أنهم أدركوا بأنني الأم. فصعدوا إلى الأعلى أيضاً... ركبت المصعد وهبطت نحو الأسفل... وجب عليَّ أن أخرج إلى الشارع وأهرب! وأنقذ نفسي! لم أسمع شيئاً. لا شيء! وعندما بلغت الطابق الأول توقَّف المصعد ودخلوا؛ كانوا واقفين هناك في انتظاري. ضغطت على الزر إلى الأعلى، إلى طابقي. وسمعت كيف دخلوا... واختبأت في الحمّام. وهم ورائي... والقبَّعات على أذرعهم.

أحدهم القوميسار العسكري غوراتشيف... هجمت عليه كالقطة، بما تبقى لدي من قوة، وصرخت:

- «أنت بكامل جسدك ملطَّخ بدم ابني! أنت بكامل جسدك ملطَّخ بدم ابني!».

حقّاً، لقد لزم الصمت وأردت أن أصفعه. وبعد ذلك لا أذكر شيئاً...

أخذت أميل إلى الاختلاط بالناس بعد عام. وقبل هذا كنت وحيدة، وحيدة مثل المصابة بالجذام. ولم أكن على حق: فالناس غير مذنبين. لكنني اعتقدت يومذاك أنهم جميعاً مذنبون في مصرع ابني... البائعة في محل بيع الخبز، وهي من معارفي، وسائق التاكسي من معارفي أيضاً، والقوميسار العسكري غوراتشيف؛ كلهم مذنبون. لم أكن أريد الاختلاط بهؤلاء الناس بل بالذين هم مثلي. وقد تعارفنا في المقبرة، عند القبور. إحدى الأمهات تسرع بعد العمل في الحافلة مساء، والأخرى تجلس عند حجرها، وتبكي، والثالثة تطلي الحاجز بالطلاء. وتدور الأحاديث بيننا حول شيء واحد، حول الأبناء... نتحدَّث عنهم فقط، كما لو كانوا أحياء. وقد حفظت هذه الأحاديث في ذاكرتي.

- خرجت إلى الشرفة: وقف ضابطان وطبيب. دخلوا إلى المبنى السكني. انظر عبر ثقب الباب، إلى أين يتَّجهون؟ توقفوا عند ساحة المدخل إلى شقَّتنا. إنهم يستديرون نحو اليمين. نحو الجيران؟! ابنهم في الجيش أيضاً... رنين الجرس... أفتح الباب: «ماذا؟! هل قتل ولدي؟» - «تشجعي يا أم...».

قالوا لي فوراً: «التابوت أيتها الأم عند المدخل. أين نضعه؟». كنا نعتزم التوجُّه إلى العمل... كنا نطهو البيض على الموقد. غلاية الشاي تفور.

- أخذوه وحلقوا شعره. وبعد خمسة أشهر أعادوه في التابوت.

- وولدي بعد خمسة...

- وولدي بعد تسعة..

- سألت الذي رافق التابوت: «هل يوجد فيه شيء ما؟» فيجيبني: «أنا رأيت كيف وضعوه في التابوت. إنه هناك». فأتطلَّع وأتطلَّع إليه، فيطرق برأسه إلى الأسفل: «هناك يوجد شيء ما...».

– «وهل وجدت رائحة؟ كانت عندنا...».

– «وعندنا أيضاً. حتى أن الديدان البيض تساقطت على الأرض...».

– «وعندي لم تكن هناك أية رائحة. خشب طري. لوائح رطبة».

– «إذا احترقت المروحية، تُجمع الأشلاء. يجدون ذراعاً وساقاً... ويتعرَّفون عليهم بالساعات في الأيدي، وبالجوارب...».

– «عندنا في الباحة بقي التابوت طوال ساعة. إن طول ابنهم نحو المترين، من المظليين... جلبوا ناووساً يتألَّف من تابوت خشبي وآخر من الزنك، ولا يمكن حمله إلى داخل مسكننا... وأجهد سبعة رجال أنفسهم في حمله».

– «لقد حملوا جثمان ولدي ثمانية عشر يوماً... فهم يجمعون حمولة طائرة كاملة من "الخزامى السوداء"... في البداية نقلوها إلى الأورال ومن ثم إلى لينينغراد... وفيما بعد إلى مينسك».

– «لم يعيدوا قطعة واحدة من حاجاته. كنت أود الحصول ولو على قطعة ما للذكرى... كان يدخن، لو بقيت القدَّاحة على الأقل...».

– «حسناً إنهم لا يفتحون التوابيت... فنحن لم نرَ ماذا فعلوا بأولادنا. إنه يتراءى أمام عيني دائماً حياً، سليماً».

وهكذا نجلس حتى غروب الشمس. نشعر بالراحة هناك لأننا نتذكَّر أولادنا.

كم سنعيش؟ لا يعيش طويلاً من يكمن في نفسه مثل هذا الألم. ومثل هذه الإساءات والضيم.

وعد المسؤولون في لجنة إدارة المنطقة:

– «سنعطيك شقة جديدة. اختاروا أي مبنى سكني في منطقتنا».

وقد وجدته: من الطوب وليس من البيوت اللوحية الجاهزة، وتخطيط هندسة الشقة حديث ويمكن الوصول منه إلى المقبرة بشكل مريح. بلا حاجة إلى التغيير بين وسائل النقل. وذكرت العنوان:

- «ماذا تقولين؟ هل جننت؟ إنه المبنى السكني للجنة المركزية. لسكن النخبة الحزبية».

* «هل دم ابني رخيص إلى هذه الدرجة؟».

سكرتير اللجنة الحزبية في معهدنا رجل طيِّب ونزيه. لا أدري كيف أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب. وقد راجع المسؤولين راجياً تلبية مطلبي. قال لي فقط:

- «لو سمعت ما قالوه لي. قالوا إنها حزينة لمصابها، أما أنت فما شأنك؟ وكادوا أن يطردوني من الحزب».

كان الواجب ان أذهب بنفسي. ماذا كانوا سيجيبونني؟

- «اليوم سأزور ولدي... وسألتقي صديقتي. الرجال يقاتلون في الحرب، أما النساء فبعدها... نحن نقاتل بعد الحرب».

أم

كنت أحمق، ثمانية عشر عاماً. ماذا كنت أفهم؟ (ينشد)

من تامبوف إلى فيينا

من بوردو إلى كوستروما

تحبُّ النساء العسكريين..

إنها أغنية الفرسان... كانت تعجبني هيئتي في البزَّة العسكرية، إنها تناسبني. والرجل في البزَّة العسكرية يحظى دائماً بإعجاب النساء. هكذا كان الحال قبل مئة عام، وقبل مئتي عام. واليوم أيضاً.

حينما يعرضون مشاهد الحرب في التلفزيون لا أستطيع الابتعاد عنه. كانت تثيرني الإطلاقات، ويثيرني الموت، نعم يثيرني هذا كله. يثيرني؛ وهذا مجمل القضية. لقد جئت إلى الحرب، وأردت في الأشهر الأولى أن يقع حادث قتل أمام سمعي وبصري، وعندها سيكون في وسعي الكتابة عن ذلك إلى صديق. كنت أحمق... ثمانية عشر عاماً...

من القسم العسكري:

«... أنا مستعد دائماً بأمر الحكومة السوفيتية للدفاع عن وطني – اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، وأنا بصفتي مقاتلاً في القوَّات المسَّلحة السوفيتية أقسم على الدفاع عنه بجرأة وبكفاءة وبكرامة وبشرف، من دون أن أبخل في سبيل ذلك بدمي وحياتي من أجل تحقيق النصر الكامل على الأعداء...».

لقد بدت لي أفغانستان مثل الجنة. وسابقا كنت أرى ذلك فقط في برنامج "نادي الرحلات" في التلفزيون. بيوت طينية، وطيور غريبة. وسلاسل

الجبال. أنا لم أشاهد الجبال من قبل أبداً، والجمال... وشاهدت كيف تنمو أشجار البرتقال. إنَّ الألغام تعلق على الأشجار كالبرتقال (حين يعلق الهوائي بالغصن - يقع الانفجار)، وعرفت هذا فيما بعد. تهب رياح "الأفغاني"، فتسود العتمة والظلام ولا ترى على بعد ذراع، وأنت أعمى. يجلبون العصيدة فتجد أن الرمل يغطي نصف قدر الجندي... وبعد بضع ساعات تشرق الشمس، وترى ذرى الجبال، وتسمع صلية مدفع رشَّاش أو إطلاقة قاذفة صاروخية وطقطقة القنَّاص. عامان. رابطنا، وأطلقنا النار. وواصلنا المسيرة. ومجدَّداً - الشمس، والجبال. لمعان ثعبان يختفي تحت الرمال. بريق السمك... (يستغرق في التفكير).

في العادة أنا أتكلَّم بصورة غير سليمة؛ أعجز عن التعبير بصورة صحيحة... واليوم سأبذل كل جهدي... في المدرسة لم أكن بين المتفوِّقين، وفي الحرب لم أكن بطلاً. صبي بسيط من أبناء المدينة، نشأت في باحة البيت، ولم يكن لدى والدينا الوقت للقيام بتربيتنا. نحن نشأنا في المدرسة والباحة. لا أدري كيف أُجيب عن أسئلتك. تعوزني القدرة... أنا إنسان متوسِّط القدرات، ولم أفكِّر أبداً بالأشياء الكبيرة. وأذكر شيئاً واحداً... حتى لو صفرت الطلقات إلى جانبي، فهذا لا يعني أنك عرفت ما هو الموت. يستلقي إنسان فوق الرمل، فتدعوه. أنت لم تدرك بعد أنه الموت. ها هو ذا... لقد جرحوني في ساقي، وليس بشكل خطير. وفكَّرت: «يبدو أنني جريح». فكَّرت مندهشاً. إعفاء من الخدمة. ساقي تؤلمني، لكنني لا أصدق بعد بأن هذا قد حدث لي. فما زلت حديث العهد بالخدمة، وأريد أن أطلق النار. تناول الشبَّان سكِّيناً وقطعوا ساق الجزمة؛ فقد أُصيب الشريان. وشدوا الجديلة. أشعر بوجع لكنني لم أستطع أن أُظهر بأنني أتألَّم، عندئذ لن أحترم نفسي كرجل. فتحمَّلت الألم. وكنت أهرول من دبَّابة إلى دبَّابة كهدف مكشوف مسافة مئة متر. فكان هنا إطلاق رصاص، وهناك تساقط الأحجار، لكنني لم أستطع أن أقول إنني لن أركض أو أزحف؛ عندئذ لا أحترم نفسي... رسمت علامة الصليب وهرولت،

وترنحت... في الجزمتين دم، دم في كل مكان. واستمرت المعركة أكثر من ساعة. لقد انطلقنا في الساعة الرابعة صباحاً، بينما انتهت المعركة في الساعة الرابعة مساء، ولم نتناول خلال هذه الفترة أي طعام. وكانت يداي مخضبَّتين بدمي، ولم يقف ذلك حائلاً دون تناولي الخبز الأبيض بهاتين اليدين. وفيما بعد أبلغوني بأن صديقي تُوفِّي في المستشفى العسكري، حيث أُصيب بطلقة في رأسه. وتصوَّرت أنه ما دام قد تُوفِّي فيمكن أن يجيب أحدهم بدلاً منه في أثناء التفقد المسائي: "داشكو إيغور... استشهد لدى أداء الواجب الأممي". كان هادئ الطبع مثلي، وليس بطلاً، لم يكن يجازف في التقدُّم إلى الأمام؛ ولكن بالرغم من ذلك يجب ألا يُنسى فوراً ويشطب اسمه من القوائم. لم يتذكَّره أحدٌ فيما عداي. قرَّرت أن أودعه... كان راقداً في التابوت، وتطلَّعت طويلاً، وحَّدقت فيه، بغية أن أتذكَّره فيما بعد...

في طشقند لا توجد في الشبَّاك تذاكر سفر. في المساء اتفقنا مع الكمسارية في القطار: دفع لهم كل واحد منا مبلغ خمسين روبلاً، وركبنا وسافرنا. كنا أربعة أفراد في العربة واثنان من الكمسارية، تلقى كل واحد منهما مبلغ مئة روبل. كانا يمارسانها كتجارة. أما نحن فالأمر سواء لدينا! كنا نضحك بلا سبب، ونشعر بقرقرة في أعماقنا: "أحياء! أحياء!".

فتحت باب البيت... أخذت الدلو وذهبت لجلب الماء عبر الباحة. عبر باحتي أنا!

سُلمت لي الميدالية – المكافأة العسكرية – في المعهد. ومن ثم نُشرت مقالة في الجريدة: "الميدالية وجدت البطل". وكان ذلك مضحكاً، كما لو بحث عني مقتفو الأثر الحمر، بعد أن مضت فترة أربعين عاماً على الحرب العالمية. أنا لم أقل إننا ذهبنا إلى هناك من أجل أن تنير نجمة ثورة إبريل فوق الأرض الأفغانية، لكنهم كتبوا ذلك...

كنت قبل الجيش أهوى الصيد. كان لدي حلم بأن أنهي الخدمة العسكرية وأسافر إلى سيبيريا لممارسة الصيد هناك، والعمل كحارس غابات. كنت

أحمق... ثمانية عشر عاماً... أما الآن؟ ذهبت إلى الصيد مع صديقي، أطلقت النار على إوزة، ثم رأيتها جريحة، أسرعت نحوها... وأطلق صديقي النار. بينما أنا هرولت من أجل الإمساك بالحيوان. أنا لم أرغب في قتله.

لقد كنت صبياً... ما هي مداركي؟ لقد طالعت الكثير من الكتب العسكرية، وهناك يروى كل شيء بصورة جميلة، بينما لا يوجد لديَّ ما أتحدَّث عنه.

(كنت أعتزم الخروج. وفجأة فتح الثلاجة وأخرج منها قنينة فودكا، وسكب ملء قدح وتجرَّعه دفعه واحدة).

اللعنة على هذه الحياة! هذه الحرب! قالت زوجتي: « أنت فاشست!»، وهجرتني، وأخذت ابنتي معها. إن كل ما رويته لك هنا هو هراء! حكاية!

أنا لست خبيراً بالنساء وبناء العالم. في الحرب كنت أفكِّر: "سأعود وأتزوَّج". عدت، وتزوَّجت (يصب لنفسه الفودكا مجدَّداً). الفودكا... الكتب والفودكا... هنا يكمن سرُّ الروح الروسية، وابحثي هنا عن منابت الروح الوطنية الروسية. نحن نصدِّق الكلمات، تلك الخربشات على الورق... "أنت فاشست!" – ثم ذهبت. اللعنة على مومياءات الكرملين! لقد كانت في حاجة إلى الثورة العالمية... ولديَّ حياة واحدة... حياة واحدة! أنا أتذكَّر عيني الكلبة التي ربضت بالقرب من جندي قتيل... إيـــــــه... المومياءات الشيطانية! ليلة أمس رأيت في الحلم بشراً ينطلقون بسرعة القذائف ويتصرَّفون كالقذائف. وتساقطت القنابل... لا أعلم ما هي هذه القنابل... أنا أبصق على الحرب! الأبطال؟ الأبطال هم بشر مثل البقية: زائفون وجشعون وسكارى. لا تختلقوا الأبطال، ولا تبتدعوهم... الأفضل أن تكتبي عن الحب..؟ ماهي رائحة الحرب؟ إيـــــــه. إنها رائحة القتل، وليس الموت. (يصب المزيد من الفودكا). أنا لا أقدم الفودكا إلى السيِّدات، بينما لا يوجد لدي نبيذ، اللعنة، فأنا لا أشرب النبيذ. أشرب نخب الحب! الأفغان أنفسهم لم يخافوا الموت. إذا كان البشر لا يخافون الموت فلماذا يقتلون؟ ما مغزى ذلك؟

صبيان من ريازان، من قرى سيبيريا النائية، قررنا أنه ما دام لا توجد في بيوتهم مراحيض وأوراق تواليت (إنهم يمسحون بالحجارة) لذا فهم أدنى منزلة منا. نحن اختلقنا هذا كله، بغية أن يكون من الأيسر لنا قتلهم...

لقد رويت لها كل ذلك... ربما، عبثاً؟ طبعا، عبثاً. كان الواجب أن ألعب دور البطل... لقد رويت لها أن قتل إنسان أمر بسيط أيضاً مثل قتل بطة في أثناء الصيد. تُسدِّد السلاح وتحدِّد الهدف وتضغط على الزناد. في الفترة الأولى كنت أطلق النار وأغمض عيني، وفيما بعد أخذت أنظر. أصبحت منتشياً، وأستطيع... هيــــــــــه... أقول أردت طوال الوقت امرأة.. اللعنة، المرء لا يحزر... الإنسان يسلك في الحرب سلوكاً لا يمكن التكهُّن به. لو رجعت بطلاً لما هجرتني زوجتي. لقد هُزمنا في الحرب. وانهارت البلاد. فلماذا تحترم النساء الرجال؟ اللعنة! سكرت... عذراً، أيتها الكاتبة المدام. أردت الحقيقة؟ إليك هذه الحقيقة... من السهل أن يموت الإنسان، والحياة صعبة. لو، بمعنى... حسناً... يرقد الميت، وسقطت من جيبه رزمة صكوك. لقد كان يعتزم الحياة، الحياة الجميلة. لقد كنت أحمق... أحمق. أما الحرب... فهناك أمور جميلة كثيرة... النار جميلة. قرية تحترق؛ احترقت وهرب منها أهلها، وأطلقوا جميع الحيوانات. ثم عادوا... لا مأوى ومسكن. تهرب الحيوانات من البيوت الطينية الخربة، فيحتضنها الناس ويبكون، ويدعونها بأسمائها: «أنت حية! أنت حي!». (يحاول أن يضع القدح على المنضدة، فيسقط). كفى! قف! أب...ك، قف! عذراً، مدام! أنا أشرب - أنت ترين - أشرب. وسأشرب، حتى أنسى... أنسى الحرب، وزوجتي... أنا من الذين يشربون قليلاً. فهو يشرب، وكل ذلك قليل لديه... لقد ذهبت. لقد صبرت خمسة أعوام. كنت أجلب لها الزهور، وفي كل جيب باقة من زهور اللبن الثلجية. المبكرة جدًّا! أنا سكران... هي-هي-هي... التوابيت فيها شقوق مثل صناديق الفواكه. في الثكنة، وعلى الجدار لافتة كُتب عليها عاشت الصداقة السوفيتية - الأفغانية المتينة... هكذا! ربما، ستعود زوجتي؟ وسأترك الشرب... (يأخذ القنينة بيده). الكتاب والفودكا... سِرَّان

من الأسرار الروسية... أنا الآن أقرأ كثيراً. عندما تعيش بلا حب، يظهر كثير من الوقت. أنا لا أشاهد التلفزيون... أكاذيب! اكتبي، سيدتي.. اكتبي. لماذا تكتب النساء عن الحرب، فأين الرجال؟ كـ....! تجب معرفة الحرب... هذه المعرفة لا تنبثق من الكتب، وليس من المشاهدات، وكنت في باطني منذ وقت بعيد. من أين...

أما بشأن الحب، فأنا لا أفهم شيئاً، وبالنسبة إليَّ فالمرأة أكثر غموضاً من الحرب. ولا يوجد شيء أفظع من الحب.

جندي دبَّابات

من قال لك إن البشر لا يحبُّون الحرب؟ من قال لك ذلك؟

أنا لم أغادر أفغانستان لوحدي... مع كلبي تشارا... تصرخ به: «مت» فينبطح على الأرض. «أغمض عينيك» فيضع رجليه على بوزه وعينيه. وعندما أكون في حالة تعيسة، وكئيباً جدّاً، يجلس إلى جانبي ويبكي. في الأيام الأولى غمرتني البهجة لكوني هناك. في طفولتي كنت أعاني من المرض الشديد، ولم يأخذوني إلى الجيش. كيف هذا؟ فتى ولا يخدم في الجيش؟ شيء مخجل. سيسخر الناس مني. الجيش مدرسة الحياة، هناك تصبح رجلاً. التحقت بالجيش. وأخذت أكتب الطلبات من أجل إرسالي إلى أفغانستان.

وأخافوني:

- «ستهلك هناك خلال يومين».

* «لا، يجب أن أكون هناك». أردت أن أثبت أنني مثل الآخرين.

أخفيت عن أمي وأبي مكان خدمتي. كنت منذ سن الثانية عشرة أعاني من التهاب الغدد اللمفاوية، وهما طبعاً استدعيا جميع الأطبّاء. كتبت أنهم سيرسلونني إلى ألمانيا الديمقراطية. وأرسلت فقط رقم البريد الميداني، بزعم أن الوحدة سرية، ولا يجوز ذكر اسم المدينة.

جلبت معي غيتاراً وكلباً. وسألوني في الشعبة الخاصة:

- «كيف جئت إلى هنا؟».

* «هكذا...». وحدَّثتهم عن عدد الطلبات التي قدَّمتها.

- «غير ممكن، أن تطلب ذلك بنفسك. هل أنت مجنون؟».

أنا لم أدخِّن أبداً. وأردت أن أدخِّن.

رأيت القتلى الأوائل: السيقان مقطوعة حتى الورك، ثقب في الرأس... فابتعدت وسقطت. هكذا... البطل! وحولي رمال ورمال. لا ينمو أي نبات، باستثناء الأشواك علف الجمال. في الفترة الأولى راودتني الذكريات حول البيت وأمي، وفيما بعد تركَّزت أفكاري فقط على الماء. خمسون درجة فوق الصفر، والجلد يذوب على الرشَّاش. كنت أسير ويداي محترقتان تكسوهما الحمرة. والذكريات الجميلة... وسوسة الشيطان! كيف سافرت إلى الاتحاد في إجازة وتمتَّعت بتناول الآيس كريم في بلعومي لحد الخدر... وبعد المعركة رائحة شيء محترق... بينما يقال: "الروح! الروح!". في الحرب الروح شيء مجرَّد، وهناك يتحوَّل الإنسان إلى وضع آخر. أحلام ثقيلة. وكنت أستيقظ دائماً لدى سماع قهقهة شديدة وحشية. وأحياناً حتى يدعوني أحدهم باسمي... فأفتح عينيَّ وأتذكَّر: الحرب! أنا في الحرب! صباحاً، الفتيان يغتسلون، ويحلقون ذقونهم... مزحات، وهزليات ودعابات مثل: سكب الماء في سراويل أحدهم... أما في أثناء العمليات العسكرية فإن الحلم قصير - ساعتان أو ثلاث ساعات، ولعل أفضل شيء هو انضمامك إلى مفرزة في مطلع الليل، ففي الصباح تتمتَّع بنوم ثقيل جدّاً. ومن واجب النوبة الصباحية أن تعد الشاي. وفي أثناء المسيرة يطبخ الطعام على النار. ووجبة الأكل الباردة في أثناء المسيرة تتألَّف من علبتي لحم بوزن مئتي غرام، وعلبة صغيرة من معجونة الكبد، وكعك أو بسكويت، وعبوتين صغيرتين من السكَّر (كما في القطار) وكيسين من الشاي. ونادراً ما يُعطى اللحم المقدَّد، بحساب علبة واحدة لعدة أفراد. وإذا ما ارتبطت بعلاقة صداقة مع أحد فتسخِّن العصيدة في قدره وتعد الشاي في قدرك لاثنين.

في الليل أخذ أحدهم بندقية قتيل، لقد عثر عليه أحد جنودنا. باعه في دكَّان بمبلغ ثمانين ألف أفغاني. وأرانا المشتريات: جهازا مسجل، وملابس جينز. وكدنا أن نقتله ونقطعه إرْباً إرْباً بأنفسنا؛ لكنه وضع تحت الحراسة. وجلس في المحكمة صامتاً. وبكى. وكتبوا في الصحيفة عن "المآثر". وقد

أثار ذلك غيظنا. وثمة لغز: رجعت إلى الوطن، وانصرم عامان، وأنا أقرأ الصحف، وأبحث عن "المآثر" - وأصدِّقها.

لقد بدا لي هناك أنني سأعود إلى الوطن وأغيِّر كل شيء في حياتي، أبدِّله. الكثيرون يعودون ويطلِّقون زوجاتهم، ويتزوَّجون من جديد، ويسافرون إلى مكان ما. البعض إلى سيبيريا لمدِّ خطوط أنابيب النفط، والبعض الآخر يعمل في فرق إطفاء الحرائق. إنهم يذهبون إلى المكان حيث توجد مخاطرة ومجازفة. ولا يرضيهم الوجود بدلاً من الحياة. رأيت هناك فتياناً أُصيبوا بحروق... يكونون في البداية بلون أصفر، وعيونهم برَّاقة، ومن ثم ينسلخ الجلد ويصبحون بلون وردي... تسلُّق الجبال؟ يتم ذلك كالآتي: تحمل الرشَّاش، وهو شيء مفروغ منه، ومخزنين من الذخيرة، نحو عشرة كيلوغرامات من الرصاص، بالإضافة إلى لغم لكل فرد، وهذا يعادل عشرة كيلوغرامات أخرى، والسترة الواقيةِ من الرصاص، ووجبة الطعام الباردة. عموماً يُعلَّق بجسمك من الأنحاء كافَّةً ما يعادل أربعين كيلوغراماً، إن لم يكن أكثر. وكنت أشاهد أمامي إنساناً مبلَّلاً بالعرق، كما لو أنه وقع تحت وابل المطر. وشاهدت قشرة برتقالية على وجه قتيل برد... هو برتقالي لسبب ما... ورأيت الصداقة، والجبن، والضعة، لكن أرجو أن لا تحكمي على الناس كيفما اتفق... يجب التزام الحذر هنا... كثيرون الآن، كثيرون يشتمون ويلومون... لماذا لم يضع بطاقته الحزبية؟ لماذا لم يطلق رصاصة على جبينه، حين كنا هناك؟ وأنت؟ ماذا فعلت وأنت كاتبة معروفة حين كنا هناك؟ (يريد إنهاء الحديث، لكنه يعدل عن ذلك). أنت أَلَّفتِ كتاباً... نعم؟ وشاهدتِ التلفزيون...

رجعت... خلعت أمي عني ملابسي كالطفل الصغير وفحصت جسمي كله: «سليم الجسم يا حبيبي». في الظاهر سليم وفي الباطن محترق. كنت أجد كل شيء سيِّئاً: الشمس الساطعة، سيِّئة. والأغنية المرحة سيِّئة. وضحك أحدهم سيِّئ. كنت أخشى البقاء وحيداً في البيت، وأنام وعيناي نصف

مغمضتين. بينما توجد في غرفتي الكتب ذاتها والصور وجهاز التسجيل والغيتار ذاتها. وفقط أنا أصبحت شخصا آخر... لا، لا أستطيع المرور عبر المتنزَّه - التفت ورائي. في المقهى يقف النادل وراء ظهري: «اطلب». بينما أنا مستعدٌّ للنهوض والهرب، فأنا لا أتحمل أن يقف أحد ما وراء ظهري. وعندما أقابل شخصاً دنيئاً تراودني فكرة واحدة: "أقتله!". هناك كان في وسعي الاقتراب من أي أحد وذبحه كالدجاجة، لكن الحرب تشطّب على كل شيء. هناك كان يمكن أن أفعل عكس ما تُمليه الحياة السلْمية. أما هنا فيجب نسيان جميع المهارات المكتسبة في الحرب. أنا أجيد إطلاق النار بامتياز، أُحسن رمي القنابل اليدوية. فمن يجب أن يقوم بهذا هنا؟ بدا لنا أن هناك من يجب الدفاع عنه. نحن هناك دافعنا عن الوطن، وعن حياتنا. أما هنا فالصديق لا يستطيع أن يقرضك ثلاثة روبلات لأن زوجته لا تسمح بذلك. فأي صديق هو إذاً؟

لقد أدركت: لا أحد يحتاج إلينا في الوطن. ولا يحتاج أحد إلى معرفة معاناتنا هناك. هذا نافل، وغير مريح. ونحن نافلون، غير مريحين. فور عودتي من أفغانستان عملت ميكانيكياً في ورشة لتصليح السيَّارات، ومرشداً في لجنة الكمسمول في المنطقة. وتركت العمل. في كل مكان مستنقع آسن. الناس مشغولون في كسب المال، والبيوت الريفية، والسيَّارات، والنقانق المقدَّدة. ولا يهتمُّ بنا أي أحد. وإذا لم ندافع عن حقوقنا، تصبح هذه الحرب مجهولة. لو لم يكن عددنا كبيراً بهذا القدر، مئات الآلاف، لسكتوا كما فعلوا عندما سكتوا عن فيتنام ومصر... هناك كرهنا سوية "الأشباح". فمن أكره الآن، من أجل أن يكون لدي أصدقاء؟

ذهبت إلى مكتب التجنيد، وطلبت إرسالي إلى "نقطة ساخنة" ما... فتبين أن أمثالي هناك كثيرون - ممن سلبت الحرب أدمغتهم.

في الصباح أستيقظ وأنا مسرور، إذا لم أتذكَّر الأحلام. إنني لا أروي أحلامي إلى أي أحد، لكنها تعود إليَّ. الأحلام ذاتها...

أرى في الحلم أنني نائم وأرى بحراً كبيراً من البشر... الجميع بالقرب من بيتنا... ألتفت، وأشعر بالضيق، لكنني لسببٍ ما لا أستطيع النهوض. وعندئذ أدرك أنني أرقد في تابوت... تابوت خشبي بدون غلاف من الزنك. أذكر هذا جيِّداً. لكنني حي، أذكر، حي، لكنني أرقد في تابوت. وتفتح البوَّابة ويخرج الجميع إلى الطريق، يحملونني إلى الطريق. حشود الناس، تبدو على وجوههم جميعاً علامات الحزن بالمصاب وكذلك بهجة خفية ما... غير مفهومة بالنسبة إليَّ...ماذا حدث؟ لماذا أنا في التابوت؟ وفجأة توقَّفت المسيرة وسمعت من يقول: «هاتوا المطرقة». وعندئذ وردت في ذهني فكرة أنني أرى حلماً... وكرَّر أحدهم مرَّة أخرى «هاتوا المطرقة». وسمعت كيف أغلق فوقي الغطاء وصوت المطرقة، وانغرس مسمار في إصبعي. وأخذت أدق الغطاء برأسي وقدمي. فانفتح الغطاء، وسقط. وتطلَّع الناس – وأنا نهضت، نهضت حتى مستوى الحزام. وأردت أن أصرخ: هذا يوجعني، لماذا تغلقون عليَّ الغطاء بالمسامير؟ أنا لا أستطيع التنفُّس هناك. لكنهم يبكون، ولا يقولون لي شيئاً. إنهم صمٌّ بكمٌ جميعاً. وعلى وجوههم علامات البهجة، البهجة الخفية... إنها لا تُرى.. أما أنا فأراها، وأحدس بوجودها. ولا أدري كيف أتحدَّث معهم من أجل أن يسمعوني. يبدو لي أنني أصرخ، وشفتاي ملصقتان ولا أستطيع فتحهما. وعندئذ استلقيت مجدَّداً في التابوت. كنت راقداً وأنا أفكِّر: إنهم يريدون أن أموت، ربما أنا ميت فعلاً، ويجب التزام الصمت. ومرَّة أخرى قال أحدهم: «أعطوني المطرقة...».

جندي في سلاح الإشارة

اليوم الثالث

«لا تعاشر من يتحدَّث إلى الأموات،
ولا تذهب إلى السحرة...»

1 فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.
2 وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ.
3 وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ.
4 وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ.
5 وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْماً وَاحِداً.
6 وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ».
7 فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ.
8 وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.
9 وَقَالَ اللهُ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ». وَكَانَ كَذلِكَ.

10 وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.

11 وَقَالَ اللهُ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ.

12 فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.

13 وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

(العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الأول)

عمَّ أبحث في الكتاب المقدَّس؟ عن الأسئلة أم الأجوبة؟ أية أسئلة وأية أجوبة؟ كم من الإنسانية يوجد في الإنسان؟ البعض يعتقد: كثير، والبعض الآخر يؤكِّد: قليل. وينكشف وحش تحت طبقة الحضارة الرقيقة. إذاً كم؟

كان في وسع بطلي الرئيس مساعدتي... لكنه صمت منذ وقت بعيد.

بغتة رنَّ جرس الهاتف في المساء:

– كان كل شيء سخيفاً. نعم. هكذا يتَّضح لي. أتفهمين ما يعني ذلك بالنسبة إليَّ؟ بالنسبة إلينا؟ لقد توَّجهت إلى هناك فتى سوفيتياً عادياً. الوطن لن يخوننا! الوطن لن يخدعنا! لا يجوز منع المجنون من أن يكون مجنوناً.

بعضهم يقولون إننا خرجنا عن الأعراف، وبعضهم يقولون نحن من القمامة. ليأخذ الطاعون أولئك وهؤلاء! أنا أريد أن أعيش! أريد أن أحب! وسيولَد لي قريباً ولدٌ، وسأسمِّيه أليشكا – وهو اسم صديقي الذي قُتل. وبعد ذلك ستولد صبية، أريد ابنةً أيضاً، وسأسمِّيها اليونكا...

نحن لم نكن جبناء! لقد خدعناكم! حسناً، كفى! لن أهتف بعد هذا... إن هذه القصة اختُتِمت بالنسبة إليَّ. أنني أخرج منها... لن أنتحر ولن أقفز من الشرفة ورأسي إلى الأسفل.

أريد أن أعيش! وأن أحب! أنا خُلقت من جديد... في أول مرَّة هناك، في الحرب، والثانية هنا. كفى! وداعاً!

وضع سمَّاعة الهاتف.

واصلت الحديث معه فترة طويلة... وكذلك واصلت سماعه...

المؤلفة

علِّقوا فوق القبور لوحات، وانقشوا في الحجر، أنَّ كل شيء كان عبثاً!
وانقشوا على الأحجار كي تبقى على مرِّ القرون...

كنا نقاتل هناك، بينما قدَّمونا إلى المحاكم هنا. جلبوا الجرحى إلى الاتحاد وأنزلوهم في أطراف المطار بغية ألا يراهم الشعب. لم يعرف... لم يفكر أحدٌ منكم لماذا يعود الشبَّان بعد الخدمة في الجيش إلى الحياة السلْمية حاملين وسام النجمة الحمراء وميداليات "لقاء الشجاعة" و"لقاء الخدمات في القتال". إنهم يجلبون التوابيت والمعوَّقين. لم يطرح أحدٌ هذه الأسئلة. أنا لم أسمع... أنا سمعت شيئاً آخر... عدت في عام 1986 في إجازة، فسألوني: هل تستجمُّون هناك تحت أشعة الشمس، وتصيدون الأسماك، وتكسبون أموالاً طائلة؟ كانت الصحف تلتزم الصمت أو تكذب. والتلفزيون أيضاً. الآن يكتبون أننا محتلُّين. لو كنا محتلِّين فلماذا أطعمناهم، وقدَّمنا لهم الأدوية؟ ندخل إلى قرية ما، فيفرحون لقدومنا... نخرج، فيفرحون أيضاً... وهكذا لم أفهم، لماذا كانوا يفرحون دائماً؟

تسير حافلة في الطريق؛ نساء وأطفال، يجلسون حتى على السقف. توقَّف: تدقيق الهويَّات! تنطلق رصاصة من مسدَّس - فيسقط أحد رجالي ووجهه نحو الرمل... نقلبه على ظهره فنجد أن الرصاصة أصابت قلبه. كنت حينئذٍ مستعداً لإبادتهم بالقاذفة الصاروخية جميعاً. فتَّشناهم - لم نجد مسدَّساً أو أي سلاح آخر. كانت هناك سلال فيها فواكه وأباريق شاي نحاسية للبيع. كان هناك في الحافلة نساء فقط وكذلك الصبيان، كالفراخ. بينما رفيقي المقاتل سقط ووجهه على الرمل...

علّقوا فوق القبور اللوحات، واحفروا النقوش على الأحجار، بأن هذا كله كان عبثاً!

كنا نسير كعادتنا، وخلال عدة لحظات فقدت القدرة على الكلام بسبب شعور داخلي ما... أردت أن أصرخ: «قف». ولم أستطع. وواصلت السير... وميض! خلال فترة، لحظة خاطفة، فقدت الوعي، ومن ثم وجدت أنني في قاع حفرة ما. زحفت. لم أشعر بألم... فقط لم تكن لدي قوة على الزحف، والجميع لحقوا بي... زحفت أربعمئة متر، ومن ثم قال أحدهم: «لنجلس. نحن في أمان». أردت أن أجلس مثل الآخرين، وعندئذ فقط لاحظت أنني بلا ساقين... سحبت الرشّاش وأردت الانتحار! فانتزعوه مني. وقال أحدهم: «الرائد بلا ساقين.. أنا آسف على الرائد...». وحالما سمعت كلمة "آسف" غمر الألم جسدي كله... ألم فظيع، جعلني أبدأ بالعويل...

ما زلت حتى الآن أحتفظ بعادة السير في الطريق فقط. فوق الإسفلت. أنا لا أمشي في الدروب المطروقة في الغابة... وأخاف السير فوق العشب. ثمة عشب ربيعي غض قرب بيتنا، وأنا أخاف بالرغم من كل شيء.

وضعونا نحن الذين فقدنا سيقاننا في ردهة واحدة في المستشفى العسكري. كان عددنا أربعة أشخاص. ووُضعت بالقرب من كل سرير ساقان اصطناعيتان من خشب، وعددها إجمالاً ثمان سيقان خشبية... في 23 فبراير، في عيد الجيش السوفيتي، جاءت معلّمة مع تلميذاتها من الصبايا وقدّمن لنا الزهور. والتهنئة. وقفن وانخرطن في البكاء. وخلال يومين لم يتناول أي أحد منا الطعام. ولزمنا الصمت.

زارنا قريبٌ لواحد منا، وأطعمنا التورتة:

– «كان كل شيء عبثاً، يا شباب! عبثاً! لكن لا بأس. سيعطونكم معاشاً تقاعدياً، وستقضون النهار كله في مشاهدة التلفزيون».

فطارت أربعة أطراف صناعية نحوه:

* «لتذهبْ إلى جهنم!».

نزعت من رقبة أحدهم في المراحيض الأنشوطة... إذ لف رقبته بالشرشف وأراد أن يشنق نفسه من مقبض النافذة... كان قد تلقّى رسالة من فتاته جاء فيها: «أتعرف؟ لم يعد "الأفغان" موضة». كما أنه بلا ساقين.

علِّقوا على القبور لوحات، وانقشوا على الحجر أن كل شيء جرى عبثاً! وقولوا ذلك للأموات...

رائد، آمر سرية مشاة جبلية

رجعت من هناك وقد غمرني شعور بأنني يجب أن أجلس طويلاً أمام المرآة وأمشِّط شعري...

أريد أن ألد طفلاً، وأن أغسل الأقمطة، وأسمع بكاء الطفل. لكن الأطبَّاء لم يسمحوا لي بذلك: «لن يتحمَّل قلبك هذا الإجهاد». فلم أصغِ إلى كلامهم... وأنجبتُ طفلتي بصعوبة بالغة، أجروا لي عملية قيصرية، بسبب النوبة القلبية. تلقيت في المستشفى رسالة من صديقتي: «لن يفهم أحد، أننا رجعنا مرضى. وسيقولون: لكن هذه ليست بالجروح».

ربَّما لن يصدِّق أحدٌ الآن كيف بدأ كل شيء بالنسبة إلي... في ربيع عام 1982، استدعوني، كنت طالبة دراسة خارجية في الجامعة (كنت أدرس في السنة الثالثة في كلية الآداب)، إلى مكتب التجنيد:

– «ثمة حاجة إلى ممرضات في أفغانستان. ما رأيك؟ ستحصلين هناك على راتب ونصف راتب شهرياً. بالإضافة إلى الصكوك».

* «لكنني أدرس».

بعد التخرُّج من المعهد الطبِّي عملت كممرِّضة، لكنني كنت أحلم بممارسة مهنة جديدة، أردت أن أصبح معلمة. البعض يجدون فوراً مهنتهم، أما أنا فقد أخطأت.

– «هل أنت عضو في الكمسمول؟».

* «نعم».

– «فكِّري في الأمر».

* «أريد أن أدرس».

- «ننصحك بالتفكير. وإلا فسنهتف إلى الجامعة ونقول أية عضو في الكمسمول أنت. الوطن يطلب».

كانت إلى جواري في الطائرة من طشقند إلى كابُل فتاة عائدة من فترة الإجازة: «هل جلبت معك مكواة؟ لا؟ وموقداً كهربائياً؟».

* «أنا ذاهبة إلى الحرب».

- «آه، حمقاء رومانسية أخرى! انغمرت في مطالعة الكتب عن الحرب...».

* «أنا لا أحب الكتب عن الحرب».

- «لماذا أنت ذاهبة إلى هناك إذاً؟».

إن كلمة "لماذا" اللعينة هذه ستلاحقني طوال العامين.

حقاً - لماذا؟

إن ما يُسمَّى معسكر الترحيل يتألَّف من صفٍّ من الخيام. في الخيمة "المطعم" كانوا يقدِّمون عصيدة الحنطة السوداء الشحيحة في الأسواق ومجموعة فيتامينات "أونديفيت".

سألني ضابطٌ مُسنٌّ:

- «أنت فتاة جميلة، فماذا تفعلين هنا؟».

فانهمرت الدموع من عينيَّ.

- «من أساء إليك؟».

* «أنت أسأت إليَّ».

- «أنا؟!».

* «أنت الشخص الخامس الذي يسألني اليوم: لماذا أنا هنا؟».

سافرت بالطائرة من كابل إلى كندوز، وسافرت بالمروحية من كندوز إلى فايز آباد. وكان كل من تحدَّثت معهم عن فايز آباد يقولون: ماذا تفعلين؟ هناك يطلقون النار، ويقتلون، باختصار - وداعاً! تطلَّعت إلى أفغانستان من الجو،

بلاد جميلة كبيرة: جبال، كما عندنا، وأنهار جبلية، كما عندنا (زرت القوقاز) وآفاق واسعة، كما عندنا. فأحببتها!

في فايز آباد عملت ممرِّضة مساعدةً للجرَّاحين. ومحل عملي صالة الجراحة. كانت الكتيبة الطبِّية كلها ترابط في الخيام. كنا نمزح ونقول: «أنزل قدميك من السرير تجد نفسك في محل عملك». أوَّل عملية جراحية كانت جرحاً في الشريان الترقوي لدى أفغانية عجوز. أين ماسكات الأوعية الدموية؟ لم تكن الماسكات كافية. فكنت أضغط عليها بأصابعي. وثمَّة حاجة إلى مادة الدرز. فأمسك بكرة خيوط الحرير، ثم أخرى، فتتحول إلى تراب فوراً. يبدو أنها كانت في مستودعات الجيش منذ أيام الحرب الماضية، منذ عام 1941.

لكننا أنقذنا الأفغانية. في المساء أتيت مع الجرَّاح إلى المستشفى لمعرفة حالتها. كانت راقدة بعينين واسعتين، وشاهدتنا... حركت شفتيها... وظننت أنها تريد قول شيء، والإعراب عن امتنانها. لكنها أرادت أن تبصق علينا. آنذاك لم أفهم أنه لديها الحق في الحقد. ولسببٍ ما كنت أنتظر منهم المحبة. وقفت كالحجر: نحن ننقذهم، وهي...

كان الجرحى يُنقلون بواسطة المروحيات. وحالما أسمع هدير المروحية كنت أسرع إليها.

ميزان الحرارة يشير إلى خط الأربعين. أربعون درجة فوق الصفر! وأحياناً كانت تصل إلى خمسين درجة، الجو خانق في صالة الجراحة. كنت بالكاد أستطيع مسح العرق بالمنديل من على وجوه الجراحين الواقفين فوقَ الجروح المفتوحة. يسمح بعض الأطبَّاء "غير المعقمين" بسقيهم الماء بواسطة أنبوب القطارة الممدود تحت القناع. كان ينقصنا كميات من الدم. فيتم استدعاء أحد الجنود، فيستلقي فوراً على الطاولة ويتبرَّع بالدم. طبيبان جرَّاحان... وطاولتان... بينما أنا الممرِّضة الجراحية الوحيدة. قام بدور المساعدين الأطبَّاء المختصُّون بالأمراض الباطنية؛ وهم لا يفقهون شيئاً

في التعقيم. وأنا أترنَّح بين الطاولتين. وفجأة ينطفئ المصباح فوق إحدى الطاولتين. فيقوم أحدهم باستبدال المصباح بالقفازات المعقمة.

- «اخرج من هنا!».

* «ماذا تقول؟».

- «أخرج!».

ويرقد على الطاولة شخص وقفصه الصدري مفتوح...

- «اخرج!!!».

ويحدث أحياناً أن نقف يوماً كاملاً وراء طاولة الجراحة، وأحياناً يومين كاملين حتى. فمرَّة يجلبون الجرحى من ساحة القتال، ومرَّة أخرى من يُطلقون النار على أنفسهم - بإطلاق النار على الركبة أو إصابة أصابع اليد بجروح عن قصد. بحر من الدماء... كان ينقصنا القطن...

علماً أن الذين يطُلقون على أنفسهم النار مُحتقَرون. وحتى نحن ذوي المهن الطبِّية كنا نشتمهم. وأنا كنت أعنِّفهم قائلة:

- «الفتيان يلقون مصرعهم، وأنت تريد العودة إلى ماما؟ يجرح ركبته، ويجرح إصبعه، آملاً في إعادته إلى الاتحاد؟ لماذا لم تُطلق النار على صدغك؟ لو كنت مكانك لأطلقت النار على صدغي».

أقسم أنني كنت أقول ذلك! عدت إلى الوطن... وسألني شاب من معارفي بصرامة:

- «ماذا تعتقدين؟ هل يجب علينا أن نكون هناك؟».

فأجبته غاضبة:

* «لو لم نكن نحن لكان الأمريكيون هناك. نحن أمميون».

كما لو كنت أستطيع البرهان على ذلك بشكل ما.

أمر عجيب، قلما كنا نفكِّر هناك. رأينا فتياننا وقد أصابتهم الجروح والحروق. رأيناهم وتعلَّمنا الحقد. لكننا لم نتعلَّم كيف نفكِّر. ركبت

المروحية. توقَّفت أنفاسي لدى مشاهدة ذلك الجمال! الصحراء لها رونقها، والرمل ليس ميتاً، فهو يتحرَّك، ويحيا. انداحت أمام البصر الجبال المغطاة بزهور الخشخاش الحمراء أو زهور أخرى لا أعرفها، ولكنني لم أستطع مواصلة التمتُّع بهذا الجمال. لم أستطع بملء قلبي. أعجبني أكثر شهر مايو بقيظه اللاهب، حينما كنت أنظر إلى الأرض الجرداء والجافة بشعور من الارتياح للانتقام: هذا حتفكم. نحن نقتل ونتعذَّب بسببكم. كنت مترعة بالحقد!

لا أذكر الأيام، وأذكر الجروح؛ جروح الإصابات بالرصاص، والجروح الناجمة عن انفجار الألغام... تحطُّ المروحيات ثم تحطُّ باستمرار. الجرحى يُحملون على النقَّالات.. إنهم يرقدون فوقها، وتغطِّيهم الشراشف، وتزحف عليها بقع حمراء.

أعتقد... وأسألك... لماذا أتذكَّر فقط الأمور الفظيعة؟ فقد كانت هناك صداقات، ومساعدة متبادلة. وكانت هناك بطولات. ربما تعيقني تلك الأفغانية العجوز؟ نحن أنقذناها بينما أرادت أن تبصق في وجوهنا... فيما بعد علمت أنها نقلت من قرية مرَّ بها رجال القوَّات الخاصَّة، ولم يبقَ هناك على قيد الحياة أي أحد -فيما عداها- من القرية كلها. وعلمنا أنه أُطلقت النيران من تلك القرية وأُسقطت مروحيتان لنا، وأجهز أهلها بالمذار على رجال المروحيات الذين التهمتهم النيران... إذا تأمَّلنا حتى النهاية، تلك النهاية... لما فكَّرنا: من الأول - ومن الأخير؟ لقد أشفقنا فقط على أبناء جلدتنا...

أُرسل أحد الأطبَّاء لمرافقة وحدة في مهمَّة قتالية. وفي أول مرَّة عاد، وبكى: «لقد علّموني طيلة حياتي أن أعالج وأشفي. أما اليوم فقد قتلت... لماذا قتلتهم؟».

وبعد شهر حلَّل مشاعره بهدوء:

- «المرء يبدأ بإطلاق النار ويتملَّكه الهياج والحماس: هاك، خذ!».

كانت الجرذان تهاجمنا في الليل، وكنا نشدُّ الأسِرَّة بحجاب من الشاش. كان الذباب بحجم ملعقة الشاي. واعتدنا على الذباب. لا يوجد حيوان قنوع أكثر من الإنسان. لا يوجد!

كانت الفتيات تجففن العقارب للذكرى. لقد كانت مكتنزة وكبيرة و"تجلس" على الدبابيس أو تُعلَّق على الخيوط، مثل القلائد. بينما كنت أمارس "الحياكة". فآخذ من رجال المروحيات حبال المظلات وأفك خيوطها وأعقمها. كنا نستخدم هذه الخيوط في خياطة الجروح. جلبت في إجازتي حقيبة كاملة من الإبر والماسكات ومواد الخياطة. مجنونة! جلبت مكواة بغية ألا أجفف الروب المبلل على جسدي في الشتاء. وجلبت كذلك موقداً كهربائياً.

في الليل كنا جميع الموجودين في الخيمة نعِدُّ الكرات القطنية ونغسل ونجفِّف مناديل الشاش. نعيش كأسرة واحدة. كنا نحدس بأننا بعد عودتنا سنكون من الجيل الضائع. وبشراً لا لزوم لهم. وعندما بدأ قدوم عاملات التنظيف ومأمورات المكتبات ومديرات الفنادق أبدينا في بادئ الأمر دهشتنا: فما الحاجة إلى عاملة تنظيف صالتين أو مأمورة لمكتبة تضم عشرين كتاباً بالياً؟ ما الحاجة إلى آلاف النساء في هذه الحرب؟ لأي غرض؟ حسناً، أتفهمين؟ إنني لن أوضح المسألة بلباقة المثقَّفين، وبلغة أدبية، بل بلغة بسيطة ولشخص واحد فقط، لكي لا يغتاظ الرجال... نحن كنا نبتعد عن هؤلاء النساء، بالرغم من أنهن لا يتحملن أي ذنب حيالنا.

هناك وقعت في الحب... كان لدي حبيب، وهو حي يُرزق الآن أيضاً. لكنني خدعت زوجي عندما تزوَّجت وقلت له إن الرجل الذي أحببته قُتل. لكنهم لم يقتلوه، بل نحن قتلنا حبَّنا...

سألوني في البيت: هل التقيت "شبحاً" حيَّاً؟ هو طبعاً له وجه قاطع طريق ويحمل خنجراً بين أسنانه؟

– «نعم التقيت. كان شاباً وسيماً. تخرَّج من المعهد التكنولوجي في موسكو».

بينما تصوَّر أخي الأصغر أنه شخص يشبه أحد أبطال رواية "حجي مراد" لتولستوي.

* «لماذا عملت ليومين أو ثلاثة أيام؟ كان في وسعك العمل لثماني ساعات والذهاب للراحة».

- «ما هذا القول؟! أنتم لا تفهمون!».

إنهم لا يفهمون! أنا أعرف أنني لم أكن ضرورية في أي مكان، كما كنت هناك. أنا أذهب إلى العمل، وأقرأ الكتب، وأغسل الملابس. وأستمع إلى الموسيقى. لكن لا يوجد هنا مغزى للحياة الذي كان هناك. الجميع هنا بنصف جهدهم... وبنصف صوتهم.

ممرِّضة

أنجبت صبيين، صبيين عزيزين.

شبَّا: أحدهما كبير، والآخر صغير. الأكبر ساشا يلتحق بالجيش، أما يورا الأصغر ففي الصف السادس.

- «ساشا، إلى أين يرسلونك؟».

* «سأذهب إلى أين يرسلني الوطن».

وقلت للأصغر: «انظر، يورا، أي أخ لديك!».

وردت رسالة التجنيد. فهرع إليَّ يورا بالرسالة:

- «هل سيرسلون ساشا إلى الحرب؟».

* «يا بني، في الحرب يقتلون البشر».

- «ماما، أنت لا تفهمين. سيعود حاملاً ميدالية: "القاء الجرأة"».

في المساء كان يلعب في الباحة مع رفاقه لعبة قتال "الأشباح":

- «تا-تا..تا-تا.. تا-تا...». (مقلداً صوت إطلاق النار).

يعود إلى البيت:

- «ماما، ماذا تعتقدين؟ هل ستنتهي الحرب قبل أن أبلغ سن 18 عاماً؟».

* «أود أن تنتهي قبل ذلك».

- «لقد حالف الحظ ساشا - سيكون بطلاً. أتمنى لو أنك ولدتني قبله».

جلبوا حقيبة ساشا، وفيها سروال سباحة أزرق، وفرشة أسنان، وقطعة صابون مستعملة وعلبة الصابون. وشهادة التعرُّف على شخصه.

- «توفي ابنكم في المستشفى العسكري».

اختنقت العبرات في حلقومي كصفيحة... وكلماته: «سأذهب إلى حيث يأمرني الوطن... سأذهب إلى حيث يأمرني الوطن...».

جلبوا وحملوا الصندوق كما لو كان فارغاً لا يوجد فيه شيء.

عندما كانا صغيرين كنت أدعو: ساشا! فيهرول الاثنان إليَّ، وأدعو يورا!
- فيلبِّي النداء أحدهما وراء الآخر.

جلست طوال الليل وأنا أدعو:

- «ساشا!» - لكن الصندوق كان صامتاً، الصندوق ثقيل، من الزنك. رفعت عينيَّ في الصباح - فرأيت ابني الأصغر. «يورتشكا، أين كنت؟».

* «ماما، حين تصرخين أود الهرب إلى أقاصي الأرض».

اختبأ لدى الجيران. وهرب من المقبرة، وبالكاد عثرنا عليه.

جلبت المكافآت الحكومية لساشا: وسامان وميدالية "لقاء الجرأة".

- «يورا، انظر أية ميدالية!».

* «ماما، أنا أراها ولكن ساشا لا يراها...».

انصرمت ثلاثة أعوام، بلا ولدي، ولم أره في الحلم ولا مرة واحدة. أضع سراويله تحت الوسادة، وكذلك قميصه:

- «تعال إلي، يا ولدي، في الحلم. تعال للقائي».

لكنه لا يأتي. أي ذنب ارتكبته في حقه؟

أرى من نافذة بيتنا المدرسة وباحة المدرسة. الأطفال يلعبون هناك لعبة القتال ضد "الأشباح". وأسمع فقط:

- «تا-تا..تا-تا..تا-تا...».

أستلقي في الليل في الفراش وأتوسَّل قائلة:

- «تعال إليَّ، يا ولدي، في الحلم. تعال للقائي».

في إحدى المرَّات رأيت في الحلم التابوت... ثمة كوة كبيرة في مكان

الرأس... انحنيت لتقبيله. لكن من يرقد هناك؟ إنه ليس ولدي. جسد ما أسود، صبي أفغاني ما، لكنه لا يشبه ساشا. في البداية فكَّرت في أنه قتل ولدي... وفيما بعد أدركت أنه ميت، وأن أحدهم قتله. انحنيت وقبلت عبر الزجاج.. فاستيقظت برعب: أين أنا؟ ماذا حدث لي؟ من جاء؟ وبأي خبر؟

أم

سنتان... شبعت وتخمت... النسيان... مثل كابوس! أنا لم أكن هناك! لم أكن!

ومع ذلك كنت هناك...

أنهيت دراستي في المعهد العسكري... بعد أن قضيت فترة الإجازة المقرَّرة وصلت إلى موسكو في عام 1986، وكما ورد في التبليغ، جئت إلى مقر مؤسسة عسكرية مهمة، لم يكن من السهولة إيجادها. ولجت مكتب منح تصاريح الدخول، وأدرت ثلاثة أرقام الهاتف. فأجابوني على الطرف الآخر للخط:

– «العقيد سازونوف على الخط».

* «أحيِّيك أيُّها الرفيق العقيد! لقد جئت تنفيذاً لأمركم. أنا في مكتب منح تصاريح الدخول».

– «آه، أعرف، أعرف... أنت تعرف إلى أين سيرسلونك؟».

* «إلى جمهورية أفغانستان الديمقراطية. وحسب المعطيات الأولية، إلى مدينة كابُل».

– «هل هذه مفاجأة بالنسبة إليك؟».

* «كلا البتة، أيُّها الرفيق العقيد».

جرى إقناعنا على مدى خمسة أعوام بأننا سنكون جميعاً هناك. ولهذا ما كنت سأبتعد عن الحقيقة البتة، لو أجبت العقيد بإخلاص: «كنت أنتظر هذا اليوم خلال خمسة أعوام». يخطئ من يتصوَّر أن سفر ضابط إلى أفغانستان يكون بجمع الحاجيات بسرعة لدى أوَّل استدعاء له بالهاتف، وتوديع

الزوجة والأبناء بشجاعة الرجال وحفظهم لمشاعرهم، وركوب الطائرة بهدير محرِّكاتها في ظلام ما قبل الفجر. إن الطريق إلى الحرب يقترن بإعداد الوثائق اللازمة بأسلوب بيروقراطي: فإلى جانب الأمر والرشَّاش ووجبة الطعام الباردة لا بدَّ من أن تتوفَّر شهادات ووثائق - "يتفهَّم سياسة الحزب والحكومة بشكل صحيح"، وهويَّات الخدمة، والتأشيرات، وغير ذلك من الشهادات والبيانات حول التلقيح ضد الأمراض الوبائية وبيانات الجمارك وتصريح ركوب الطائرة. وبعد ذلك فقط يركب الطائرة، التي بعد أن ترتفع عن الأرض تسمع صراخ نقيب مخمور: «إلى الأمام! نحو الألغام!».

جاء في الصحف: "ما زال الوضع العسكري والسياسي في جمهورية أفغانستان الديمقراطية صعباً ومتناقضاً". وأكَّد العسكريون أن سحب أوَّل ستَّة ألوية من هناك يجب أن يُؤخذ بصفته خطوة دعائية، ولا مجال للحديث عن الانسحاب الكامل للقوات السوفيتية. «هذا يكفي بالنسبة إلى المدَّة المقرَّرة لنا». لم يشك في هذا أي أحد من الذين يرافقونني في الطائرة. وصاح النقيب المخمور وهو شبه نائم: «إلى الأمام! نحو الألغام!».

وهكذا فأنا من رجال الإنزال الجوِّي. أفهموني هنا بأننا نُقسم إلى فئتين: رجال الإنزال "وسوليارا". ولم يتسنَّ لي فكُّ شيفرة لفظة "سوليارا". لدى كثير من الجنود والبرابورشيكية وقسم من الضبَّاط وشومٌ على أذرعهم، علماً أنها لا تختلف كثيراً عن بعضها البعض، وتكون في أغلب الأحيان بصورة الطائرة ايل - 76 وفوقها مظلَّة هبوط (الباراشوت). وهناك أشكال أخرى؛ فمرة شاهدت موضوعاً شاعرياً فيه غيوم وطيور ومظلِّي تحت قبَّة المظلَّة وعبارة مؤثِّرة: "حب السماء". ويوجد قانون غير مدوَّن لدى رجال الإنزال الجوِّي مفاده: "إن رجل الإنزال يجثو على ركبتيه في حالتين فقط هما: أمام جثمان صديق ولدى شرب الماء من غدير".

بدأت الحرب بالنسبة إليَّ...

- «اصطفاف! استعداد! آمركم بالانطلاق في المسيرة من نقطة المرابطة

الدائمة إلى اللجنة الحزبية لقضاء باغرامي إلى قرية شيفاني. سرعة المسيرة تحدِّدها ناقلة الجنود الأمامية. المسافة تتوقَّف على السرعة. كلمات السر لدى التخاطب: أنا "فريزا"، الباقون بموجب أرقام السيَّارات. لا يتمُّ إنزال الرشَّاشات من الأيدي. استرح!» إنها المراسم المعتادة قبيل انطلاق فريقنا الدعائي.

أقفز إلى ناقلة الجنود المدرعة، الصغيرة والسريعة الحركة. وقد سمعت من مستشارينا تسميتها "بلي-بلي". وكلمة "بلي" تعني باللغة الأفغانية المحلية "نعم". وحينما يفحص الأفغان الميكروفون يقولون "بلي-بلي" على غرار ما نردِّده عادةً بالروسية "واحد-اثنان، واحد-اثنان". وأنا بصفتي مترجماً كان يهمُّني كل ما يتعلَّق باللغة.

- «سالتو! سالتو! أنا "فريزا". هيا بنا».

يوجد وراء جدار حجري غير عالٍ بيتان من طابق واحد شُيِّدا بالطوب. وثمَّة لوحة حمراء كُتب عليها: اللجنة الحزبية للقضاء. وكان ينتظرنا على السقف الرفيق لقمان بالزي العسكري السوفيتي.

- «السلام عليكم! تشيتور أستي! خهود أستي! جور أستي! خير خيرات أستي؟» - أطلق مجموعة الكلمات هذه من عبارات الترحيب الأفغانية التقليدية. وتعني جميعاً أن المتكلِّم يستفسر عن صحَّتنا. ولا حاجة إلى الرد على هذه الأسئلة، ويمكن فقط تكرارها.

لا يفوت القائد الفرصة لكي يردِّد عبارته المفضلة:

- «تشيتاور أستي! خوب أستي! في أفغان بدور- روستي».

ولدى سماع هذه التعابير غير المفهومة تطلَّع لقمان إليَّ مستفسراً. فأوضحت له أنها من الأمثال الشعبية الروسية.

دعونا إلى غرفة المكتب. وجلبوا الشاي على صينية في غلايات شاي معدنية. والشاي لدى الأفغان من متطلَّبات الضيافة اللازمة، وبدون الشاي

لا يبدأ العمل، ولا يدور الحديث حول الأعمال، ورفض شرب الشاي يعادل عدم مدِّ يدك عند المصافحة.

في القرية استقبلنا المشايخ والصبيان، الذين لا يغتسلون (الصغار جداً لا يغتسلون أبداً، وحسب الشريعة فإنهم يحافظون عليهم بطبقة الأوساخ من عيون الحسود والشر) ويلبسون الأطمار. وما دمت أتكلَّم الفارسية فإن كل واحد منهم يرى أن من الضروري التحقُّق من مدى معرفتي بها. ويعقب ذلك السؤال الدائم: كم الساعة؟ فأجيب، ممَّا يثير الابتهاج (ما دام قد أجاب فمعنى ذلك أنه يتقن الفارسية فعلاً، ولا يتظاهر بمعرفتها).

- «هل أنت مسلم؟».

فأقول مازحاً:

* «مسلم».

لكنهم يريدون إثبات ذلك.

- «أتعرف الكلمة[33]؟».

الكلمة – هي صيغة خاصة يصبح الإنسان مسلماً حين قولها.

فأقول:

* «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

- «دوست! دوست!» (صديق) – ردَّد الصبيان ذلك وهم يرفعون أياديهم النحيلة علامة التصديق.

وطلبوا مني مراراً أن أردِّد هذه الكلمات ويدعون أصدقاءهم ويهمسون "إنه يعرف الكلمة". تنطلق ألحان شعبية أفغانية من مكبِّرات الصوت التي سمَّاها الأفغان أنفسهم "ألا بوغاتشوفا". ويعلِّق الجنود على العربات وسائل الدعاية الإيضاحية: الأعلام واللافتات والشعارات، وينصبون شاشات – سيعرض فيلم الآن. ينصب الأطبَّاء طاولات توضع عليها علب الأدوية.

33- المقصود هو التشهد، لكن الكاتبة استبدلت العبارة بـ«الكلمة». (المترجم)

يبدأ الاجتماع. يتصدَّر المكان الملا بوشاحه الأبيض الطويل وعمامته البيضاء ويتلو سورة من القرآن. وبعد تلاوة السورة يدعو الله إلى حماية جميع المؤمنين من شرور الدنيا. ويطوي مرفقيه ويرفع يديه نحو السماء. ويكرِّر هذه الحركات الجميع ونحن منهم. وبعد الملا خطب الرفيق لقمان. وكان خطابه طويلاً جدّاً. وهذه من خصائص الأفغان. إنهم يستطيعون الكلام، ويحبُّ ذلك الجميع. ويوجد في علوم اللغة مصطلح التزويق اللفظي. وهكذا فإن الخطابة لدى الأفغان ليست مجرَّد كلام بل محسَّنات لفظية وتزويق كلامي وأمثال ومقارنات. وقد أبدى الضبَّاط الأفغان مراراً دهشتهم لي لكون الدعاة السياسيين عندنا يقرأون من ورقة في أثناء دروس التوعية. رأيت المحاضرين في الاجتماعات الحزبية والعامَّة والخاصَّة بالدعاة يلقون كلماتهم من الورق نفسه، وباستخدام المفردات نفسها مثل: "في طليعة الحركة الشيوعية العالمية"، و"كن مثالاً دائماً"، و"ينفذ بلا كلل في الحياة"، و"إلى جانب النجاحات توجد بعض النواقص"، وحتى "إن بعض الرفاق لا يفهمون". ولدى وصولي إلى أفغانستان كانت الاجتماعات مثل اجتماعاتنا هذه، قد أصبحت منذ وقت بعيد إلزامية، وكان الناس يجتمعون من أجل إجراء الفحص الطبِّي أو الحصول على كيس من الدقيق. واختفت الهتافات والصيحات الودية "زايده بود" أي "عاش!" ورفع الأيدي، والتي كانت ترافق حتماً جميع الخطب في ذلك الوقت، حين كان الشعب ما زال يؤمن بما كانوا يحاولون إقناعه به – في الذرى النيرة لثورة إبريل. وفي المستقبل الشيوعي الوضاء.

لم يكن الصبيان يستمعون إلى الخطب، وكانوا يهتمُّون بما يعرض من أفلام. وأفلام الكارتون عندنا دائماً باللغة الإنجليزية، بالإضافة إلى فيلمين وثائقيين باللغتين الفارسية والبوشتو. وهنا يحبُّون الأفلام الروائية الهندية أو الأفلام التي تزخر بمشاهد العراك وإطلاق النار.

بعد السينما تُقدَّم الهدايا. وقد جلبنا أكياس الدقيق ولعب الأطفال.

ونسلِّمها إلى رئيس القرية من أجل توزيعها على الفقراء وعوائل الشهداء. وقد أقسم جهاراً بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وحملها إلى بيته بمعونة ابنه.

وأبدى آمر الفصيل قلقه وسأل:

- «ماذا تعتقد، هل سيوزِّعها؟».

* «لا أعتقد. فقد جاء إلينا أبناء القرية وحذَّرونا من أنه فاسد الذمَّة. وغداً سيُباع كل شيء في الدكاكين».

صدر الأمر:

- «اصطفاف. الاستعداد للتحرُّك».

* «الـ 112 جاهزة للحركة... الـ 305 جاهزة... الـ 307 جاهزة».

يودِّعنا الصبيان بوابل من الحجارة. وأُصاب أنا بواحدة منها. وقلت: «إنها تعبيرٌ عن امتنان الشعب الأفغاني».

نعود إلى وحدتنا عبر كابُل. وتُزيِّن واجهات بعض الدكاكين بلافتات باللغة الروسية: "أرخص الفودكا" و"أية سلعة بأي ثمن"، و"محل براتيشكا للأصدقاء الروس". ويصيح الباعة باللغة الروسية: "باتنيك" و"فارنكا" "طقم أواني -الكونت الاشيب- لستَّة أفراد"، و"أحذية رياضية بلاصقات"، و"أقمشة -لوريكس- بخطوط بيض وزرق". وتوجد في رفوف المحلات منتجاتنا من علب الحليب المركز والبازلاء والثرموس وغلايات الشاي الكهربائية والحشيات والأغطية...

لقد عدت إلى الوطن منذ وقت بعيد. أرى كابُل في الأحلام، وتنتشر البيوت الطينية في سفوح الجبال. يحل الغسق، وتُضاء فيها الأنوار. ويتراءى لي من بعيد أن أمامي ناطحة سحاب عملاقة. ولو لم أكن هناك لما حدست فوراً: وظننت أن هذا خداع بصري...

عدت من هناك، وبعد عام تركت الجيش. أنت لم تشاهدي كيف تلمع الحربة في ضوء القمر؟ لا؟ لم أستطع رؤية ذلك فيما بعد...

تركت الجيش والتحقت بكلِّية الصحافة. أريد الكتابة... وأقرأ ما يكتبه الآخرون..

- «أنت تعرف الكلمة؟».

* «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

- «دوست! دوست!».

الجنود الجياع... مصابون بالهزال بسبب سوء التغذية. الجسد كله مغطى بالدمامل بسبب نقص الفيتامينات. الدكاكين المملوءة بالأطعمة الروسية. ومُقَل الأعين التي تدور بشكل جنوني لدى المصاب الذي ينازع الموت بعد أن ضربته شظية طائشة...

أحد ضبَّاطنا يقف مبتسماً إلى جانب مشنوق أفغاني.

ماذا سأفعل بهذا كله؟ لقد كنت هناك... ورأيت ذلك، لكن لا أحد يكتب عن هذا. إنه خداع بصري. وإذا لم يُكتب عنه فمعنى ذلك أنه لم يحدث. فهل حدث ذلك أم لم يحدث؟

ملازم أوَّل، مترجم عسكري

لا أتذكَّر الكثير بشكل منفرد. الأمور الشخصية. المتعلِّقة بي.

كان عددنا في الطائرة المسافرة مئتي شخص، مئتي رجل. وعندما يكون الفرد ضمن حشد، وفي جماعة، وفي قطيع، يختلف عنه حين يكون منفرداً لوحده. كنت أحلِّق في الجو وأفكِّر فيما سأراه هناك، وفيما سأعرفه... الحرب – إنها عالم جديد.

من وصايا الآمر:

عند تسلق الجبل إذا سقطت لا تصرخ. بل يجب أن تسقط صامتاً، مثل حجر "حي". وبهذه الصورة فقط يمكن أن تنقذ رفاقك.

عندما تنظر من قمَّة صخرة تبدو الشمس قريبة حتى يمكن إمساكها باليدين. ولمسها.

قبل التحاقي بالجيش قرأت كتاب ألكسندر فيرسمان "ذكريات عن صخرة". وكما أذكر فقد أذهلتني الكلمات: حياة صخرة، ذاكرة صخرة، صوت صخرة، جسم صخرة، اسم صخرة... ولم أفهم كيف يمكن الحديث عن صخرة وكأنها كائن حي. وهناك اكتشفت أنه يمكن التطلُّع إلى الصخرة فترة طويلة، كما يتم التطلُّع إلى الماء والنار.

من وصايا العريف:

– «لدى إطلاق النار على وحش يجب استباقه قليلاً، وإلا سيفلت من رصاصتك. وفيما يتعلق بالإنسان الراكض يجب استباقه أيضاً».

– «يبقى على قيد الحياة من يُطلق النار أوَّلاً. أوَّلاً يا ابن...! هل فهمتم؟! وإذا فهمتم، فستعودون، وتكون جميع النساء لكم!».

هل شعرت بالخوف؟ نعم. القنَّاصون في الدقائق الخمس الأولى. أما رجال المروحيات فهم يخافون في لحظة التوجُّه إلى المروحية. أما نحن المشاة، حتى من يطلق النار أولاً..

نتسلَّق الجبال. ونواصل السير من الصباح حتى وقت متأخِّر ليلاً. ويبلغ الإجهاد حدَّ الغثيان والرغبة في التقيُّؤ. في البداية تصبح الساقان ثقيلتين كالرصاص، ومن ثم تعقبهما اليدان. وتبدأ اليدان بالارتعاش في المفاصل.

سقط أحدهم:

- «لا أستطيع. لن أصعد!».

فأمسكنا به نحن الثلاثة وأخذنا نسحبه.

- «اتركوني، يا شباب! أطلقوا النار عليَّ!».

* «يا ابن الكلبة كنا لنُطلق النار عليك، لكن لديك أم في البيت...».

- «أطلقوا النار عليَّ!».

أريد أن أشرب! أشرب! إن العطش يعذبني. كانت زمزميات الجميع فارغة حين قطعنا نصف الطريق. يتدلَّى اللسان من الفم، ويبقى معلَّقاً، ولا يمكن إعادته. وقد أفلحنا بشكل ما في التدخين. وصعدنا في الجبال حتى بلغنا الثلوج، وصرنا نبحث عن الماء العذب؛ نشرب من الحفر، ونقضم الجليد بأسناننا. ونسي الجميع حبات الكلور. وأي أنبوبة منغنيز هناك؟ واحدنا يزحف ويلحس الثلج... المدفع الرشَّاش معلَّق خلفك، وأنت تشرب الماء من البركة... وتختنق، وإلا سيقتلونك قبل أن ترتوي بالماء. والميت يستلقي ووجهه في الماء. فيبدو كأنه يشرب الماء.

أنا الآن كمراقب من الجانب... أنظر إلى هناك... كيف كنت؟ لم أجبْكِ عن السؤال الرئيس: كيف ذهبت إلى أفغانستان؟ أنا نفسي طلبت إرسالي لدعم الإرادة الثورية للشعب الأفغاني. وآنذاك عرضوا في التلفزيون، وبثوا بواسطة الإذاعة، وكتبوا في الصحف عن الثورة... بزغ النجم في الشرق! ويجب علينا تقديم المساعدة، وتقديم الدعم الأخوي... كنت أستعد

للحرب مبكِّراً، مارست الرياضة، وتعلَّمت أصول المصارعة والكاراتيه. يجب أن تكون البادئ بتوجيه لكمة إلى الوجه. هذا ليس شيئاً يسيراً. وحتى ترضرض العظام. يجب تجاوز الحد وتطقطق!

أول قتيل... صبي أفغاني في السابعة من العمر. كان مستلقياً بذراعين مطويتين كأنه نائم. وإلى جانبه أشلاء حصان هامد بقرت بطنه... لقد تحمَّلت مرأى المشهد بشكل ما، ربَّما لأنني طالعت كتباً عن الحرب.

أتذكَّر أغانينا "الأفغانية"، فأسرع إلى العمل وأبدأ بالدمدمة:

قل، لماذا ولمن وهبوا حياتهم؟

ولماذا انطلقت الفصيلة في الهجوم تحت وابل نيران المدفع الرشَّاش؟

يتطلَّع خشية ألا يسمعه أحد! سيعتقدون أن بي لوثة عقلية أو أنني مصاب برجة في الدماغ جاء من مكان ما. (يغنِّي)

أفغانستان – بلاد جميلة ومتوحِّشة وجبلية.

الأمر بسيط: انهضْ واذهبْ ومتْ...

عدت، وطوال عامين دفنت نفسي في الأحلام... أحياناً أستيقظ برعب: لا يوجد سلاح أطلق به النار على نفسي!

واستفسر الأصدقاء: هل توجد مكافآت حكومية؟ هل أُصبت بجروح؟ هل أطلقت النار؟ وقد حاولت أن أتحدَّث عن مشاعري، ولكن لم يكن هناك أي اهتمام. بدأت بمعاقرة الخمر... أشرب لوحدي... النخب الثالث، نخب الذين قُتلوا. يوركا... كان بالمستطاع إنقاذه، والحفاظ عليه. رقدنا سوية في المستشفى العسكري في كابُل. كنت مصاباً بخدش في كتفي، وبارتجاج في الدماغ، بينما فقد ساقه. كان هناك كثير من الفتيان بلا سيقان وبلا ذراعين. إنهم يدخِّنون، ويمزحون. إنهم على ما يرام هناك. لكنهم لا يريدون العودة إلى الاتحاد السوفيتي، ويلحُّون في الرجاء لإبقائهم هناك، ففي الاتحاد تبدأ حياة أخرى. قطع يوركا وريد يده في مرحاض المطار في يوم التوجُّه إلى المطار...

كنت أحاول إقناعه، (كنا نلعب الشطرنج في الأمسيات):

- «يوركا، لا تيأس. وألكسي ميريسييف؟ هل قرأت "قصة رجل حقيقي"؟».

* «تنتظرني فتاة جميلة جدّاً».

أحياناً أشعر بالحقد على جميع من ألقاه في الطريق. حسناً أن يصادروا في الجمارك الأسلحة والقنابل اليدوية. نحن أنجزنا مهمَّتنا، والآن يمكن تجاهلنا؟ و أن يُنسى يوركا.

في الليل أستيقظ من نومي وأنا لا أستطيع إدراك: هل أنا هنا أم هناك؟ أنا هنا أعيش كمراقب من الخارج.. لدي زوجة وطفل. أحتضنه فلا أشعر بشيء، وأقبِّله فلا أشعر بشيء. سابقاً كنت أحبُّ الحمائم، كنت مستعدّاً لدفع أي ثمن من أجل أن تعاد إليَّ مسرَّات الماضي...

جندي، من المشاة

جاءت ابنتي من المدرسة وقالت:

- «ماما، لا يصدِّق أحد أنكِ كنت في أفغانستان».

* «لماذا؟»

- «هم يسألون، من أرسل أمَّك إلى هناك؟».

أنا لم أعتد بعد على الحياة المسالمة والتمتُّع بها. لم أعتد بعد على عدم إطلاق النار والقصف، وإمكانية فتح الصنبور وشرب قدح ماء، دون أن تنبعث منه رائحة الكلور. الخبز هناك بالكلور، والبقصم بالكلور، والمعكرونة والعصيدة واللحم ونقيع الفواكه بالكلور. أنا في البيت منذ عامين، أذكر كيف التقيت مع ابنتي، ولا أحتفظ بالبقية في الذاكرة، فهي قصيرة جدّاً، ولا فائدة منها بالقياس مع ما عانيت هناك. اشترينا طاولة جيِّدة للمطبخ وجهاز تلفزيون. وماذا هناك بعد من أحداث؟ لا شيء. ابنتي تكبر... لقد كتبت إلى آمر الوحدة في أفغانستان: «أعيدوا إليَّ أمِّي بسرعة، فأنا في شوق شديد إليها». وباستثناء ابنتي لا يوجد أي شيء يشغل بالي بعد أفغانستان.

الأنهار هناك زرقاء خيالية. الماء أزرق! لم أكن أعتقد أبداً أن الماء يمكن أن يكون هكذا بلون السماء. زهور الخشخاش تنمو هناك كزهور البابونج عندنا. تتألَّق زهور الخشخاش كاللهب على سفوح الجبال. وتتطلَّع الجمال الممشوقة بكبرياء إلى الجميع، كالشيوخ. انفجر لغم "مضادٌّ للمشاة" في حمار كان يجرُّ عربة فيها برتقال متَّجهة إلى السوق. كان راقداً وينتحب من الألم، وقامت ممرِّضتنا بلفِّ الضمائد على جرحه.

اللعنة عليك، يا أفغانستان!

أنا لا أستطيع العيش بعدها بهدوء وطمأنينة، أن أعيش مثل الآخرين

جميعاً. رجعت... في البداية صار الجيران والصديقات غالباً ما يطلبن زيارتي:

– «فاليا، سنأتي إليك للحظة. حدثيني، كيف هي الأواني هناك؟ والسجَّاد؟ هل صحيح أن الملابس وأجهزة الفيديو كثيرة جداً هناك، وكذلك أجهزة التسجيل والبلير؟ ماذا جلبت؟ ربما، ستبيعين شيئاً؟».

لقد جلبت التوابيت من هناك بعدد أكبر من أجهزة التسجيل. وقد نسوها.

اللعنة عليك يا أفغانستان!

ابنتي تكبر... شقتي ذات غرفة واحدة، وصغيرة. هناك وعدونا قائلين: لدى العودة إلى الوطن، ستجدون الامتنان لقاء كل شيء. توجَّهت إلى دائرة المنطقة، واستلموا أوراقي:

– «هل أصبت بجروح؟».

* «لا، أنا عدت سليمة. أنا سليمة جسداً، أما الذي في باطني فلا تراه العين».

– «إذاً فلتعيشي مثل الآخرين. نحن لم نرسلك إلى هناك».

في الطابور لشراء السكَّر:

– «جلبوا كل شيء من هناك وهنا يطالبون بحقوقهم».

وضعت ستة توابيت دفعة واحدة: الرائد ياشينكو وملازم وجنود...: إنهم راقدون هناك وملفوفون بشراشف بيضاء. لا ترى الرؤوس... إنها غير موجودة. لم أعتقد أبداً بأن الرجال يمكن أن يصرخوا وينتحبوا بهذا الشكل. بقيت لدي الصور الفوتوغرافية، ووضعت في مكان مصرعهم شظايا كبيرة لقنابل، ونقشت أسماؤهم على الأحجار. لقد ألقاهم "الأشباح" في الهاوي، وأطلقوا النار على شواهد القبور، ونبشوها من أجل ألا يبقى منا أي أثر بعد هذا.

اللعنة عليك يا أفغانستان!

كبرت ابنتي في غيابي، وأمضت عامين في مدرسة داخلية. وعندما عدت، اشتكت لي المعلِّمة: لقد حصلت على علامات ضعيفة فقط. كيف سأتحدَّث معها لا؟ لقد أصبحت كبيرة.

- «ماما، ماذا فعلت هناك؟».

* «النساء هناك قدَّمن المساعدة إلى الرجال. وأنا أعرف امرأة قالت للرجل: أنت ستعيش. وعاش. وأنت ستمشي. ومشى. وقبل هذا أخذت منه الرسالة التي كتبها إلى زوجته وجاء فيها: "من يحتاج إلى رجل بلا ساقين؟ فانسني". وقالت له اكتب: مرحبا زوجتي العزيزة، والعزيزين ألوتشكا وأليشكا...».

كيف ذهبت إلى هناك؟ استدعاني الآمر وقال: «واجب». نحن تربَّينا على هذه اللفظة، وأصبحت لدينا عادة. وفي معسكر الترحيل كانت هناك فتاة راقدة على الحشية بلا غطاء وهي تبكي:

- «لدي في الوطن كل شيء: شقة من أربع غرف، وخطيب، ووالدان يحبانني».

* «لماذا جئت؟».

- «قالوا إن الوضع صعب هنا. وواجب!».

لم أجلب أي شيء من هناك سوى الذاكرة.

اللعنة عليك يا أفغانستان!

إن هذه الحرب لن تنتهي أبداً بالنسبة إليَّ... ويوم أمس رجعت ابنتي من زيارة الأصدقاء وقالت:

- «ماماكا، حين قلتُ إنك كنت في أفغانستان، ضحكت إحدى الفتيات لسببٍ ما... بماذا أجيبها؟».

برابورشيك، رئيسة الشعبة السرية

الموت أمرٌ فظيع، لكن يوجد ما هو أفظع... لا تقولي في حضوري إننا كنا ضحايا، وكان ذلك خطأ. لا تتفوَّهي بهذه الكلمات في حضوري. أنا لا أسمح بذلك.

نحن قاتلنا جيداً، وببسالة. فلماذا تقولين عنا هذا؟ أنا قبَّلت الراية كأنها امرأة. بخشوع. هكذا تربينا، إن هذا أمرٌ مقدَّس، ما دمت قد قبَّلت الراية. نحن نحبُّ الوطن، ونؤمن به. هيا-هيا-هيا... (يدق الطاولة بعصبية بأصابعه). أنا ما زلت هناك... تحت النافذة يسمع قصف "أنبوب غاز العادم" لسيَّارة - خوف غريزي. صليل زجاج محطم... يسود فراغ في الرأس، فراغ ذو رنين في الرأس. صوت رنين الهاتف في مكالمة دولية، كما لو أن هناك تبادل إطلاق نار في مكان ما... أنا لا أريد أن أشطب هذا كله، وأنا لا أستطيع أن أدوس بقدمي على ليالي الأرق، وعلى عذاباتي. لا أستطيع أن أنسى القشعريرة في ظهري في القيظ البالغ خمسين درجة مئوية.

كنا نتنقل في العربات المصفَّحة ونردِّد الأغاني بصوت عال. وعاكسنا وتحرَّشنا بالفتيات، إنهن يظهرن حسناوات كلهن من الشاحنة. كنا ننطلق بمرح. ووُجد بعض الجبناء:

- «أنا أرفض... السجن أفضل من الحرب».

* «هيا، تفضلي! - كانوا يعتدون عليهم بالضرب. ويستهزئون بهم، وهم حتى كانوا يهربون من الوحدة العسكرية».

انتشلت أول قتيل من الكوة. وقال: «أريد أن أعيش...» - ثم فارق الحياة. هيا - هيا - هيا... بعد المعركة لا يُحتمل النظر إلى الجمال. إلى الجبال والوهاد البنفسجية في الضباب، والطير الزاهي الألوان. أود أن أطلق

النار على كل شيء. أطلق... وأطلق النار في السماء! بعدها يصبح المرء هادئاً – هادئاً، ولطيفاً. أحد الفتيان من معارفي نازع الموت طويلاً. كان راقدا كالطفل الذي بدأ لتوِّه تعلُّم الكلام، وسمَّى وكرَّر كل ما تراه عيناه: «الجبال... شجرة... طير... سماء...». واستمرَّ في ذلك حتى النهاية.

قال شرطي شاب أفغاني "تساراندوي" بلغتهم:

– «عندما أموت سيدخلني الله إلى الجنة. وأنت أين ستدخل؟».

أين سأدخل؟

أُدخلت المستشفى. وزارني والدي في طشقند:

– «بعد الشفاء من الجروح يمكن أن تبقى في الاتحاد».

* «كيف أبقى إذا ما كان أصدقائي هناك؟».

إنه شيوعي، لكنه كان يرتاد الكنيسة ويوقد الشموع.

* «لماذا تفعل ذلك يا أبي؟».

– «يجب أن أضع إيماني في شيء ما. وممَّن أتوسَّل من أجل أن تعود؟».

ورقد إلى جانبي شاب. جاءت إليه أمُّه من دوشنبه، وجلبت فواكه وزجاجة كونياك:

– «أريد أن أُبقي ابني في البيت. ممَّن يجب أن أطلب ذلك؟».

* «لنشرب يا أم الكونياك ونرفع نخب صحَّتك».

– «أريد أن أُبقي ابني في البيت...».

شربنا الكونياك الذي جاءت به. شربنا صندوقاً كاملاً من الزجاجات. وفي آخر يوم سمعنا: كُشفت لدى أحد رجالنا في ردهتنا الإصابة بقرحة المعدة، وأدخل في الكتيبة الطبِّية. خائن! نحن مسحنا وجهه من ذاكرتنا.

بالنسبة إليَّ هناك أسود أو أبيض. لا يوجد رمادي. لا توجد أية ألوان باهتة.

لم نصدِّق بأن المطر يتساقط في مكان ما طوال اليوم، وهناك مطر يولد

الفطر. إن بعضنا في أرخانغلسك يطنطن فوق الماء. وهنا الجبال المحروقة فقط، والرمل الشائك الساخن... هيا-هيا-هيا... ويرقد فوقه، كما لو كان شرشفاً كبيراً، جنودنا المخضَّبون بالدم، وقد قطعت لديهم جميع الأعضاء الذكورية... قصاصة ورق كُتب عليها: نساؤكم لن يلدن منهم أبناءً أبداً.

وأنت تقولين: ننسى؟!

عدنا: أحدنا يحمل جهاز تسجيل ياباني، والآخر يقدح قدَّاحة موسيقية، وثالث يرتدي قميصاً قطنياً بالياً ويحمل حقيبة "دبلومات" فارغة.

نحن قاتلنا جيِّداً وببسالة. ومنحونا الأوسمة والميداليات... ويقال إننا "الأفغان" نُعرف بلا أوسمة وميداليات، ومن عيوننا:

- «يا فتى، هل أنت من الأفغان؟».

أنا أرتدي معطفاً سوفيتياً وأضع قدمي في جزمتين سوفيتيتين...

جندي، من سلاح الإشارة

وإذا كانت على قيد الحياة؟

ربما كانت ابنتي على قيد الحياة، ولكن في مكان ما بعيد... ومع ذلك أنا سعيدة، فلتكن في أي مكان، فقط أن تكون على قيد الحياة. هذا ما أعتقده، وهذا ما أريده، وأريده جدًّا! كما راودني حلم... إنها قادمة إلى البيت. أخذت مقعداً وجلست في وسط الغرفة... شعرها طويل، جميل جداً، ويتدلَّى على كتفيها. وألقت به إلى الوراء بحركة من يدها وقالت: «ماما، ما لك تدعينني وتدعينني؟ فأنت تعلمين أنني لا أستطيع المجيء إليك. فلدي هنا زوج وطفلان... لدي عائلة...».

كما تذكَّرت في الحلم، عندما دفنوها، ومضت فترة شهر، كما أظن، جال في ذهني أنها لم تُقتل، بل اختطفوها، وهذا هدَّأ من روعي. عندما كنا نمشي معها في الشارع كان الجميع يلتفتون ويتطلَّعون إليها. كانت طويلة القامة، وشعرها متموج. وهكذا استلمت تأكيداً، كان حدسي صحيحاً... إنها تعيش في مكان ما.

أنا طبيبة، طوال حياتي أعتقدت بأنها مهنة مقدَّسة. وقد أحببت هذه المهنة جدًّا ولهذا جذبت ابنتي إليها. والآن ألعن نفسي. فلولا هذه المهنة لبقيت في البيت وعاشت. ونحن الآن، أنا وزوجي، نعيش لوحدنا، ولا يوجد أحد آخر. فراغ، فراغ فظيع. نجلس في المساء، ونشاهد التلفزيون. نجلس صامتين، وأحياناً لا نتفوَّه بكلمة خلال المساء كله. وفقط عندما يبدأ الغناء أبكي، بينما يئنُّ زوجي – وينصرف.

أنت لا تتصوَّرين ما يوجد هنا في صدري. في الصباح يجب الذهاب إلى العمل، بينما لا أستطيع النهوض. ثمة ألم شديد! وأحياناً أفكّر في أن لا أنهض

ولا أذهب. سأبقى راقدة... وسأنتظر لكي يأخذوني إليها. وأن يستدعوني...

لدى ميل للخيال، طوال الوقت أنا معها، ولا تتكرر أحلامي أبداً. حتى إنني أقرأ معها... حقّاً إنني أطالع الآن الكتب حول النباتات والحيوانات والنجوم، ولا أحب أن أقرأ عن البشر، وعن شؤون البشر. حل الربيع... واعتقدت أن الطبيعة ستساعدني. ذهبنا إلى خارج المدينة؛ زهور البنفسج تفتحت، وعلى الأشجار وريقات طفولية. فأخذت أصرخ. هكذا أثّر فيَّ جمال الطبيعة، وبهجة الحياة. وصرت أخشى مرور الوقت، فهو يسلبني إياها، وذكراها، وتختفي التفاصيل والكلمات... ماذا كانت تقول؟ وكيف كانت تبتسم؟ جمعت من البذلة شعرات من شعرها، ووضعتها في علبة. فسأل زوجي: «ماذا تفعلين؟».

* «ليكن. فهي غير موجودة».

أحيانا أجلس في البيت. وأفكِّر وأسمع بوضوح: «ماما، لا تبكي». ألتفّت حولي فلا أجد أحداً. وأواصل استعادة الذكريات. ها هي راقدة... وحفرت الحفرة، والأرض مستعدّة لاستقبالها. بينما أجثو أمامها على ركبتي: «ابنتي الحبيبة! ابنتي العزيزة! كيف حدث ذلك؟ أين أنت؟ إلى أين ذهبت؟». لكنها ما زالت معي، بالرغم من أنها ترقد في التابوت. وسرعان ما سينهال عليها التراب.

أذكر ذلك اليوم... لقد عادت من العمل وقالت:

– «استدعاني اليوم كبير الأطبّاء». وصمتت.

* «وماذا بعد؟». أنا لم أسمع بعد ردّاً على سؤالي، لكنني شعرت بأن حالتي تسوء.

– «لقد ورد إلى مستشفانا أمر بإرسال شخص واحد إلى أفغانستان».

* «وماذا بعد؟».

– «ثمة حاجة إلى ممرضة في صالة الجراحة بالذات». علماً أنها كانت تعمل ممرِّضة في قسم الجراحة باختصاص جراحة القلب.

* «وماذا بعد؟» - لقد نسيت جميع الكلمات الأخرى، وكرَّرت العبارة نفسها.

- «لقد وافقت».

* «وماذا بعد؟».

- «لا بد من أن يذهب أحدٌ ما في الأحوال كافَّةً. وأنا أريد أن أكون حيث توجد المصاعب».

كان الجميع يعرفون، وأنا أيضاً أعرف، أنَّ حرباً تدور هناك، وتُراق الدماء. فبكيت، ولم أستطع قول «لا». لكانت عندئذ ستنظر إليَّ وتقول:

- «ماما، وماذا عن قسم أبقراط[34]؟».

أعدَّت الوثائق اللازمة خلال عدَّة شهور، وجلبتها وأرتني شهادة السلوك. ويرد فيها: «تفهم سياسة الحزب والحكومة بشكل صحيح». بينما لم أكن أصدق بعد كل ما جرى.

لقد تحدَّثت عنها... وأشعر بزوال الضيق في شعوري. كما لو كانت هنا. غداً سأواريها التراب... إنها ما زالت معي. لربما تعيش في مكان ما؟ أردت فقط أن أعرف: كيف هي الآن؟ هل شعرها طويل؟ أي قميص تلبس؟ يهمُّني كل شيء...

انقبضت روحي... لا أريد أن أرى أحداً من الناس، وأحبُّ أن أبقى لوحدي. أنا أتحدَّث معها، مع ابنتي سفيتا. وحالما يدخل أحد ما، ينتهك كل شيء. لا أريد إدخال أي أحد إلى هذا العالم. جاءت أمِّي من القرية لزيارتي، لكني لا أريد حتى أن تشاطرني هي هواجسي. وحدث مرة واحدة فقط أن زارتني امرأة من محل عملي... فصارحتها، وجلسنا نتحادث حتى وقت متأخِّر من الليل، حتى أعرب زوجها عن القلق حيث حان موعد إغلاق محطة مترو الأنفاق. لقد عاد ابنها من أفغانستان، وأصبح كالطفل الصغير: «ماما

34- نص منسوب لأبقراط العالم اليوناني الذي يعتبر من مؤسسي علم الطب، يُقسم به الأطباء قبل مزاولتهم لمهنة الطب.

سأعد معك الفطائر... ماما سأذهب معك إلى محل الغسيل...». إنه يخاف الرجال، وتربطه أواصر الصداقة مع الفتيات فقط. وقد راجعَت الطبيب. وقال الطبيب: «اصبري، سيزول هذا الحال». الآن أصبح مثل هؤلاء الناس أقرب إليَّ وأعزَّ من غيرهم. كان في وسعي أن أقيم علاقات صداقة معها، مع هذه المرأة. لكنها لم تزرني بعد ذلك، فكانت تتطلّع إلى صورة سفيتوتشكا وتبكي...

أردت تذكُّر شيء آخر... فماذا أردت أن أتذكَّر؟ آه؟! كيف جاءت في إجازة أوَّل مرَّة... لا، بل كيف ودَّعناها، وكيف سافرت... جاء إلى محطَّة القطار أصدقاؤها في أيَّام المدرسة، ورفاقها في العمل. وانحنى جرَّاح عجوز وقبَّل يديها: «أنا لن ألقى بعد هذا مثل هاتين اليدين».

جاءت في فترة الإجازة. نحيفة، صغيرة الحجم. واصلت النوم ثلاثة أيام. وكانت تنهض وتأكل وتنام. ثم تنهض مرة أخرى وتأكل وتنام.

- «سفيتوتشكا كيف حالك هناك؟».

* «كل شيء على ما يرام يا ماما. كل شيء على ما يرام».

كانت تجلس صامتة وتبتسم لنفسها بهدوء.

- «سفيتوتشكا ماذا حدث ليديك؟». لم أعرف يديها، فقد أصبحتا كما لو أنها في سن الخمسين.

* «العمل يا ماما كثير هناك. فهل أستطيع التفكير في يديَّ؟ تصوَّري: نحن نستعد لإجراء عملية، ونغسل أيدينا بحامض النمليك. ويقول لي الطبيب: «ما هذا؟ ألا تشفقي على كليتيك؟». إنه يفكِّر في الكليتين.. بينما هناك بشر ينازعون الموت بالقرب منا.. لكن لا تقلقي. أنا راضية، إنهم يحتاجون إليَّ هناك».

سافرتْ قبل ثلاثة أيَّام من الموعد المقرر:

- «أرجو المعذرة يا ماما، بقيت ممرِّضتان فقط في كتيبتنا الطبِّية. هناك

عددٌ كافٍ من الأطبَّاء، بينما عدد الممرِّضات قليل. الفتيات يختنقن من الإجهاد. فكيف أستطيع عدم السفر؟».

توسَّلت إلى جدَّتها التي أحَّبتها كثيراً، والتي ستبلغ سن التسعين قريباً، قائلة: «فقط لا تموتي. انتظريني». وقطفت الجدَّة جميع الورود لها، وسافرت مع هذه الطاقة من الورود.

كان يجب أن تنهض في الساعة الخامسة صباحاً. أيقظتها فقالت لي: «ماما أنا لم أشبع بعد من النوم. وأعتقد أنه دائماً سينقصني النوم بعد الآن». في سيارة الأجرة فتحت الحقيبة وتأوَّهت: «لقد نسيت مفاتيح شقَّتنا. لا توجد مفاتيح. سأعود، وقد لا تكونون وقتها في البيت؟». فيما بعد عثرت على المفاتيح، في تنُّورتها العتيقة. أردت إرسالها إليها برزمة، بغية ألا يساورها القلق. وبغية أن تكون لديها مفاتيح البيت.

ربما ما زالت على قيد الحياة؟ وتتجوَّل في مكان ما، وتضحك... وتبتهج لرؤية الزهور. لقد كانت تحبُّ الورود. والآن أزور جدَّتنا فهي ما زالت على قيد الحياة لأن سفينا طلبت منها: «فقط لا تموتي. انتظريني». أستيقظ في الليل، وأجد على الطاولة طاقة ورود. لقد قطفتها في المساء... وهناك قدحا شاي...

- «لماذا لا تنامين؟».

* «أنا أشرب الشاي مع سفيتلانكا». (كانت تدعوها دوماً باسم "سفيتلانكا").

أما أنا فأراها في الحلم وأقول لنفسي: سأدنو منها وأقبِّلها إذا كانت دافئة فمعنى ذلك أنها حية.

ماذا لو كانت حية في مكان ما؟ في مكان آخر؟!

في المقبرة أجلس عند قبرها. يمر اثنان من العسكريين. ويتوقَّف أحدهما:

- «أوي! ممرِّضتنا سفيتا. انظر». وبعد أن لاحظ وجودي، «هل أنت أمها؟».

فهُرعت إليه:

- «هل عرفت سفيتوتشكا؟».

فخاطب صديقه قائلاً:

* «لقد بُترت ساقاها في أثناء القصف. وفارقت الحياة».

عندئذ صرخت بعويل. فجفل:

- «أنت لم تعرفي ذلك؟ أرجو المعذرة! أرجو المعذرة!». وانصرف مبتعداً.

بعد ذلك لم أره. ولم أبحث عنه.

أجلس عند القبر. وتمرُّ أم مع أطفالها. فأسمع كلامها:

- «أية أم هي؟ كيف سمحت بإرسال ابنتها الوحيدة إلى الحرب في زماننا -كان قد نقش على شاهد القبر: "الابنة الوحيدة"- وسلَّمت الفتاة؟».

كيف يضحكون، وكيف يستطيعون ذلك؟! لقد أدَّت القسم، إنها ممرضة، كان الجراحون يقبِّلون يديها. لقد سافرت من أجل إنقاذ الناس، وأبنائهم.

وأصرخ في أعماق روحي: يا ناس لا تنصرفوا عني! قفوا معي عند القبر! لا تتركوني لوحدي...

أم

أفغان، كـ...أملك! أفغان... يمسك الصديق الجريدة بيده ويقرأ: «تحرير جنود سوفيت من الأسر. وقد أدلوا بحديث إلى الصحفيين الغربيين..» – و....أملك!

– «ماذا بك؟».

* «كنت سأضعهم جميعاً عند الجدار، وأطلق النار عليهم بنفسي».

– «ألم تشاهد ما يكفي من الدماء المراقة! ألم يكن ذلك كافياً؟».

* «لا رحمة بالخونة. أولئك قطعوا سيقاننا وأذرعنا، وهم في نيويورك يتمتَّعون بمشاهدة ناطحات السحاب... ويتحدَّثون من "صوت أمريكا"... بينما كان أحدهم صديقاً لي هناك، وأنشدنا معاً: "نحن نتقاسم رغيف الخبز مناصفة"». (يصمت).

* «أكرههم! أكرههم!».

– «من؟».

* «ما هو غير مفهوم أنني فقدت صديقاً هنا، وليس في الحرب... (ينتقي الكلمات)... بعد هذا لا يوجد لدي أحد. لا يوجد لديَّ أصدقاء آخرون... الآن انصرف الجميع ويجلسون في جحورهم؛ يكسبون النقود».

أفغان، كـ... أملك! كان الأفضل أن أقتل. علَّقوا في مدرستي لوحة تذكارية، وجعلوني بطلاً... الصبيان يحلمون بأن يكونوا أبطالاً... أما أنا فلم أرد. لقد أدخلوا القوَّات إلى أفغانستان، لكنني لم أكن أعرف أي شيء بعد، وكان الأمر شيِّقاً لديَّ. في ذلك الوقت عرفت الحب الأوَّل، وجننت... أما الآن فأخاف التقرُّب من امرأة ولمسها، حتى عندما تكون حافلة الترولليي

مزدحمة بالركاب في الصباح... أتفهمين؟ أنا لا أستطيع فعل أي شيء مع النساء. لقد هجرتني فتاتي... الحبيبة. عشنا سوية مدة عامين. في ذلك اليوم أحرقت غلاية الشاي... كانت تحترق وأنا جالس وأشاهد كيف تحوَّل لونها إلى السواد، هذا ما يحدث لي أحياناً. غيبوبة كاملة، وأخرج من الواقع. وعندما عادت من العمل اشتمَّت الرائحة:

- «ماذا أحرقت؟».

* «غلاية الشاي».

- «إنها الثالثة...».

* «هل تعرفين رائحة الدم؟ إن رائحته بعد ساعتين أو ثلاث ساعات تصبح مثل رائحة العرق تحت الإبطين. رائحة كريهة... ورائحة النار أفضل».

أغلقت الباب بالمفتاح وانصرفت. ولم تعد بعد مرور عام. صرت أخافهن، هن... النساء؛ إنهن بشر من صنف آخر تماماً. ولهذا فهنَّ تعيسات معنا. إنهنَّ يصغين إليك، ويوافقن، لكنهنَّ لا يفهمن شيئاً.

كانت تبكي في الصباح: «أي صباح خير؟! كنت تصرخ طوال الوقت... واصلت الصراخ طوال الليل».

علما أنني لم أحدِّثها عن كل شيء... لم أحدِّثها عن ابتهاج رجال المروحيات الذين يقصفون بالقنابل. وكان الشبَّان يتفاخرون: ما أجمل مشهد احتراق القرية... بالأخص ليلاً... يرقد جريح من رجالنا، ينازع الموت، ويدعو أمَّه أو فتاته... وإلى جانبه يرقد جريح من "الأشباح" - كنا نأخذهم معنا أيضاً - وينادي أمَّه وفتاته. تارة الاسم أفغاني، وتارة روسي...

- «أي صباح خير؟! كنت تصرخ مجدَّداً. أنا أخاف منك».

لا تعرف... إنها لا تعرف كيف قُتل ملازمنا. شاهدنا الماء، وأوقفنا الشاحنات:

- «قف! قفوا جميعاً! - صرخ الملازم وأشار إلى رزمة وسخة، ملقاة بالقرب من الغدير - لغم!».

مضى في المقدَّمة رجال سلاح الهندسة ورفعوا "اللغم" فإذا به يبكي بصوت خافت. لقد كان طفلاً. أفغانياً، كـ... أمك!

ماذا نفعل به؟ هل نتركه، أم نأخذه معنا؟ ولم يُرغم أحد الملازم الذي قال: لا يجوز تركه، سيموت من الجوع. سأحمله إلى القرية. إنها قريبة من هنا.

انتظرناهما نحو ساعة. بينما يتطلب الذهاب والعودة من هناك نحو عشرين دقيقة.

كانا يرقدان على الرمل... الملازم والسائق. في وسط القرية... لقد قتلتهما النساء بالفؤوس...

- «أي صباح خير! لقد صرخت مجَّدداً». ثمَّ انهالت عليَّ بقبضتيها، ولوت ذراعي.

أحياناً لا أتذكَّر لقبي وعنواني وكل ما يتعلق بي. أثوب إلى رشدي، وأبدأ كما لو أعيش من جديد. لكن بعدم ثقة... أخرج من البيت، وفور ذلك ترد الفكرة: هل أغلقت الباب بالمفتاح أم لم أغلقه؟ هل أغلقت صنبور الغاز أم لا؟ أخلد إلى النوم، وأنهض لأتأكَّد: هل ضبطتُ ساعة المنبِّه لإيقاظي صباحاً أم لا؟ وفي الصباح أتوجَّه إلى العمل، وألتقي الجيران: هل قلت لهم «صباح الخير» أم لا؟

يقول الشاعر كيبلنغ:

الغرب غرب، والشرق شرق
لا يفهم أحدهما الآخر.
وفقط عند عرش الرب يلتقيان معاً مجدَّداً.
لا شرق ولا غرب، إذا ما وُجد رجلان قويَّان،
وُلدا في أطراف مختلفة من الأرض،
فإنهما يتلاقيان على انفراد؛ واحداً ضدَّ واحد!

أنا أذكر أنها كانت تحبُّني. وبكت: «أنت خرجت من جهنم... وسأنقذك». لكنني خرجت من صندوق القمامة...

عندما سافرت إلى أفغانستان كانت النساء بفساتين طويلة، وعدت فوجدتهنَّ جميعاً في ملابس قصيرة. إنهن غريبات بالنسبة إليَّ. ورجوتها أن تلبس فستاناً طويلاً. فضحكت، ومن ثم زعلت. وصارت تكرهني... (يغمض عينيه ويكرِّر الشعر).

الغرب غرب، والشرق شرق

لا يفهم أحدهما الآخر.

وفقط عند عرش الرب يلتقيان معاً مجدَّداً.

لا شرق ولا غرب، إذا ما وُجد رجلان قويّان،

وُلدا في أطراف مختلفة من الأرض،

فإنهما يتلاقيان على انفراد؛ واحداً ضدَّ واحد!

عمَّ كنت أتحدَّث؟ آه! عن الفساتين الطويلة لفتاتي... إنها معلقة في الخزانة، ولم تأخذها معها. وأنا أنظم لها الشعر...

الأفغاني، كـ...أمك! أنا أحبُّ التحدث مع نفسي...

عريف، من رجال الاستطلاع

كنت عسكرياً طوال حياتي، ولم أعرف الحياة الأخرى إلا من الأحاديث...

إن سيكولوجية العسكريين المحترفين ذات سمة خاصَّة، لا يهمُّ أن تكون الحرب عادلة أو غير عادلة، فأينما أرسلونا تكون عادلة، وواجبة. وعندما أرسلوني إليها كانت هذه الحرب عادلة. وأنا نفسي اعتقدت ذلك حين وقفت أمام الجنود وتحدَّثت عن حماية الحدود الجنوبية، وتوعيتهم عقائدياً. كانت تُعطى دروس التوعية السياسية مرَّتين في الأسبوع. هل كان في وسعي القول: «أنا أشك»؟ الجيش لا يحتمل التفكير الحر. وعندما يوضع الشخص في الصف العسكري يعمل فقط طبقاً للأوامر، من الصباح حتى المساء.

أمر:

- «قيام! وقوف!».

فنقف.

أمر:

- «اصطفاف لأداء التمارين الرياضية! إلى اليسار در!».

ونقوم بالتمارين الرياضية.

أمر:

- «تفرَّق في الغابة. خمس دقائق للتوجُّه».

ونتفرَّق.

أمر:

- «اصطفاف!».

لم ألاحظ أبداً أن عُلِّقت في الثكنة صورة... مثلاً، من؟ لنقل تسيولكوفسكي[35] أو ليف تولستوي. لم أرَ ذلك أبداً. تُعلَّق عادة صور نيقولاي غاستيللو[36] وألكسندر ماتروسوف[37]... وأبطال الحرب الوطنية العظمى. وحدث مرَّة حين كنت برتبة ملازم أن علَّقت في غرفتي صورة (قطعتها من إحدى المجلات) لرومان رولان. ودخل الغرفة قائد الوحدة:

- «من هذا؟».

* «إنه، أيُّها الرفيق العقيد، الكاتب الفرنسي رومان رولان».

- «قم بإزالة هذا الفرنسي فوراً! ألا يوجد لدينا أبطال؟».

* «أيُّها الرفيق العقيد...».

- «استدرْ وسِرْ إلى المستودع واجلب صورة كارل ماركس».

* «لكنه ألماني».

- «صه! في الحبس يومين!».

ما علاقة كارل ماركس بالأمر؟ أنا نفسي كنت أقف وسط الجنود وأقول: ما نفع هذه الماكينة؟ إنها أجنبية. وما نفع هذه السيَّارة ذات الماركة الأجنبية؟ إنها ستنهار في طرقنا. أفضل ما يوجد في العالم هو من صنعنا: ماكيناتنا، وسيَّاراتنا، وأهلنا. والآن فقط بدأت أفكِّر لمَ لا تكون أفضل ماكينة في اليابان، وأفضل جوارب نايلون في فرنسا، وأفضل الفتيات في تايوان؟ وأنا في الخمسين من العمر...

راودني حلم بأنني أقتل شخصاً ما. وقد جثا على ركبتيه... على أربع. لم يرفع رأسه. لم أرَ وجهه، ولديهم جميعاً وجه واحد. وأطلقت عليه النار

35- عالم صواريخ روسي، قام باكتشاف مبدأ الصواريخ النفاثة.

36- طيار روسي، حاز على وسام بطل الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، كان أول من فجّر طائرته بهدف أرضي.

37- أحد الجنود المشاة السوفيات، حاز على وسام بطل الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، قام بالتضحية بنفسه باستخدام جسده لسد فتحة أحد التحصينات الألمانية.

بهدوء، ونظرت إلى دمه بهدوء. وعندئذ صرخت حين استيقظت من النوم وتذكَّرت هذا الحلم.

هنا كتبوا عن الخطأ السياسي، ووصفوا الحرب بأنها "مغامرة بريجنيفية"، و"جريمة"، بينما وجب علينا القتال ولقاء الموت. وممارسة القتل... هنا كانوا يكتبون، وهناك كانوا يقتلون. لا تصدري الأحكام، وستكونين بلا حكم! عمَّ دافعنا؟ عن الثورة؟ لا، لم أكن أعتقد ذلك، وتمزَّقت أحشائي في داخل جسدي. لكنني كنت أقنع نفسي بأننا ندافع عن مدننا العسكرية، وعن أهلنا.

تحترق حقول الرز... الرصاص الخطاط أحرقها. إنها تطقطق وتحترق بسرعة، كما أن القيظ يساعد الحرب... يهرب الفلاحون (المزارعون)، ويلتقطون من الأرض الحبوب المحترقة والمشوية. أنا لم أرَ أبداً الأطفال الأفغان وهم يبكون، إنهم ينتحبون بصوت خافت. أطفال ناعمون، وصغار، ويصعب التكهُّن بأعمارهم. سراويلهم عريضة، وتبدو من تحتها الأقدام الصغيرة.

كان يراودني دوماً شعور بأن هناك من يريد قتلي. رصاصة طائشة... لا أعرف حتى الآن هل يمكن اعتياد ذلك؟ إن حجم ثمار البطيخ والشمَّام يعادل هناك حجم كرسي صغير. تطعن البطيخة بالحربة فتنفطر. يموت الإنسان بكل بساطة، أما قتله فهو أكثر صعوبة. لم نتحدَّث عن الأموات، كانت هذه قواعد اللعبة، إن جاز القول... تستعدُّ للعملية العسكرية، في قاع الحقيبة رسالة من زوجتي. رسالة وداع. وأنا كتبت لها: "اثقبي المسدَّس وسلِّميه إلى ابني".

بدأت المعركة، وجهاز المسجل يصرخ. لقد نسوا إغلاقه... صوت فلاديمير فيسوتسكي:

في إفريقيا الصفراء الحارة -

في وسطها،

وقعت مصيبة

حدث بغتة، خارج الجدول الزمني،
أن قال الفيل، من دون أن يستوضح الأمر:
يبدو أن الطوفان قادم! ومجمل القضية أن زرافة ما
وقعت في غرام ظبي.

علما أن "المجاهدين" كانوا يستمعون إلى غناء فيسوتسكي أيضاً. فقد تعلَّم كثيرون منهم في بلادنا، وتخرَّجوا من المعاهد السوفيتية، وهم يحملون الشهادات السوفيتية. كنا نصغي عندهم في الليل من المكمن:

صديقي سافر إلى ماغادان.
انزعوا القبَّعة، انزعوا القبَّعة!
لقد سافر بنفسه، سافر بنفسه،
ليس تحت الحراسة، ليس تحت الحراسة.

كانوا في الجبال يشاهدون أفلامنا: عن كوتوفسكي، وعن كوفباك. لقد تعلَّموا كيفية القتال معنا، في حرب العصابات...

كنت أستخرج من جيوب فتياننا القتلى الرسائل، والصور الفوتوغرافية، تانيا من تشيرنيغوف... وماشينكا من بسكوف... صور فوتوغرافية التُقطت في استديو تصوير ريفي. إنهن متشابهات جميعاً. وهناك كتابات ساذجة خلف الصور مثل: "أنتظر الجواب انتظار البلبل للصيف"، و"طر حاملاً التحية، وارجع بالجواب". كانت مرتَّبة على طاولتي مثل دستة أوراق اللعب. فيها وجوه فتيات روسيات بسيطات...

أنا لا أستطيع العودة إلى هذا العالم، والعيش... مجرد العيش. أشعر بالضيق هنا. الأدرينالين يتفجَّر في الدم، وتنقصني حدَّة الأحاسيس، واحتقار الحياة. بدأت أشعر بالمرض، وشخص الأطبَّاء مرضي: تضيُّق الأوعية. أما أنا فلديَّ تشخيصي الأفغاني... أنا في حاجة إلى إيقاع، ذلك الإيقاع لكي أندفع في عراك. والمجازفة، والدفاع. أريد الآن الذهاب إلى هناك، لكنني لا أعرف كيف ستكون أحاسيسي عندئذ. تنهال عليَّ الرؤى... الصور... المعدَّات

المحطَّمة والمحترقة في الطرق. الدبَّابات، والمصفَّحات... هل كل هذا قد بقي هناك؟

ذهبت إلى المقبرة... وأردت أن أتفادى القبور "الأفغانية"... فلقيتني أم أحدهم.

– «اذهب أيُّها الآمر! لقد خطَّ الشيب شعرك، لكنك على قيد الحياة. أما ابني فتحت التراب. إن ابني لم يحلق ذقنه ولا مرَّة واحدة».

منذ فترة قريبة تُوفِّي صديق لي، حارب في إثيوبيا. أصاب التلف كليتيه في ذلك الحر، وذهب معه كل ما عرفه. بينما روى لي رفيق آخر كيف أُرسل إلى فيتنام. والتقيت أيضاً من أُرسل إلى أنغولا، وإلى مصر، وإلى المجر في عام 1956، وإلى تشيكوسلوفاكيا في عام 1968. وتبادلنا الأحاديث. الجميع الآن منهمكون بزراعة الفجل في حدائق البيوت الريفية، ويصطادون الأسماك. أنا الآن متقاعد. لقد اقتلعت إحدى رئتيَّ في المستشفى في كابُل، والأخرى ليست على ما يرام... أنا في حاجة إلى إيقاع! في حاجة إلى عمل ما! سمعت بأنه يوجد في ضواحي مدينة خميلنيتسكي مستشفى يأوي إليه من تخلَّى عنهم ذووهم ومن لا يريد العودة إلى بيته. كتب لي من هناك أحد الشبَّان: "أرقد بلا ذراعين، وبلا ساقين... أستيقظ في الصباح ولا أعرف من أنا: هل أنا إنسان أم حيوان؟ وأحياناً أودُّ أن أطلق المواء كالقطط أو أنبح كالكلاب. أكز على أسناني...". أريد زيارته. أنا أبحث عما يشغلني.

أنا في حاجة إلى إيقاع، ذلك الإيقاع الذي جعلني أندفع في عراك. لكنني لا أعرف مع من سأتعارك. أنا لا أستطيع الوقوف الآن وسط الفتيان لكي أدعوهم قائلاً: «نحن الأفضل، ونحن الأكثر عدالة». لكنني أؤكِّد بأننا أردنا أن نصبح كذلك. لكننا لم نستطع. ومسألة أخرى هي: لماذا؟ لماذا لم نستطع ذلك مرة أخرى؟

رائد، آمر كتيبة

نحن مطهَّرون أمام الوطن...

لقد أديَّت واجبي كجندي بشرف. مهما صرختم هنا، وتقلَّبتم وأعدتم النظر في أفكاركم... لكن ما حال تلك الأحاسيس، مثل الإحساس بالوطن والواجب؟ هل الوطن بالنسبة إليكم كلمة فارغة من المعنى؟ مجرَّد كلمة؟ نحن طاهرو الذمَّة.

ماذا غزونا هناك، وماذا جلبنا من هناك؟ "حمولة 200" - التوابيت التي تضمُّ رفاقنا؟ وماذا كسبنا؟ الأمراض من التهاب الكبد إلى الكوليرا، والجروح، والعجز؟ ليس لديَّ ما أعلن توبتي عنه. لقد ساعدت الشعب الأفغاني الشقيق. لديَّ قناعة راسخة بهذا! ومن كان معي هناك هم أيضاً شبَّان مخلصون وشرفاء. لقد آمنوا بأنهم جاءوا إلى هذه الأرض بنيَّة عمل الخير، وأنهم ليسوا من "رجال الجبهة المخطئين" من "الحرب الخاطئة". هناك من يريد أن يعتبرنا حمقى سذَّجاً، وكبش فداء. لماذا؟ ولأي هدف؟ البحث عن الحقيقة؟ لكن لا تنسوا ما جاء في الكتاب المقدَّس. تذكَّروا أن يسوع المسيح قال حين استجوابه من قبل بيلاطس:

- «أنا ولدت وجئت إلى هذا العالم من أجل نشر الحقيقة».

وأعاد بيلاطس سؤاله: «ما هي الحقيقة؟».

وبقي السؤال بلا جواب...

ثمة حقيقة لي... لي! لقد كنا في إيماننا الساذج طاهرين كالعذارى. فقد بدا لنا أن السلطة الجديدة تعطي الأراضي، وسيستلمها الجميع فرحين. وفجأة... وجدنا أن الفلاح لا يريد الأرض! فهو يقول: من أنت حتى تُعطي

الأرض التي هي ملك الله؟ الله يقيس ويعطي. كما اعتقدنا أننا حين نؤسِّس محطَّة الآليات والجرَّارات سنعطيهم الجرارات والكمبينات والحاصدات، وستتغيَّر حياتهم كلها، وسيتغيَّر الناس. وفجأة نجدهم يدمِّرون هذه المحطَّة! إنهم ينسفون جرَّاراتنا كما لو كانت دبَّابات. كنا نعتقد أن من المضحك التفكير في الرب في عصر التحليقات الفضائية. سخف! أرسلنا إلى الفضاء شاباً أفغانياً... وقلنا لهم: انظروا، إنه هناك حيث ربكم. وفجأة قوبلنا بالدين الإسلامي الذي يواجه الحضارة... هل يمكن محاربة الخلود؟ لا يكفي ما نعتقد به نحن! لكن هذا ما كان... كان... وهذا جزء خاص من حياتنا، وأنا أصونه في روحي، ولا أريد تحطيمه، ولن أسمح بتلطيخه بالطلاء الأسود فقط. نحن كنا هناك نغطِّي أحدنا الآخر في المعركة. فجرِّب أن تقف ضدَّ رصاصة غريبة! هذا أمر لا يُنسى. وهذا؟ كيف رجعت؟ أردت أن تكون عودتي إلى البيت مفاجأة، لكنني خفت على أمِّي. وهتفت:

- «ماما أنا حي، في المطار». وسقطت السمَّاعة في الطرف الآخر من خطِّ الهاتف.

من قال لك إننا هُزمنا في الحرب؟ نحن مُنينا بالهزيمة هنا، في الوطن. في الاتحاد السوفيتي. كيف كنا لنستطيع العودة بصورة أخاذة؟ احترقنا، ولفحتنا الشمس... وعرفنا وعانينا كثيراً... لكنهم لم يسمحوا لنا بذلك. لم يمنحوا لنا هنا الحقوق، ولم يعطونا عملاً هنا. في كل صباح نجد عند موقع المسلَّة (حيث يُراد إقامة نصب تخليداً لذكرى الشهداء من المحاربين الأمميين) لافتة كتب عليها: «ضعوه عند هيئة الأركان وليس في وسط المدينة...». ابن عمِّي البالغ من العمر 18 عاماً لا يريد الالتحاق بالجيش: «هل ألتحق لكي أنفِّذ أوامر حمقاء وإجرامية لأحد ما؟ ولكي أصبح قاتلاً؟». كما ينظر شزراً إلى أوسمتي وميدالياتي. بينما كنت في عمره أنظر بإعجاب إلى جدِّي حين يرتدي السترة في أيام الأعياد وعليها الأوسمة والميداليات. فيما كنا نحن نحارب هناك تغيَّر العالم...

ماهي الحقيقة؟

تعيش في مبنانا السكني ذي الخمسة طوابق امرأة عجوز. طبيبة. إنها في الخامسة والسبعين. لقد أصابها مسٌّ من الجنون بعد كل المقالات والفضائح والخطب، وبعد كل هذه الحقيقة... فتراها تفتح التلفزيون حين يخطب غورباتشوف. وتفتح نافذة الطابق الأوّل وتصيح: "عاش ستالين"، "عاشت الشيوعية-المستقبل الوضاء للبشرية!". أنا أراها في كل صباح، لا يسمعها أحد، لأنها لا تؤذي أحداً... وأحياناً أعتقد بأنني شبيهٌ بها إلى حدٍّ ما.. شبيه بها، كـ...أمك!

لكننا طاهرو الذمّة حيال الوطن....

جندي مدفعية

رنين جرس الباب... هُرعت إلى هناك - لا أحد. وتأوَّهت: هل عاد ابني؟

بعد يومين طرق عسكريون الباب.

وحدست على الفور:

- «ماذا، رحل ابني؟».

* «نعم، رحل».

وساد الهدوء، الهدوء في المكان. جثوت أمام المرآة في المدخل:

- «يا رب، يا رب، يا ربي!».

كانت على الطاولة رسالة لم أنجز كتابتها بعد:

«مرحبا يا ولدي!

طالعت رسالتك وسُررت بها. لم أجد خطأ نحوياً واحداً في رسالتك. هناك خطآن في تركيب الكلام كما في الرسالة السابقة: لفظة "باعتقادي" بادئة، بينما تركيب "بما أن" معقَّد. وفي جملة "سأفعل كما قال أبي" يجب وضع فاصلة. وفي الجملة الثانية: "باعتقادي إنكما لن تشعرا بالخجل بسببي" يجب وضع فاصلة أيضاً. لا تنزعج من أمِّك.

الجو حارٌّ في أفغانستان، يا ولدي. حاولْ ألا تصاب بالبرد. إنك غالباً ما تصاب بالبرد...».

في المقبرة لزم الجميع الصمت. كان هناك عدد كبير من الناس لكنهم بقوا صامتين جميعاً. وقفت وبيدي مفك. لم يستطيعوا انتزاعه مني:

- «دعوني أفتح التابوت... دعوني أرَ ولدي».

أردت أن أفتح تابوت الزنك بالمفك.

أراد زوجي أن ينتحر: «لن أعيش. اغفري لي يا أم، لكنني لن أستطيع العيش بعد هذا». وصرت أقنعه:

- «يجب وضع شاهد للقبر، وإكساؤه بالمرمر، كما لدى الآخرين».

لكنه لم يستطع النوم. فيقول:

* «أرقد، فيأتي ابني. يقبِّلني، ويعانقني».

وضعت حسب التقاليد قالب خبز طوال الأربعين يوماً كلها... بعد الدفن... وبعد ثلاثة أسابيع تفتت القالب إلى قطع صغيرة... معنى ذلك أن العائلة ستنهار...

علقت في كل مكان في البيت الصور الفوتوغرافية لولدي. كنت أشعر براحة النفس، بينما كان زوجي يشعر بالضيق:

- «انزعيها، إنه ينظر إليَّ...».

نصبنا شاهد القبر. إنه جيد... من المرمر الثمين. كانت جميع النقود التي وفَّرناها من أجل زواج ابني قد صرفت لبناء شاهد القبر. كسونا القبر بالمرمر الأحمر، وغرسنا الزهور الحمراء. زهور الداليا. وقام زوجي بطلاء السياج وقال:

- «لقد قمت بكل شيء. ولن يستاء ابني مني».

في الصباح ودَّعني لدى ذهابي للعمل. ودَّعني. وحين رجوعي من نوبة العمل وجدته معلَّقاً من حبل في المطبخ، بالذات مقابل الصور الفوتوغرافية لولدي الحبيب.

- «يا رب! يا رب! يا ربي!».

أنت تقولين: هل هم أبطال أم لا؟ لماذا صبرت على هذه المصيبة؟ وماذا يمكن أن يساعدني على تحمُّل هذه المصيبة؟ في بعض الأحيان أفكِّر: إنهم أبطال! إنه ليس الوحيد الذي يرقد تحت التراب، فهم بالعشرات... إنهم

يرقدون في عدة صفوف في مقبرة المدينة. وفي كل عيد تهدر هناك طلقات الرصاص في التحية العسكرية، وتُلقى الخطب الاحتفالية. وتوضع الزهور. ويجري قبول الأطفال في منظَّمة الطلائع هناك. لكنني في بعض الأحيان أصبُّ اللعنات على الحكومة والحزب... وسلطتنا... بالرغم من أنني شيوعية. لكنني أريد أن أعرف – من أجل ماذا؟ ولماذا وضعوا ولدي في الزنك؟ وألعن نفسي... أنا، معلِّمة اللغة الروسية، أنا نفسي علَّمته: "الواجب هو الواجب يا ولدي. ويجب أداؤه". وألعن الجميع، وفي الصبح أذهب إلى القبر، وأطلب المغفرة:

– «اعذرني يا ولدي لأنني قلت ذلك. اغفر لي».

أم

تلقَّيت رسالة: "لا تقلقي إذا لم تستلمي رسائل. اكتبي لي إلى العنوان القديم". انصرم شهران من الصمت، ولم أتصوَّر أنه في أفغانستان. جهَّزت الحقيبة من أجل السفر إليه في مكان الخدمة العسكرية الجديد...

لقد كتب لي أنه يستجمُّ تحت الشمس ويصطاد السمك. وأرسل صورة فوتوغرافية يبدو فيها ممتطياً حماراً، وركبتاه في الرمل. لم أحزر أي شيء، حتى مجيئه لأوَّل مرَّة في إجازة. يومئذ اعترف بأنه قادم من الحرب... وقُتل صديقه. سابقاً لم يكن يلاعب ابنته، فلم يمتلك أحاسيس أبوية خاصة، ربما لأنها كانت صغيرة جدًّا. ولكنه عندما جاء كان يجلس ساعات وينظر إلى الطفلة، وعيناه حزينتان بشكل أثار مخاوفي. كان في الصباح ينهض ويرافقها إلى روضة الأطفال. كان يحبُّ إجلاسها على كتفيه وحملها. كنا نعيش في كوستروما، وهي مدينة جميلة. في المساء كان يأخذها بنفسه. كنا نذهب إلى المسرح والسينما، لكنه كان يرغب أكثر في البقاء في البيت، ويشاهد التلفزيون، ويتبادل الأحاديث.

كما صار متعطِّشاً إلى الحب، وحين أذهب إلى العمل أو في المطبخ لطهو الطعام كان يأسف على ضياع هذا الوقت ويقول: «اجلسي معي. يمكننا اليوم الاستغناء عن الكستليتات. اطلبي فترة إجازة في فترة وجودي هنا». وحان يوم الرحيل، فتأخَّر على الطائرة خصيصى، بغية أن نبقى فترة يومين آخرين سوية.

آخر ليلة... كانت رائعةً إلى حدٍّ أن جعلني أبكي. كنت أبكي بينما هو صامت، وينظر وينظر فقط. ومن ثم قال:

- «تامارا، إذا أصبح لك رجل آخر فلا تنسي ذلك».

وأنا قلت:

* «هل جننت! لن يقتلوك أبداً! أنا أحبُّك حبّاً جمّاً، مما سيجعلهم لا يقتلونك».

فضحك.

ولم يرغب في إنجاب المزيد من الأطفال:

- «سأعود... وعندئذ ستلدين. فماذا ستفعلين بهم لوحدك؟».

لقد تعلَّمت الانتظار. لكنني حين أرى حافلة نقل الموتى، تسوء حالي، وأغدو مستعدَّة للصراخ والبكاء. وكنت أسرع إلى البيت حيث يجب أن تُعلَّق الأيقونة وأجثو على ركبتي وأصلي: «أنقذيه من أجلي! أنقذيه!».

في ذلك اليوم ذهبت إلى دار السينما... فصرت أتطلَّع إلى الشاشة من دون أن أرى شيئاً. وغمرني قلق مبهم: فهناك في مكان ما ينتظرونني، يجب الذهاب إلى مكان ما، ووجدت صعوبة في البقاء حتى نهاية عرض الفيلم. أظن أنه جرت في تلك اللحظة معركة...

مضى أسبوع دون أن أعلم شيئاً، بل حتى تلقيت رسالتين، وعادة كنت أبتهج بالرسائل وأغمرها بالقبلات، لكنني في هذه المرة احتدمت غضباً: كم من الوقت يجب عليَّ انتظارك؟!

في اليوم التاسع وعند الساعة الخامسة صباحاً وردت برقية، دُسَّت تحت الباب فحسب. كانت البرقية من الوالدين: «تعالي. قُتل بيتيا». وأخذت فوراً بالعويل. وأيقظت الطفلة. ما العمل؟ إلى أين أذهب؟ لم تكن لدي نقود، إذ كان من المقرَّر أن يصل في ذلك اليوم التحويل منه. أذكر أنني لففت ابنتي في لحاف أحمر، وخرجت إلى الشارع - لم تكن الحافلات قد بدأت تسير. أوقفت سيَّارة أجرة وقلت للسائق:

- «إلى المطار».

فصاح عبر النافذة: «أنا ذاهب إلى المرآب».

- «لقد قُتل زوجي في أفغانستان».

فخرج صامتاً من السيَّارة وساعدني في الجلوس داخلها. مررت على صديقة لي واقترضتُ منها نقوداً. في المطار لم توجد تذاكر سفر إلى موسكو، كنت أرتعد رعباً لإخراج البرقية من الحقيبة لكي أبرزها لهم. فربَّما هذا غير صحيح؟ خطأ؟ وربَّما... الشيء الرئيس أنني يجب ألا أتفوَّه بذلك بصوت عال... كنت أبكي والجميع ينظرون إليَّ. أجلسوني في طائرة صغيرة متوجِّهة إلى موسكو. ووصلت إلى مينسك ليلاً. ووجب مواصلة السفر إلى بلدة ستاريه دوروغي. رفض سائقو سيَّارات الأجرة الذهاب، لأن المكان بعيد - خمسون كيلومتراً. فرجوت، وتوسَّلت، ووافق أحدهم: «هات خمسين روبلاً، وسأوصلك». وأعطيته كل ما بقي لدي من نقود.

وصلنا إلى البيت نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل. الجميع يبكون.

- «ربما كان الخبر غير صحيح؟».

* «إنه صحيح، يا تامارا. صحيح».

في الصباح توجَّهنا إلى مكتب التجنيد. جاء الجواب بلهجة عسكرية: «سنبلِّغكم عندما سيجلبونه». وجب الانتظار يومين. نهتف إلى مينسك: «تعالوا بأنفسكم واستلموه». ونذهب. فقيل لنا في مكتب تجنيد المقاطعة: «نقلوه بالخطأ إلى بارانوفيتش». إنها مسافة مائة كيلومتر أخرى، وحافلتنا بلا وقود. في مطار بارانوفيتش لم يكن هناك أي أحد من المسؤولين، فقد انتهى يوم العمل. ويجلس حارس في كشك:

- «نحن جئنا...».

فأشار بيده:

* «هناك، صندوق. انظروا إذا كان لكم فخذوه».

كان في الساحة صندوق قذر كُتب عليه بالطباشير: "الملازم أوَّل دوفنار". كسر شكّل كوة في التابوت: الوجه سليم لكنه غير حليق وغير مغسول، والتابوت صغير الحجم. رائحة. رائحة لا تطاق. لا يجوز الانحناء وتقبيله... بهذه الصورة أعادوا إليَّ زوجي..

جثوت على ركبتي أمام من كان أعزَّ وأحبَّ إنسان لدي...

كان ذلك أول تابوت في قرية يازيل بمنطقة ستارودوروغسكي في مقاطعة مينسك. وبدا الرعب في عيون الأهالي. لم يفهم أحد ما يجري. حملت ابنتي لتوديعه، كان عمرها أربعة أعوام ونصف. فأخذت تصيح: «بابا أسود... أنا أخاف... بابا أسود». أنزلوا التابوت في القبر. وحالما رفعوا الحبال التي أنزل بها إلى القبر انطلقت فجأة عاصفة رعدية وتساقطت حبَّات البَرَد، وأذكر البَرَد المتساقط بشكل حبَّات كروية بيضاء فوق أزهار الليلك، وهو يطقطق تحت الأقدام. حتى الطبيعةُ نفسها أعربت عن احتجاجها. لم أستطع مغادرة بيته خلال فترة طويلة، لأن روحه كانت هناك... أبوه وأمه... حاجياته: الطاولة والحقيبة المدرسية والدراجة الهوائية... كنت أتشبَّث بكل ما يمكن الإمساك به. كنت أمسك حاجياته بيدي. صمت الجميع في البيت. وظننت أن أمَّه تكرهني: فأنا على قيد الحياة أما هو فميت، وأنا سأتزوَّج، بينما لن يكون لابنها وجود. إنها امرأة طيبة، لكنها في تلك الأيام كانت في حالة جنونية. ونظراتها ثقيلة... ثقيلة، ولسان حالها يقول: «تامارا، تزوَّجي». وعندئذ كنت أخاف لقاء نظراتها. أما الأب فكاد يصيبه الخبل: «أي فتى ألقوا في القبر؟ قتلوه!». كنت والأم نؤكِّد له أن بيتيا مُنح وساماً... نحن لا نحتاج إلى أفغانستان وحماية الحدود الجنوبية... لكنه لم كان يصغي إلينا ويردِّد: «أوغاد! أوغاد!».

ولعل أفظع شيء حدث فيما بعد، أفظع شيء... هو أن اعتاد على فكرة أنه ينبغي ألا أنتظر، ولا يوجد من أنتظره. لكني انتظرت طويلاً... انتقلت إلى شقَّة أخرى. وكنت في الصباح أستيقظ غارقة في العرق من الرعب: "سيأتي بيتيا، بينما أنا وأوليتشكا نعيش في مكان آخر". ولم أستطع البتة إدراك أنني الآن وحيدة وسأبقى وحيدة. كنت أنظر ثلاث مرَّات في اليوم في صندوق البريد... كانت تعود إليَّ فقط رسائلي التي لم يستلمها وعليها ختم "المرسَل إليه غادر". كرهت الأعياد، وكففت عن زيارة المعارف، وبقيت لدي الذكريات فقط. وصرت أتذكَّر بشكل أفضل... أولى الذكريات...

في اليوم الأوَّل راقصته. وفي اليوم الثاني قمنا بجولة في المتنزَّه. وفي اليوم الثالث لتعارفنا طلب أن أتزوَّجه. كان لديَّ خطيب، وطلب الزواج موجود في مكتب عقود القران. وقد أخبرته بذلك. فسافر وكتب رسالة بأحرف كبيرة على طول الصفحة: «آ-ا-ا-ا! آو-و-و-و!». وفي يناير وعد: سآتي ونتزوَّج. لكنني لم أرغب في الزواج في يناير، أردت أن أتزوج في الربيع! في قصر عقود الزواج. مع الموسيقى والزهور.

لكن حفل الزفاف تم في الشتاء، في قريتي. بشكل مضحك وسريع. في عيد الغطاس، حين يجري فتح البخت، راودني حلم. وفي الصباح رويته لأمِّي:

- «ماما رأيت في الحلم شاباً وسيماً. كان واقفا على الجسر ويدعوني إليه. وكان يرتدي بزَّة عسكرية. لكنني حين اقتربت منه، أخذ يبتعد ويبتعد ثم اختفى كلِّياً».

فتنبَّأت أمِّي قائلة:

* «لا تتزوجي عسكرياً، وإلا ستبقين وحيدة».

جاء لمدة يومين. وقال من العتبة:

- «لنذهب إلى مكتب عقود الزواج».

وفي المجلس الريفي نظروا إلينا:

- «لمَ الانتظار شهرين؟ اذهبوا واجلبوا الكونياك».

بعد ساعة أصبحنا زوجاً وزوجة.

- «بأي سيارة أجرة ستحمل زوجتك الشابة؟».

* «الآن!»، ولوح بيده وأوقف جرار "بيلاروس".

صرت على مدى الأعوام أرى الأحلام عن كيف التقينا، وكيف ركبنا الجرَّار. وسائق الجرار يدق المنبه، ونحن نتبادل القبلات. لقد مضت على رحيله فترة ثمانية أعوام... ثمانية. وغالباً ما أراه في الحلم... وأنا أتوسَّل إليه

في الحلم طوال الوقت: «تزوَّجني مرَّة أخرى». فيدفعني قائلاً: «لا! لا!». أنا آسف عليه ليس لأنه كان زوجي فحسب، وأي زوج كان! وأي رجل وسيم! كان ذا جسم قوي كبير، وفي الشارع يلتفَّت الناس للنظر نحوه ونحوي. أنا آسف لأنني لم ألد ابناً منه. كان في وسعي ذلك، ورجوته، لكنه خاف...

جاء في إجازة مرَّة ثانية... لم يبعث برقية. ولم يخبرني. الشقَّة مغلقة. كانت صديقتي تحتفل بعيد ميلادها، وأنا عندها. ففتح الباب: موسيقى صاخبة، وضحك... جلس على الطابورية واستغرق في البكاء... وكان يلقاني في كل يوم: «أسير إليك في مكان العمل، وركبتاي ترتجفان. كما لو كنت ذاهباً إلى موعد غرامي». وأتذكَّر كيف ذهبنا إلى النهر، ولفحتنا أشعَّة الشمس وسبحنا. وجلسنا على الضفَّة وأوقدنا النار:

– «أتعلمين كم أنني لا أريد أن أموت من أجل وطن آخر؟».

وفي الليل:

– «تاماركا، لا تتزوَّجي من بعدي».

* «لماذا تقول هذا؟».

– «لأنني أحبُّك كثيراً. ولا أتصوَّر كيف ستصاحبين شخصاً آخر».

مضت الأيام بسرعة، وانبثق خوف ما... وجِد الخوف... وضعنا ابنتنا عند جيراننا من أجل أن نبقى وحيدين. لم يكن ذلك حدساً... بل ظهر شبح. بانت ملامح شبح. وبقيت له فترة نصف عام آخر في الخدمة العسكرية... وتم إعداد البديل له في الاتحاد السوفيتي.

في بعض الأحيان أعتقد أنني أعيش طويلاً – طويلاً، بالرغم من تكرُّر الذكريات نفسها. لقد حفظتها عن ظهر قلب.

عندما كانت ابنتي صغيرة، أتت من روضة الأطفال:

– «لقد سألونا اليوم عن آبائنا. وأنا قلت إن أبي عسكري».

* «لماذا؟».

- «لقد سألوا: هل هو موجود أم لا؟ وسألوا من هو».

لقد كبرت. وعندما أغضب منها لسبب ما تقول لي:

- «ماما، تزوَّجي...».

* «أي بابا تريدين؟».

- «أريد أبي الحقيقي».

* «وليس شخصاً آخر؟».

- «شبيهاً به...».

أصبحت أرملة في عمر 24 عاماً. في الأشهر الأولى كنت مستعدَّة للزواج بأيِّ رجل. لقد أصابني مسٌّ من الجنون! لم أعرف كيف أنقذ نفسي. كانت حولي الحياة ذاتها: فالبعض يبني بيتاً ريفياً، والبعض يشتري سيَّارة، وبعضهم حصل على شقَّة جديدة ويحتاج إلى سجَّاد ولوح أحمر للمطبخ، وورق جدران جميل... حياة عادية لكنها غريبة عني. وأنا؟ أنا كالسمكة فوق الرمل... في الليالي أختنق بعبراتي. الآن فقط بدأت بشراء الأثاث، ولم أستطع إرغام نفسي على صنع الفطائر، وارتداء فستان جميل. فهل يمكن أن يكون هناك عيد في بيتي؟ في عام 41 وعام 45 كانت لدى الجميع مصائب، لدى البلاد كلها. فكل واحد فقدَ شخصاً عزيزاً ما، وعرف لماذا فقده. وكانت النساء تنشدن الأغاني سوية.

يضمُّ معهد صناعة الأغذية الذي أعمل فيه مئة شخص، وزوجي فقط قُتل في هذه الحرب، والتي يعرفها الآخرون من الصحف فقط. وعندما سمعت لأوَّل مرَّة من التلفزيون أن أفغانستان عار لنا، أردت أن أحطِّم الشاشة. في ذلك اليوم دفنت زوجي مرَّة أخرى.

لقد أحببته طوال خمسة أعوام، بينما أحبُّه ميتاً طوال ثمانية أعوام. ربَّما أنا مجنونة... أنا أحبُّه.

زوجة

نقلونا إلى سمرقند...

ثمَّة خيمتان، وضعنا في إحداهما جميع ملابسنا المدنية، الذكي بيننا أفلح ببيع سترة غالية وكنزة، ومن ثم شراء النبيذ. أما في الخيمة الأخرى فقد أخذنا منها ملابس الجنود (المستعملة سابقاً)- معاطف من طراز عام 1945، والجزم الغليظة، وقماش لف الأرجل. علماً أن الجنود في البلدان الإفريقية المتخلفة يرتدون الأحذية الخفيفة "شتيبليت" والمعاطف والسراويل والقبعات "كيبي"، أما جنودنا فيسيرون في صف وينشدون الأناشيد في درجة حرارة تبلغ أربعين فوق الصفر، بينما تغلي أرجلهم كما في مرجل. في اليوم الأوَّل قمنا بإفراغ الأوعية الزجاجية في مصنع الثلاجات. وقمنا في القاعدة التجارية بحمل صناديق الليمونادة. وخلال أسبوعين شيَّدنا سقف حظيرة الخنازير: تُثبَّت ثلاثة ألواح إردوازية، ويُلحم اثنان مقابل قنينة خمر. وبعنا ألواح الإردواز بسعر روبل واحد للوح الواحد. وقبيل أداء القسم العسكري أخذونا مرَّتين إلى ميدان الرماية. في المرَّة الأولى سلَّموا كل واحد منا تسع طلقات، وفي المرَّة الثانية ألقى كل واحد منا قنبلة يدوية...

اصطففنا في ساحة الثكنة وتُلي علينا الأمر التالي: سنرسل إلى جمهورية أفغانستان الديمقراطية لأداء الواجب الأممي. أما الذي لا يرغب، فليتقدم إلى الأمام خطوتين. تقدَّم ثلاثة أشخاص، فأعادهم آمر الوحدة بركلات في أعجازهم، زاعماً أنه جرى اختبار اتجاهات تفكيرنا القتالية. سلَّمونا وجبات طعام باردة لمدَّة يومين، وأحزمة، وأمرونا بالسير. تلكم هي القضية... أنا لم أنزعج. لقد كانت هذه فرصتي الوحيدة لرؤية ما هو خارج البلاد. فعلاً... وهذه حقيقة طبعاً. كنت أحلم بأن أجلب جهاز تسجيل وحقيبة "دبلومات"

جلدية. قبل هذا لم أعرف أي أمر شيّق في حياتي. كانت حياتي مترعة بالسأم. طرنا في طائرات ضخمة من طراز ايل – 76. لأوَّل مرَّة... كانت أوَّل مرَّة أحلِّق فيها في طائرة! شاهدت من النافذة الجبال، وصحراء خالية من البشر. نحن أبناء بسكوف لدينا الفسحات الخضراء والغابات. هبطنا في شنداان. وأذكر التاريخ والشهر – 19 ديسمبر عام 1980.

نظروا إليَّ:

– «متر وثمانون سنتيمتراً... إلى فصيلة الاستطلاع. ثمَّة حاجة إلى أمثاله هناك».

توجَّهنا من شنداان إلى هرات، ومارسنا هناك الأعمال الإنشائية، فبنينا معسكر التدريب هناك. حفرنا الأرض، ونقلنا الحجارة اللازمة للأساس. وعملت في تغطية السقف بالألواح الإردوازية، والقيام بأعمال النجارة. والبعض منا حتى لم يكن قد أطلق النار قبل أوَّل معركة. كنت أشعر بالحاجة إلى الأكل دائماً، في المطبخ يوجد وعاءان سعة كل واحد عشرة ليترات: أحدهما لغلي الملفوف مع الماء، لا أثر للحم هناك، والثاني من أجل الطبق الثاني – عصيدة بطاطس مجفَّفة أو عصيدة الشعير المقشَّر. خُصِّصت لكل أربعة جنود علبة من سمك الإسقمري المعلَّب كُتب عليها: تم التعليب في عام 1956، صالحة للاستخدام في فترة عام وستة أشهر. خلال عام ونصف فقدت الرغبة في تناول الطعام مرَّة واحدة حين أصبت بجروح. يمضي واحدنا الوقت وهو يفكر أين يحصِّل أو يسرق شيئاً يأكله؟ تسلَّلنا إلى بساتين الأفغان فأطلقوا النار علينا. ويمكن أن ينفجر لغم فينا. لكن رغبتنا كانت شديدة في تناول التفَّاح والكمثرى وأية فواكه أخرى. وطلبنا من أهلنا حامض الليمون فبعثوا به في الرسائل. وكنا نذيبه في الماء ونشربه. حامض. فأحرقنا معداتنا.

قبيل أوَّل معركة عُزف بواسطة مكبِّرات الصوت النشيد الوطني للاتحاد السوفيتي. وتحدَّث نائب الآمر للتوعية السياسية. وأذكر من حديثه أن الإمبريالية العالمية لا تنام، والوطن ينتظر عودتنا كأبطال.

لم أتصوَّر كيف سأقتل. فقبل التحاقي بالجيش مارست رياضة سباق الدرَّاجات، وضخّمت عضلاتي حتى صار الجميع يخافني ولم يتجرَّأ أحد على لمسي. حتى أنني لم أرَ عراكاً باستخدام السكاكين وإراقة الدماء. هناك تنقَّلنا فوق المدرَّعات. قبل هذا نقلونا من شندان إلى هرات في الحافلات. كما غادرت الحامية في إحدى المرَّات في عربة "زيل". كنت أجلس فوق الدرع وأحمل السلاح وأكمام قميصي مرفوعة حتى المرفقين... ثمة شعور جديد، لم أعرفه من قبل. الشعور بالسلطة والقوَّة والسلامة الذاتية. أصبحت القرى فوراً واطئة، والسواقي صغيرة، والأشجار قليلة. بعد نصف ساعة غلبتنا الطمأنينة بشكل جعلنا نشعر وكأننا سُيَّاح. كنا نتطلَّع إلى البلاد الغريبة – إنها مثيرة لغرابتها! فالأشجار غير أشجارنا، والطيور غير طيورنا، والزهور غير زهورنا. ورأيت لأوَّل مرَّة حرج أشواك. أما الحرب فقد نُسيت.

عبرنا ترعة، فوق جسر طيني صمد بشكل غريب تحت ثقل عدَّة أطنان من المعدن. وفجأة حدث انفجار – أُطلقت عن كثب قذيفة صاروخية على العربة المدرَّعة الأولى. وجرى حمل الفتيان من معارفي على الأذرع... أحدهم بلا رأس... هدف من الكارتون... تتدلَّى الذراعان. إن الوعي لم يستطع الاندماج فوراً في هذه الحياة الجديدة والرهيبة... صدر الأمر: إدارة الهاونات، وكنا نسميها "فاسيلكي"– مئة وعشرون قذيفة في الدقيقة. سقطت جميع القذائف في القرية التي أُطلقت منها القذيفة، سقطت عدة قنابل في كل بيت. وجمعنا أشلاء جنودنا بعد المعركة، وكشحت من المدرَّعات. لم تمنح ميداليات للموتى، تم وضعهم فوق قماش مشمَّع – قبر جماعي. حاولْ أن تعرف هذه ساق مَن، وقطعة جمجمة لمن... لم تعط ميداليات خشبية وقوعها في أيدي الغير... الاسم، اللقب، العنوان... كما في الأغنية: "عنواننا – ليس البيت ولا الشارع، بل عنواننا – الاتحاد السوفيتي". هذه هي المسألة!

عدنا صامتين. نحن رجال بسطاء، ولم نعتد على القتل. وهدَّأونا في الوحدة. فأكلنا. ونظَّفنا الأسلحة. وبعدها بدأ الحديث.

قال "الجدود" من الجنود القدامى:

- «هل تدخّن؟».

* «لا أريد».

لم أرغب في تدخين المخدِّرات، كنت أخشى أن أعتاد على ذلك ولا أتركه. فالمرء يدمن المخدِّرات بسرعة، ولا بدَّ من توفُّر إرادة قوية للتخلِّي عنها. بعد ذلك دخَّن الجميع، وإلا فإن المرء يموت، وتنفجر أعصابه. حبَّذا لو وُجدت المئة غرام فودكا لمفوضية الشعب التي كانت تُعطى للجنود في الحرب العالمية. لكن لا يُسمح بذلك. شرب الكحول ممنوع. بينما يحتاج المرء إلى إزالة توتر الأعصاب. والنسيان. لذا يرشُّون المخدِّرات في طبق الرز واللحم "بلوف" وفي العصيدة... مقابل خمسين روبلاً... ترى ليلاً كالقط، وتغدو خفيفاً مثل الوطواط.

رجال الاستطلاع لا يَقتلون في معركة، بل يَقتلون عن قرب. ليس بواسطة الرشَّاش، بل بالسكِّين والحربة بغية القيام بهذا بهدوء وبلا صوت. وأنا تعلَّمت القيام بذلك بسرعة، وأصبح شيئاً مألوفاً. أوَّل قتيل؟ من قتلت عن قرب؟ أذكر... اقتربنا من قرية، وشاهدنا في منظار الرؤية الليلية مصباحاً يدوياً ينير بالقرب من شجرة، وثمَّة بندقية، ورجل ما يحفر هناك. فأعطيت لرفيقي الرشَّاش، واقتربت منه لمسافة تتيح القفز فقزت وألقيته أرضاً. وبغية ألا يصرخ دسست عمامته في فمه. ولم آخذ معي السكِّين فهو ثقيل. وكانت معي مطواة لفتح المعلبات. مطواة عادية. كان مستلقياً... فسحبت لحيته وحززت بلعومه بالمطواة. وما بعد أوَّل قتيل مثل ما بعد أوَّل امرأة... تحدث صدمة. لكنها انحسرت لديَّ بسرعة... ففي كل الأحوال أنا من أبناء الريف وكنت أذبح الدجاج والماعز! تلكم هي المسألة!

كنت أشغل منصب رجل الاستطلاع الأقدم. كنا نخرج ليلاً عادة. ويجلس أحدنا مع سكِّين وراء شجرة... هم آتون.. في المقدَّمة رجل الدورية، ويجب القضاء على رجل الدورية. وكنا نقضي عليهم بالدور...

وحان دوري... اقترب رجل الدورية مني، وسمحت له بالمرور قليلاً ثمَّ قفزت عليه من الخلف. الشيء المهم أن يُقبض على رأسه باليد اليسرى ويكون البلعوم إلى أعلى، بغية ألا يصرخ. بينما أطعنه باليد اليمنى في الظهر، تحت الكبد... ويجب أن تكون الطعنة نفاذة. فيما بعد حصلت على غنيمة، سكِّين ياباني طوله 31 سنتيمتراً. إنه يدخل في جسد الرجل بيسر. ويتمايل ويسقط، من دون أن يصرخ. المرء يعتاد على ذلك. ولم يكن ذلك صعباً من الناحية السيكولوجية كما الحال من الناحية التقنية. ولا بد من أن تكون الطعنة في القلب. لقد تعلَّمنا الكاراتيه، وليَّ الأذرع وربطها، وإيجاد نقاط الضعف؛ الأنف، الآذان، فوق الحاجب. يجب توجيه الضربة بدقة، ومعرفة أين يجب الطعن بالسكِّين. نقتحم باحة البيت وراء الجدار الطيني: اثنان يقفان عند الباب، واثنان في الباحة، أما الباقون فيفتِّشون البيت ويستولون على كل ما يعجبهم، طبعاً...

في إحدى المرَّات فقدت أعصابي... كنا نقوم بعملية تمشيط في قرية، وعادة نفتح الباب قبل أن ندخل، ونرمي قنبلة يدوية، بغية ألا تقابلنا صلية رشَّاش. فلمَ المجازفة؟ الدخول بالقنبلة اليدوية أصوب. فأرمي القنبلة اليدوية وأدخل: فأجد هناك نساءً وصبياناً وطفلاً رضيعاً مستلقين. إنه يرقد في علبة ما بدلاً من المهد...

أتذكَّر هذا الآن... والآن أنا متعكِّر المزاج...

أردت أن أكون طيِّباً، لكن هذا غير ممكن في الحرب. رجعت إلى الوطن. أصبحت أعمى، فقد شطحت رصاصة الشبكية في كلتا العينين. لقد دخلت من صدغي الأيسر وخرجت من الأيمن. وأرى النور والظلام فقط. لم أفلح في أن أكون طيِّباً. وغالباً ما تتملَّكني الرغبة في أن أحز رقبة. أنا أعرفهم أولئك الواجب حز رقابهم... أولئك الذين يبخلون بوضع لوحة على قبور فتياننا... أولئك الذين لا يرغبون في منحنا نحن المعوَّقين الشقق: "أنا لم أرسلك إلى هناك...". أولئك الذين يبصقون علينا. نحن كنا نموت هناك، بينما كانوا

يشاهدون هذه الحرب على شاشة التلفزيون. لقد كانت الحرب بالنسبة إليهم فرجة. فرجة! ودغدغوا أعصابهم.

لقد تعلّمت العيش بلا عينين... أتنقّل في المدينة لوحدي، لوحدي في مترو الأنفاق، وفي معابر الأنفاق. وأعدُّ لنفسي الطعام، وتُعجب زوجتي: أنا أطهو طعاماً ألذ منها. لم أر زوجتي مطلقاً، لا أعرف كيف هي. وما هو لون شعرها، وما هو أنفها، وماهي شفتاها... أنا أسمع بيدي، وبجسدي... وجسدي يرى. أنا أعرف هيئة ابني.... كنت ألفُّه بالقماط حين كان صغيراً، وأغسله. والآن أحمله على كتفي. وأحياناً أعتقد بأن المرء لا يحتاج إلى العيون. والمرء يغلق عينيه عند الأمور المهمّة، وحين يكون في أحوال طيِّبة. يحتاج الرسَّام إلى العينين لأن مهنته تتطلَّب ذلك. لكنني أتحسَّس العالم، أسمعه. وبالنسبة إليَّ تعني الكلمة أكثر من العينين بالنسبة إليك وإلى من لديه عينيان. الكلمة والخط. الأصوات. أنا بالنسبة إلى الكثيرين رجل مضى عهده: فأنا فتى أنهى القتال حسب زعمهم. مثل يوري غاغارين بعد تحليقه في الفضاء. كلا، إن الشيء الأساسي بالنسبة إليَّ في المستقبل. أنا أعرف ذلك. يجب عدم إعارة اهتمام كبير إلى الجسد أكثر من الدرَّاجة الهوائية، كنت في الماضي من روّاد ركوب الدرّاجات، شاركت في السباقات. الجسد هو أداة، ماكينة، نعمل عليها، لا أكثر. في وسعي أن أكون سعيداً وحرّاً بلا عينين... لقد فهمت ذلك. ما أكثر الأشياء التي لا يراها المبصرون! حين كانت لدي عينان كنت أعمى أكثر ممَّا أنا عليه الآن. بودِّي أن أتطهَّر من كل شيء. من كل تلك القاذورات التي رمونا فيها. ومن كل الذاكرة... أنت لا تعرفين كيف أشعر بالخوف ليلاً، إذ تنهال عليَّ جميع الذكريات مجدَّداً. أنا أقفز بالسكّين مجدَّداً على إنسان، وأفكِّر أين أسّدد الطعنة... والإنسان ناعم، وأتذكر أن جسد الإنسان ناعم. تلكم هي المسألة! هكذا...

في الليل أشعر بالخوف لأنني أرى... لست أعمى في أحلامي...

جندي استطلاع

لا تنظري إليَّ بكوني صغيرة وضعيفة، فأنا كنت هناك أيضاً... أنا جئت من هناك.

بعد كل عام أجد صعوبة في الإجابة عن السؤال: "إذا لم تكوني جندية فلماذا سافرت إلى هناك؟". كنت في السابعة والعشرين من عمري، جميع صديقاتي تزوَّجن، أما أنا فلا. ربطتني علاقة صداقة مع شاب طوال عام، فتزوَّج من أخرى. وكتبت لي صديقتي: «أبعديه! امسحيه من الذاكرة، بغية ألا يعرف أو يحدس أحد بأننا كنا هناك». لا، لن أمحوه من الذاكرة، لكنني أريد استقصاء الأمر.

لقد بدأنا ندرك ونحن هناك، بأننا خُدعنا. السؤال: لمَ خدعونا بهذه البساطة؟ لأننا أنفسنا نريد ذلك... لا أعلم: نريد أم لا نريد؟ ما هو التعبير الصريح؟ أنا أعيش وحيدة منذ فترة طويلة، وقريباً سأفقد القدرة على الكلام، وسأصمت تماماً. وفي وسعي الاعتراف... لقد كنت سأخفي ذلك عن رجل، ولكنني سأقوله لامرأة... لقد ذُهلت وتفاجئت حين رأيت ذلك العدد الكبير من النساء الذاهبات إلى الحرب. حسناوات وغير حسناوات. شابات وغير شابات. مرحات وعبوسات. خبَّازات، طبَّاخات، نادلات، عاملات تنظيف... طبعاً يوجد لكل واحدة اهتمام عملي معيَّن - ربَّما كسب الرزق، وربَّما تدبير الحياة الشخصية. جميعهنَّ غير متزوجات أو مطلَّقات. إنهنَّ يبحثن عن السعادة؛ المصائر. هناك كانت السعادة. وعشقن بشكل جدِّي. وأُقيمت حفلات زفاف. تامارا سولوفي، ممرضة... جُلب على النقَّالات طيَّار مروحية، أسود الجسد كله محترق. بعد شهرين استدعتني لحضور حفلة زفافها. فقد تزوجت الطيار.

وأنا أسأل الفتيات اللواتي أعيش معهن في الغرفة: ما العمل وأنا في فترة حداد؟ فقد قُتل صديقي، ويجب أن أكتب رسالة إلى أمّه، أواصل البكاء منذ يومين. أية حفلة زفاف؟ أجابت الفتيات: «ربَّما سيُقتل خطيبها بعد يوم غد، وسيكون هناك من يبكي عليه». وبرأيهنَّ لا حاجة إلى التفكير - الذهاب أو عدم الذهاب، ابحثي عن هدية. والهدية واحدة لدى الجميع: مظروف فيه صكوك. جاء طاقم مروحية العريس حاملاً وعاء كحول. وغنَّينا ورقصنا ورفعنا الأنخاب. والصياح: "قُبلة!". إن السعادة واحدة في كل مكان، وبالأخص سعادة المرأة... وحدثت أمور مختلفة، لكن بقي في ذاكرتي حدث جميل... زارني آمر الكتيبة في غرفتي مساء وقال: «لا تخافي! أنا لست في حاجة إلى شيء منك. فاجلسي، وأنا أنظر إليك».

لكن وُجد الإيمان! الإيمان الكبير! إنه شيء جميل جداً أن يؤمن الإنسان بشيء ما. رائع! الشعور بالخداع، والإيمان، كان هذا يكمن فينا بشكل ما... ربَّما لم أستطع أن أتصوَّر الحرب بشكل آخر غير الحرب الوطنية العظمى، فأنا منذ الطفولة أحببت مشاهدة الأفلام عن الحرب. هذا ما اعتقدته، وهذا ما صوَّرته في عقلي. لكن لم أتوقَّع رؤية مثل هذه المشاهد... هل يمكن أن يستغني أي مستشفى عسكري عن النساء! وعن الأيدي النسائية؟ يرقد هناك من احترقت أجسادهم، ومن تمزَّقت أوصالهم... حتى مجرَّد وضع اليد على الجرح وإكسابه شحنة ما، هو رحمة! إنها عمل لقلب المرأة! هل ستصدِّقينني؟ حسناً، ليس جميع النساء هناك مومسات أو "واشيات" لدى أجهزة الأمن. كان عدد الفتيات الطيِّبات أكثر. أنا أثق بك كامرأة... يُفضل التزام الصمت عن هذا الموضوع مع الرجال. سيضحكون في وجهي... لا يعرف أحد في مكان عملي الجديد (لقد رجعت وتركت عملي القديم) بأنني عائدة من الحرب، من كابُل... منذ فترة قريبة دار الجدل حول أفغانستان: ما هي هذه الحرب؟ ولماذا هذه الحرب؟ فقاطعني كبير المهندسين قائلاً: «ماذا تفهمين وأنت إمرأة شابة في الشؤون العسكرية... إنها تخصُّ الرجال». (ضحكت). لقد التقيت في الحرب الكثير من الفتيان الذين كانوا يندفعون

أنفسهم للمشاركة في العمليات القتالية، وكانوا يلقون مصرعهم، من دون التمعُّن في الأمر. لقد راقبت الرجال هناك كثيراً. كنت أتطلَّع إليهم من باب الفضول. حسناً... فيمَ يفكِّرون؟ وماذا يوجد في رؤوسهم، أي ميكروب؟ إنهم يقاتلون دائماً... ورأيت كيف كانوا يجازفون بحياتهم، وكيف كانوا يمارسون القتل. علماً أنهم يعتقدون حتى الآن أنهم يتميَّزون بخصال خاصَّة ما داموا يقتلون. كان يتملَّكهم شيء ما لا يتملَّك الآخرين. لربَّما هذا مرض؟ ويوجد ميكروب، فيروس... يُصابون به.

انقلب كل شيء رأساً على عقب في البيت، بين أبناء جلدتنا. لقد سافروا من الدولة التي كانت تحتاج إلى هذه الحرب، والاشتراكية فيها تنهار، لكن ليس للحد الذي حال دون بنائها في الآفاق البعيدة. ولم تعد نصوص لينين وماركس تتردَّد على الأفواه. ولا يدور الحديث عن الثورة العالمية. الأبطال الآن من نوع آخر... فلاحون، ورجال أعمال، والمثل العليا غير ما كانت عليه سابقاً: بيتي - قلعتي. جرت تربيتنا على مثال بافل كورتشاغين، وميريسييف[38]، وكنا ننشد عند النار: "سابقاً كنت تفكِّر في الوطن، والآن فكِّر في نفسك". عمَّا قريب سيسخرون منا، ويُخيفون الأطفال بنا. وما يؤسف له هو ليس لكونهم لم يعطونا شيئاً ما، ربما لنقص في الميداليات... لقد شطبونا، كما لو أنه لا وجود لنا. وأصبحنا بين حجري الرحى.

في النصف الأول من العام لم أكن أستطيع النوم، وعندما أغفو تراودني في الحلم مشاهد الجثث، والقصف. فأستيقظ برعب. وحالما أغمض عينيَّ تتكرَّر المشاهد نفسها. توجَّهت إلى الطبيب النفسي، فاستمع إليَّ ودُهش: «ماذا؟ هل رأيت مثل هذا العدد من الجثث؟». واعتملت فيَّ الرغبة في أن أصفع وجهه الفتي! وكبحت غضبي بصعوبة... أقنعت نفسي. كان في وسعي أن أمطره بشتائم فاحشة! لقد تعلَّمت ذلك في الحرب. وبعد هذا لم أراجع أي طبيب. بدأت حالة الكآبة، في الصباح لا أرغب في مغادرة الفراش

38- بطل رواية «قصة إنسان حقيقي» لبوريس بوليفوي.

والاغتسال وتمشيط شعري. وأفعل كل ذلك بصعوبة رغم أنفي. أذهب إلى العمل، وأتحدَّث مع البعض، وإذا سألِتِني في المساء – لا أذكر شيئاً. صرت لا أرغب في العيش أكثر فأكثر. لا أستطيع الإصغاء إلى الموسيقى، ومطالعة الأشعار. بينما كنت سابقاً أحب كل هذا، وأحيا فيه. لا أدعو أي أحد لزيارتي. وأنا نفسي لا أريد زيارة أحد. لا يوجد ملاذ لي – المشكلة السكنية اللعينة! فأنا أعيش في شقة عمومية... ماذا كسبت من الحرب؟ ملابسي قليلة، واشتريت أثاثاً إيطالياً... لكنني بقيت وحيدة... لم أجد في هذه الحياة أي شيء، وضعتُ فيها. كما أنني لا أنسجم مع هذه الحياة. وكان بودِّي مع هذا الإيمان بشيء ما، لكنهم سلبوني إياه. لقد نهبوني... ليس النقود في البنك فقط (بسبب التضخُّم)، بل الأسوأ أنهم سلبوا الماضي. لا يوجد لديَّ هذا الماضي، ولا الإيمان... بأي شيء أحيا؟

أنت تعتقدين أننا قساة؟ ألا تفكِّرين في مدى قساوتكم أنتم؟ لا يسألوننا ولا يستمعون إلينا. لكنهم يكتبون عنا...

لا تذكري اسمي. واعتبري أنني لست موجودة.

موظَّفة

أنت تُهرع إلى المقبرة كما لو كنت على موعد هناك...

في الأيام الأولى قضيت الليالي هناك، ولم أخف. أنا الآن أفهم جدًّا تحليق الطيور وكيف تنمو الأعشاب. في الربيع أنتظر موعد ظهور برعم الزهرة من التربة متمايلاً نحوي. فقد غرست هناك الزهور اللبنية الثلجية بغية أن أتلقّى بسرعة التحيَّة من ولدي. إنها تنبجس من هناك صاعدةً نحوي... بتحيَّة منه.

أجلس بالقرب منه حتى المساء، وحتى الليل. وأحياناً أصرخ بشدة، وأنا لا أسمع حتى أرى صعود الطيور في الجو. موجة من الغربان، تدور وتصطفق أجنحتها فوقي، فأثوب إلى رشدي، وأكفُّ عن الصراخ. أزوره في كل يوم منذ أربعة أعوام كاملة. في الصباح أو في المساء. لم أزره فترة أحد عشر يوماً رقدت فيها في الفراش بعد إصابتي بالاحتشاء القلبي، لم يسمح لي الأطبَّاء بالنهوض. ونهضت ومشيت بهدوء إلى المرحاض. معنى ذلك أنني أستطيع الوصول إلى ولدي، وأسقط كما لو أنني أسقط فوق قبره. هربت برداء المستشفى.

قبل هذا راودني حلم.

– «ماموتشكا، لا تأتي غداً إلى المقبرة. لا حاجة إلى ذلك».

وأتيت: هدوء مطبق، كما لا وجود له هناك. وأحسُّ في قلبي – لا وجود له هناك. تربض الغربان فوق النصب والسياج ولا تطير، ولا تبتعد بسببي كالعادة. نهضت من المصطبة، فإذا بها تحلِّق حولي، بغية تهدئتي. ولا تسمح لي بالانصراف. ما القضية؟ ممَّ تريد تحذيري؟ وفجأة هدأت الطيور، وصعدت

إلى الأشجار. اقتربت من القبر، فغمرت روحي الطمأنينة، وزالت مخاوفي. لقد عادت روحه. «شكراً لطيوري، التي حذّرتني ولم تسمح لي بالانصراف. وبهذا انتظرت عودة ولدي...». أنا أشعر بوطأة حضور الآخرين، وأمشي وتغمرني الوحشة والتوحُّد. يتوجَّهون إليَّ بأحاديث ما، إنهم يزعجونني، ويعيقونني... أما هناك فأنا بخير. إن حالتي تكون جيّدة فقط عند ولدي. يمكن أن تجديني إما في مكان العمل وإما هناك. هناك، عند القبر... يبدو كما لو أن ولدي يعيش هناك. وقد حدَّدت مكان رأسه... فأجلس بالقرب منه وأحدِّثه بكل شيء... كيف كانت الأمور في الصباح، وكيف اليوم... نحن - أنا وهو - نستعيد الذكريات سوية... أنظر إلى الصورة، أنظر إليها ملياً، ولفترة طويلة... إنه إما يبتسم قليلاً أو غير راض عن شيء ما، ويعبس. هكذا أحيا معه. وإذا اشتريت فستاناً جديدًا فأنا أشتريه فقط من أجل زيارة ولدي لكي يراني فيه... سابقاً كان يجثو أمامي على ركبتيه ويقول: «يا أماه. يا حسنائي!». الآن أنا أمامه. أفتح باب السياج وأجثو على ركبتي وأقول:

- «صباح الخير يا ولدي... مساء الخير يا ولدي...».

أنا دائماً معه. أردت أن أتبنَّى صبيًّاً من دار اليتامى... صبياً واسع العينين مثله. لكنني شعرت بوخز في قلبي. لم يتحمَّل قلبي. أنا أحشر نفسي في مكان عملي كما لو كنت أحشرها في نفق مظلم، وأُصاب بالجنون إذا ما وجدت الوقت للجلوس في المطبخ والتطلُّع من النافذة. ولا يمكن أن تنقذني سوى أوجاعي. لم أذهب إلى السينما مرة واحدة خلال الأعوام الأربعة هذه، وبعت التلفزيون الملوَّن، وأنفقت النقود لإقامة النصب على القبر. لم أستمع إلى الراديو مرة واحدة. ما أن لقي ولدي مصرعه تغير كل شيء فيَّ: الوجه والعينان وحتى اليدان.

تزوَّجت بمثل هذا الحب! زوجي طيَّار، طويل القامة، وسيم. كان يرتدي سترة جلدية وجزمة فرو دب. هل سيكون هذا الرجل زوجي؟! ستُذهل البنات. أدخل المتجر، ولا أدري لماذا لا تنتج صناعتنا الأحذية ذوات

الكعوب العالية؟ فأنا إلى جانبه قصيرة. وتمنَّيت لو أُصيب بمرض وسعال، وأن يصيبه الزكام، عندئذ سيبقى طوال اليوم في البيت، وسأرعاه. ورغبت جداً في أن يكون لي ولد. ابن سيكون مثله. بمثل هاتين العينين والأذنين والأنف. وبدا كما لو أن أحداً ما أصغى في السماء إلى دعائي. لقد وُلد ابني شبيهاً به، قطرة في قطرة. ولم أستطع تصديق أن هذين الرجلين الرائعين هما لي. لم أستطع تصديق ذلك! أحببت البيت. أحببت الغسيل وكي الملابس. لقد أحببت كل شيء حتى كنت لا أدعس على العنكبوت بقدمي، وأمسك الذبابة والدعسوقة في البيت وأطلقهما من النافذة. لتعش جميعها، وتحب بعضها البعض. كم كنت سعيدة! وعندما أعود من العمل أو من المخزن أدق جرس الباب، وأنير المصباح في المدخل، لكي يرى ولدي كم أنا فرحة:

– «ليرونكا (هكذا كنت أدعوه في الطفولة)، هذه أنا. لقد اشتقت إليك!».

أحببت ولدي حبّاً جمّاً وما أزال أحبُّه الآن. جلبوا لي الصور الفوتوغرافية لموكب الجنازة... فلم آخذها. أنا لم أصدِّق بعد وفاته... أنا كلب وفي، من تلك الكلاب التي تموت على القبور. كما أنني كنت صديقة وفية دائماً. الحليب يتدفَّق من ثدييَّ، اتفقت على لقاء صديقتي لأعطيها كتاباً. ووقفت أنتظرها في الزمهرير ساعة ونصف الساعة، لكنها لم تأتِ. الإنسان لا يمكن ألا يأتي فحسب، ما دام قد وعد بالمجيء، لا بد من أن شيئاً طارئاً قد حدث. فهُرعت إلى بيتها، ووجدتها نائمة. ولم تستطع أن تفهم سبب بكائي. أنا أحببتها أيضاً، وأهديتها فستاني المفضل – الأزرق. هكذا أنا. انخرطت في خضم الحياة ببطء، وبوداعة. البعض أكثر جرأة. ولم أصدِّق بأنه يمكن أن يحبَّني أحد ما. وقيل لي: حسناء، فلم أصدِّقهم. لقد مضيت متأخرة عن مسيرة الحياة. لكن إذا تذكَّرت أمراً ما، وحفظته، فهذا يبقى طوال الحياة، إلى الأبد، وكل ذلك ببهجة. عندما حلَّق يوري غاغارين في الفضاء اندفعت مع ليرونكا إلى الشارع. أردت في هذه اللحظة أن أحب الجميع... وأعانق الجميع... وهتفنا بصوت عال من الفرح.

لقد أحببت ولدي بجنون. بجنون. كما أحبَّني هو حبًّا جمّاً. القبر يجذبني إليه. ويدعوني. كما لو كان يرد على دعوتي.

سألوه:

– «هل لديك فتاة؟».

فأجاب:

* «نعم». ويبرز هويتي الطلابية حيث أبدو فيها بضفيرتين طويلتين.

كان يهوى رقصة الفالس. ودعاني إلى أول رقصة فالس له في المدرسة في حفلة التخرُّج. وأنا لم أعرف أنه يجيد الرقص، وتعلَّم ذلك. فأخذنا ندور ونلفُّ في حلقة الرقص.

أجلس عند النافذة في المساء وأبدأ بالحياكة، وأنتظره. خطوات... لا، ليس هو. ثم أسمع خطواته، خطوات ولدي! أنا لم أخطئ ولو مرة واحدة أبداً. نجلس قبالة أحدنا الآخر ونتبادل الأحاديث حتى الرابعة فجراً. عن أي شيء؟ عمَّ يتحدَّث الناس حينما يكون مزاجهم رائق؟ عن كل شيء، عن الأمور الجدية والتافهة. ونستغرق في القهقهة. وهو يغنِّي ويعزف على البيانو.

أتطلَّع إلى الساعة:

– «فاليرا، حان وقت النوم».

* «دعينا يا ماتوشكا نجلس أكثر».

كان يدعوني: ماما، ماما الذهبية.

وهكذا، يا ماما الذهبية، التحق ولدي بالكلية العسكرية العليا في سمولينسك. هل أنا مسرورة؟!

جلس وراء البيانو وأنشد:

أيُّها السادة الضبَّاط – الأمراء الزرق!

أنا، ربَّما، لستُ الأوَّل،

ولستُ الأخير...

والدي ضابط محترف، قُتل دفاعاً عن لينينغراد. وجدِّي كان ضابطاً. أما ولدي فقد أعدَّته الطبيعة نفسها ليكون رجلاً عسكرياً: القامة، القوَّة، أسلوب التعامل. كان يجب أن ينضمَّ إلى سلك الفرسان! القفَّازات البيضاء، أوراق القمار، البريفرانس... وأقنعت نفسي بالقول: «أنت نجمتي العسكرية». لو أنزلت إلينا السماء الربانية شيئاً ما، ولاحت إشارة...

كان الجميع يقلِّدونه. وأنا، أمه، كنت أقلِّده أيضاً. كنت أجلس مثله عند آلة البيانو، وأعزف لحناً ما بصوت خافت. وأحياناً كنت أمشي مثله. بالأخص بعد مصرعه. أريد أن يبقى معي دائماً... وأن يواصل العيش...

- «إذاً، يا ماما الذهبية، إن ولدك مسافر».

* «إلى أين؟».

صمت. بينما جلست وذرفت الدموع:

* «ولدي العزيز إلى أين أنت ذاهب؟».

معنى ذلك إلى هناك؟ يعرف إلى أين.

- «ماما إلى العمل. لنبدأ من المطبخ... سيأتي الأصدقاء».

وفي لحظة خاطفة حدست:

* «إلى أفغانستان؟».

- «نعم إلى هناك...»، وبانت على وجهه ملامح العزم، ونزل الستار الحديدي.

جاء إلى البيت صديقه كولكا رومانوف. وروى كل شيء كجرس صغير: لقد قدَّموا منذ العام الدراسي الثالث طلباً لإرسالهم إلى أفغانستان. ورفض المسؤولون طلبهم لمدة طويلة.

أول نخب: من لا يغامر لا يستحق شرب الشمبانيا. وفي المساء كله ردَّد فاليرا أغنياتي العاطفية المفضلة:

أيُّها السادة الضبَّاط - الأمراء الزرق!

أنا، ربَّما، لستُ الأوَّل،
ولستُ الأخير...

بقيت أربعة أسابيع. وفي الصباح كنت أدخل إلى غرفته قبل التوجُّه إلى العمل، فأجلس وأصغي إلى كيف ينام. كان ينام ببهاء أيضاً.

كيف دق القدر بابنا، كما تنبأت! رأيت في الحلم: أنا فوق صليب أسود وبرداء طويل أسود... ويحملني ملاك على الصليب... وأنا أرى بصعوبة. أردت أن أعرف أين سأسقط. في البحر أم في البر؟ أرى تحتي حفرة يغمرها نور الشمس...

انتظرته في فترة الإجازة. رن جرس الهاتف في العمل:

- «أمِّي الذهبية، أنا وصلت. لا تتأخري. الحساء جاهز».

فصحت:

* «ولدي، ولدي العزيز! لست تتصل من طشقند؟ بل من البيت! في الثلاجة يوجد قدْر حساء البورش المحبب لديك»!

- «أوه، رأيت القِدْر لكن لم أرفع الغطاء».

* «وأنت أي حساء لديك؟».

- «حساء: حلم الأبله! تعالي. سأستقبلك عند موقف الحافلات».

رجع وقد غمر الشيب شعر رأسه. لم يعترف بأنه لم يأت في إجازة، بل طلب السماح له بالسفر من المستشفى العسكري: «أريد رؤية أمِّي لمدَّة يومين». صار يتقلَّب على السجَّاد ويصرخ من الألم. التهاب الكبد، الملاريا - لقد أُصيب بعدَّة أمراض مرَّة واحدة. وحذَّر شقيقته قائلاً:

- «ما شاهدتِه الآن، يجب ألا تشاهده ماما. اذهبي، طالعي كتابك».

مرة أخرى كنت أدخل إلى غرفته قبل الذهاب إلى العمل، من أجل أن أرى كيف ينام. ففتح عينيه:

- «ما الأمر، يا أمِّي؟».

* «لماذا لا تنام؟ ما زال الوقت مبكِّراً».

- «شاهدت حلماً سيِّئاً».

* «يا ولدي، إذا كان سيِّئاً، فيجب أن تتقلَّب في الفراش، وسترى حلماً جميلاً. ويجب ألا تردِّد الكلمات السيِّئة، وعندئذ لن تتحقَّق».

ودَّعناه إلى موسكو. كان ذلك في أحد أيام مايو المشمسة. وقد تفتَّحت زهور الحب.

- «كيف الأمور، هناك؟».

* «أفغانستان، يا أمِّي، هو ما لا يجب أن نفعله».

كان ينظر إليَّ فقط، ولا ينظر إلى أي أحد آخر. ومدَّ يديه، ومسح العرق من جبينه:

* «أنا لا أريد الذهاب إلى هذه الحفرة! لا أريد». وانطلق. والتفت، «هذا كل ما في الأمر يا أماه».

لم يكن يتلفَّظ بكلمة "ماما" أبداً، كان يقول دوما "يا أمَّاه". يوم مشمس رائع. وتفتَّحت زهور الحب... الموظَّفة المناوبة في المطار تطلَّعت إلينا وذرفت الدموع...

في 7 يوليو استيقظت غارقة في دموعي، وحدَّقت في السقف بعينين زجاجيتين. لقد أيقظني هو... كما لو جاء لتوديعي. في الساعة الثامنة. يجب التهيُّؤ للذهاب إلى العمل، وأخذت أهرول بالفستان من الحمَّام إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى الغرفة الأخرى... لسببٍ ما أنا لا أستطيع ارتداء الفستان الفاتح اللون. وأُصبت بدوار في رأسي... لم أر شيئاً. لقد صار كل شيء يعوم أمام عيني... وفي فترة الغداء عاد إليَّ الهدوء، في منتصف النهار...

في 7 يوليو.. سبع سجائر في الجيب وسبعة أعواد ثقاب، وسبعة صور التقطت في آلة التصوير، وسبع رسائل موجهة إليَّ. وسبع رسائل موجَّهة إلى خطيبته. وكتاب فتح عند الصفحة السابعة... كوبو آبي "أوعية الموت".

كانت لديه ثلاث أو أربع ثوان لكي ينقذ نفسه! كانت مروحيتهم تنحدر نحو الهاوية....

- «يا شباب أنقذوا أنفسكم! وأنا سأموت!». لم يكن في استطاعته الهبوط قبل الآخرين، والتخلِّي عن الأصدقاء... ما كان في وسعه القيام بذلك.

يكتب لك الرائد س. ر. سينيلنيكوف نائب قائد الكتيبة لشؤون التوعية السياسية في الوحدة العسكرية.

"أنا أؤدِّي واجبي كجندي، أرى من الضرورة إبلاغك بأن الملازم أول فاليري غيناديفتش فولوفيتش استشهد اليوم في الساعة العاشرة والدقيقة الأربعين...".

لقد عرفت بالأمر المدينة بأجمعها... في نادي الضباط عُلِّقت صورته محاطة بشريط أسود. كانت الطائرة التي تحمل نعشه على وشك الهبوط في المطار. لا يوجد لديَّ ما أقوله... ولا يتجاسر أحد على الكلام. وفي مكان عملي كان الجميع يذرفون الدموع.

- «ماذا حدث؟».

كانوا يلهونني بمختلف الوسائل. ظهرت عند الباب صديقتي. ثم طبيبنا بسترته البيضاء. بينما أنا في إغماءة كنت أقول:

- «يا ناس! هل جننتم؟ إن أمثاله لا يُقتلون! لا!». وأخذت أطرق المنضدة بقبضتي. وانطلقت نحو النافذة، ودققت على الزجاج.

حُقنت بإبرة.

- «يا ناس! هل جننتم؟ هل فقدتم عقولكم؟!».

وحقنت بإبرة أخرى. لم تؤثِّر فيَّ الحقن البتة. كانوا يتحدَّثون، بينما أصرخ أنا:

- «أريد رؤيته. خذوني إلى ولدي».

* «خذوها وإلا فإنها لن تتحمَّل».

تابوت طويل، لم تصقل ألواحه... وكُتب عليه بطلاء أصفر: "فولوفيتش". رفعت التابوت. أردت أن آخذه معي. وانفجرت مثانتي...

يجب تحديد مكان في المقبرة... مكان جاف. جاف! يجب دفع خمسين روبلاً! سأدفع، سأدفع. بشرط أن يكون المكان جيِّداً... جافاً. إذا ما تطلَّب الأمر فسأدفع كل ما يلزم! في الليالي الأولى لم أبتعد عنه... وبقيت هناك. يقتادونني إلى البيت فأعود مرة أخرى. جرى حصد العشب... وغمرت المدينة والمقبرة رائحة العشب...

في الصباح التقيتُ جندياً:

- «مرحبا، يا أم. كان ولدك قائدي. أنا مستعدٌّ لأن أحدِّثك بكل شيء».

جئنا إلى البيت. جلس في مقعد ولدي. بادر في الكلام ثمَّ توقَّف:

- «لا أستطيع، يا أم...».

أزوره في المقبرة فأجثو راكعة، وحين أنصرف أجثو مرة أخرى. وأبقى في البيت فقط حين يكون لديَّ زوّار. أشعر بالراحة إلى جانب ولدي. وأنا لا أبالي بالزمهرير هناك. وهنالك أكتب رسائل إليه، ولديَّ تل من الرسائل المتبقية بلا إرسال. وكيف أبعثها إليه؟ أعود في الليل: المصابيح تنير، السيَّارات تمضي بمصابيح مضاءة. أعود مشياً على الأقدام، وتكمن فيَّ قوة تجعلني لا أخاف أحداً: لا الوحش، ولا الإنسان.

تتردَّد في أذني أقوال ولدي: «أنا لا أريد الذهاب إلى تلك الحفرة! لا أريد!». من يُحاسب عن هذا؟ يجب أن يُحاسب أحد ما... أريد أن أعيش طويلاً، وسأسعى إلى ذلك. أعيش من أجل أن أكون مع ولدي. إن القبر هو أكثر الأماكن خلواً من الأمان بالنسبة إلى الإنسان. وكذلك اسمه. أنا أدافع عن ولدي دائماً... يأتي إليه رفاقه.. وجثا صديق له على ركبتيه وقال: «فاليرا، أنا ملطَّخ بالدم... وبهاتين اليدين قتلت. ولم أترك المعارك... أنا ملطخ بالدم... فاليرا أنا الآن لا أعلم، ما هو الأفضل؟ أن أُقتل أم أبقى على قيد الحياة؟ أنا

الآن لا أعرف...». أريد أن أعرف من سيُحاسَب عن هذا كله؟ لماذا لا تُذكر أسماؤهم؟

كيف أنشد:

أيُّها السادة الضبَّاط – الأمراء الزرق!

أنا، ربَّما، لستُ الأوَّل،

ولستُ الأخير...

تردَّدت على الكنيسة، وتحدثَّت مع القس.

– «لقد قُتل ولدي. ولدي الحبيب الرائع. كيف ينبغي أن يكون سلوكي معه الآن؟ وما هي عاداتنا الروسية؟ نحن نسيناها. أريد أن أعرف».

* «هل هو مُعمَّد؟».

– «أبتِ، بودِّي جداً أن أقول إنه مُعمَّد لكن لا يجوز ذلك. أنا كنت زوجة ضابط شاب. وعشنا في كامتشاتكا. تحت الثلوج الدائمة... في بيوت تحت الأرض تغطيها الثلوج... الثلج عندنا هنا أبيض، وهناك أزرق وأخضر وصدفي. إنه لا يتألق ولا يغشي العيون. فضاء نقي... والصوت يمضي طويلاً... أتفهمني، يا أبتِ؟».

* «الأم فكتوريا، إنه أمر سيئ، إذا لم يُعمَّد فصلواتنا لا تصل إليه».

فانفجرت قائلة:

– «سأعمِّده الآن! بمحبتي وبآلامي. سأعمِّده عبر الآلام».

فأمسك القس بيدي. كانت ترتجف:

* «الأم فكتوريا لا يجوز القلق هكذا. كم مرَّة تزورين ولدك؟».

– «أنا أزوره في كل يوم. وكيف لا أزوره؟ لو عاش لكنا نلتقي يومياً».

* «يا أم لا يجوز إزعاجه بعد الساعة الخامسة مساء. فإنهم يرقدون نائمين».

– «أنا أبقى في العمل حتى الساعة الخامسة، وبعد ذلك أعمل من

أجل كسب إضافي. لقد شيَّدت نصباً جديداً له... وأنفقت ألفين وخمسمئة روبل... يجب وفاء الديون».

* «اسمعي أيتها الأم فكتوريا، في أيام العطلة الأسبوعية وفي كل يوم تعالي حتماً لحضور القدَّاس - في الساعة الثانية عشرة ظهراً. وعندئذ سيستمع إليك».

أعاني من الأوجاع، أكثرها حزناً، أكثرها لا يُطاق، بشرط فقط أن تصل صلواتي إليه. حبيبي...

أم

يحدث كل شيء عندنا بما يشبه المعجزة... وكل شيء يقوم على هذا الإيمان بالمعجزة!

يشحنوننا في طائرة: "بسرعة. بسرعة!". وبالقرب منا، على مسافة عشرات الأمتار منا، يقودون طيّاراً مخموراً، رجلاً مخموراً كليّاً، ويدفعونه إلى داخل قمرة الطائرة. يا للعجب! كل هذا - لا بأس به. ترتفع الطائرة في الجو وتحلّق. في الأسفل الجبال، والذرى المدببة. السقوط فوقها شيء فظيع، كما لو تسقط على مسامير... يا للعجب! العرق يتفصد منا. وصلنا على ما يرام، وفي الوقت المحدد بدقّة. وصدر الأمر: "خروج! اصطفاف!". يخرج الطيّار مترنّحاً بخيلاء وكبرياء - غير سكران.

كل شيء على ما يرام... ما هذا؟ أليست هذه معجزة؟ هكذا تُجترح المآثر عندنا، وهكذا نصبح أبطالاً. لكن حينما نطلب المغفرة، لا نظير لنا في الأداء - نرتدي قميصاً أبيض تربط أطرافه بتصالب! وتنهمر منا الدموع الساخنة. كل شيء وفق الأصول جميعاً! نحتسي الألم حتى القعر! كما في جلسات السكر. لقد عدت...

وأمرت نفسي: ليذهب الجميع إلى الشيطان! إلى الشيطان! إنهم يحوّلوننا إلى مخبولين ومغتصبين ومدمنين على المخدّرات. لقد عدت... وحياتي عادية مثل حياة إنسان عادي... يا للمعجزة! كل شيء على ما يرام... أشرب النبيذ، وأحبُّ النساء، وأهدي الزهور. تزوّجت. لديَّ أول ابن.. وهَأنذا أجلس أمامك - هل أنا كالمجنون؟ وأشبه التمساح؟ لقد خدمت في القوّات الخاصة... كان الفتيان عندنا رائعين، وبينهم كثيرون من أبناء الأرياف. من

سيبيريا. إنهم أصحَّاء ويتحمَّلون الصعاب أكثر منا. أحدهم غريب الأطوار... كان مولعاً بثقب طبلة الأذن لدى الأسرى من "الأشباح" بواسطة المدك. يا للعجب! هو واحد... واحد فقط (يصمت).

يا لغرابة الأمر! إن الحياة مستمرة... لدى بوريس سلوتسكي: "عندما رجعنا من الحرب أدركت أن لا أحد يحتاج إلينا". يكمن في جسدي جميع جدول مندلييف للعناصر... وما زالت الملاريا تعلن نفسها حتى الآن. لأي غرض؟ لم ينتظرنا أحد... هناك كانوا يردِّدون على مسامعنا شيئا آخر: ادفعوا البريسترويكا، حرِّكوا أدمغتكم الراكدة. مستنقع! لقد رجعنا.. لم يسمحوا لنا بالدخول في كل مكان. إنهم يؤكدون منذ اليوم الأول: "تعلَّموا يا شباب. كوِّنوا عائلات". يا للعجب! كل شيء على ما يرام... في كل مكان حولنا مضاربات ومافيا ولا مبالاة، ولا يسمحون لنا بممارسة عمل جاد... لقد أوضح لي أحد رجال الأعمال: «ما الذي تجيد عمله؟ إطلاق النار فقط... وماذا تعرف؟ وهل يدافع عن الوطن بالمسدَّس فقط؟ والعدالة ألا تتحقق إلا بالبندقية؟». حسناً... نحن لسنا أبطالاً... يا للعجب! ربَّما سأقول لولدي بعد ثلاثين عاماً: «لم يكن كل شيء بطولياً كما يرد في الكتب، كانت هناك قذارة أيضاً». أقول هذا بنفسي، لكن بعد ثلاثين عاماً... أما الآن فالجرح ما زال حيَّاً، وبدأ لتوه بالالتئام شيئاً فشيئاً، ويُغطَّى بطبقة رقيقة... (يبدأ بالمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً).

حدث لي هناك في لحظة ما... (يتوقَّف). هذا غير شيِّق بالنسبة إليك؟ فكرت في آخر رغبة، تبيَّن أنها في منتهى البساطة: قدح ماء وسيجارة. يا للعجب! لم أرد أن أموت، ولم أفكر في الموت... غاب وعيي مع فقدان الدم. اهتز الوعي. ثبت إلى رشدي بعد صرخة... فاليركا لوباتش، المرشد الصحِّي لدينا، كان يلطمني على وجهي ويصرخ بصورة هستيرية: «أنت ستحيا عندي! أنت ستحيا عندي!». (يجلس بحدة).

أنا شخصياً أرغب في التذكر... يا للعجب! كل شيء على ما يرام..

في الليالي ما زلت أحمل على ظهري في الجبال الرشاش وحزمتين من الذخيرة القتالية - تسعمئة طلقة، بالإضافة إلى أربع قنابل يدوية، وقنابل دخان، ومشعل إنارة، ومسدَّس إطلاقات الإشارة، والخوذة والسترة الواقية من الرصاص والرفش، والسراويل القطنية، والمعطف الواقي من المطر، ووجبات طعام باردة تكفي لثلاثة أيام (تتألَّف من تسع معلبات ثقيلة وثلاث أكياس كبيرة من الخبز المجفَّف). خمسون كيلوغراماً. وأرتدي في قدمي جزمتين خشنتين مع قطع قماش لفِّ القدمين. أُعطيت الجزم لنا قبيل مغادرة الاتحاد. وقد شُويت قدماي حتى نزعت من أحد "الأشباح" القتلى حذاءين رياضيين كنديين... إلى الشيطان! إلى الشيطان! في الحرب كل شيء يتغيَّر... حتى الكلاب تتغيَّر، جائعة. كلاب الغير... إنها تتطلع إليك كما لو كنت طعاماً، والإنسان لا يفكر أبداً في أنه طعام، لكنني تحسَّست ذلك هناك. أنا جريح راقد على الأرض... لحسن الحظ عثر عليَّ الشباب بسرعة... (يصمت) لماذا جئت؟ لماذا وافقت. أنت أشرت إلى هذا... لماذا؟ من أجل من؟ جدِّي قاتل في الحرب الوطنية العظمى، ورويت له كيف فقدنا عشرة فتيان في معركة واحدة. عشرة توابيت... عشرة أكياس سلوفان... فأجابني الجد: «أنت لم ترَ الحرب الحقيقية... عندنا كان لا يرجع من المعركة مئة أو مئتا شخص، كانوا يوضعون في قبور جماعية بزيِّهم العسكري أو بالملابس الداخلية ويهيلون عليهم الرمل». إلى الشيطان! أنا أنهي حديثي... يا للعجب! كل شيء على ما يرام. لقد شربنا هناك فودكا "موسكوفسكايا". وتسمِّيها عامة الناس "كالينفايا". تُباع بسعر ثلاثة روبلات واثنين وستين كوبيكاً.

انصرمت أربعة أعوام. شيء واحد لم يتغيَّر - الموت، ومصرع الأصدقاء، أما جميع الأشياء الأخرى فتغيَّرت.

منذ فترة قريبة زرت عيادة طبيب الأسنان. عدنا جميعاً مصابين بداء الإسقربوط وفساد اللثة، وما أكثر ما التهمنا من كلوزيد الجص! اقتلعت سن واحدة، وأعقبتها أخرى. فأصبت بصدمة من الألم (لم يؤثِّر فيَّ المخدِّر)

وفجأة صرت أتحدَّث... لا أستطيع التوقُّف... الطبيبة كانت تنظر إليَّ بنفور، وبدا كل شيء واضحاً على محيَّاها. كيف أتحدَّث وفمي مليء بالدم؟

أدركت بأن الناس جميعاً يروننا هكذا: أفواههم مليئةٌ بالدم، ولا يتوقفون عن الكلام...

عريف في القوَّات الخاصَّة

ما بعد الموت

تاتارتشينكو

إيغور ليونيدوفيتش

(1981-1961)

استُشهد في أفغانستان، أبدى الصلابة والجرأة لدى تنفيذ مهمَّة قتالية، وفاءً للقسم العسكري.

إيغور الحبيب لقد فارقت الحياة، من دون أن تعرفها.

ماما، بابا

لادوتكو

ألكسندر فكتوروفيتش

(1984-1964)

استُشهد لدى تنفيذ الواجب الأممي.

لقد نفَّذت بشرف واجبك العسكري. لم يستطع ولدي الحفاظ على نفسه. لقد استُشهد في الأرض الأفغانية كبطل.

من أجل أن تسود السماء الآمنة فوقها.

إلى ولدي العزيز من ماما.

بارتاشيفتش

يوري فرانتسيفتش

(1986-1967)

استُشهد ببطولة لدى أداء الواجب الأممي

نتذكّر، نحبُّ، نحزن.

تخليداً لذكراه من ذويه

بوبكوف

ليونيد إيفانوفيتش

(1984-1964)

استُشهد لدى أداء الواجب الأممي.

بدونك أفل القمر، وغابت الشمس، ولدنا العزيز

ماما، بابا

ذوالفقاروف

أوليغ نيقولايفتش

(1984-1964)

استُشهد بوفاء للواجب العسكري،

لم تتحقَّق الرغبات، ولم تتحقَّق الأحلام، أُغلقت عيناك قبل الأوان، يا الويبجيك ولدنا، أخانا العزيز، يصعب التعبير عن الألم لفقدك.

ماما، بابا، الإخوة والأخوات.

كوزلوف
أندريه إيفانوفيتش
(1982 – 1961)
استُشهد في أفغانستان.
ولدي الوحيد.
ماما

بوغوش
فكتور قسطنينوفتش
(1980–1960)
استُشهد دفاعاً عن الوطن.
الأرض خاوية بدونك...
ماما

محاكمة
«فتيان الزنك»
(تأريخ في وثائق)

منذ فترة قريبة أقامت مجموعة من أمّهات المقاتلين الأمميين الذين استُشهدوا في أفغانستان دعوى في المحكمة على الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش مؤلّفة كتاب "فتيان الزنك". وسيُنظر في القضية في المحكمة الشعبية للمنطقة الوسطى بمدينة مينسك.

وكان سبب اللجوء إلى المحكمة هو تقديم العرض المسرحي "فتيان الزنك" على خشبة مسرح يانكا كوبالا البيلاروسي، ونشر مقتطفات من الكتاب في صحيفة "كمسمولسكايا برافدا". وتم تسجيل العرض على الفيديو وقدّمه تلفزيون الجمهورية وشاهده أبناء بيلاروس. وقد استاءت الأمّهات اللواتي صبرن طوال هذه الأعوام على المصيبة، لأنه جرى تقديم أولادهنّ كرجال آليين. قتلة بلا روح ونهّابين ومدمني مخدّرات ومغتصبين...

ل.غريغوريف

صحيفة "فيتشيرني مينسك"، 12 يونيو 1992

"إلى المحكمة بسبب عرض «فتيان الزنك»": نُشرت تحت هذا العنوان مقالة في صحيفة "نا ستراجه أوكتيابر" وصحف أخرى بتاريخ 22 يونيو.

وجاء فيها: إن حرباً حقيقية شُنَّت ضد الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش بعد صدور كتابها. وجرى اتِّهام المؤلفة بأنها شوَّهت وزيَّفت أحاديث "الأفغان" وأمَّهاتهم. وبدأ هجوم جديد بعد أن قُدِّم عرض بهذا الاسم على خشبة مسرح "يانكا كوبالا" البيلاروسي وعلى شاشة التلفزيون. ويجب أن تنظر المحكمة في القضية، ولم يُحدَّد الموعد بعد. لكن العرض سُحب من خشبة المسرح...

وقد اتصلنا هاتفياً بالمحكمة طالبين التعليق على النبأ. ولكن السكرتيرة س. كوغان قالت إن المحكمة لم تتلقَّ طلباً بفتح ملف القضية.

أما ف. ستريلسكي كاتب المقالة في صحيفة "نا ستراجه أوكتيابر" فقال إنه أخذ المعلومة من صحيفة "النجم الأحمر".

«تشيرفونايا زمينا»، 14 يوليو 1992

في 20 يناير نشرت صحيفة "سوفيتسكايا بيلوروسيا" ما يلي:

«بدأ في المحكمة الشعبية بالمنطقة الوسطى في مينسك النظر في قضية الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش...».

وقبل يوم من ذلك، في 19 يناير، نشرت "فيتشيرني مينسك" مقالة حول هذا الموضوع تحت عنوان "محاكمة أدبية".

وقد علمت لدى زيارة المحكمة أن القاضية غورودنيتشيفا تتولَّى النظر في الدعوى.

لم تسمح لي القاضي بتشغيل جهاز المسجِّل. ورفضت إعطاء أي إيضاح لذلك بشكل قاطع مشيرة إلى أنه "لا حاجة إلى توتير الجو". لكنها أبرزت لي ملف قضية الدعوى التي أقيمت ضد سفيتلانا أليكسييفيتش في 20 يناير. ومعنى ذلك أن المواد بشأن النظر في القضية أُعدِّت(!) مسبقاً قبل فتح ملف القضية..

ليونيد سفيريدوف، «سوبيسيدنيك»، العدد 6، 1993

قُدِّم إلى المحكمة الشعبية للمنطقة الوسطى في مينسك طلبان لفتح ملف الدعوى من قبل "أفغاني" سابق ومعوَّق حاليًا أكد فيه أن سفيتلانا أليكسييفيتش كتبت أموراً غير صحيحة عن الحرب وعنه، وكذبت. ولهذا يجب عليها تقديم الاعتذار وتقديم تعويض بمبلغ 50 ألف روبل لإهانتها شرف الجندي. أما أم ضابط قتيل فاعترضت على ما أوردته الكاتبة حول الروح الوطنية السوفيتية ودورها في تربية الجيل الفتي.

وكانت أليكسييفيتش قد التقت بهما قبل عدة أعوام حين إعداد كتابها الشهير "فتيان الزنك". وكلاهما يعلنان الآن أن أقوالهما قد حُرِّفت في الكتاب.

علما أن الجندي مقدِّم طلب الدعوى يتَّهم الكاتبة بتشويه الحقائق وإهانة كرامته اعتماداً على ما نشر في الصحف في عام 1989. وهناك لا يرد اسمه بل اسم جندي آخر. أما الأم فتقود المحكمة إلى متاهات السياسة السيكولوجية. ومع ذلك قبلت المحكمة كلتا القضيتين للنظر فيهما. ولم تبدأ جلسات المحكمة بعد، بينما يجري استجواب الكاتبة.

أناتولي كوزلوفيتش
«ليتراتورنايا غازيتا»
10 فبراير 1993

تجري محاكمة الكاتبة البيلاروسية سفيتلانا أليكسييفيتش صاحبة كتاب "ليس للحرب وجه أنثويّ" المنشور سابقاً. ويبدو أن رماد أفغانستان ما زال يدق قلوب بعض القرَّاء الغاضبين الذين لم يغفروا لمؤلفة "فتيان الزنك"- الرواية الوثائقية للحرب الأفغانية، نشرها للرواية. وتتَّهم الكاتبة بالتحيُّز المقصود وانتقاء أقوال معينة من أقوال المحاربين وأرامل وأمَّهات ضحايا الحرب. وعموماً يجري اتهامها بالكذب ومعاداة الروح الوطنية وتشويه الحقائق وتسويدها. ولا يُعرف فيما إذا ستجري المحاكمة أم أن أصحاب

الدعوى سيحصلون على بعض التعويض المعنوي، ولن تصل الأمور إلى إجراء المحاكمة (العلنية).

فيودور ميخائيلوف

«كورانتي»، 3 فبراير 1993

من دعوى أوليغ سيرغييفتش لياشينكو الجندي السابق، من رجال راجمات القنابل

في 6 أكتوبر 1989 نُشرت في مقالة "نحن عائدون من هناك" في جريدة "ليتراتورا اي ما ستاتسفا" مقتطفات من كتاب سفيتلانا أليكسييفيتش "فتيان الزنك". وورد اسمي تحت أحد المونولوجات.

انعكس في مونولوجي الحديث عن الحرب الأفغانية ووجودي في أفغانستان والعلاقات بين الناس في الحرب وبعد الحرب وهلمَّ جرًّا.

لقد شوَّهتْ أليكسييفيتش كلياً حديثي وأضافت من عندها أموراً لم أقلها، وإذا كنت قد قلتُها فإنها أوردتْها بشكل آخر مشوَّه، وخلصت إلى استنتاجات خاصَّة بها، لم أقلها أنا.

إن بعض ما نشرته أليكسييفيتش نقلاً عني يشكِّل إهانة لشرفي وكرامتي. وجاء ذلك في العبارات التالية:

1. ولم يكن سرّاً لدى أحد في معسكر التدريب في فيتبسك أنه يجري تدريب الجنود من أجل إرسالهم إلى أفغانستان. كان الكثيرون يسعون إلى "التهرُّب من الخدمة" بأي ثمن. واعترف أحدهم بأنهم يخشون، حسب قوله، أن يقتلونا جميعاً هناك، وصرتُ أحتقره. وقُبيل الرحيل رفض أحدهم السفر: في البداية عن طريق الاحتيال بحجَّة أنه فقد بطاقة الكمسمول، فعُثر عليها. ومن ثم زعم أن فتاته تضع طفلاً. وأنا اعتبرته شخصاً غير طبيعي، فقد كنا نسافر من أجل القيام بثورة! هذا ما قيل لنا، ونحن صدَّقنا. وتصوَّرنا أنه ينتظرنا شيء ما رومانسي.

2. بعد أسبوع أو أسبوعين لن يبقى شيء من شخصك باستثناء اسمك. أنت لم تعد أنت، بل شخصاً آخر. وهذا الآخر، حين يرى قتيلاً لا يشعر بالخوف، بل يفكِّر بهدوء أو بأسى حول كيف سيسحبه من الصخرة أو يحمله في القيظ لمسافة عدَّة كيلومترات. إنه يعرف ما تثيره في نفسه رؤية القتيل: هو ليس أنا. هذا التحوُّل... يحدث للجميع.

3. وقد علَّموني أن أطلق النار إلى حيث يأمرونني. فكنت أطلق النار من دون شفقة على أحد. وكان في استطاعتي أن أقتل طفلاً.. لقد كان كل فرد يسعى إلى البقاء على قيد الحياة. لم يكن هناك وقت للتفكير. كنا في عمر بين الثامنة عشر والعشرين. أنا اعتدتُ على موت الآخرين، بينما كنت أخشى أن أموت.

4. لا تكتبي قط عن أخوَّتنا الأفغانية. فلا وجود لها، وأنا لا أؤمن بوجودها. لقد توحَّدنا في الحرب: فقد خدعونا سوية، وأردنا سوية البقاء على قيد الحياة، وأردنا سوية العودة إلى بيوتنا. ويوحِّدنا هنا أنه لا يوجد لدينا أي شيء، وتُوزَّع خيرات بلادنا وفق المحسوبية والامتيازات. إنهم يحتاجون إلى دمائنا. ولدينا مشكلة واحدة هي: التقاعد والشقق والأدوية الجيِّدة والأطراف الاصطناعية والأثاث، وبحلِّها تنهار أنديتنا.

فلئن حصلت على الشقة والأثاث والثلاجة وماكينة الغسيل والتلفزيون الياباني – عندئذ ينتهي كل شيء! ويصبح واضحاً فوراً أنه لا يوجد لدي ما أفعله في هذا النادي. الشباب لا يأتون إلينا، فهم لا يفهموننا. بدا كما لو أنه جرت معادلتنا بالمشاركين في الحرب الوطنية العظمى، لكنَّ أولئك دافعوا عن الوطن، أما نحن؟ كنا نقوم بدور الألمان – كما قال لي أحد الشبَّان.

إن جميع هذه الأقوال تشكل إهانة شديدة إلى كرامتي الإنسانية، لأنني لم أقل ذلك، ولا أعتقد بهذا الأمر، وأعتبر أن هذه المعلومات تُسيء إلى شرفي كرجل وإنسان وجندي..

20 يناير 1993

بلا توقيع

من دعوى يكاترينا نيكيتشنا بلاتيتسينا، أم الرائد القتيل ألكسندر بلاتيتسين

في 6 أكتوبر عام 1989 جاء في مقالة "نحن عائدون من هناك.." المنشورة في صحيفة "ليتراتورا اي ماستاتسفا" مقاطع من الكتاب الوثائقي سفيتلانا أليكسييفيتش "فتيان الزنك". وقد وُقِّع باسمي أحد المونولوجات – وهو أم الرائد أ. بلاتيتسين الذي لقي مصرعه في أفغانستان.

إن المونولوج المنشور في الصحيفة والكتاب يتضمَّن تشويهاً لحديثي عن ولدي. إن أليكسييفيتش أضافت في الكتاب، بالرغم من أنه وثائقي، أشياء من عندها، وتجاهلت الكثير من أقوالي، واستخلصت استنتاجات من عندها ووقعت المونولوج باسمي.

إن المقالة تشكِّل إهانة وإساءة إلى شرفي وكرامتي...

من نص المحادثة قبل المحاكمة

القاضية ت.غورودنتشيفا، المحاميان: ت. فلاسوفا، ف. لوشكينوف، مقيمة الدعوة: اي. بلاتيتسينا، المتهمة: س. أليكسييفيتش.

القاضية ت. غورودنتشيفا: نحن نصغ إليك، يكاترينا نيكيتيتشنا..

اي. بلاتيتسينا: إن صورة ولدي المنطبعة في ذهني لا تتَّفق تماماً مع الصورة الواردة في الكتاب.

القاضية ت.غورودنتشيفا: هل يمكنك إيضاح فكرتك: أين وفي أي مكان جرى تشويه الحقائق؟

ي. بلاتيتسينا (تأخذ الكتاب بيدها): كل شيء هنا لا يتَّفق مع ما قلته. لم يكن ولدي بهذه الصورة. لقد أحب وطنه (تبكي).

القاضية ت.غورودنتشيفا: أرجو أن تهدِّئي روعك وأن تذكري لنا الحقائق.

اي. بلاتيتسينا (تقرأ من الكتاب): «بعد أفغانستان أصبح أكثر وداً... وأثار إعجابه كل شيء في البيت...». لقد كان ضابطاً مقاتلاً. بينما يظهر هنا بمظهر المتباكي. فهل كان الواجب الكتابة عنه بهذا الشكل؟

القاضية ت. غورودنتشيفا: أنا نفسي مستعدة للبكاء. وبكيت أكثر من مرة لدى مطالعة الكتاب وحديثك. لكن ما الذي يشكِّل هنا إهانة لشرفك وكرامتك؟

اي. بلاتيتسينا: كان ولدي ضابطاً مقاتلاً. وما كان يستطيع البكاء. وإليك

أيضاً: «بعد يومين حل العام الجديد. وأخفى تحت شجرة الميلاد الهدايا لنا. وأهداني منديلاً، منديلاً كبيراً، أسود. «لماذا يا ولدي اخترت الأسود؟». فقال: «ماموتشكا، كانت هناك مناديل مختلفة. ولكن عندما حان دوري للشراء بقيت السود فقط»...».

يتبيَّن من هذا أن ولدي وقف في الطابور، بينما كان لا يطيق المتاجر والطوابير. وإذا به في وقت الحرب يقف في طابور.. ليشتري منديلاً لي... لماذا يكتب عن هذا؟ لقد كان ضابطاً مقاتلاً. واستُشهد...

سفيتلانا أليكسييفيتش لماذا كتبت هذا؟

س. أليكسييفيتش: حين دوَّنت حديثك، بكيت أيضاً. أنا كرهت الذين أرسلوا ولدك لكي يُقتل عبثاً في بلاد الغربة. وآنذاك كنت وإياك متوافقتين.

اي. بلاتيتسينا: أنت تقولين إنني يجب ان أكره الدولة والحزب... لكنني افتخر بولدي! لقد استُشهد كضابط مقاتل. وأنا أحبُّ الدولة التي نعيش فيها – الاتحاد السوفيتي، لأن ولدي قُتل من أجلها. بينما أكرهك! أنا لست في حاجة إلى حقيقتك البشعة، نحن لسنا في حاجة إليها! أتسمعين؟!

س. أليكسييفيتش: كان في وسعي الإصغاء إليك. وكان في وسعنا تبادل الأحاديث. ولماذا يجب علينا أن نتحدث في المحكمة؟ أنا لا أفهم ذلك...

في 14 سبتمبر جرت في مينسك محاكمة الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش. وحدث شيء طريف؛ قال فياسيلي لوشكينوف محامي أليكسييفيتش: «إن الدعوى المقامة باسم اي.س. غالوفنيفا أم "الأفغاني" القتيل وردت إلى المحكمة بلا تاريخ. ويبعث على الدهشة أن ملف القضية نفسها لم يسجل إجرائياً لدى بدء جلسة المحكمة، بينما وُجد رقم التسجيل في سجل القضايا، بالرغم من أنه لم يصدر بعد قرار بإقامة دعوى مدنية».

لكن المحاكمة جرت مع ذلك... وترأسها شخص رأى ملف القضية في جلسة المحكمة نفسها. وقد عرفت سفيتلانا أليكسييفيتش ومحاميها بشأن تبديل القاضية ت. غورودنتشيفا وحل محلها ي. جدانوفيتش قبل بدء الجلسة.

وقال فاسيلي لوشكينوف: «إنها في أغلب الظن مسألة أخلاقية أكثر منها مسألة حقوقية».

ربما إنها كذلك. لكن ظهر في مقعد صاحب الدعوى بطل آخر لكتاب سفيتلانا أليكسييفيتش هو تاراس كيتسمور، وطرح أمام ي. جدانوفيتش طلب الدعوى بلا توقيع، وطبعاً بلا ملف إقامة الدعوى في هذه القضية..

ولفت محامي المتهمة انتباه المحكمة إلى هذا السخف وقدَّم احتجاجاً. وتم تأجيل جلسة المحكمة.

أوليغ بلوتسكي

«ليتراتورنايا غازيتا»

6 اكتوبر 1993

من محضر جلسة المحكمة

29 نوفمبر 1993

القاضي: ي. جدانوفيتش، المحلفان الشعبيان: ت.ف. بوريسيفتش، ت. س. سوروكو، صاحبا الدعوى: ي.س. غالوفنيفا، ت.م. كيتسمور، المتهمة:س. أليكسييفيتش.

من دعوى إينا سيرغييفنا غالوفنيوفا، أم القتيل الملازم أوَّل يوري غالوفنيوف

نشرت في صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" بتاريخ 15-2-1990 مقاطع من الرواية الوثائقية لسفتيلانا أليكسييفيتش "فتيان الزنك - مونولوجات الذين شاركوا في حرب أفغانستان".

ويتضمن المونولوج المنشور باسمي عدم دقَّة وتشويهاً للحقائق التي أخبرتها إلى س. أليكسييفيتش، وكذلك ثمة كذب وتزييف واضح، أي ذكرت على لساني أقوالاً لم أوردها ولم أكن أستطيع قولها. إن التفسير العشوائي للأقوال الواردة باسمي تشكِّل إساءة إلى شرفتي وكرامتي، لاسيما أن الرواية وثائقية. وأعتقد أن الكاتب الوثائقي يجب أن يورد بدقَّة المعلومات المستقاة، وأن يسجِّل الحديث، ويتَّفق بشأن النص مع صاحب الحديث.

إن الكسييفتش شوهت حديثي حول إرسال ولدي إلى أفغانستان. فهي

تورد أقواله المزعومة: «أنا ذاهب إلى أفغانستان لكي أثبت بأن هناك في الحياة أشياء سامية، وأنه لا يحتاج المرء من أجل السعادة إلى امتلاك ثلاجة ممتلئة باللحم». لم يكن هناك أي قول كهذا. إن مزاعم أليكسييفيتش تشكل إساءة لي ولولدي. فهو كإنسان وطني ورومانسي قد طلب طوعاً إرساله إلى أفغانستان.

أنا لم أقل لأليكسييفيتش العبارات حول ريبتي بصدد نوايا ولدي في طلب إرساله إلى أفغانستان: «سيقتلونك هناك ليس من أجل الوطن... سيقتلونك من أجل شيء مجهول... وهل يستطيع الوطن إرسال أبنائه إلى الهلاك؟». أنا نفسي أرسلته إلى هناك. أنا نفسي!

إن هذا القول يشكل إساءة إلى شرفي وكرامتي حيث يجري تصويري كشخص منافق ذي وجهين.

كما يرد بشكل غير صحيح الجدل بين ولديَّ الاثنين. والقول: «أنت يا غينا لا تطالع كثيراً. ولا يُرى الكتاب بين يديك أبداً. هناك الغيتار دائماً..» إن الجدل بينهما كان فقط حول اختيار الابن الأصغر لمهنته. ولا علاقة للغيتار بالأمر.

أعتقد أن أليكسييفيتش قررت تصوير الأحداث المتعلقة بالحرب في أفغانستان، ليس فقط كخطأ سياسي، بل بصفتها جريرة شعب بأكمله، وهو موقف متحيِّز، وكانت في غالب الأحيان تختلق الأحداث التي زعمت أنها وردت في المحادثة. وهدفها تصوير شعبنا للجندي الذي كان في أفغانستان وأقربائه كأناس بلا مبادئ وقساة ولا تهمُّهم مصائب الآخرين.

أرجو أن تعتذر أليكسييفيتش عن تشويه حديثي الأصلي وإساءتها لشرفي وكرامتي في صحيفة "كمسومولسكايا برافدا".

بلا توقيع وتاريخ

من دعوى الجندي السابق
تاراس كيتسمور

لم ترد في نص الدعوى الأول بصدد الدفاع عن شرفي وكرامتي اعتراضات ملموسة حيال س. أليكسييفيتش عن المادة المنشورة في "كمسمولسكايا برافدا" (15-2-90). وأنا بطلبي الحالي أضيفها وأؤكدها: إن كل ما أوردته س. أليكسييفيتش في مقالة الصحيفة وفي كتاب "فتيان الزنك" مختلق ولا رابطة له بالواقع، حيث أنني لم ألتقِ بها ولم أقل لها أي شيء.

عندما نشرت المقالة في 15 فبراير 1990 في "كمسمولسكايا برافدا"طالعت ما يلي: «سافر إلى أفغانستان مع كلبه تشارا، ويقول له "مت" فينبطح. وإذا كنت بمزاج عكر يجلس الكلب إلى جانبه ويبكي. في الأيام الاولى تملَّكتني البهجة لأنني هناك...».

«في الحرب اضطررت إلى عمل الكثير بشكل مضاد لما علَّمونا في الحياة السلمية، وفي الحياة السلمية يجب أن تنسى كافة المهارات المكتسبة في الحرب».

«أنا أطلق النار بدرجة ممتازة، وأرمي القنابل اليدوية على الهدف، فما حاجتي إلى ذلك؟ الحرب ستنتهي قريباً وسيعود الآخرون مثلي. وسيكون عددنا أكبر».

وقرأت النص ذاته عملياً في كتاب "فتيان الزنك" مع بعض التعديلات الأدبية، حيث يرد ذكر الكلب نفسه، وتلك الأفكار بصوت عال.

أؤكِّد مرَّة أخرى بأن هذا كله تلفيق خالص لصق باسمي..

واستناداً إلى ما ورد أعلاه أرجو المحكمة الموقرة حماية شرف جندي ومواطن تم التشهير به.

بلا توقيع وتاريخ

من كلمة ي.س. غالوفنيوفا

نحن عشنا فترة طويلة خارج البلاد، فقد أدّى زوجي الخدمة العسكرية هناك. وعدنا إلى الوطن في خريف عام 1986. وكنت سعيدة بأن نعود إلى الوطن مجدَّداً. لكن الفرحة اقترنت بمصيبة – فقد قُتل ولدي.

بقيت مريضة طوال شهر كامل. لم أرغب في الإصغاء إلى أي أحد. أغلقت كل شيء في بيتي. ولم أفتح لأحد الباب. وكانت أليكسييفيتش أول من دخل بيتي. وقالت إنها تريد كتابة الحقيقة عن الحرب في أفغانستان. وصدَّقتها. جاءت في ذلك اليوم وكان المقرَّر أن أدخل المستشفى في اليوم التالي، ولم أعرف فيما إذا كنت سأعود إلى البيت ثانية من هناك. لم أرغب في العيش بلا ابني. وعندما جاءت أليكسييفيتش قالت إنها تريد تأليف كتاب وثائقي. ما هو الكتاب الوثائقي؟ يجب أن يكون بشكل يوميات ورسائل الذين كانوا هناك. فأعطيتها يوميات ولدي التي دوَّنها هناك وقلت لها: «أنت تريدين كتابة الحقيقة، ها هي، في يوميات ولدي».

بعد ذلك تبادلنا الحديث. ورويت لها كل وقائع حياتي، لأنني كنت ما زالت أعاني من مصيبتي، وكنت أزحف على ركبتي داخل أربعة جدران. وكان معها مسجل، وسجلت كل شيء. لكنها لم تقل إنها ستنشر ذلك.

كما قالت إنها تعتزم السفر إلى أفغانستان. وكانت هناك في مهمَّة صحفية، بينما قُتل ولدي هناك. ماذا تعرف هي عن الحرب؟

إنني صدقتها. وانتظرت الكتاب. انتظرت الحقيقة: لأي غرض قتلوا ولدي؟ لقد كتبت رسالة إلى غورباتشوف: أجبني، لأي غرض قُتل ولدي في بلاد الغربة؟ الجميع التزموا الصمت...

هذا ما كتبه يورا في يومياته: «1 يناير 1986. تم تطهير منتصف الطريق. وبقي أمامنا القليل. مرة أخرى لهب، ومجدَّداً النسيان، وطريق طويل جديد – وهكذا إلى الأبد، قبل أن تتحقق إرادة القدر. والذاكرة تنهال بسياط ما عشته، والكوابيس الليلية التي تقتحم الحياة، وأشباح العالم الآخر، والأزمان

والقرون الأخرى، المتشابهة، لكنها لا تعرف الأيام الماضية... ونحن نحطِّم حياتنا، دون أن نعرف الطمأنينة والسعادة، ونهذي متعبين ومحطمين، نحن ذوي الجبروت وانعدام الحقوق، شياطين وملائكة هذا العالم..».

إن أليكسييفيتش لم تنشر الحقيقة عن ولدي. ولا يمكن أن تكون هناك حقيقة أخرى لدى من كان هناك. ولماذا وصفت حياتي بلغة ساذجة وطفولية؟ أي أدب هذا؟ هذا كتيب صغير حقير...

أيها الرفاق، أنا ربيت أولادي بشرف وعدالة. لقد كتبت أن ابني كان يحب كتاب نيقولاي اوستروفسكي "كيف سقينا الفولاذ". آنذاك كان هذا الكتاب يُدرَّس في المدارس إلى جانب كتاب فادييف "الحرس الفتي". وقد قرأ التلاميذ جميع هذه الكتب، وحفظوا بعض مقاطعها عن ظهر قلب. فما حاجتها إلى الكتابة عن هذا؟ إنها تريد تصوير ولدي بأنه غير طبيعي. ومتعصب. أو إنها تكتب أنه كان يأسف لأنه اختار مهنة العسكري. إن ولدي شب في ميادين التدريب العسكري، ومضى على خُطا أبيه. في أسرتنا جميع الأجداد وأخوة الأب والأعمام كانوا كلهم في الجيش. سلالة عسكرية. وقد ذهب إلى أفغانستان لأنه رجل شريف. فقد أدى القسم العسكري. وسافر إلى هناك لأن هذا واجب. لقد كان ضابطاً. وتريد ألكسييفتش أن تثبت بأنني أم قاتل، وأن ولدي قاتل. وكان يمارس القتل هناك. فما معنى ذلك؟ أنا أرسلته إلى هناك؟ وسلَّمته السلاح بيديه؟ ونحن الأمَّهات مذنبات بسبب الحرب هناك؟ وكونهم كانوا يقتلون وينهبون ويدخِّنون المخدِّرات؟

لقد نشر هذا الكتاب في خارج البلاد. في ألمانيا وفرنسا... بأي حق تتاجر أليكسييفيتش بأبنائنا الصرعى؟ وتكسب الشهرة والدولارات؟ من هي؟ ما دام الأمر يخصني، وقد رويته، وعانيت بسببه، فما علاقة أليكسييفيتش بالأمر؟ لقد تحدثت وسجلت أحاديثنا، وبكينا أمامها بسبب مصيبتنا..

لقد كتبت اسمي بشكل غير صحيح: اسمي إينا بينما كتبته هي نينا غالوفنيوفا. ورتبة ولدي ملازم أوّل بينما كتبت أنه ملازم. نحن فقدنا أبناءنا، بينما هي كسبت الشهرة...

أجوبة عن الأسئلة

ف. لوشكينوف، محامي أليكسييفيتش: إينا سيرغييفنا،هل سجلت أليكسييفيتش حديثك على شريط المسجل؟

إي.غولوفنيوفا: لقد رجت أن أسمح لها بتشغيل المسجِّل، فسمحت لها.

ف. لوشكينوف: وهل طلبت منها أن تطلعك على ما ستأخذه من الشريط المسجل وتستخدمه في كتابها؟

إي. غالوفنيوفا: كنت أعتقد أنها ستنشر يوميات ولدي. أنا قلت كيف أفهم الأدب الوثائقي. إنه يضم اليوميات والرسائل. وإذا نشر كلامي فيجب أن ينشر كلمة فكلمة، كما قلتها.

ف. لوشكينوف: لماذا لم تقيمي الدعوى على أليكسييفيتش حالما نشرت مقاطع الكتاب في "كمسمولسكايا برافدا". وقررت فعل ذلك بعد ثلاثة أعوام ونصف؟

إي. غالوفنيوفا: أنا لم أعرف بأنها ستنشر هذا الكتاب في الخارج وتنشر الأكاذيب... لقد ربيت ولدي بنزاهة من أجل الوطن. نحن عشنا في خيام وعنابر طوال حياتنا، بينما هي تكتب أن أبناءنا قتلة. لقد ذهبت نفسي إلى وزارة الدفاع وسُلِّمت وسام ولدي... أنا لا أريد أن أكون أم قاتل. لقد أعدت الوسام إلى الدولة... لكنني أفتخر بولدي!

أصوات من القاعة

- نحن الأمَّهات نريد أن نقول إن أولادنا قُتلوا. وبعد ذلك صار البعض يكسب النقود من ذلك. نحن جئنا للدفاع عنهم، بغية أن يرقدوا تحت التراب باطمئنان.

- كيف تجاسرت على تلطيخ قبور فتياننا بالقاذورات؟ لقد أدوا واجبهم كاملاً تجاه الوطن. وأنت تريدين أن يطويهم النسيان. إنهم أبطال! يجب أن

تُكتب عن الأبطال السوفيت الكتب الحمراء، وليس أن يجري تصويرهم بكونهم كبش فداء.

– كان الاتحاد السوفيتي دولة عظيمة، بينما كانت بالنسبة إلى آخرين بمثابة شوكة في الحلق.

– لقد كانوا هناك يُقصفون بالقنابل ويُقتلون..

– أنت هل خدمت في الجيش؟ لا لم تخدم... وجلست على المصطبة في المعهد بينما كان أبناؤنا يقتلون.

– يجب عدم توجيه السؤال إلى الأمَّهات: هل قَتل ابنها أم لم يقتل؟ إنها تتذكَّر شيئاً واحداً هو أن ابنها قد قُتل.

– في كل صباح أرى ولدي، وأؤمن حتى الآن بأنه في البيت. الحرب الأفغانية هي ذروة مأساتنا. لماذا يمكن عمل أي شيء بنا؟

– رجل الشارع يتهم الآن هؤلاء الفتيان في سن 18 عاماً بالجرائم كافّة... هذا ما فعلتموه! يجب فصل هذه الحرب عنهم. لقد كانت حرباً إجرامية، وتمت إدانتها، أما الفتيان فيجب الدفاع عنهم...

– أنا معلِّم اللغة الروسية. وكنت خلال عدة سنوات أكرِّر لتلاميذي أقوال كارل ماركس: «موت الأبطال مثل غروب الشمس، وليس موت ضفدعة انفجرت من شدة النفخ». أي درس يعطي كتابك؟

القاضي إي. جدانوفيتش:

– كفى ضجيجاً! أوقفوا هذا الصخب! هنا محكمة، وليس سوق خضار. أعلن فترة استراحة لمدة خمس عشرة دقيقة.

كلمة ت.م. كيتسمور

أنا لم أتهيأ للخطابة، ولن أتحدَّث من الورقة، بل سأتحدَّث بلغة عادية. كيف تعرَّفت على الكاتبة الشهيرة ذات السمعة العالمية؟! لقد عرفتني إليها

فالنتينا تشودايفا التي كانت في الجبهة. وقالت لي إن هذه الكاتبة ألفت كتاباً بعنوان "ليس للحرب وجه أنثويّ" يُقرأ الآن في العالم أجمع. وفيما بعد تحدَّثت في أحد اللقاءات مع رجال الجبهة مع نساء أخريات من نساء الجبهة، وقلن إن أليكسييفيتش أستطاعت كسب ثروة وشهرة من حياتهن، والآن بدأت بفعل الشيء ذاته مع "الأفغان"... أنا قلق... فأرجو المعذرة.

لقد جاءت إلينا في نادي "باميات" حاملة جهاز التسجيل. أرادت أن تكتب عن كثير من الشباب وليس عني فقط. لماذا قررت أن تكتب كتابها بعد الحرب؟ لماذا صمتت خلال فترة الحرب كلها وهي الكاتبة المعروفة عالمياً؟ لماذا لم تنبس بكلمة آنذاك؟

لم يرسلني أحد إلى هناك. أنا نفسي طلبت إرسالي إلى أفغانستان وكتبت طلباً بذلك. أنا نفسي أستطيع تأليف كتاب... عندما التقيتها رفضت التحدُّث معها، وقلت لها إننا نحن الذين كنا هناك سنؤلف كتاباً. وسنكتب أفضل مما تكتب هي، لأنها لم تكن هناك. ماذا تستطيع أن تكتب؟ إنها تستطيع إيلامنا فقط.

لقد سلبت أليكسييفيتش جيلنا الأفغاني كله قيمته المعنوية. وحسب رؤيتها أنا: رجل آلي، كومبيوتر، قاتل مرتزق. ومكاني في مستشفى الأمراض العقلية بضواحي مينسك. لقد كتبت بأنني أديت الخدمة العسكرية في أفغانستان برفقة كلب. وقد مات الكلب في الطريق.

أنا نفسي طلبت إرسالي إلى أفغانستان.. أتفهمين؟ أنا نفسي! أنا لست رجلاً آلياً... ولا كومبيوتراً...أنا مضطرب... أرجو المعذرة.

من بريد المحكمة

بعد اطلاعنا على تفاصيل محاكمة سفيتلانا أليكسييفيتش في مينسك نحن نعتبرها بمثابة ملاحقة للكاتبة بسبب ميولها الديمقراطية وتطاولاً على حرية الإبداع. لقد كسبت سفيتلانا أليكسييفيتش الشهرة الواسعة والاحترام في روسيا والبلدان الأخرى بفضل مؤلفاتها الإنسانية وموهبتها وجرأتها.

نحن لا نريد تلطيخ اسم بيلاروس القريبة منا!

لتنتصر العدالة!

رابطة اتحادات الكتاب
اتحاد الكتاب الروس
اتحاد كتاب موسكو

نحن الكتاب البيلاروس في بولندا نحتج بحزم على الملاحقة القضائية ضد الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش في بيلاروس.

يان تشيكفين، سقراط ياكوفيتش
فكتور شفيد، ناديجدا ارتيموفيتش

لا أستطيع السكوت أكثر..

لقد طالعت لدى لارسا ريسنر أن أفغانستان قبائل شبه متوحشة، يردِّد

أفرادها وهم يرقصون: «المجد للبلاشفة الروس، الذين ساعدونا في الانتصار على الإنكليز».

ثورة إبريل... أعربت عن الرضا بقيامها: فقد انتصرت الاشتراكية في بلاد أخرى. بينما همس لي جاري في القطار قائلاً: «طفيليون جدد على كواهلنا».

في نقاش حول مصرع نور محمد تراكي أثناء ندوة عقدت في لجنة موسكو الحزبية أجاب المحاضر بحزم عن السؤال حول سبب إقدام أمين على قتل تراكي: «يجب أن يخلي الضعفاء أماكنهم للأقوياء». وترك ذلك انطباعاً سيّئاً لدى الحاضرين.

إنزال قواتنا في كابُل. وكان التفسير هو: "اعتزم الأمريكيون إنزال قواتهم هناك ونحن سبقناهم خلال ساعة واحدة فقط". وسرت في الوقت نفسه الإشاعات –الوضع سيئ هناك– جوع ونقص في الأدوية والملابس الدافئة.

بعد ذلك ظهرت عندنا معاطف الفرو الأفغانية، وبدت فخمة في شوارعنا. وكانت النساء يحسدن من لها زوج في أفغانستان. وكتب في الصحف أن جنودنا يغرسون هناك الأشجار ويصلحون الجسور والطرق.

منذ فترة وجيزة سمعت أن بعض المقاتلين السابقين "الأفغان" يدرسون في المعهد الديني الكنسي في زاغورسك، وهم جنود وضابطان. ما الذي دفعهم إلى ذلك؟ هل طلب المغفرة، أم الرغبة في اكتساب سبيل جديد؟ فلا يستطيع جميع من حصل على بطاقة المحاربين القدامى إطعام روحه بالأطعمة ذات الأسعار المخفضة، وإلباسها الملابس المستوردة ودفنها في الحديقة ذات الامتيازات تحت شجرة تفاح بغية ألا يرى شيئا وينسى..

ن. غونتشاروف

مدينة اورشا

... كان زوجي أيضاً (من 1985 إلى 1987) في أفغانستان في إقليم كونار، على الحدود مع باكستان. كان يخجل من تسمية "مقاتل أممي". وقد

ناقشت هذا الموضوع معه مراراً: هل وجب علينا نحن السوفيت الدخول إلى أفغانستان؟ وماذا كنا هناك: محتلون؟ أم أصدقاء "مقاتلون أمميون"؟ وكانت الأجوبة عن السؤال واحدة: لم يوجِّه أحد الدعوة إلينا، ولم يكن الشعب الأفغاني في حاجة إلى "المساعدة".

ومن الصعب الاعتراف بكوننا محتلين. ويجب علينا الآن ليس الجدل بصدد إقامة النصب التذكارية بل التفكير في المغفرة. يجب علينا جميعاً طلب المغفرة من الفتيان المخدوعين الذين قُتلوا في هذه الحرب الخالية من أي معنى. يجب طلب المغفرة من الشعب الأفغاني – الأطفال والأمَّهات والشيوخ – للمصائب الكثيرة التي داهمت أرضهم..

أ. ماسيوتا
أم ولدين،
زوجة مقاتل أممي سابق،
ابنة أحد المحاربين القدامى في الحرب الوطنية العظمى

تجري منذ فترة طويلة المحاولات للتشهير–بما يشمل المحاكمات– بالكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش التي وقفت بكتبها ضد جنون العنف والحرب. وتبرهن أليكسييفيتشفي كتبها أن الإنسان هو القيمة الأساسية في الحياة، لكن يجري بصورة إجرامية تحويله إلى برغي في ماكينة السياسة ويُستغل بصورة إجرامية مثل كبش فداء في الحروب التي يشنها رجال الدولة الطموحون. لا يمكن أن يبرر بأي شكل مقتل أبنائنا في أرض الغربة في أفغانستان.

مجلس الحزب الديمقراطي الموحد البيلاروسي

تعتقد رابطة حقوق الإنسان البيلاروسية أن استمرار المحاولات للتنكيل بالكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش عن طريق المحاكمات هي عمل سياسي تقوم به السلطات و يرمي إلى قمع أصحاب الفكر المغاير وحرية الإبداع وحرية الكلمة.

تتوفر لدينا المعطيات بأنه في فترة 1991–1992 نظرت الهيئات القضائية في جمهورية بيلاروس في نحو عشر قضايا سياسية، جرى تحويلها بصورة مصطنعة إلى مجال القانون المدني، لكنها في جوهر الأمر موجهة ضد النواب والكتاب والصحفيين والصحف ونشطاء المنظمات الاجتماعية – السياسية ذوي الاتجاهات الديمقراطية.

نحن نطالب بإيقاف ملاحقة الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش وإعادة النظر في القضايا المشابهة، التي تحولت الأحكام بشأنها إلى ملاحقات سياسية.

الرابطة البيلاروسية لحقوق الإنسان

بدأت الحرب في أفغانستان... وابني أنهى لتوه المدرسة والتحق بالكلية العسكرية. كان قلبي يتألم طوال الأعوام العشرة التي كان فيها أبناء الناس الآخرين في أفغانستان وفي أيديهم السلاح. وكان يمكن أن ينضم ابني إليهم. ولا صحة لما يقال إن الشعب لم يكن يعرف شيئاً. فقد كانت تجلب إلى البيوت توابيت الزنك ويعود الأبناء المعوقون إلى ذويهم المصعوقين – لقد رأى هذا الجميع. طبعاً لم يذكر شيء عن ذلك في الراديو والتلفزيون، ولم يكتبوا عنه في الصحف. (وقبل فترة قريبة تجرأوا على ذلك!)، لكن جرى هذا كله أمام سمع وبصر الجميع. الجميع! وماذا فعل عندئذ مجتمعنا "الإنساني" ونحن منهم؟ لقد كان مجتمعنا يقلد "زعماء" العظماء النجوم مجدَّداً، وينفذ ويتجاوز تنفيذ "الخطط الخمسية" (حقاً إن رفوف المحلات كانت خالية من السلع والمنتجات) ويبني البيوت الريفية (الداجات) ويتسلى. أما فتياننا في سن 18–20 عاماً فكانوا في هذا الوقت يمشون تحت وابل من الرصاص ويتعثرون ويسقطون فوق الرمل الغريب ويُقتلون. فمن نحن؟ بأي حق يمكن أن نحاسب أولادنا عما فعلوه هناك؟ وهل نحن الباقون هنا أكثر طهارة منهم؟ إن آلامهم وأوجاعهم فقط طهَّرتهم من الذنوب، بينما نحن لن نتطهر أبداً. لا تتحمل ضمائرهم بل ضمائرنا خطيئة قصف ومسح قرى بأكملها من وجه الأرض. نحن كنا نقتل وليس أولادنا. نحن قتلة أبنائنا وأبناء الغير.

أما أولئك الفتيان فهم أبطال! وقاتلوا هناك ليس بسبب "الخطأ". لقد قاتلوا لأنهم صدَّقونا. يجب علينا جميعاً أن نجثو على ركبنا أمامهم. ويمكن أن يصيبنا مسٌّ من الجنون لمجرد المقارنة بين ما فعلنا هنا وما حكمت عليهم به الأقدار...

غولوبيتناسا

مهندس بناء، مدينة كييف

... طبعاً إن موضوع أفغانستان اليوم نافع ويوافق الموضة. ويمكنك أيتها الرفيقة أليكسييفيتش أن تبتهجي الآن، فسيقبل القراء على مطالعة كتابك. وقد برز عندنا في البلاد كثير من الأشخاص الذين يهتمُّون بكل ما يلطِّخ جدرانَ وطنهم بالأوساخ. وبينهم بعض "الأفغان" أيضاً (ليس جميعهم! البتة!) حيث يحصلون على أداة للدفاع عنهم: انظروا ماذا فعلتم بنا! الأنذال يحتاجون دوماً إلى حماية أحد ما. أما الأشراف من الناس فهم لا يحتاجون إلى ذلك لأنهم يبقون شرفاء في الأوضاع كافَّة. وعددهم بين "الأفغان" كبير جداً، ولكن يبدو أنك كما أعتقد لم تبحثي عنهم.

أنا لم أكن في أفغانستان، لكنني سرت في جميع دروب الحرب الوطنية العظمى. وأنا أعرف حق المعرفة أن القذارة كانت هناك أيضاً. لكنني لا أريد أن أتذكَّرها ولن أسمح لأحد آخر بالقيام بذلك. المسألة لا تكمن فقط في أن تلك كانت حرباً أخرى. سخف! يعرف الجميع أن الإنسان يجب من أجل أن يبقى حيّاً أن يأكل، ويتطلب تناول الطعام توفر - وأرجو المعذرة - أماكن التغوُّط. لكننا لا نتحدَّث عن هذا بصوت عال... فلماذا نُسي الحديث عن ذلك الكتاب حول الحرب "الأفغانية" ناهيك عن الحرب الوطنية العظمى؟ وإذا كان "الأفغان" أنفسهم يحتجون على مثل هذه "الصراحة" فيجب أن نصغي إليهم وندرس هذه الظاهرة. أنا مثلاً أعرف لماذا يثورون بعنف هكذا. ثمة إحساس بشري طبيعي اسمه الخجل. إنهم يشعرون بالخجل. وأنت

لاحظت هذه الخجل لكن لسبب ما لقد قرَّرت أن هذا لا يكفي. وقررت أن تنظمي محكمة علنية. فهم قتلوا هناك الجمال، كما قُتل الناس المسالمون برصاصهم... لقد أردتِ أن تثبتي أن هذه الحرب لا حاجة لأحد إليها وضارة. بينما لا تدركين أنك بذلك تهينين المشاركين فيها، من الفتيان غير المذنبين في أي شيء...

ن. دروجينين
مدينة تولا

من محضر الجلسة الختامية للمحاكمة

8 ديسمبر 1993

القاضي إي. جدانوفيتش، المحلفان الشعبيان: ت. ف. بوريسوفتش، ت..س. سوروكو،صاحبا الدعوى: اي. س. غالوفنيوفا، ت. م. كيتسمور، المتهمة: س. أ. أليكسييفيتش.

من كلمة س. أليكسييفيتش، مؤلفة «فتيان الزنك» (بصدد ما قيل، وما لم يُسمح بقوله)

أنا لم أصدِّق حتى النهاية بأن هذه المحاكمة ستتم، كما لم أصدِّق حتى آخر لحظة، بأنهم سيقصفون البيت الأبيض (الروسي)... وأننا يمكن أن نطلق النار على بعضنا البعض.

وأنا لا أستطيع أن أرى الوجوه الغاضبة العابسة. وأنا ما كنت سآتي إلى هذه المحكمة لو لم تجلس هنا الأمَّهات، بالرغم من أنني أعرف بأنهم لا يحاكمونني بل يحاكمني النظام السابق. إن الوعي ليس بطاقة حزبية، ولا يمكن إيداعه في الأرشيف. لقد تغيَّرت أسماء شوارعنا، ولافتات المتاجر وأسماء الصحف، لكننا بقينا نحن على حالنا. نحن من المعسكر الاشتراكي. وبتفكير المعسكر السابق.

لكنني جئت لكي أتبادل الحديث مع الأمَّهات. وطلب المغفرة منهنَّ لأنه

لا يمكن إيجاد الحقيقة بلا ألم. ويبقى لديَّ السؤال نفسه الوارد في كتابي: من نحن؟ ولماذا يمكن أن يفعلوا بنا أي شيء؟ إعادة الابن إلى الأم في تابوت من الزنك، ومن ثم إقناعها بأن تقيم الدعوى في المحكمة ضد الكاتبة التي كتبت كيف أنها - أي الأم - لم تستطع تقبيل ابنها في آخر مرة وغسله بالأعشاب وتمسيد التابوت من الزنك.. فمن نحن؟

لقد بثُّوا في جيناتنا منذ الطفولة حبَّ الرجل الذي يحمل السلاح. ونشأنا كما لو كنا في حال حرب، حتى لدى من ولد بعد عشرة أعوام منها. ورؤيتنا مبنية على أنه حتى الآن، وحتى بعد جرائم أحوال الطوارئ الثورية، وفصائل جلادي ستالين في الجبهة ومعتقلاته، وبعد أحداث فيلنوس وباكو وتبليسي مؤخراً، وبعد كابُل وقندهار، يُعتبر الرجل حامل السلاح هو جندي عام 1945، جندي النصر. ما أكثر الكتب التي كتبت عن الحرب! وما أكثر ما صنع بأيدي البشر وعقولهم من السلاح، بحيث أصبحت فكرة القتل شيئاً عادياً! وتنشغل خيرة العقول بإصرار طفولي في التأمُّل حول حق الإنسان في قتل الحيوانات، أما نحن فيمكن أن نبرِّر الحرب من دون أن يراودنا أدنى شك أو أننا كوَّنا على عجل مُثُلاً أعلى سياسياً. افتحوا في المساء التلفزيون ستروا بأيِّ بهجة مستترة نحمل الأبطال إلى المقابر. في جورجيا وأبخازيا وطاجيكستان... ومجدَّداً نبني على قبورهم النصب، وليس المصليات...

من المستحيل أن نأخذ من أيدي الرجال تلك اللعبة المفضلة والعزيزة جداً لديهم بلا عقاب - أي الحرب. هذه خرافة... وغريزة قديمة...

لكنني أكره الحرب، وأكره فكرة أن يمتلك أحد ما الحق في سلب حياة إنسان آخر.

منذ فترة قريبة حدَّثني أحد الكهنة في الكنيسة كيف حمل رجل عجوز من رجال الجبهة السابقين أوسمته وميدالياته إلى الكنيسة وقال: «نعم أنا قتلت الفاشست. ودافعت عن الوطن. لكني قبل أن أموت أريد مع هذا طلب المغفرة لكوني قتلت». وترك هذه الأوسمة والميداليات في الكنيسة وليس في المتحف. نحن تربَّينا في المتاحف العسكرية...

إن الحرب عمل شاق، لكن بمرور الأعوام يبقى في الذاكرة هذا العمل الشاق، أما فكرة القتل فتُترك جانباً. فهل يمكن ابتداع كل هذا: هذه التفاصيل، والمشاعر؟ إنها متنوعة بشكل رهيب في كتابي.

إنني غالباً ما أفكِّر: نحن لسنا على قدم المساواة مع ما يجري لنا بعد تشيرنوبل وأفغانستان، وبعد الأحداث عند البيت الأبيض. ولدى استعادة ماضينا، نجد دوماً الجميع ضحايا. ربما لهذا السبب يتكرَّر كل شيء؟

نحن كنا قبل عدة أعوام، وبالأحرى قبل أربعة أعوام، نفكِّر بصورة واحدة: أنا وكثير من الأمَّهات والحاضرون الآن في هذه الصالة والجنود العائدون من أرض أفغانستان الغريبة عنا. وفي كتابي "فتيان الزنك" تُعتبر الأحاديث-الصلوات التي أوردتها الأمَّهات من أكثر الصفحات إيلاماً. الأمَّهات يبتهلن من أجل أبنائهنَّ القتلى...

لماذا نجلس هنا في المحكمة ضد بعضنا البعض؟ ماذا حدث خلال هذه الفترة؟

في هذه الفترة اختفت من خارطة العالم وتاريخ البلاد الإمبراطورية الشيوعية التي أرسلتهم إلى هناك من أجل أن يقتلوا ويموتوا. إنها غير موجودة. في البداية وصفوا الحرب بوجل بأنها خطأ سياسي. ومن ثم جريمة. الجميع يريدون نسيان أفغانستان. نسيان هذه الأمَّهات، وهؤلاء المعوقين... النسيان أيضاً أحد أشكال الكذب. لقد بقيت الأمَّهات لوحدهنَّ مع قبور فتيانهنَّ. حتى أنه لا يوجد لديهن العزاء بأن مصرع أولادهن لم يكن بلا معنى. ومهما سمعت اليوم من إهانات وشتائم فإنني أنحني إجلالاً للأمَّهات. أنحني لأنهنَّ دافعن عن أولادهنَّ حين رماهم الوطن بالعار. اليوم الأمَّهات فقط يدافعن عن الفتيان القتلى... لكن المسألة الأخرى هي: ممَّن يدافعن عنهم؟

إن مصيبتهنَّ أكبر من أي حقيقة. ويقال إن صلاة الأم تصل حتى من قاع البحر. وفي كتابي أنها تبلغهم من اللاوجود. إنهم قرابين على مذبح محرقنا الأليم. إنهم ليسوا أبطالاً بل شهداء. ولن يجرؤ أحد على رجمهم بالحجارة.

نحن جميعاً مذنبون ومشاركون في ذلك الكذب - إن كتابي عن هذا. ما هي خطورة أية شمولية؟ إنها تجعل الجميع طرفاً في جرائمها. الطيّبون والأشرار، السذج والبراجماتيون... يجب أن نصلي من أجل هؤلاء الفتيان، وليس من أجل الفكرة التي أصبحوا ضحايا لها. أريد أن أقول للأمّهات: أنتنَّ لا تدافعن عن فتيانكنَّ. أنتنَّ تدافعن عن فكرة رهيبة؛ فكرة قاتلة. هذا ما أريد أن أقوله إلى الجنود-الأفغان السابقين الذين جاءوا إلى المحكمة اليوم.

إنني أرى وراء ظهر الأمّهات شارات الجنرالات. الجنرالات يعودون من الحرب حاملين نجوم الأبطال وحقائب كبيرة مملوءة بسقط المتاع... لقد روت لي إحدى الأمّهات وهي موجودة في القاعة أيضاً كيف جلبوا لها تابوت الزنك وحقيبة سفرية صغيرة سوداء فيها فرشة أسنان ولباس السباحة لابنها. هذا كل ما جلبه من الحرب. فممَّن تردن الدفاع عن أولادكنَّ؟ من الحقيقة؟ حقيقة أن أولادكن ماتوا متأثرين بجراحهم لأنه لم يتوفر الكحول والأدوية التي بيعت إلى الدكاكين؟ وجرى إطعامهم بمعلبات تعود إلى أعوام الخمسينيات؟ ودفنوهم حتى ببزّات قديمة تعود إلى أزمان الحرب الوطنية العظمى؟ لقد اقتصدوا في النفقات حتى في هذا المجال! أنا لم أرغب في قول ذلك عند القبور... لكنني أجد نفسي مرغمة على قوله...

أنتنَّ تسمعن: يجري إطلاق النار في كل مكان، وتُراق الدماء مجدّداً. فأي تبرير تبحثن للدم؟ أم أنتن تساعدن في البحث؟

قبل خمسة أعوام خلت، حين حكم الحزب الشيوعي، وكي.جي.بي، كنت أحياناً أغيِّر الأسماء والألقاب من أجل حماية أبطال كتابي من التنكيل. كنت أحميهم من النظام. أما اليوم فيتعين عليَّ الدفاع عن نفسي من الذين كنت أدافع عنهم قبل فترة وجيزة.

ما الذي يجب أن أدافع عنه؟ أدافع عن حقي ككاتبة في رؤية العالم كما أراه، وعن حقي في كره الحرب؟ أم يجب عليَّ أن أثبت بأنه توجد حقيقة وشبه حقيقة، وأن الوثيقة في الفن هي ليست وثيقة صادرة عن مكتب التجنيد

وليست تذكرة الترامواي؟ إن الكتب التي أؤلفها هي وثيقة وفي الوقت نفسه رؤيتي للزمن. أنا أجمع التفاصيل والمشاعر ليس من حياة فرد معين، بل من كل هواء الزمن وفضائه وأصواته. أنا لا أبتدع شيئاً، ولن أضيف من عندي، بل أجمع مواد الكتاب من الواقع نفسه. الوثيقة هي ما يروونه لي، الوثيقة، وجزء منها، هي أنا ككاتبة لها رؤيتها للعالم وأحاسيسها.

أنا أكتب، وأدوِّن التاريخ المعاصر والراهن. أصوات حية، ومصائر حية. إنها قبل أن تصبح تاريخاً كانت أيضاً أوجاع أحد ما، وصرخة أحد ما، وتضحية أحد ما أو جريمة أحد ما. أنا سألت نفسي مرات عديدة: كيف يمكن أن أحيا وسط الشر، من دون مضاعفة الشر في العالم، بالأخص الآن حين يكتسب الشر مقادير هائلة؟ وأنا أسأل نفسي عن ذلك قبل تأليف كل كتاب. هذا عبئي. هذا مصيري.

إن الكتابة هي مصير ومهنة، وفي بلادنا التعيسة هي مصير أكثر من كونها مهنة. لماذا رفضت المحكمة مرتين طلب إجراء تقويم للنص من قبل خبير أدبي؟ لأنه سيكون واضحاً فوراً أنه لا تتوفر الحيثيات للمحاكمة. تجري محاكمة الكتاب، ومحاكمة الأدب، لاعتقادهم بأنه ما دام هذا الأدب وثائقياً فيمكن إعادة كتابته مجدَّداً في كل مرَّة، وتكييفه لمتطلبات الفترة الراهنة. لا سمح الله لو أن الكتب الوثائقية وضعت تحت حكم ذوي المقاصد الذاتية المعاصرين. فعندئذ لا تتبقى لدينا سوى أصداء الهياجات السياسية والخرافات بدلاً من التاريخ الحي. تُمارس الملاحقة القانونية للأدب والصنف الأدبي وأعمال التنكيل السياسي البدائي ذات السمة المبتذلة إن جاز القول. ولدى الاستماع إلى ما قيل في هذه الصالة كنت أفكِّر في دخيلة نفسي: من يقدم حالياً على دعوة الغوغاء إلى الشارع، الغوغاء التي لم تعد تصدق أي أحد؛ لا الكهنة ولا الكتَّاب ولا رجال السياسة؟ إنها تريد فقط ممارسة التنكيل والدم... ولا تبقى سوى سلطة الرجل الذي يحمل السلاح؟ أما الرجل الذي يحمل الريشة أو بالأحرى القلم وليس رشَّاش كلاشنكوف فإنه يزعجها. لقد علَّموني هنا كيف يجب أن أؤلِّف الكتب.

إن الذين استدعوني إلى المحكمة يتخلُّون عمَّا قالوه منذ عدَّة أعوام. وقد تغيَّر في وعيهم المفتاح الرقمي، وهم يقرأون النص السابق بصورة مغايرة، أو لا يعترفون به عموماً. لماذا؟ لأنهم لا يحتاجون إلى الحرية... إنهم لا يعرفون ما الذي سيفعلونه بها...

أنا أتذكَّر جيِّداً ما كانت عليه إينا غالوفنيوفا حينما التقينا، وأحببتها مقابل الأوجاع والحقيقة، والقلب المعذَّب. أما الآن فهي من رجال السياسة، وشخصية رسمية، ورئيسة نادي أمَّهات الجنود الشهداء. إنها الآن إنسان آخر، غير السابق – لم يبق منه سوى الاسم واسم ابنها الشهيد الذي ضحَّت به مجدَّداً. إنها مراسم ذبح القرابين. نحن عبيد، نحن رومانسيو العبودية.

لدينا تصوُّراتنا عن الأبطال والشهداء. لو كان الحديث يدور هنا عن الشرف والكرامة لوقفنا صامتين أمام ذكرى نحو مليوني أفغاني؟.. لقد قُتلوا هناك في أرضهم..

كم مرة يجب أن يُطرح سؤالنا الأبدي: من المذنب؟ نحن المذنبون؛ أنت وأنا وهم. المسألة تكمن في شيء آخر – في الخيار، الموجود لدى كل واحد منا: إطلاق النار أو عدم إطلاقها، التزام الصمت أو عدم التزام الصمت، الذهاب أو عدم الذهاب إلى هناك؟ يجب أن نسأل أنفسنا. وليسأل كل واحد نفسه... لكن لا تتوفر الخبرة في الولوج إلى كوامن النفس. وإيجاد الأجوبة ذاتياً... الأمر المعتاد أكثر هو الخروج إلى الشارع تحت الرايات الحمراء المألوفة. نحن لا نستطيع العيش بلا حقد. لم نتعلَّم بعد.

إن تاراس كيتسمور أحد أبطال كتابي... لكنه ليس الذي ترونه هنا في صالة المحكمة الآن، بل هو شخص آخر حين عاد من الحرب، كما روى لي ذلك... سأقرأ لكم من الكتاب:

«أرى في الحلم أنني نائم وأرى بحراً كبيراً من البشر... الجميع بالقرب من بيتنا... ألتفت، وأشعر بالضيق، لكنني لسببٍ ما لا أستطيع النهوض. وعندئذ أدرك أنني أرقد في تابوت... تابوت خشبي بدون غلاف من الزنك.

أذكر هذا جيِّداً. لكنني حي، أذكر، حي، لكنني أرقد في تابوت. وتفتح البوَّابة ويخرج الجميع إلى الطريق، يحملونني إلى الطريق. حشود الناس، تبدو على وجوههم جميعاً علامات الحزن بالمصاب وكذلك بهجة خفية ما... غير مفهومة بالنسبة إليَّ...ماذا حدث؟ لماذا أنا في التابوت؟ وفجأة توقَّفت المسيرة وسمعت من يقول: "هاتوا المطرقة". وعندئذ وردت في ذهني فكرة أنني أرى حلماً... وكرَّر أحدهم مرَّة أخرى "هاتوا المطرقة". وسمعت كيف أغلق فوقي الغطاء وصوت المطرقة، وانغرس مسمار في إصبعي. وأخذت أدق الغطاء برأسي وقدمي. فانفتح الغطاء، وسقط. وتطلَّع الناس - وأنا نهضت، نهضت حتى مستوى الحزام. وأردت أن أصرخ: هذا يوجعني، لماذا تغلقون عليَّ الغطاء بالمسامير؟ أنا لا أستطيع التنفُّس هناك. لكنهم يبكون، ولا يقولون لي شيئاً. إنهم صمٌّ بكمٌ جميعاً. وعلى وجوههم علامات البهجة، البهجة الخفية... إنها لا تُرى.. أما أنا فأراها، وأحدس بوجودها. ولا أدري كيف أتحدَّث معهم من أجل أن يسمعوني. يبدو لي أنني أصرخ، وشفتاي ملصقتان ولا أستطيع فتحهما. وعندئذ استلقيت مجدَّداً في التابوت. كنت راقداً وأنا أفكِّر: انهم يريدون أن أموت، ربما أنا ميت فعلاً، ويجب التزام الصمت. ومرَّة أخرى قال أحدهم: «أعطوني المطرقة...».

علماً أنه لم ينفِ ذلك. وهذا الكلام يشكِّل دفاعاً عن شرفه وكرامته في محكمة التاريخ. وأنا أيضاً.

من الأحاديث في صالة المحكمة

- أنت تقولين إنهم الشيوعيون... الجنرالات... مخرجون وراء الكواليس... وهم؟ هم أنفسهم؟ مخدوعون وراغبون في أن يخدعوا. هنالك أحد ما مذنب، وليسوا هم. سيكولوجية الضحية. والضحايا تحتاج دائماً إلى أحد ما لكي توجه إليه الاتهام.

- لديها ملايين: سيَّارتان من طراز "مرسيدس"... تتجوَّل في بلدان الخارج..

- الكاتب يؤلِّف الكتاب خلال عامين أو ثلاثة أعوام، ويتلقَّى مقابل ذلك قدر ما يكسبه الصبي وسائق الترولّلي خلال شهرين... من أين أخذت هاتين السيارتين من طراز "مرسيدس"؟

- إنها تتجوَّل في بلدان الخارج..

- وذنبك شخصياً؟ كان في وسعك أن تطلق النار أو عدم إطلاقه. ماذا؟ أنت صامت...

- هناك حاجة إلى شعب فقير... ومنذ فترة قريبة كنا دولة عظمى. ربما لم نكن نحن كذلك لكننا اعتبرنا أنفسنا دولة عظمى من حيث عدد الصواريخ والدبَّابات والقنابل الذرية. وصدقنا بأننا نعيش في أفضل البلاد وأكثرها عدالة. بينما أنت تقولين إننا كنا نعيش في بلاد أخرى - رهيبة ودموية. من سيغفر لنا ذلك؟ أنت لامست أكثر المواضع إيلاماً... وأكثرها هلاكاً...

- نحن جميعاً كانت لنا علاقة بهذا الخداع... جميعاً.

- لقد فعلتم الشيء ذاته الذي فعله الفاشست! وتريدون أن تصبحوا أبطالاً. كما تريدون، بالإضافة إلى ذلك الحصول على ثلاجة وطقم موبيليا من دون الوقوف في طابور...

- إنهم كالنمل، ولا يعرفون بأنه يوجد أيضاً نحل وطيور. ويريدون أن يحوِّلوا الجميع إلى نمل. هذا ناجم عن اختلاف مستوى الوعي والإدراك.

- ماذا تريدون بعد هذا كله؟

- بعد كل شيء؟

- بعد الدم... أنا أقصد تاريخنا. وبعد الدم يمكن أن يقوّم الناس الخبز فقط. بينما لا توجد قيمة لكل شيء عدا هذا. لقد تهدَّم الوعي.

- يجب الصلاة. الصلاة من أجل جلادينا. ومعذبينا.

- لقد دفعوا إليها الدولارات. إنها تصب على رؤوسنا القاذورات. وأطفالنا أيضاً.

- عندما لا نفهم الماضي، سيجد ذلك صداه في المستقبل. وسيكون خداعاً جديداً ودماً جديداً. الماضي ما زال أمامنا.

من قرار المحكمة

قرار
باسم جمهورية بيلاروس

نظرت المحكمة الشعبية بالمنطقة الوسطى في مدينة مينسك والمؤلفة من أي. جدانوفيتش الرئيس والمحلفين الشعبيين ت. ف. بوريسوفتش و ت. س. سوروكا، والسكرتيرة أي. ب. لوبينيتش في جلسة علنية في 8 ديسمبر عام 1993 الدعوى التي أقامها تاراس ميخايلوفتش كيتسمور وإينا غالوفنيوفا ضد سفتيلانا ألكسندروفنا أليكسييفيتش وهيئة تحرير صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" دفاعاً عن الشرف والكرامة.

بعد سماع مرافعات الجانبين، ودراسة مواد القضية، تعتقد المحكمة أن مطالب أصحاب الدعوى يمكن تلبيتها جزئياً.

بموجب المادة 7 من قانون العقوبات لجمهورية بيلاروس يحق للمواطن أو المنظمة المطالبة بنفي المعلومات التي تسيء إلى شرفه وكرامته، إذا لم يثبت ناشر هذه المعلومات أنها تطابق الواقع.

وقد تبيَّن للمحكمة أنه نشرت في صحيفة «كومسمولسكايا برافدا» بتاريخ 15 فبراير 1990 مقاطع من الكتاب الوثائقي لسفيتلانا ألكسييفتش "فتيان الزنك -مونولوجات من حارب في أفغانستان". ويوجد في المواد المنشورة مونولوج وقع باسم صاحبة الدعوى اي.`غالوفنيوفا.

ونظرًا لأن المتهمين في هذه القضية وهما - س. أ. أليكسييفيتش

وصحيفة "كمسمولسكايا برافدا" لم يقدِّما أدلة تثبت أن المعطيات المنشورة في المواد المذكورة تطابق الواقع، لذا تعتبرها المحكمة لا تطابق الواقع.

لكن المحكمة ترى أن المعلومات المذكورة لا تشكِّل تشنيعاً لأنها لا تحط من شرف وكرامة س.اي. غالوفنيوفا وولدها القتيل في أوساط الرأي العام ورأي المواطنين من وجهة نظر الالتزام بالقوانين والمبادئ الأخلاقية للمجتمع، ولا تتضمن معلومات حول السلوك الشائن لولدها في المجتمع.

وبما أن المتهمين لم يقدِّما أدلة تثبت أن حديث ت.م. كيتسمور يطابق الواقع، لذا ترى المحكمة أن المعلومات الواردة في المونولوج الموقع باسم ولقب ت. م.كيتسمور لا تطابق الواقع.

واعتماداً على المعطيات الواردة أعلاه ترى المحكمة أنه لا تطابق الواقع وتسيء إلى شرف وكرامة المدعي ت. م. كيتسمور المعطيات التالية الواردة في العبارات: «أنا رأيت هناك، كيف يستخرج في حقول الرز الحديد والعظام البشرية، ورأيت القشرة الجليدية البرتقالية على وجه القتيل المتجمِّد، ولأمر ما هو برتقالي اللون» و«في غرفتي الكتب نفسها والصور وجهاز المسجل والغيتار، بينما أنا في غرفة أخرى. لا أستطيع المرور عبر المتنزه، وألتفت طوال الوقت إلى ورائي. وفي المقهى يقف النادل ويقول: "اطلب"، وأنا مستعد للنهوض والهرب... أنا لا أحتمل أن يقف أحد ما وراء ظهري. وعندما أرى النذل ترد في خاطري فكرة واحدة: يجب إطلاق النار عليه». هذه المعطيات تعتبر مسيئة لأنها تعطي الإحساس للاعتقاد لدى القراء بأنه غير سليم عقلياً وتولد الشكوك في صفاته الأخلاقية، وفي قدرته على إعطاء معلومات صادقة وتطابق الواقع.

أما في القسم الآخر من الدعوى فإنه يرفض طلب ت. م. كيتسمور...

لم تعترف المتهمة س.ا. أليكسييفيتش بالدعوى. وقالت إنها في عام 1987 التقت اي.س.غالوفنيوفا – أم الضابط الذي قُتل في أفغانستان وسجَّلت الحديث معها على شريط المسجل. وجرى ذلك فور دفن جثمان

ولدها. وروت لها صاحبة الدعوى كل ما ورد في المونولوج المسجل ووضع تحته اسمها في صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" وبغية ألا تلاحق غالوفنيوفا من قبل دوائر الأمن عمدت الكاتبة من جانب واحد إلى تغيير اسمها إلى نينا ورتبة ولدها إلى ملازم، بالرغم من أن الحديث دار عنها بالذات.

كما أنها التقت ت. م. كيتسمور قبل ستة أعوام بالضبط. وسجّلت حديثه على شريط المسجل. وما ورد في المونولوج المنشور مأخوذ من هذا التسجيل، ولذلك فإنه يطابق الواقع.

واعتماداً على ما ورد أعلاه، وبموجب المادة 194 من قانون العقوبات لجمهورية بيلاروس قررت المحكمة ما يلي:

تلزم هيئة تحرير «كمسمولكسايا برافدا» بأن تنشر خلال شهرين تكذيباً لتلك المعطيات.

ترفض دعوى إينا سرغييفنا غالوفنيوفا بصدد الدفاع عن الشرف والكرامة التي أقامتها ضد سفيتلانا ألكسندروفنا ألكسييفتش وهيئة تحرير "كمسمولسكايا برافدا".

تلزم سفيتلانا ألكسندروفنا أليكسييفيتش بأن تسدد إلى تاراس ميخايلوفتش كيتسمور نفقات الرسوم القضائية بمبلغ 1320 (ألف وثلاثمئة وعشرين) روبلاً وكذلك الرسوم القضائية إلى الدولة بمبلغ 2680 (ألفين وستمئة وثمانين) روبلاً.

يمكن استئناف قرار المحكمة لدى محكمة مدينة مينسك عبر المحكمة الشعبية للمنطقة الوسطى في مدينة مينسك خلال 10 أيام من صدور القرار.

* * *

إلى مدير معهد الأدب يانكا كوبالا

التابع لأكاديمية علوم

جمهورية بيلاروس

ف. أ. كوفالينكو

فكتور أنطونوفتش المحترم

كما تعلمون فقد اختتمت في المرحلة الأولى محاكمة الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش في موضوع نشر مقاطع من كتابها "فتيان الزنك" في صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" بتاريخ 15-2-90. وفي الواقع جرى اتهام س. ألكسييفتش بأنها أساءت إلى شرف وكرامة أحد أصحاب الدعوى (أحد أبطال كتابها)، لأنها لم تورد أقواله حرفياً. ورفضت المحكمة مرتين طلبها بإجراء اختبار من قبل خبراء في الأدب.

إن مركز – بين البيلوروسي يرجوكم إجراء اختبار أدبي مستقل من شأنه أن يعطي الإجابة عن الأسئلة التالية:

1. كيف يحدد علمياً صنف الرواية الوثائقية مع مراعاة أن "الوثائقي" يفهم منه أنه "يعتمد على الحقائق –الشواهد"، أما "الرواية" فهي "عمل فني"؟

2. فيمَ تختلف الرواية الوثائقية عن المقالة الصحفية، وبضمن ذلك عن الحديث الذي يوافق على نصه عادة صاحب الحديث الصحفي؟

3. هل يحق لمؤلف الرواية الوثائقية أن يمارس الإبداع الفني ومفاهيم السرد الروائي واختيار المادة والمعالجة الأدبية لأقوال الشهود، وان يعطي رؤيته للحدث، وأن يعمم الوقائع من أجل بلوغ الصدق الأدبي؟

4. من يمتلك حقوق المؤلف: هل هو المؤلف أم أبطال الحدث الذين سجلت أقوالهم في أثناء جمع المواد؟

5. كيف تحدد المقاييس التي يجب أن يلتزم بها الكاتب في تجنب إيراد النص الحرفي والنص المسجل بصورة ميكانيكية؟

6. هل يتفق كتاب س. أليكسييفيتش "فتيان الزنك" مع صنف الرواية الوثائقية (بخصوص السؤال الأول)؟

7. هل يحق لكاتب الرواية الوثائقية أن يغيّر أسماء وألقاب الأبطال؟

8. كنتيجة لجميع هذه الأسئلة فإن أهمها هو: هل يمكن محاكمة الكاتب بسبب مقطع من العمل الأدبي حتى اذا كان هذا المقطع لا يعجب من أعطى المادة الشفهية للكتاب؟ إن س. أليكسييفيتش لم تنشر أحاديث صحفية مع أصحاب الدعاوى بل مقاطع من الكتاب بأسلوب الرواية الوثائقية.

إن مركز بين البيلاروسي يحتاج إلى رأي الخبراء من أجل الدفاع عن الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش.

كارلوس شيرمان

نائب رئيس مركز – بين البيلاروسي

28 ديسمبر 1993

إلى ف. بيكوف

رئيس نادي بين البيلاروسي

تنفيذاً لطلبكم بإجراء اختبار أدبي مستقل للرواية الوثائقية للكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش "فتيان الزنك" نجيب عن أسئلتكم بنداً بنداً:

1. يتبيَّن من تحديد مفهوم "الأدب الوثائقي" الوارد في معجم الموسوعة الأدبية (موسكو، الموسوعة السوفيتية، 1987، ص ص 98 – 99) والذي يُعتبر في أوساط العلماء والخبراء الأكثر دقة وصواباً، أن الأدب الوثائقي، ومنه الرواية الوثائقية، ينتمي من حيث المحتوى والأساليب وطرق البحث وشكل السرد إلى صنف النثر الروائي، ولهذا يستخدم بشرط انتقاء المادة الوثائقية بشكل فني وإعطاء التقويم الجمالي لها. ويذكر كاتب المقالة المذكورة: "الأدب الوثائقي هو نثر روائي يدرس الأحداث التاريخية وظواهر الحياة الاجتماعية عن طريق تحليل المواد الوثائقية التي تتجدد كلياً، جزئياً، أو في سياق السرد".

2. يشار في مقالة الموسوعة المذكورة إلى أن "نوعية الانتقاء والتقويم الجمالي للوقائع الواردة المأخوذة من المجال التاريخي يوسعان الطابع المعلوماتي للأدب الوثائقي ويخرجانه من مجال العمل الوثائقي الإعلامي والصحفي ومجال الإعلام وكذلك من النثر التاريخي". ولهذا لا يمكن اعتبار المقطع من "فتيان الزنك" للكاتبة س. ألكسييفتش والمنشور في صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" (بتاريخ 15-2-1990) من صنف المقابلة الصحفية والريبورتاج والمقالة أو أي نوع آخر من الأعمال الصحفية، فهو بمثابة دعاية للكتاب الذي سينشر قريباً.

3. أما بصدد حقوق تأليف العمل الأدبي الوثائقي بصفته وسيلة خصوصية لتعميم الوقائع، وإيراد مفاهيم المؤلف ذاته بشأن الحدث التاريخي، والانتقاء

الواعي للمادة، والمعالجة الأدبية للأحاديث الشفهية لشهود هذا الحدث، واستنتاجاته الشخصية بغية عرض الوقائع، فيشار في الموسوعة الآنفة الذكر إلى ما يلي بالنص الحرفي: "إن الأدب الوثائقي الذي يختصر الفكرة الأدبية إلى أقل حد يستخدم ما يشبه التخليق الأدبي بانتقاء الوقائع الفعلية التي تتصف بحد ذاتها بسمات اجتماعية - معيشية يومية". لا ريب في أن الأدب الوثائقي يتوجَّه حصراً نحو الصدق. لكن هل يمكن تقديم الواقعية الكاملة والحقيقة المطلقة عموماً؟ وحسب أقوال الكاتب ألبير كامو الحائز على جائزة نوبل فإن الحقيقة الكاملة غير ممكنة إلا عندما توضع أمام الشخص كاميرا سينمائية، وعندئذ سيسجل حياته كلها من الميلاد وحتى الموت. لكن هل يوجد في هذه الحالة شخص ما يوافق على التضحية بحياته من أجل مشاهدة هذا الفيلم العجيب؟ وهل في وسعه أن يرى وراء الأحداث الخارجية الأسباب الداخلية لسلوك "البطل"؟ ومن اليسير تصور ذلك الوضع لو أن كاتبة "فتيان الزنك" قد تخلتَّ عن الموقف الإبداعي من الحقائق ووافقت على القيام بالدور السلبي لجامعها. لوجب عليها في هذه الحال أن تسجل على الورق كل ما قاله أبطالها "الأفغان" ولحصلنا في النتيجة على مجلَّد ضخم من مادة غير معالجة ولم يصل إلى المستوى المطلوب من حيث المتطلبات الجمالية والفنية، والذي لن يجد قارئاً له. زد على ذلك لو سار في هذا الدرب أسلاف س. أليكسييفيتش في هذا الأدب الوثائقي لما حصل الأدب العالمي على روائع مثل "قلعة بريست" للكاتب س. سميرنوف، و"محاكمة نورنبرغ" للكاتب ا. بولتوراك، و"القتل العادي" للكاتب ت. كابوته، و"أنا من قرية النار" للكتَّاب ا. اداموفتش وي.بريل وف.كوليسنيك، و"كتاب الحصار" للكاتبين ا. اداموفتش ود.غرانين.

4. إن حقوق التأليف هي مجموعة من الأحكام القانونية التي تنظم العلاقات بين بين تأليف وإصدار الأعمال الأدبية، وتبدأ منذ لحظة تأليف الكتاب، وتتألَّف من صلاحيات معينة يحددها القانون (الملكية الشخصية وغير الملكية). ويبرز من بينها بالدرجة الأولى حق التأليف والنشر وإعادة

النشر والتوزيع وحصانة النص (يحق للمؤلف فقط أن يجري أية تعديلات على عمله أو يعطي السماح إلى آخرين بإجراء مثل هذه التعديلات). ولدى انتهاك حقوق المؤلف يلجأ إلى القضاء.

5. من المستحيل أن يرد في العمل الأدبي الوثائقي الكلام الحرفي للأبطال كلمة فكلمة، كما أثبتنا ذلك في البند الثالث. لكن تبرز طبعاً إرادة المؤلف الذي يروي البطل ذكرياته في أثناء المحادثة. وبهذا يكون كما لو منحه جزءاً من حقوقه في هذه الشهادة أملاً في نقلها بصورة أمينة اعتماداً على المهارة المهنية للمؤلف وقدرته على إبراز الأمر الرئيس وترك صغائر الأمور التي لا تعمق الفكرة، ومقابلة الوقائع ورؤيتها في كل موحد. في نهاية المطاف فإن كل شيء يتحدد بموهبة المؤلف الأدبية ومواقفه الأخلاقية، وقدرته على جمع الجانب الوثائق بالتصوير الأدبي. ولا يمكن أن يتحسس ويحدد مدى صدق وعمق التوغل في الحدث في هذه الحالة إلا القارئ والناقد الأدبي. ومعيار الصدق هذا يقيمه الأبطال أيضاً، فهم من أكثر القراء حماساً واهتماماً. وأحياناً يكونون أنفسهم ضحايا رد الفعل غير المناسب لحديثهم. فالشخص الذي يسمع لأول مرة صوته على شريط المسجل قد لا يعرف نفسه ويعتقد أنه تم استبدال كلامه بشكل فظ. كما ينشأ رد الفعل المباغت في أن حديث أحد الشهود يقابل ويتصل في الكتاب مع أحاديث مشابهة أخرى، تتلاقى أو تختلف عنها، أو حتى يجادل ويتخاصم مع الأبطال – الشهود الآخرين: عندئذ يتغيَّر الموقف حيال أقواله نفسه.

6. إن كتاب س. أليكسييفيتش "فتيان الزنك" يتفق كلياً مع صيغة الأدب الوثائقي الآنفة الذكر. وتوجد المصداقية والقدرة الأدبية فيه بالمقادير التي تتيح نسب هذا العمل إلى النثر الأدبي وليس إلى الصحافة. بالمناسبة إن الكتب الأخرى السابقة لهذه المؤلفة ("ليس للحرب وجه أنثويّ" و"آخر الشهود") ينسبها الباحثون إلى الأدب الوثائقي.

7. وضعت في الأدب المعاصر للمؤلفة حدود معينة للأخلاقيات، إذا ما جرى سرد أقوال البطل، وشهادته حول الأحداث، التي لم تحظ بعد باعتراف

المجتمع، يمكن أن تعطي نتائج سلبية معاكسة ليس بالنسبة إلى المؤلف فقط بل وإلى البطل أيضاً. وفي هذا الحال يحق له طبعاً أن يغيِّر أسماء وألقاب الأبطال. وحتى عندما لا يهدِّد البطل أي شيء وتكون الأوضاع السياسية في صالح الكتاب غالباً ما يستخدم المؤلفون هذا الأسلوب. ففي كتاب "قصة إنسان حقيقي" استبدل الكاتب بوريس بوليفوي اسم البطل الرئيس ميريسييف بتغيير حرف واحد فقط، وفور ذلك تولد تأثير الإبداع الأدبي: فقد فهم القارئ أن المقصود بالأمر شخص معيَّن، ويمثل ظاهرة نموذجية في المجتمع السوفيتي. وهناك أمثلة كثيرة في تاريخ الأدب حول تغيير الأسماء والألقاب بشكل مقصود.

8. ما زالت تجري، ويا للأسف، في العالم محاكمات مماثلة لتلك التي جرت للكاتبة س. أليكسييفيتش مؤلفة "فتيان الزنك". فقد تعرض إلى الملاحقة القضائية في بريطانيا بعد الحرب الكاتب ج. اورويل صاحب كتاب «1948» الذي وُجِّهت إليه تهمة الافتراء على نظام الدولة. واليوم يعرف أن موضوع هذا الكتاب كان الشمولية بالصيغة التي انبثقت في العشرينيات. وفي هذه الأيام صدر الحكم في إيران بإعدام سلمان رشدي بسبب كتابه الذي قيل إنه يُسيء إلى الإسلام. ووُجِّه اللوم منذ فترة وجيزة إلى الكاتب ف. بيكوف بتهمة الافتراء على الجيش السوفيتي. ونشرت الصحف رسائل كثيرة من محاربين قدامى من دعاة الوطنية كانت بمثابة حكم اجتماعي صارم على الكاتب الذي تجرَّأ لأول مرة للحديث بصوت عال عن الماضي. وللأسف فإن التاريخ يتكرر. ومجتمعنا الذي أعلن عن نيته في بناء دولة القانون ما زال يتعلم ألف باء حقوق الإنسان الأساسية، ويتطاول في غالب الأحيان على روح القانون، متناسياً الجانب الأخلاقي لكل قضية في المحكمة. يجب ألا يستبدل الحق في الدفاع عن كرامة الشخص الذي زعم أن أليكسييفيتش قد انتهكته بنشرها مقاطع من الكتاب، بالحق في قول شيء إلى مؤلفة الكتاب اليوم، وبقول شيء معاكس غداً طبقاً لتغير اتجاهات التفكير أو التقلبات السياسية. ويطرح السؤال. متى كان "بطل" الكتاب صادقاً: عندما أعطى موافقته على

التحدث مع أليكسييفيتش عن ذكرياته حول الحرب في أفغانستان، أم عندما قرَّر تحت ضغوط رفاق السلاح الدفاع عن المصالح الجماعية لفئة معينة من الناس؟ وفي هذه الحالة هل يوجد حق أخلاقي في ملاحقة الكاتبة قضائياً، وهي الكاتبة التي جرى الوثوق بها سابقاً وعرف الأبطال أن اعترافاتهم ستنشر من قبلها؟ إن الوقائع التي رواها صاحب الدعوى للمؤلفة أو نشرت في الجريدة لا تبدو منفردة أو عابرة، إذ تؤكدها الوقائع المماثلة الأخرى في الكتاب، والتي عرفتها المؤلفة من شهود تلك الأحداث الآخرين. ألا يعطي ذلك المسوغات للاعتقاد بأن "البطل" كان صادقاً في اللحظة التي سجل فيها حديثه الشفهي وليس عندما تراجع عن أقواله؟ وثمة جانب مهم آخر. إذا لم يوجد شهود لحديث المؤلفة مع "البطل" ولا تتوفر أدلة أخرى على مصداقية هذا الجانب أو ذاك، تنبثق ضرورة إعادة النظر في جميع الحقائق المماثلة التي توردها المؤلفة في الكتاب، ويمكن القيام بذلك في ما يشبه "محاكمات نورنبرغ " التي شارك فيها عشرات وآلاف شهود الحرب في أفغانستان. وإلا فإنه يوجد خطر الضياع في متاهات محاكمات لا نهاية لها، حيث يجب إثبات كل كلمة قالها أبطال الكتاب، وهذا غير معقول. ولهذا فإن طلب مركز بين من معهد الأدب بأخذ رأي خبراء الأدب المستقلين فيما نشرته «كمسمولسكايا» من مقاطع الكتاب الوثائقي للكاتبة س. ألكسييفتش "فتيان الزنك" هو الوسيلة الممكنة الوحيدة لحل الخلاف...

مدير معهد يانكا كوبالا
التابع لأكاديمية علوم بيلاروس،
العضو المراسل في أكاديمية علوم بيلاروس
ا.ف. كوفالينكو
الباحث العلمي الأقدم بمعهد الأدب
الدكتورة في علوم اللغة
م. ا. تيتشينا
27 يناير 1994

بعد المحاكمة

تلي قرار المحكمة...

يصعب عليَّ الكتابة عنا، نحن الحاضرين في صالة المحكمة. لقد تساءلت سفيتلانا ألكسييفتش في كتابها الأخير "المسحورون بالموت" قائلة: «من نحن؟ نحن أناس الحرب؟ نحن إما قاتلنا او استعددنا للحرب. ولم نعش أبداً بشكل آخر».

نحن حاربنا... هذه العبارة قالتها -وراء ظهر الكاتبة- بهمس نسوة أردن ألا يسمعهن القاضي ولكن خصوصاً لكي تسمعها سفيتلانا أليكسييفيتش، وكن يتبارين في إهانتها. أمَّهات! إنها تحرشات بشكل يجعلني لا أستطيع تكرارها. في فترة الاستراحة اقتربت اي. غالوفنيوفا من الأب فاسيلي رادوميسلوفسكي الذي جاء للدفاع عن الكاتبة: «ألا تخجل يا أبونا؟ هل اشتروك بنقود؟!». وترددت في الصالة صيحات الجمهور: «عتمة! شيطان!»، وامتدت الأيدي لانتزاع الصليب من عنقه. وتساءل القسيس باندهاش: «أنتم - لي؟ أنا الذي قرأت الصلوات على أبنائكم في الليالي، لأنكم ربما كنتم لن تحصلوا على مبلغ المساعدة الموعودة بثلاثمة روبل». «لماذا جئت؟ للدفاع عن الشيطان؟». «صلوا من أجل أنفسكم وأولادكم. لا توجد مغفرة، ولا طمأنينة في النفس». «نحن غير مذنبين... لم نكن نعرف شيئاً...». «كنتم بلا بصر. وعندما فتحتم عيونكم رأيتم فقط جثمان الابن. اطلبوا التوبة..». «ماذا يعنينا أمر أطفال أفغانستان؟ نحن فقدنا أولادنا...».

بالمناسبة لم يقف صامتاً الجانب الآخر أيضاً.

صاح أحد الرجال مخاطبا النساء: «لقد قَتل أولادُكم الأبرياءَ في أفغانستان! إنهم مجرمون!» بينما ردد آخر: «أنتم تخونون أولادكم مرة أخرى...».

وأنت؟ ونحن؟ ألم ننفِّذ الأمر؟ الأمر – صه؟ ألم نرفع في الاجتماعات أيدينا موافقين؟ أنا أسأل... تجب محاكمتنا جميعاً. هناك محاكمة أخرى تحدث عنها في المحكمة ي. نوفيكوف رئيس رابطة حقوق الإنسان البيلاروسية: عندما قال نحن جميعاً – نحن الصامتون، أمَّهات جنودنا القتلى، قدامى المقاتلين في هذه الحرب وأمهات الأفغان القتلى – هذا جانب آخر، نحن نجلس معاً وننظر إلى عيون بعضنا البعض..

ا. الكسندروفتش

صحيفة «فيميدا»، 27 ديسمبر 1993

اختتمت المحاكمة المدنية دفاعاً عن الشرف والكرامة التي قام بدور المدعي فيها ثنائي غالوفنيوفا – كيتسمور ضد الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش. لقد جذبت الجلسة الأخيرة للمحاكمة عدداً كبيراً من الصحفيين، ونشر في بعض الصحف خبر حول قرار المحكمة: رفض طلب غالفنيوفا وأجيب طلب كيتسمور جزئياً. إنني لن أورد النص الحرفي لقرار المحكمة وأقول فقط إنه يتسم برأيي بطابع توافقي جداً. لكن هل أدى هذا إلى تصالح الجانبين فعلاً؟

إن إينا سيرغييفنا والدة الملازم أوَّل غالوفنيوف الذي قُتل في أفغانستان ما زالت "تعلن الحرب" – إنها تعتزم استئناف القضية ومواصلة محاكمة الكاتبة أكثر فأكثر. فما هي دوافع هذه المرأة؟ ما هي دوافع هذه الأم؟ هل هي المصيبة الأليمة التي لا عزاء لها؟ لا عزاء لها من حيث إننا كلما تعمقنا أكثر في تاريخ الحرب الأفغانية، يدرك المجتمع بجلاء أكثر أنها كانت مغامرة، ويبدو عبثاً قتلُ أبنائنا في أرض الغير... لهذا لا تتقبل إينا سرغييفنا كتاب "فتيان الزنك". ولهذا تعتبره إهانة لها: بالنسبة إلى الأم يعتبر عبئاً ثقيلاً جداً – الحقيقة العارية حول الحرب الأفغانية.

وتاراس كيتسمور – السائق "الأفغاني" السابق – صاحب طلب الدعوى الآخر في هذه القضية المدنية. وقد استجابت المحكمة لدعواه جزئياً. ثمة مشهدان سيكولوجيان ودراماتيكيان جداً في المونولوج المنشور تحت اسمه، وبرأيي أن القول إن الحرب لن تترك أحداً حياً، حتى إذا بقيت الأيدي والسيقان سليمة، تعتبر حسب طلب كيتسمور أمراً "يهين الشرف والكرامة". بالمناسبة أنا حتى مستعدة لتفهم تاراس. أتذكرون المثل القائل: "يجب أن تخاف انطلاقات الروح الأولى، فقد تكون صادقة"؟. بهذه الصورة جاء

مونولوجه في "فتيان الزنك" - وهذا حسب رأيي أوّل انطلاقة صادقة للروح بعد أفغانستان. لقد انصرمت أربعة أعوام. وتغير تاراس. وكذلك العالم حوله. وبودّه، كما يبدو، أن تتغيّر أمور كثيرة منها الذاكرة حول الماضي، إذا لم يتسنَّ شطب هذه الذاكرة كلياً من الروح.. لكن "فتيان الزنك" كُتب بالقلم، ولا يمكن شطبه بطبر.

لقد غادرت سفيتلانا ألكسييفتش جلسة المحكمة قبل اختتامها، بعد أن رفض القاضي مجدَّداً طلب الكاتبة بشأن إجراء الاختبار الأدبي. وسألت ألكسييفتش عن حق: كيف يمكن الحكم على رواية وثائقية إذا لم تعرف أصول الصنف الأدبي، وأوليات العمل الأدبي ناهيك عن عدم الرغبة في معرفة أصحاب المهنة؟ لكن المحكمة أصرت على موقفها. وبعد أن رفض مرة ثانية طلب إجراء الاختبار غادرت سفيتلانا ألكسييفتش صالة الجلسة. وقالت:

- أنا كإنسان... طلبت المغفرة لكوني سببت الألم، لهذا العالم غير الكامل، الذي حتى لا يمكن فيه السير في الشارع من دون حدوث صدام مع شخص آخر. ولكني بصفتي كاتبة... لا أستطيع، ولا يحق لي طلب المغفرة عن كتابي عن الحقيقة!

إن المحاكمة المدنية لسفتيلانا أليكسييفيتش وكتابها "فتيان الزنك" هو هزيمتنا الثانية في الحرب "الأفغانية"...

يلينا مولوتشكو
«نارودنايا غازيتا»
23 ديسمبر 1993

في ديسمبر 1993 اختتمت في نهاية المطاف المحاكمة المديدة لاتهام الكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش وكتابها "فتيان الزنك". وقرار المحكمة: يجب على الكاتبة أن تعتذر أمام "الأفغاني" تاراس كيتسمور الذي اعتبر أن شرفه وكرامته قد أُهينا "جزئياً". وألزمت المحكمة البيلروسية "كمسمولسكايا برافدا" بأن تنشر تكذيباً، وكذلك بأن تقدِّم الكاتبة وهيئة تحرير الصحيفة الاعتذار له.

بينما رفضت الدعوى الثانية التي أقامتها إينا سيرغييفنا والدة الضابط الذي قُتل في أفغانستان، ولو أن المحكمة قررت "أن جزءاً من المعطيات المنسوبة إلى غالوفنيوفا لا تطابق الواقع". ورفضت المحكمة دعوة غالوفنيوفا حيث جرى الاستماع إلى تسجيل صوتي لها قبل عدة أعوام في أحد الاجتماعات أيدت فيه كلياً ما جاء في كتاب أليكسييفيتش.

لم تتوفَّر لدى سفيتلانا أليكسييفيتش في هذه المحاكمة، وفي هذه المرافعات القضائية وفي هذه المنظومة، الفرص للدفاع عن كرامتها البشرية والمهنية...

وقد ارتعب مخرجو هذه المهزلة التراجيدية من الشجب العالمي للمحاكمة السياسية لعمل أدبي ومؤلفته فقالوا بصوت عال: «هذه ليست البتة محاكمة كتاب ولا محاكمة كاتب وإبداعه. إنها فقط قضية مدنية للدفاع عن الشرف والكرامة ضد صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" بسبب ما نشرته في عام 1990».

ووجه يفغيني نوفيكوف رئيس رابطة حقوق الإنسان البيلاروسية وأليس تيمولاتشينكو رئيس الاتحاد البيلاروسي لوسائل الإعلام الحرة السؤال إلى

القاضي جدانوفيتش: «ماذا عن مبدأ أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته؟».

وقال جدانوفيتش إن هذه القرينة "المتهم بريء حتى تثبت إدانته تسري فقط في القضايا الجنائية". فإذا ما اتهمت غالوفنيوفا وكيتسمور الكاتبة أليكسييفيتش بالافتراء سيسرى هذا المبدأ لأن مصطلح "الافتراء" من مصطلحات العقوبات الجنائية، وعندئذ يجب على أصحاب الدعاوى تقديم الأدلة الثبوتية.

في بيلاروس لا تسري هذه القرينة... في حال القضايا المدنية.

وربما ستتحول القضية المدنية بصورة انسيابية إلى قضية جنائية – وقد وعدت غالوفنيوفا بهذا وقالت إن هذا هدفها.

انضمت إلى الجرائد الموالية للشيوعية التي تطارد الكاتبة صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" – ونشرت مقالة – خاتمة في 30 ديسمبر 1990 بتوقيع فكتور بونوماريوف.

يبدو لسفيتلانا أليكسييفيتش أن الجنرالات يقفون وراء ظهر الأمّهات، وخلف ظهورهنَّ توجد حتماً – على أقل تقدير – قبور الأبناء. إنهن في حاجة إلى الدفاع وليس الكاتبة صاحبة الأوسمة والتكريم. وإذا ما جرى هنا إعدام مدني فهو ليس بحق الكاتبة أبداً. وهكذا تعجل الصحيفة في التخلي عن سفيتلانا أليكسييفيتش بعجلة وبديماغوجية.

إن الحقيقة تكلِّف صاحبها غالياً دائماً. والتخلي عن الحقيقة يجلب دوماً المصائب على أصحاب اللامبالاة. لكنني أعتقد أنه لم توجد في التاريخ المعاصر مصيبة عامة وبلا أمل أكبر من تحطيم الطبيعة البشرية ذاتياً من قبل أتباع الشيوعية، حين لا يتبقّى من البشر سوى "ثقوب يتصاعد منها الدخان" حسب تعبير ميخائيل بولغاكوف.

إينا روغاتشي

«روساكايا ميسل»

20-26 يناير 1994

شهد ملايين الناس المغامرة الأفغانية خلال عشر سنوات، وفي نهاية المطاف صار ما يربط بينهم ليس فقط شعور المحبة للوطن السوفيتي، بل وشيء آخر أكثر أهمية. وقُتل بعضهم ونحن نحزن لموتهم، ونأسى لألم الجروح الجسدية والروحية التي لحقت بذويهم وأقاربهم. لكن هيهات أن نبتعد الآن عن إدراك أنهم ليسوا أبطالاً، مع حقهم الذي لا جدال فيه، في أن ينحني الجميع لهم، فهم كانوا فقط ضحايا يستحقون الشفقة. فهل يدرك ذلك "الأفغان" أنفسهم؟ في أغلب الظن إن هذا ما زال فوق طاقة غالبيتهم. ويشبه مصيرهم مصير "أبطال فيتنام" الأمريكيين، الذين أدركوا المغزى الحقيقي لبطولتهم فرموا إلى الرئيس بالميداليات التي حصلوا عليها، أما مقاتلونا فيبدو أنهم فقط يستطيعون الافتخار بالميداليات الأفغانية. ولم يمعن أي أحد منهم الفكر: لماذا أُعطيت لهم في واقع الحال؟ لعل من الخير أن تنفع هذه الميداليات والأوسمة فقط كذريعة للحصول على امتيازات وتسهيلات ما، والتي يصبو إليها جميع مجتمعنا الفقير. لكن طموحات الحاصلين عليها أوسع بكثير. فقد أعلن جهاراً في أحد الاجتماعات الأفغانية في مينسك مؤخراً أنهم يصبون إلى السلطة في بيلاروس. حقاً إن مثل هذا الإعلان حالياً لا يخلو من أساس. إنهم يستغلون الغموض السائد في المجتمع (الأفغان – حرب قذرة، أما المشاركون فيها فهم أبطال أمميون) ويمكن عندئذ بلوغ أي شيء. في هذه الظروف نجد أمّهات الشهداء قد تحوّلن إلى مادة طيّبة يستغلُّها الحمر السابقون والحاليون والقوميون الذين يكتسبون نفساً متجدِّداً ثانياً. لقد جرى استغلال الأمّهات، استُغلَّ غضبهنَّ المشروع، وحزنهنَّ المقدَّس. كما استغلُّوا في وقت سابق الفكر الشيوعي والروح الوطنية لأولادهنَّ الشهداء.

وعموماً، إنه حساب بلا خسارة: فمن يرجم الأم الحزينة بحجر؟ لكن يتراءى وراء الأمّهات الحزينات ببشاعة ذوو الأكتاف العريضة، وعبثاً أن يتظاهر الكاتب في "كمسمولسكايا برافدا" بأنه لا يرى أحداً هناك. "المسألة ليست في الجنرالات الواقفين وراء ظهورهن".

إن الأنفاس الفظيعة للسياسة الإمبراطورية، التي لم تتحقق كلياً في أفغانستان، يجري تحسسها بجلاء أكثر فأكثر في بيلاروس. وما محاكمة سفيتلانا أليكسييفيتش سوى مشهدٍ من مشاهد السلسلة الطويلة من هذه المظاهر المستترة والمكشوفة. إن الحنين إلى الدولة العظمى والبحار الدافئة ينطلق ليس فقط من حزب جيرينوفسكي الذين يوجد عدد كبير من أنصاره في بيلاروس، إنهم يريدون "فرك" مجتمع ما بعد الشمولية وتحريكه، و"تلاحمه" ورفده بدم جديد - تلكم هي الوسيلة لبلوغ الهدف ذاته - المثل الأعلى البائس ليوم أمس...

فاسيل بيكوف

«ليتراتورنايا غازيتا»

26 يناير 1994

إن هذا الصراع العنيف الذي رافقته المرافعات القضائية ليس من أجل معرفة الحقيقة عن الحرب. لقد دار الصراع من أجل النفس البشرية الحية، وحقِّها في الوجود في عالمنا البارد وغير المريح. والذي يمكن أن يصبح فقط حاجزاً في طريق الحرب. ستتواصل الحرب ما دامت تفور في عقولنا الحائرة. إنها نتيجة محتومة فقط لما تراكم في النفوس من حقد وشر...

من هذه الناحية تغدو كلمة الضابط الشهيد الملازم أوَّل يوري غالوفنيف في يومياته. ذات رمز وتنبؤ: «أنا سأعود طبعاً، فقد كنت أعود دائماً...».

بيوتر تكاتشينكو

«فو سلافو روديني»

15-22 مارس 1994

سفيتلانا أليكسييفيتش

كاتبة وصحفية من بلاروس.

صدر لها عدة أعمال توثيقية أغلبها عن الحروب السوفيتية .أثارت كتاباتها جدلاً كبيراً في بلدان الاتحاد السوفيتي وتعرضت لعدة محاكمات قانونية بسببها.

حازت على عدة جوائز دولية أهمها جائزة السلام من معرض فرانكفورت 2013. وجائزة نوبل للآداب 2015، التي نالتها على «أعمالها المتعددة الأصوات التي تمثّل معلماً للمعاناة والشجاعة في زماننا.وهي تعمّق بأسلوبها الاستثنائي – الذي يقوم على تداخل دقيق بين صوت البشر – الفهم لعصر كامل».

عبدالله حبه

كاتب ومترجم عراقي مقيم في موسكو.

درس في معهد الفنون الجميلة/ قسم التمثيل، وبعد تخرجه وحصوله على الشهادة الجامعية سافر إلى موسكو عام 1960 لدراسة المسرح الروسي في معهد الفن المسرحي – (غيتيس) الشهير.

صدر له أكثر من 50 كتاباً مترجماً عن اللغة الروسية إلى اللغة العربية لأعلام الأدب الروسي.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

أنشأت سفيتلانا أليكسييفيتش نوعاً جديداً من الأدب قائماً على كتابة رواية من الأصوات المتعددة لشهود مرحلة ما. حازت على عشرات الجوائز الدولية؛ أهمها جائزة السلام من معرض فرانكفورت للكتاب 2013، وجائزة نوبل للآداب 2015، التي نالتها عن مجمل أعمالها المتعددة الأصوات التي تمثّل معلماً للمعاناة والشجاعة في زماننا. وهي تعمق بأسلوبها الاستثنائي - الذي يقوم على تداخل دقيق بين أصوات البشر - فهم عصر كامل.

في كتابها فتيان الزنك، وثقت سفيتلانا التدخل السوفيتي في أفغانستان ما بين عامَي 1979 و 1985. جمعت فيه مقابلات مع جنود عائدين من الحرب، أو مع أمهات وزوجات جنود قُتلوا هناك، وأُعيدت جثثهم في توابيت مصنوعة من الزنك.

كانت نتيجة الحرب آلاف القتلى والمعوَّقين والمفقودين، مما دفع سفيتلانا إلى إثارة أسئلة حسَّاسة عن الحرب؛ من نحن؟ لماذا فعلنا ذلك؟ ولماذا حصل لنا ذلك؟ والأهم، لماذا صدَّقنا ذلك كله؟
تعرَّضت سفيتلانا للمحاكمة بسبب نشرها هذا الكتاب، وقد أوردنا جزءاً من الوثائق المتعلِّقة بالمحاكمة ضمن الترجمة العربية.

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-540-09-8
9 789933 540098